الأربعون الجياد

لأهل التوحيد والجهاد

لأبي قتادة الفلسطيني

حققه وخرج أحاديثه وعليق عليه

الباحث في القرآن والسنة

علي بن نايف الشحود

الطبعة الأولى

١٤٣٦ هـ ٢٠١٥ م

حقوق الطبع لكل مسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه، ومن والاه إلى يوم الدين.

وبعد:

فهذه أربعون حديثا وحديثا موجهة لأهل التوحيد والجهاد ، للشيخ المجاهد أبي قتادة الفلسطيني حفظه الله ، كتبها في أحد السجون البريطانية عام١٤٢٦ هـ= ٢٠٠٥ م ، وسماها " **الأربعون الجياد لأهل التوحيد والجهاد**"

وقد اختارها من صحيح الإمام البخاري، وقام بشرحها شرحاً بعيد المدى، وخص بها الدعاة والمجاهدين في سبيل الله ، وقد ملأها حكماً نافعة من تجاربه وتجارب غيره ، وقد ردَّ فيها أيضاً على فقهاء الهزيمة ، وفقهاء الطواغيت ....

ولا يستغني عنها داع إلى الله ولا مجاهد في سبيل الله ، فجزاه الله عنا خير الجزاء

وأما الملاحظات عليها فهي ما يلي :

١- لم يقم بتخريج أي حديث منها ....

٢- الآيات التي ساقها والأحاديث التي استدل بها لا يوجد منها شيء مشكلاً ....

٣- هناك أخطاء مطبعية عديدة ...

٤- هناك إشارات كثيرة لآيات وأحاديث لم يذكرها صراحة ...

٥- لا يوجد أي شرح لغريب الحديث ....

ولعل السبب في ذلك كونه كان في السجن و لم يتح له المصادر التي يريد ونحو ذلك ....

وأما عملي فيها فهو كما يلي :

١- تخريج لأحاديث من مصادرها الرئيسة مباشرة

٢- تخريج الآيات والأحاديث التي ذكرت في الشرح من مصادرها الرئيسة والحكم عليها بما يناسبها جرحا وتعديلاً.

٣- ذكرها مشكلة..... تشكيلاً كاملاً

٤- شرح الآيات التي تحتاج لوضيح حسب المقام

٥- شرح غريب الحديث ...

٦- ذكر الآيات والأحاديث التي أشار إليها في الشرح إما داخل الكتاب أو في الهامش.

٧- تصحيح الأخطاء المطبعية ...

٨- التعليق على بعض الموضوعات الهامة في الهامش .

٩- ذكرت ما يرشد إليه الحديث ، حسب مقتضى الحال ، في نهاية كل شرح

وذلك لكي هذا الكتاب مرجعا خاصا لطلاب العلم والمجاهدين في سبيل الله يبين لهم معالم الطريق

أسال الله تعالى أن ينفع به مؤلفه ومحققه وقارئه وناشره في الدارين .

قال تعالى : {وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ} [الحج: ٧٨]

الباحث في القرآن والسنة

علي بن نايف الشحود

شمال حمص المحررة في ١٤ ربيع الآخر ١٤٣٦ هـ = الموافق ل ٣/٢/ ٢٠١٥ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـــــــــداء إلى أهل التوحيد:

علماء ومجاهدين ودعاة وعبّـــاد الذيـــن.. { صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَـــى نَحْبَـــهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا } [الأحزاب: ٢٣]

أبو قتادة

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة – خطبة الكتاب

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبيه محمد الأمين وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين، أما بعد:

في أيام ربانية عشتها بفضله ورحمته، ومنذ اللحظة الأولى فيها وأنا خائف أن تهرب مني، فكنت أجاهد نفسي وأنا أحاول أن ألتقط وأجمع وأنظر وأراجع، منذ تلك اللحظة التي أغلق فيها السجان باب الغرفة الصغيرة الثقيلَ عليّ وحيداً وأنا في هم رجح على كل الهموم: كيف أقتنص لحظات هذا الزمن؟ إذ همّي ألا يسير الزمن مسرعاً، فالربح كثير وفير، وكان من نعم الله تعالى على هذا (الإنسان) أن حبّب إليه صحيح الإمام البخاري، حباً صنعه علم المحققين والدارسين أنه أعظم كتاب في الأرض بعد كتاب ربنا سبحانه، وحباً تكامل تباعاً مع كثرة الرد والمراجعة، ومع وجود غيره من الكتب الستة بين يدي إلا أنني طوال عامين وزيادة لم أستطع قط و لم أنجح في أي محاولة أن أتحول إلى غيره من كتب السنة، أذهب إليه مرة من أجل حكم شرعي، ومرات من أجل التقاط الحِكَم والعظات، وفي أكثر المرات يكون الذهاب من أجل أن أقرأ قصة (الإنسان)، نعم فإني أعترف أن أكثر ذهابي لهذا الكتاب في تلك الفترة من أجل قراءة الرواية الحقيقية للبشرية، وللحقيقة أن أكثر ما يبهرني ويبهجني في كتاب الله تعالى، أني مذكور فيه {لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ } [الأنبياء: ١٠]، فأنا أعيش اليوم في زمن الصور والخيالات، فالبهارج تعترض طريقي في كل مرحلة وزاوية، والأصباغ منثورة بمكر حرفي على كل الصور، والمعروض كله خادع، ولكل صورة سيرة كتبها دهاقنتها وعبّادها ورجالها، هذا صراع زماني الذي أدعي أنه خِدَاع لم يكن بهذه القدرة على مر التاريخ، كتاب الله يسميها فتناً، لكن قضيتي قضية الوعي الحقيقي لهذا العقل المتنازع عليه، وقضية الدين الذي قد سُرِق وتنازعه اللصوص وقاطِعو الطريق.

قراءة (الإنسان) وروايته وتاريخه وحقيقته في كتاب الله والسنة النبوية هي التي تحقق العبرة، أو أزعم أنها حققت العبرة لي، فقد عانيت مشكلة القراءة الغيبية للكتاب والسنة، وحين أردت إنزال هذه الحوادث على الأرض اكتشفت حقيقتها وأنها سننية فيها أشخاص أرضيون وبشر حقيقيون، فهل جرّبتَ أخي مرة وأنت تتهيأ لفتح صحيح البخاري أن ترتب عقلك ووعيك أنك ستقرأ كتاب حكمة، أو أن تقرأ رواية أو سيرة، أو أن تقلبه كما تقلب ديوان شعر تبحث فيه عن جمال التصوير وروعة البيان؟! إن فعلت ذلك ستعرف ما أعني وهو أن صحيح البخاري –مثلاً– هو كتاب (الإنسان)؛ (الإنسان) بسيرته الأرضية، وسننها الواقعية، حينها سترى نفسَك وأشواقك وحبك وبغضك وقوتك وضعفك وفرحك وألمك ونجاحك وإخفاقك، وحينها ستَعبُر بكل قيم الحق إليك فتحقق العبرة والعظة.

أصدقك أخي -شهد الله- أني كنت ألغي من عقلي ونفسي حين أفتح صحيح البخاري أني سأقرأ كلام نبي يعلم ويحكم ويعظ، أو أني سأقرأ سيرة نبي يوحى إليه، بل كنت أهيّئ نفسي كثيراً لأعرف هذا الإنسان وعقله وقلبه، فأنا أريد أن أكتشف من هو من كلامه، لأن البيان هو إبانة اللسان عن الإنسان، فأنا أريد أن أعرف من هو، ومع كل قول وكل حدث كنت أرتعش ارتعاشة الإعجاب والتقدير والتعظيم، وأردد: ياله من قائد إمام، فالسعيد من سار وراءه وضل من عصاه.

من حقي أن أقول هنا -لا لأمدح نفساً يكون المدح سبباً لذمها، ولكن لن أذمها لأستبطن المدح مكراً- أقول: لقد قرأت شعراً كثيرا، من قديمه وحديثه، وقرأت كلاماً كثيراً، وقرأت سيراً كثيرة، وقرأت كتباً كثيرة، حتى صارت القراءة صفتي، وكانت رحلة القراءة ابتداء من أجل المتعة، فقد جبلت على حب هذه المتعة، ثم تحوّلت القراءة إلى محاولة معرفة الإنسان الذي أقرأه لأعرف في النهاية من أكون وقبل ذلك من يكون، وقد كنت أرى حجباً كثيرة غطت كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وكتب أسلافنا، ليس حجاب جهلنا فقط، لكن تلك الحجب النفسية الكثيفة، ذلك أننا لا نقرأ هذه الكتب بحثاً عن أنفسنا، أي بحثاً عن (الإنسان)، بل نقرؤها وكأنها لواقع غير الواقع الأرضي الذي نعيش فيه، لقد رأيت الكثير في زماني مما قرأته هناك؛ في الكتاب والسنة، رأيت أحداثاً ورجالاً لا تختلف قط إلا في الأسماء، وكنت أعجب لمن عظّم هذين المصدرين كيف لا يمدح من مدحه الكتاب ولا يذم من ذمه الكتاب، مع أنه لا فرق بينهما، وراعتني هذه المفارقة المؤلمة كثيراً، والحقيقة أن السبب -وأقول ذلك مطمئناً- أن الأسماء هي الحواجز، وأن (العناوين) قد ألهت الناس عن الحقائق، فقلت: لأقرأنّ بلا حواجز ولا عناوين، سأقرأ (الإنسان) بواقعه وسننه الأرضية في الكتاب والسنة لعلّي أبلغ إلى قراءات الأوائل التي صنعت الهداية، فهم جاؤوا إليها ليسمعوا ما يقول ويعرفوه من قوله هو، فانتهت قراءتهم إلى أعظم إيمان وأجل تسبيح: {رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ } [آل عمران: ١٩١]. وكانت معضلة أخرى هي معضلة العبرة والعظة، فأهل الإسلام كلهم يرددون: أن لا سعادة إلا بالعودة إلى الكتاب والسنة، أي أنهما مصدر صلاح (الإنسان) وسيرته ووجوده في زماننا هذا، فكيف يتم العبور إذا كان (الإنسان) في زماننا ليس هو (الإنسان) المذكور في كتاب ربنا وسنة نبيه ﷺ؟!، وأما معضلتي الكبرى فهي اكتشاف خداع الزخارف والصور الزائفة الملونة بكل الأصباغ، فهل ستسقط هذه العناوين في زمن صار دور الكتاب والسنة عناوين فقط لكل المتعارضات، وشعارات تُتّخذ على وقائع مدعاة؟! نحن في زمن لم يبق لنا من كل هذا الإرث الإلهي إلا (البيان) وجئنا إليه من غير رجاله وهو معلق في الصحف فقط، بياناً مجرداً، ويا لفتنة عصرنا هذا، حتى البيان صار غريباً علينا فنحن معه مجرد عجم. في هذا (البيان) بقيت الرواية، القصص، الأحداث، بقيت الصور الحقيقية لسيرة (الإنسان)، صورة الإنسان وسيرته حين يهتدي: ماذا يفعل وماذا يقول وماذا يحس وماذا يشعر، وسيرة الإنسَان حين يضل: ماذا يفعل وماذا يقول وكيف يحكم؟

لا أريد أن أقول صائحاً: "وجدتها"، لكن يكفي أني وجدت نفسي ووجدت راحتي وابتعدت عن (القطيع)، فلم تعد الصور الخادعة تفتنني، وسقطت قيمة العناوين عندي وكذا الشعارات، فلقد صرت أقرأ كل خبر بعيداً عن الأسماء ومن غير عناوين وشعارات، أي أنني بحق أزعم أنني حققت الخطوة الأولى لتحقيق العبرة. في هذه الرحلة (الإنسان) في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ازددت إيماناً أن القرآن حق، ولقد ازددت إيماناً أن ما في صحيح البخاري ــ وهو ما يعنيني هنا ــ لن يقوله إلا إنسان كامل وليس هو على الغيب بضنين، ولقد عرفت حق المعرفة معنى كون الكتاب والسنة فيهما صلاح الإنسان وسعادته وهدايته، وحين بحثت عن صورة (الإنسان) المهتدي كما وجدتها في الكتاب والسنة في واقعي فإني أقسم أني وجدتها في (**أهل التوحيد والجهاد**)، فلقد مررت على منازل كثيرة، وترددت على موائد فكرية عدة، وطفت على المنابر أفتش وأبحث وأراقب، فأنغمس غير هيّاب بما سألاقي، وغير متعصب لما أحمل، ولكن ها أنا أقول -وأنا ذاكر لقول ربي { سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ } [الزخرف: ١٩] - أن أهل التوحيد والجهاد هم الذين يعبرون بحوادث وفعال وأقوال الإنسان المهتدي في كتاب ربنا وسنة رسوله ﷺ إلى زماننا هذا، وإنه من نعمة الله عليّ أني أعيش في زمن الصور الكثيرة الخادعة ومع ذلك فإن عيني لم يملأها إلا هؤلاء (الفتيان) في المشرق والمغرب، ومن حقي أن أقول: إن هذا الإمتلاء ليس حماساً عاطفياً مع شاب يجود بنفسه لله تعالى، لكن بوقوف حذر وتأمل جديّ، ومراجعة ودراسة لكل التهم التي تقال فيهم، ويُقذفون بها من جميع الأطراف سواء كان من مؤمن يخالفهم أو عدوّ يقاتلهم.

نعم -والله يشهد على ما أقول- أني حين تجردت من حجب الأسماء وتخليت عن هيبة الشعارات وحررت نفسي من سطوة العناوين رأيت في زماني من يفعل فعل إبراهيم عليه السلام وهو يكسر الأصنام، ورأيت من يفعل فعل البراء بن مالك وهو ينغمس في حديقة مسيلمة الكذاب المرتد، ورأيت من يبيع ملكه طمعاً في رضا الرحمن، ورأيت المهاجر في ذات الله والمأسور في سبيل كلمة الحق، وكلهم في هذا الزمن لا يجمعهم إلا اسم جامع لأوصافهم: أهل التوحيد والجهاد.

من أجل هؤلاء الفتيان أردت أن أجمل هذه الكلمات لعلي أعبُر بها إليهم فيرحمني الله -إذ القوم لا يشقى بهم جليسهم-[1] وذلك لأنهم يرحلون هم بالفعال، ولكنهم يقبلون -لسعة رحمة الله وسعة قلوبهم- أن يسير معهم من لا يحمل إلا الحب والكلمات من أمثالي.

---

[1] - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :" إِنَّ لِلَّهِ مَلاَئِكَةً يَطُوفُونَ فِي الطُّرُقِ يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَنَادَوْا: هَلُمُّوا إِلَى حَاجَتِكُمْ " قَالَ: «فَيَحُفُّونَهُمْ بِأَجْنِحَتِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا» قَالَ:" فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ، وَهُوَ أَعْلَمُ مِنْهُمْ، مَا يَقُولُ عِبَادِي؟ قَالُوا: يَقُولُونَ: يُسَبِّحُونَكَ وَيُكَبِّرُونَكَ وَيَحْمَدُونَكَ وَيُمَجِّدُونَكَ " قَالَ:" فَيَقُولُ: هَلْ رَأَوْنِي؟ " قَالَ:" فَيَقُولُونَ: لاَ وَاللَّهِ مَا رَأَوْكَ؟ " قَالَ:" فَيَقُولُ: وَكَيْفَ لَوْ رَأَوْنِي؟ " قَالَ:" يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْكَ كَانُوا أَشَدَّ لَكَ عِبَادَةً، وَأَشَدَّ لَكَ تَمْجِيدًا وَتَحْمِيدًا، وَأَكْثَرَ لَكَ تَسْبِيحًا " قَالَ:" يَقُولُ: فَمَا يَسْأَلُونِي؟ " قَالَ: «يَسْأَلُونَكَ الجَنَّةَ» قَالَ:" يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟ " قَالَ:" يَقُولُونَ: لاَ وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا " قَالَ:" يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا؟ " قَالَ:" يَقُولُونَ: لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ عَلَيْهَا حِرْصًا، وَأَشَدَّ لَهَا طَلَبًا، وَأَعْظَمَ فِيهَا رَغْبَةً، قَالَ:

فاللهم لا تعذب قلباً أحب كتابك وأحب كلام رسولك وأحب الفارين إليك المهاجرين في سبيلك – آمين.

فكانت هذه الباقة العطرة، الممتعة الجميلة، هذه الدرر النبوية الشريفة، جمعتها كلها من سمط اللآلئ الموسوم من قِبَل الإمام محمد بن إسماعيل البخاري: "الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه" عشت معها أجمل الأوقات، وكانت لها بركات المشاعر التي تغزو القلب فتثير الدمع في العين والقشعريرة في الجلد، وقد عرضت لي كما عرض الكثير غيرها لكن كان لا بد من الاختيار –وما أصعب الاختيار بين الأماثل– فكانت على قيد السلف في بعض تصانيفهم أربعون حديثاً لأمر معروف ومشهور، وإن شئت قلت: أربعون جوهرة، ثم جئت إليها وبطيش رجل مغرور حاولت أن أفك من كل –جامعة– كلمة واحدة لأقول للناس انظروا، فلم يزد هذا (الإنسان) إلا أنه ادعى، ولكن يكفيه أن يعترف أنه حاول أن يفك كلمة من (جوامع الكلم)، وأن يصف درة من كل جوهرة، وأن يشير إلى وجه واحد من هذه الدرة التي لا ينتهي تقلب وجوهها العظيمة، ثم إن في القلب عذر: هذا جهد المقل، والقلة مع الحب ثقيلة، ومع العذر رجاء أن أحشر مع أهل الحديث علماً ومع أهل التوحيد والجهاد فعالاً، وإني لا أملك مع هذا الطمع إلا أني أحب: (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم)

وكتبه

أبو قتادة

(سجن بلمارش البريطاني مساء يوم الاثنين السادس والعشرين من شهر الله المحرم لسنة ١٤٢٦ لهجرة المصطفى ﷺ، الموافق ٧/ آذار، مارس/٢٠٠٥).

فَمِمَّ يَتَعَوَّذُونَ؟ " قَالَ:" يَقُولُونَ: مِنَ النَّارِ " قَالَ:" يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟ " قَالَ:" يَقُولُونَ: لاَ وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا " قَالَ:" يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا؟ " قَالَ:" يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ مِنْهَا فِرَارًا، وَأَشَدَّ لَهَا مَخَافَةً " قَالَ:" فَيَقُولُ: فَأُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ " قَالَ:" يَقُولُ مَلَكٌ مِنَ المَلاَئِكَةِ: فِيهِمْ فُلاَنٌ لَيْسَ مِنْهُمْ، إِنَّمَا جَاءَ لِحَاجَةٍ. قَالَ: هُمُ الجُلَسَاءُ لاَ يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ " الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ٦٥٠)٦٤٠٨ – ١٨٠٥ –[ش أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة باب فضل مجالس الذكر رقم ٢٦٨٩ (يطوفون) يمشون ويدورون حول الناس. (يلتمسون) يطلبون. (فيحفونهم) يطوقونهم ويحيطون بهم بأجنحتهم. (فيسألهم) الحكمة من السؤال إظهار فضل بني آدم وأن فيهم المسبحين والمقدسين كالملائكة على ما هم عليه من الجبلة الشهوانية والفطرة الحيوانية. (يمجدونك) يعظمونك. (لحاجة) دنيوية (لا يشقى بهم جليسهم) ينتفي الشقاء عمن جالسهم]

الحديث الأول : الأمر بقتال الناس حتى يسلموا

عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَمَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي نَفْسَهُ وَمَالَهُ، إِلَّا بِحَقِّهِ وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ "[٢].

هذا الحديث أصل عظيم لهذا الباب –التوحيد والجهاد– فإنه يبين غاية قتال الناس ولِمَ تُشرع السيوف، وهو كما سيأتي حجة في أبواب من العلم اختلف الناس فيها قديماً وأحدث بعضها في زماننا هذا مواطأه لمذاهب وأديان باطلة، ومما يطمئن نفوس المسلمين المتمسكين بغرز الهداة الأولين أنّ الحديث النبويّ الشريف بتفصيلاته وبيانه الشافي يقطع البدع الحادثة في كل زمان، وإن زماننا ليعج بالبدع التصويرية الفكرية ذلك لأن تربتها الزمانية خصبة للتوليد، ألا وهي بيئة الهزيمة التي تعيشها الأمة المتناثرة بلا راعٍ ولا سياج وبيضة، وانتشار الرويبضات وتصدرهم المنابر التعليمية والإرشادية.

قوله: (**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله**) فيه:

أن هذا القتال ليس قتالا فطرياً، فإن الأمور الفطرية لا يؤمر بها ابتداء كما هو مقرر في علم الأصول، لأن النفوس تترع إليها، كالأكل والشرب والنوم، وما ورد من الآيات والأحاديث الآمرة بهذه الأمور وأمثالها من أعمال السجية الإنسانية لم تكن ابتداء في بعضها إنما لبيان إتيانها على وجهها الصحيح، كقوله تعالى: {يَاأَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ} [البقرة: ١٦٨] وكقوله: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١٧٢) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٧٣)} [البقرة: ١٧٢، ١٧٣] وكقوله: {وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ } [الأعراف: ٣١] فهذه الأوامر لبيان أحكام شرعية تتعلق بالطعام والشراب وليست أمراً بها، إذ أن الإنسان ومنه المؤمنون يعلمونها بفطرة وسجية خالصة، وأما النوع الثاني كقوله سبحانه: { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } [البقرة: ١٨٩] فإن فطرة الإنسان إتيان البيوت من أبوابها، أي حضورها من غير تكلف أن يلف حولها ليدخلها من الخلف، ولما كان الأنصار في حج الجاهلية يتكلفون دخول المدينة من

---

[٢] – الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ٣٨٣)٢٩٤٦ – ١٠٧٧ – [ش أخرجه مسلم في الإيمان باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله رقم ٢١ (أقاتل الناس) أي بعد عرض الإسلام عليهم. (يشهدوا) يعترفوا بكلمة التوحيد أي يسلموا أو يخضعوا لحكم الإسلام إن كانوا أهل كتاب يهودا أو نصارى. (عصموا) حفظوا وحقنوا والعصمة الحفظ والمنع. (إلا بحق الإسلام) أي إلا إذا فعلوا ما يستوجب عقوبة مالية أو بدنية في الإسلام فإنهم يؤاخذون بذلك قصاصا. (وحسابهم على الله) أي فيما يتعلق بسرائرهم وما يضمرون]

ظهرها وليس من وجهها فنبههم القرآن إلى أن هذا ليس من التقوى التي يحبها الله تعالى، بل هي من التكلف المذموم، وهذا بخلاف رجوعه ﷺ من مصلى العيد من غير الطريق الذي ذهب فيه إلى المصلى، ومثل قوله ﷺ في رده على من أراد التعبد بترك الأكل والشرب والنكاح، فإن صدور هذه الأوامر منه لم تكن ابتداء إنما كانت رداً على من تكلف تركها تعبداً لله تعالى، أو كأمره بالإفطار في رمضان عند مواجهة العدو لأنه أقوى لهم، فهذا أمر على غير الأصل الذي يوجبه الوقت وهو الصيام، فالمقصود أن الأمور الفطرية لا يؤمر بها الإنسان إلا لما تقدم وأشباهه كالتنبيه على أجرها وترك أضدادها من المعاصي كبيانه ﷺ أجر من أتى أهله وقال: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ»[٣]، ومن الأمور التي يعرفها الناس بفطرهم لأنها من سجية الأثرة والتملك هي الدفاع عن أنفسهم وأموالهم وديارهم وأعراضهم، وهي غريزة لا ينفك الإنسان عنها إلا بمرض أو دين باطل يدين به، فدفاع الناس عن أموالهم وأعراضهم وما يملكون من الفطرة التي توجبها غريزة الأثرة وحب التملك، ومن ذلك دفع المعتدي لرد إيذائه وظلمه، فهذه أمور لا تأتي بها الشريعة إلا على ما تقدم من الوجوه وذلك كقوله ﷺ «مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ»[٤] كما سيأتي شرح هذا الحديث إن شاء الله، فما أمر المؤمنون من القتال في كتاب الله تعالى وفي الحديث –وهي كثيرة– إنما هي على غير المعنى الذي تعرفه النفوس بفطرتها وغريزتها، بل ما تعرفه الدواب في سلوكها وغريزتها، وهذا المعنى لا تنشط له هذه النفوس إلا بتحريض إلهي طلباً للأجر

---

[٣] – عَنْ أَبِي ذَرٍّ، أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ – ﷺ – قَالُوا لِلنَّبِيِّ – ﷺ –:يَا رَسُولَ اللهِ، ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالْأُجُورِ، يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ، قَالَ:" أَوَلَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللهُ لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُونَ؟ إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ، وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ» صحيح مسلم (٢/ ٦٩٧) ٥٣ – (١٠٠٦)

[ش (الدثور) جمع دثر وهو المال الكثير (بكل تسبيحة صدقة ٠٠ الخ) قال القاضي يحتمل تسميتها صدقة أن لها أجرا كما للصدقة أجر وإن هذه الطاعات تماثل الصدقات في الأجور وسماها صدقة على طريق المقابلة وتجنيس الكلام وقيل معناه أنها صدقة على نفسه (وأمر بالمعروف صدقة ونهي عن منكر صدقة) فيه إشارة إلى ثبوت حكم الصدقة في كل فرد من أفراد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولهذا نكره والثواب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أكثر منه في التسبيح والتحميد والتهليل لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية وقد يتعين ولا يتصور وقوعه نفلا والتسبيح والتحميد والتهليل نوافل (وفي بضع أحدكم) هو بضم الباء ويطلق على الجماع ويطلق على الفرج نفسه وكلاهما تصح إرادته هنا وفي هذا دليل على أن المباحات تصير طاعات بالنيات الصادقات فالجماع يكون عبادة إذا نوى به قضاء حق الزوجة ومعاشرتها بالمعروف الذي أمر الله تعالى به أو طلب ولد صالح أو إعفاف نفسه أو إعفاف زوجته ومنعهما جميعا من النظر إلى حرام أو الفكر فيه أو الهم به أو غير ذلك من المقاصد الصالحة (أجرا) ضبطناه أجرا بالنصب والرفع وهما ظاهران]

[٤] – الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ٣٣٦)٢٤٨٠ – ٩٤٦ –[ش أخرجه مسلم في الإيمان باب الدليل على أن من قصد أخذ مال غيره .. رقم ١٤١. (دون ماله) مدافعا من يريد أخذ ماله ظلما. (شهيد) له أجر الشهيد عند الله تعالى ولكنه يغسل ويكفن ويصلى عليه ولا يعامل معاملة الشهيد من هذه الناحية]

والمثوبة ولذلك قال تعالى عن هذا النوع من القتال: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [البقرة: ٢١٦][٥]، وقد حذر النبي ﷺ من تركه وقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ، وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ، مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ")[٦] فهذه لا يمكن فهمها إن أنصف المرء إلا على قتال واحد وهو القتال الذي يشرع فيه الإنسان ولا يكون رداً على قتال، إذ كيف يحدث المرء نفسه أن يغزو في رد العدوان إلا بتمنيه أن يغزوه الأعداء، وهذا لعمر الحق فساد لا يقوله عاقل، ولو تدبر الناس هذا لوجدوه من أعظم الردود على من زعم أن القتال لا يكون إلا لهذه المعاني الإنسانية الجامعة التي توجبها غريزة الأثرة الإنسانية إذ هذا النوع من القتال تترع له النفوس دون التحريض الشديد الوارد في الكتاب والسنة، وهذا ما هو مشاهد في حياة البشرية وتاريخ الأمم، ولما كان القتال في الإسلام على معنىً آخر وهو نشر الإسلام ومبادئه وتشريعاته فإن الأمر جاء به ابتداء في الكتاب والسنة ومنه قوله ﷺ: (**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله...**) فقوله: (أمرت) يدل على وجوبه وهو المتفق عليه عند أهل الإسلام الأولين وهو أن الجهاد واجب على الإمام ومن استنفره لهذا النوع من القتال، وهذه اللفظة (أمرت) تدل على أن هذا النوع من القتال هو حق لله وحده ليس للعبد منه نصيب، وردّ العدوان نصيب العبد فيه أظهر من حق الله تعالى، ومعلوم أن أمر الله تعالى لنبيه ﷺ هو أمر لعموم الأمة إلا بدليل يخصه، وهذا أمر يعم خلفاء الرسول ﷺ ولا شك. وقوله: (أن أقاتل) فيه بيان أن هذا قتال ابتدائي يشرع فيه أهل الإسلام ولا يحتاجون إلى ظلم غيرهم أو عدوانهم ليفعلوه، وفيه: أن لفظ (القتال) ليس هو (القتل) إذ أن (القتل) هو قصد شخص بعينه للقتل لسبب مخصوص كالقتل صبراً أو غيلة كقتل المرتد أو الزاني المحصن أو الأسير أو المحارب في قوله تعالى: {إِنَّمَا جَزَاءُ

---

[٥] – وَالجِهَادُ فَرْضُ كِفَايَةٍ إِذَا قَامَ بِهِ بَعْضُ الأُمَّةِ سَقَطَ عَنِ البَاقِينَ، وَالجِهَادُ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ غَزَا أَوْ قَعَدَ، فَالقَاعِدُ عَلَيهِ أَنْ يُعِينَ إِذا اسْتَعَانَ بِهِ النَّاسُ، وَأَنْ يُغِيثَ إِذَا اسْتَغَاثُوا بِه، وَأَنْ يَنْفِرَ إِذا اسْتُنْفِرَ.
وَيَذْكُرُ اللهُ تَعَالَى: أَنَّ الجِهَادَ فِيهِ كُرْهٌ وَمَشَقَّةٌ عَلَى الأَنْفُسِ، مِنْ تَحَمُّلِ مَشَقَّةِ السَّفَرِ، إِلَى مَخَاطِرِ الحُرُوبِ وَمَا فِيهَا مِنَ جَرْحٍ وَقَتْلٍ وَأَسْرٍ، وَتَرْكِ لِلْعِيَالِ، وَتَرْكِ لِلتِّجَارَةِ وَالصَّنْعَةِ وَالعَمَلِ. . إلخ، وَلَكِنْ قَدْ يَكُونُ فِيهِ الخَيْرُ لأَنَّهُ قَدْ يَعْقُبُهُ النَّصْرُ وَالظَّفَرُ بِالأَعْدَاءِ، وَالاستِيلاءُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَبِلاَدِهِمْ. وَقَدْ يُحِبُّ المَرْءُ شَيئاً وَهُوَ شَرٌّ لَهُ، وَمِنْهُ القُعُودُ عَنِ الجِهَادِ، فَقَدْ يَعْقُبُهُ استِيلاءُ الأَعْدَاءِ عَلَى البِلادِ وَالحُكْمِ، وَاللهُ يَعْلَمُ عَوَاقِبَ الأُمُورِ أَكْثَرَ مِمَّا يَعْلَمُها العِبَادُ.أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٢٢٣، بترقيم الشاملة آليا)

[٦] – تهذيب صحيح مسلم- علي بن نايف الشحود (ص: ٧٠٤)(١٩١٠)
وَالْمَعْنَى لَمْ يَعْزِمْ عَلَى الْجِهَادِ وَلَمْ يَقُلْ: يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مُجَاهِدًا، وَقِيلَ وَلَمْ يُرِدِ الْخُرُوجَ، وَعَلَامَتُهُ فِي الظَّاهِرِ إِعْدَادُ آلَتِه. قَالَ تَعَالَى: {وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً} [التوبة:٤٦] وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ: (مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ):أَيْ: نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ النِّفَاقِ ؛ أَيْ: مَنْ مَاتَ عَلَى هَذَا فَقَدَ أَشْبَهَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُتَخَلِّفِينَ عَنِ الْجِهَادِ، وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ، وَقِيلَ: هَذَا كَانَ مَخْصُوصًا بِزَمَانِهِ - - - وَالْأَظْهَرُ أَنَّهُ عَامٌّ وَيَجِبُ عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ أَنْ يَنْوِيَ الْجِهَادَ إِمَّا بِطَرِيقِ فَرْضِ الْكِفَايَةِ، أَوْ عَلَى سَبِيلِ فَرْضِ الْعَيْنِ، إِذَا كَانَ النَّفِيرُ عَامًّا، وَيُسْتَدَلُّ بِظَاهِرِهِ لِمَنْ قَالَ: الْجِهَادُ فَرْضُ عَيْنٍ مُطْلَقًا. وَفِي شَرْحِ مُسْلِمٍ لِلنَّوَوِيِّ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ: نَرَى أَنَّ ذَلِكَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ - - - قَالَ: وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ ابْنُ الْمُبَارَكِ مُحْتَمَلٌ، وَقَدْ قَالَ غَيْرُهُ إِنَّهُ عَامٌّ. وَالْمُرَادُ أَنَّ مَنْ فَعَلَ فَقَدْ أَشْبَهَ الْمُنَافِقِينَ الْمُتَخَلِّفِينَ عَنِ الْجِهَادِ فِي هَذَا الْوَصْفِ، فَإِنَّ تَرْكَ الْجِهَادِ أَحَدُ شُعَبِ النِّفَاقِ"المفصل في فقه الجهاد ط٤ (ص:٣٠١٦)

الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [المائدة: ٣٣]، وكما قتل محمدُ بن مسلمة رضي الله عنه مع سرية كعبَ بن الأشرف اليهودي[٧] لما كان من سوء مقالته وشعره في أمهات المؤمنين، والحديث هنا يتكلم عن (القتال)، وهو الذي يبدأ بالدعوة وإقامة البلاغ العام على أمة من الأمم ثم يقصدهم بجمع حتى يزيل شوكتهم ويخضعوا لحكم الإسلام، أو يقبلوا قبل ذلك دفع الجزية. واللفظ (أقاتل) يدل على الابتداء في الفعل، وهو يؤيد ما تقدم من الكلام ويشهد لذلك ما قال (حتى يقولوا) فإن (حتى) تدل على انتهاء الغاية كما هو معلوم من حروف المعاني، وقوله: (حتى يقولوا لا إله إلا الله) يدل على علة هذا القتال الواجب، وهو الإسلام، والإسلام يعرف بالكلمة أي بـ(لا إله إلا الله) كما يعرف بالدلالة والتبعية، فالدلالة كالصلاة وأكل ذبيحة المسلم كما ورد في الحديث، والتبعية للوالدين وللدار، وهذه قد تتعارض (أي الكلمة والدلالة والتبعية) وحينئذ يعمل بالأقوى والقرائن، وتبقى الكلمة هي الأقوى إلا أن يأتي ناقض لها يدفعها، كمن قال لا إله إلا الله وسجد لصنم أو أحل أمراً مجمعاً عليه ليس لمثله جهلُه، أو سبّ الله أو الرسول ﷺ، فحينئذ لا تنفع الكلمة، والإسلام ليس هو الكلمة، لكن الكلمة شرط الإسلام، فإن المرء يسلم بالكلمة وشروطها الظاهرة والباطنة، كالانقياد لله ولرسوله، لقوله تعالى: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء:

---

[٧] – عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «مَنْ لِكَعْبِ بْنِ الأَشْرَفِ، فَإِنَّهُ قَدْ آذَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ»،فَقَامَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَتُحِبُّ أَنْ أَقْتُلَهُ؟ قَالَ: «نَعَمْ»،قَالَ: فَاذَنْ لِي أَنْ أَقُولَ شَيْئًا، قَالَ: «قُلْ»،فَأَتَاهُ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ فَقَالَ: إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ قَدْ سَأَلَنَا صَدَقَةً، وَإِنَّهُ قَدْ عَنَّانَا وَإِنِّي قَدْ أَتَيْتُكَ أَسْتَسْلِفُكَ، قَالَ: وَأَيْضًا وَاللَّهِ لَتَمَلُّنَّهُ، قَالَ: إِنَّا قَد اتَّبَعْنَاهُ، فَلاَ نُحِبُّ أَنْ نَدَعَهُ حَتَّى نَنْظُرَ إِلَى أَيِّ شَيْءٍ يَصِيرُ شَأْنُهُ، وَقَدْ أَرَدْنَا أَنْ تُسْلِفَنَا وَسْقًا أَوْ وَسْقَيْنِ – وحَدَّثَنَا عَمْرٌو غَيْرَ مَرَّةٍ فَلَمْ يَذْكُرْ وَسْقًا أَوْ وَسْقَيْنِ أَوْ: فَقُلْتُ لَهُ: فيه وَسْقًا أَوْ وَسْقَيْنِ؟ فَقَالَ: أُرَى فيه وَسْقًا أَوْ وَسْقَيْنِ – فَقَالَ: نَعَم، ارْهَنُونِي، قَالُوا: أَيَّ شَيْءٍ تُرِيدُ؟ قَالَ: ارْهَنُونِي نِسَاءَكُمْ، قَالُوا: كَيْفَ نَرْهَنُكَ نِسَاءَنَا وَأَنْتَ أَجْمَلُ العَرَبِ، قَالَ: فَارْهَنُونِي أَبْنَاءَكُمْ، قَالُوا: كَيْفَ نَرْهَنُكَ أَبْنَاءَنَا، فَيُسَبُّ أَحَدُهُمْ، فَيُقَالُ: رُهِنَ بِوَسْقٍ أَوْ وَسْقَيْنِ، هَذَا عَارٌ عَلَيْنَا، وَلَكِنَّا نَرْهَنُكَ اللَّأْمَةَ – قَالَ سُفْيَانُ: يَعْنِي السِّلاَحَ – فَوَاعَدَهُ أَنْ يَاتِيَهُ، فَجَاءَهُ لَيْلًا وَمَعَهُ أَبُو نَائِلَةَ، وَهُوَ أَخُو كَعْبٍ مِنَ الرَّضَاعَةِ، فَدَعَاهُمْ إِلَى الحِصْنِ، فَنَزَلَ إِلَيْهِمْ، فَقَالَتْ لَهُ امْرَأَتُهُ: أَيْنَ تَخْرُجُ هَذِهِ السَّاعَةَ؟ فَقَالَ إِنَّمَا هُوَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ، وَأَخِي أَبُو نَائِلَةَ، وَقَالَ غَيْرُ عَمْرٍو، قَالَتْ: أَسْمَعُ صَوْتًا كَأَنَّهُ يَقْطُرُ مِنْهُ الدَّمُ، قَالَ: إِنَّمَا هُوَ أَخِي مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ وَرَضِيعِي أَبُو نَائِلَةَ إِنَّ الكَرِيمَ لَوْ دُعِيَ إِلَى طَعْنَةٍ بِلَيْلٍ لَأَجَابَ، قَالَ: وَيُدْخِلُ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ مَعَهُ رَجُلَيْنِ – قِيلَ لِسُفْيَانَ: سَمَّاهُمْ عَمْرٌو؟ قَالَ: سَمَّى بَعْضَهُمْ – قَالَ عَمْرٌو: جَاءَ مَعَهُ بِرَجُلَيْنِ، وَقَالَ: غَيْرُ عَمْرٍو: أَبُو عَبْسِ بْنُ جَبْرٍ، وَالحَارِثُ بْنُ أَوْسٍ، وَعَبَّادُ بْنُ بِشْرٍ، قَالَ عَمْرٌو: جَاءَ مَعَهُ بِرَجُلَيْنِ، فَقَالَ: إِذَا مَا جَاءَ فَإِنِّي قَائِلٌ بِشَعَرِهِ فَأَشَمُّهُ، فَإِذَا رَأَيْتُمُونِي اسْتَمْكَنْتُ مِنْ رَاسِهِ، فَدُونَكُمْ فَاضْرِبُوهُ، وَقَالَ مَرَّةً: ثُمَّ أُشِمُّكُمْ، فَنَزَلَ إِلَيْهِمْ مُتَوَشِّحًا وَهُوَ يَنْفَحُ مِنْهُ رِيحُ الطِّيبِ، فَقَالَ: مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ رِيحًا، أَيْ أَطْيَبَ، وَقَالَ غَيْرُ عَمْرٍو: قَالَ: عِنْدِي أَعْطَرُ نِسَاءِ العَرَبِ وَأَكْمَلُ العَرَبِ، قَالَ عَمْرٌو: فَقَالَ أَتَاذَنُ لِي أَنْ أَشُمَّ رَاسَكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَشَمَّهُ ثُمَّ أَشَمَّ أَصْحَابَهُ، ثُمَّ قَالَ: أَتَاذَنُ لِي؟ قَالَ: نعَمْ، فَلَمَّا اسْتَمْكَنَ مِنْهُ، قَالَ: دُونَكُمْ، فَقَتَلُوهُ، ثُمَّ أَتَوُا النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرُوهُ "

الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ٤٩٩)٤٠٣٧ – ١٣٩٤ –[ش أخرجه مسلم في الجهاد والسير باب قتل كعب بن الأشرف طاغوت اليهود رقم ١٨٠١ (قائل بشعره) جاذب به. (متوشحا) متلبسا بثوبه وسلاحه. (ينفح) يفوح]

٦٥] وإقامة الصلاة من شروط الكلمة كما هو الصحيح، ومن شروطها ترك النواقض وأبوابها كثيرة جداً أعلاها الشرك بالله تعالى كإثبات المثل والإبن والندّ، والحديث يدل على أعلى الدلالات في إثبات الإسلام وهو الإتيان بالكلمة وقد يتعذر التحقق من إثباتها في الطوائف فيصار إلى حقوقها التي تدل عليها كالأذان وهو دليل الصلاة كما ورد في الصحيح عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِك، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُغيرُ إِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ، وَكَانَ يَسْتَمِعُ الْأَذَانَ، فَإِنْ سَمِعَ أَذَانًا أَمْسَكَ وَإِلَّا أَغَارَ + فَسَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ: اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "عَلَى الْفِطْرَةِ" ثُمَّ قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "خَرَجْتَ مِنَ النَّارِ" فَنَظَرُوا فَإِذَا هُوَ رَاعِي مِعْزًى.[٨]، وهذا الحديث (أي حديث أبي هريرة رضي الله عنه) جاء مجملاً في بيان علة هذا القتال وقد فُصِّل في حديث ابن عمر رضي الله عنهما في الصحيحين عَنِ ابْنِ عُمَرَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الإِسْلاَمِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ»[٩]

وقد آثرت حديث أبي هريرة رضي الله عنه لهذا الباب لما فيه من بيان مقصد الجهاد والقتال وطريقة الدعوة للتوحيد، إذ أن ميل النبي ﷺ ونوّابه وخلفاؤُه كانوا يعرضون الإسلام والدخول فيه عن طريق الكلمة ثم يبينوا لهم حق هذه الكلمة ومن حقها الصلاة والزكاة، والصحيح أن المباني الأربعة هي من أركانها، لا يصح إسلام المرء بدونها، ومن تركها فقد نقض الكلمة، وهذا مذهب كبار الصحابة رضي الله عنهم، وكلمة التوحيد معناها إخلاص عبودية المرء لله وحده ونفيها عمن سواه، إذ لا يستحق العبادة أحد سواه، والتأله هو التعبد، ومبنى التعبد على القبول والانقياد أصلاً ونفي الحرج وجوباً والتسليم إحساناً وهو معنى موجود في قوله تعالى: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا } [النساء: ٦٥]

فهذه مراتب العبادة كما قال أهل العلم، ومبعث العبادة هو الحب والخوف، والحب ينشأ من أمرين كمال المحبوب في ذاته وإحسانه إلى غيره وهذا يوجب الحمد كما قال النبي ﷺ: (يَا رَبِّ لَكَ الْحَمْدُ كَمَا يَنْبَغِي لِجَلَالِ وَجْهِكَ وَعَظِيمِ سُلْطَانِكَ،)[١٠]

---

[٨] – المسند الموضوعي الجامع للكتب العشرة (١/ ٤٠) ، (م) ٩ – (٣٨٢)

[٩] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص: ١٣٠٢)

الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ٣٨)٢٥ – ٢٠ –[ش أخرجه مسلم في الإيمان باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله رقم ٢٢ (أقاتل الناس) أي بعد عرض الإسلام عليهم. (يشهدوا) يعترفوا بكلمة التوحيد أي يسلموا أو يخضعوا لحكم الإسلام إن كانوا أهل كتاب يهودا أو نصارى. (عصموا) حفظوا وحقنوا والعصمة الحفظ والمنع. (إلا بحق الإسلام) أي إلا إذا فعلوا ما يستوجب عقوبة مالية أو بدنية في الإسلام فإنهم يؤاخذون بذلك قصاصا. (وحسابهم على الله) أي فيما يتعلق بسرائرهم وما يضمرون]

[١٠] – سنن ابن ماجة– طبع مؤسسة الرسالة [٤/ ٧١٢] (٣٨٠١) فيه لين

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " أَحِبُّوا اللهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ بِهِ مِنَ النِّعْمَةِ، وَأَحِبُّونِي لِحُبِّ اللهِ، وَأَحِبُّوا أَهْلَ بَيْتِي لِحُبِّي ".[11]

والحب لكمال المحبوب أعظم من الحب للإحسان، فيكون الحمد لذلك أعظم من الحمد على النعمة، وإن كان كلاهما من موجبات الحمد لله تعالى، وأما الخوف فيكون لأمرين العظمة وخوف العقاب، ومعرفة العظيم توجب الحياء المانع من السوء الذي يغضب العظيم بلا نظر إلى العقاب، كما كان بعض السلف يقول: (هب أنه غفر لي فأين حيائي منه؟)، والخوف من عقابه توجب ترك المنهي عنه بالنظر لعاقبة الغضب وهو عقاب القادر العظيم العادل، والخوف الأول -بسبب الحياء- أعظم وأجل من الثاني وإن كان كلاهما من الإيمان بالله تعالى، والعباد يتفاوتون في الإيمان تفاوتهم في هذه الأبواب، وقد تنازع السلف أيهما أعظم وأجل قدراً في ألفاظ الذكر هل الحمد أم كلمة التوحيد، مع قول الأكثرين إن لم يكن اتفاقاً أن كلمة التوحيد أعظم من التسبيح، لأن التسبيح نفي النقائص والحمد إثبات الكمال، والإثبات أجل من النفي وأعظم قدراً، وفي الحديث عَنْ رَجُلٍ، مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ قَالَ: عَقَدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فِي يَدِهِ أَوْ فِي يَدِي فَقَالَ: «سُبْحَانَ اللَّهِ نِصْفُ الْمِيزَانِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ تَمْلَأُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَالطُّهُورُ نِصْفُ الْإِيمَانِ، وَالصَّوْمُ نِصْفُ الصَّبْرِ»[12]، وفي الأذكار النبوية يكون التسبيح مقروناً بما يدل على الكمال كقوله ﷺ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ»[13]، والذين فضلوا الحمد على كلمة التوحيد لأنهم قالوا إن الحمد يتضمن التوحيد، والصواب أن كلمة التوحيد أفضل في إثبات الأصل وكلمة الحمد أفضل في إثبات الكمال، والله تعالى أعلم.

قوله: (**فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني نفسه وماله إلا بحقها وحسابه على الله**) دل على أن النفوس والأموال مباحة في الأصل دون التوحيد، وأن أموالهم -أي المعاندين المشركين- كما هي أنفسهم غير معصومة، وليس أحد الأمرين مرتبط بالآخر (أي القتال وإباحة الأموال والأنفس)، فالمقدور عليه لا يتخلف بسبب الممتنع، والمفهوم هنا ممتنع، والمفهوم هنا أن الإباحة لا تكون إلا بالقتال، لأن سببها هو ترك الكلمة أو الإتيان بنواقضها، فالقتال ليس سبباً لغيره، بل هو لسبب وهو

---

[11] - شعب الإيمان (٢/ ١٢)(٤٠٤) حسن لغيره

قَالَ الْبَيهقيُّ رَحِمَهُ اللهُ: " وَهَذَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ عَامَّةً لِأَنْعُمِهِ كُلِّهَا، وَأَنْ يَكُونَ اسْمُ الْغِذَاءِ فِي الطَّعَامِ وَالشَّرَبِ حَقِيقَةً، وَلِمَا عَدَاهُمَا مِنَ التَّوْفِيقِ وَالْهِدَايَةِ وَنَصْبِ أَعْلَامِ هَذِهِ الْمَعْرِفَةِ وَخُلُوِّ الْحَوَاسِّ وَالْعَقْلِ مَجَازًا، أَوْ يَكُونَ جَمِيعُ ذَلِكَ بِالِاسْمِ مُرَادًا، فَقَدْ جَاءَ عَنْهُ ﷺ : " ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ فَقَدْ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ " وَفِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ: " طَعْمَ الْإِيمَانِ "، وَإِنَّمَا يَكُونُ الطَّعْمُ لِلْأَغْذِيَةِ وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهَا، فَإِذَا جَازَ وَصْفُ الْإِيمَانِ بِالطَّعْمِ جَازَتْ تَسْمِيَتُهُ غِذَاءً فَيَدْخُلُ الْإِيمَانُ فِي جَمِيعِ نِعَمِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي هَذَا الْحَدِيثِ، وَاللهُ أَعْلَمُ "

[12] - المسند الموضوعي الجامع للكتب العشرة (٤/ ٤٥٨) (حم) ١٨٢٨٧ صحيح

[13] - صحيح البخاري (٨/ ١٣٩)(٦٦٨٢) وصحيح مسلم (٤/ ٢٠٧٢)٣١ - (٢٦٩٤)

الكفر، فتخلف القتال لا يسقط إباحة الأنفس والأموال مع بقاء السبب الموجب للقتال وهو الكفر، فمن علق حكم الإباحة على علة القتال للمفهوم فقد قال أمراً عجباً غريباً.

والحديث يبين الأصل وهو قتال المشركين عموماً بلا تفريق مع وجود موانع أخرى للقتل كالذمة والعهد، وقد جاءت بذلك الشريعة، فالذي مع كفره وكذا المعاهد لا يقتل، كما أن قوله: (بحقه) أي أن الكلمة لا تعصم من القتل على الدوام إنما تعصمه في الابتداء، والهاء في حقه تعود على الله سبحانه، فإن لله حقوقاً أخرى على العباد غير الكلمة بعضها يوجب القتل أو يجيزه مفصلة في الشريعة لطول ذكرها، وفي أحاديث أخرى قوله: (بحقها) أي الكلمة، وقد تقدم حديث ابن عمر رضي الله عنهما وفيه: (بحق الإسلام) وكلها على معنى واحد، ولا اختلاف.

قوله: (وحسابه على الله) إيكال أمر الباطن إلى الله تعالى، لأن الشريعة وأحكامها في الدنيا على الظاهر بلا خلاف، فلا ينقب على قلوب الناس وأستارهم مالم تبدُ منهم القرائن، فإن جاء الظاهر الصريح فهو المقدم على غيره من الدعاوى، كالزنديق وغيره في دعواه الإسلام مع ظاهره المخالف لذلك، ولا يقوم مقام الظاهر المعتبر شيء، ومسألة إذا تعارض الظاهر مع الأصل لا اختلاف فيها إذا كان الظاهر بين صريح خلا من المعارض الموافق للأصل. وقوله: (وحسابهم على الله) يدل على أن القضاء بالظاهر لا يغير حكم الباطن على الصحيح في أقوال أهل العلم، فإن قضاء القاضي لا يثبت الحقوق ديانة، وهذا بيّن في قوله ﷺ: إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا، بِقَوْلِهِ: فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ فَلاَ يَأْخُذْهَا "[١٤] وأدلة اخرى.

وهذا الحديث ورد في ألفاظ متعددة كما تقدم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وورد عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَإِذَا قَالُوهَا، وَصَلَّوْا صَلاَتَنَا، وَاسْتَقْبَلُوا قِبْلَتَنَا، وَذَبَحُوا ذَبِيحَتَنَا، فَقَدْ حَرُمَتْ عَلَيْنَا دِمَاؤُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ، إِلَّا بِحَقِّهَا وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ»[١٥]، وعند مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: «أُقَاتِلُ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَيُؤْمِنُوا بِي، وَبِمَا جِئْتُ بِهِ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ، عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ، وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ»[١٦].

من فوائد هذا الحديث:

---

[١٤] – صحيح البخاري (٣/ ١٨٠)(٢٦٨٠) وصحيح مسلم (٣/ ١٣٣٧)٤ – (١٧١٣)

(بشر) لا أعلم الغيب وبواطن الأمور إلا ما أطلعني الله تعالى عليه ويطرأ علي ما يطرأ على البشر من أعراض لا تخل في كوني رسولا كالغضب والتأثر بظاهر الكلام. (الخصم) المتخاصمون. (أبلغ) أفصح ببيان حجته. (بذلك) بما ظهر لي من الحجة. (قطعة من النار) أي فهي حرام مآل آخذه إلى النار]

[١٥] – المسند الموضوعي الجامع للكتب العشرة (١/ ٣٧) ، (خ) ٣٩٢

[١٦] – صحيح مسلم (١/ ٥٢)٣٤ – (٢١)

١. وجوب جهاد الدعوة وقتال المخالفين للتوحيد، ونبوة محمد ﷺ، وشرائع الإسلام على الإمام ومن استنفره، وفي الحديث حجة لمن قال من أهل العلم كالشافعي أن علة القتال هي الكفر لا الحرابة كما قال آخرون، والمحارب بإجماع العلماء هو كل كافر لم يكن له ذمة أو عهد أو أمـــان، والخـــلاف في هذه المسألة يسير لا يترتب عليه كبير خلاف كما توهّم بعض الجهلة المعاصرين كمن فسروا الحرابـــة بالقتال والعدوان، فليست الحرابة هي العدوان بلا خلاف، إنما المحارب هو من تقدم تعريفه، ولما ظن هؤلاء الجهال أن ما قاله الجمهور من علة القتال هو الحرابة ظنوا أن هذا ينصر قولهم الحادث البدعي بأن القتال في الإسلام لرد العدوان بل هو هو، وليس لما قالوه علة إلا الجهل بلغة العلماء والفقهـــاء، فإجماع الأولين من السلف والفقهاء الأربعة وغيرهم أن الجهاد واجب على الإمام للدعوة إلى الإسلام لهذا الحديث ولغيره ولقوله تعالى: {قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ } [التوبة: ٢٩][١٧] ولقوله تعالى: {فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْـــثُ وَجَـــدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَـــبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [التوبة: ٥][١٨]

فإن قال قائل فبمَ تفترق أقوال أهل العلم على هذا المعنى فيجاب: بما يترتب عليها من مسائل فـــيمن يجوز للمسلمين قتله من غير المقاتلة إن وضعت الحرب أوزارها ودخل المسلمون الديار عنوة، فهـــل

---

[١٧] – أمَرَ اللهُ تَعَالَى بِقتَالِ اليَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَذَلِكَ سَنَةَ تسْعٍ لِلْهِجْرَة، لِذَلِكَ تَجَهَّزَ الرَّسُولُ ﷺ لِقتَالِ الرُّومِ، وَدَعَا النَّاسَ إِلَى ذَلِـــكَ، وَأَظْهَرَهُ لَهُمْ، وَنَدَبَ المُؤْمِنِينَ إِلَى الجِهَادِ، وَتَخَلَّفَ بَعْضُ المُنَافِقِينَ، وَكَانَ ذَلِكَ العَامُ عَامَ جَدْبٍ، وَالْوَقْتُ فِي شِدَّةِ الحَرِّ، وَخَرَجَ الرَّسُولُ وَصَحْبُهُ إِلَى تَبُوكَ، فَنَزَلَ بِهَا، وَأَقَامَ فِيهَا قُرَابَةَ عِشْرِينَ يَوْماً، ثُمَّ رَجَعَ لِضِيقِ الحَالِ، وَضَعْفِ النَّاسِ.

فَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِالإِسْلاَمِ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ، فَرَضَ اللهُ عَلَى المُسْلِمِينَ قِتَالَهُ، حَتَّى يُعْطِيَ الجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ مَقْهُورَةٍ مَغْلُوبَةٍ، وَهُوَ خَاضِعٌ صَاغِرٌ.

وَيَجِبُ قِتَالُ أَهْلِ الكِتَابِ إِذَا اجْتَمَعَتْ فِيهِمْ أَرْبَعُ صِفَاتٍ هِيَ العِلَّةُ فِي عَدَاوَتِهِمْ لِلإِسْلاَمِ وَالمُسْلِمِينَ:

– أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ، لأَنَّهُمْ هَدَمُوا التَّوْحِيدَ فَاتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ مُشَرِّعِينَ، وَمِنْهُمْ مَنْ عَبَدَ المَسِيحَ وَعُزَيْراً.

– أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاليَوْمِ الآخِرِ، إِذْ يَقُولُونَ إِنَّ الحَيَاةَ الآخِرَةَ هِيَ حَيَاةٌ رُوحَانِيَّةٌ يَكُونُ فِيهَا النَّاسُ كَالمَلاَئِكَةِ

– أَنَّهُمْ لاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ، وَلاَ يَلْتَزِمُونَ العَمَلَ بِمَا حَرَّمَ عَلَيهِمْ.

– أَنَّهُمْ لاَ يَدِينُونَ دِينَ الحَقِّ الذِي أَوْحَاهُ اللهُ إِلَى أَنْبِيَائِهِ، وَإِنَّمَا يَتَّبِعُونَ ديناً وَضَعَهُ لَهُمْ أَحْبَارُهُمْ وَأَسْاقِفَتُهُمْ.أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٢٦٥، بترقيم الشاملة آليا)

[١٨] – فَإِذَا انْقَضَتْ الأَشْهُرُ المُحَدَّدَةُ أَحَلاً لِلْمُشْرِكِينَ، وَالتِي حَرَّمَ اللهُ فِيهَا قِتَالَهُمْ، فَاقْتُلُوا المُشْرِكِينَ، حَيْثُ وَجَـــدْتُمُوهُمْ فِـــي الأَرْضِ، وَأَسُرُوهُمْ (خُذُوهُمْ) ، فَإِنْ شِئْتُمْ أَسْراً، وَإِنْ شِئْتُمْ قَتْلاً، وَلاَ تَكْتَفُوا بِقِتَالِ مَنْ تُصَادِفُونَهُ مِنْهُمْ فِي طَرِيقِكُمْ، وَلَكِـــنِ اقْصُـــدُوهُمْ فِـــي أَمَاكِنِهِمْ، وَحَاصِرُوهُمْ فِي حُصُونِهِمْ، وَامْنَعُوا خُرُوجَهُمْ وَانْفِلاَتَهُمْ، وَارْصُدُوا طُرُقَهُمْ وَمَسَالِكَهُمْ، حَتَّى تُضَـــيِّقُوا عَلَـــيْهِمُ الوَاسِـــعَ، وَتَضْطَرُّوهُمْ إِلَى القَتْلِ أَوِ الإِسْلاَمِ.

فَإِنْ تَابُوا عَنِ الشِّرْكِ وَأَسْلَمُوا، وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ، وَأَدُّوا الزَّكَاةَ، وَقَامُوا بِوَاجِبَاتِ الإِسْلاَمِ، فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ

(وَهَذِهِ الآيَةُ تُسَمَّى آيَةَ السَّيفِ إِذْ جَاءَ الأَمْرُ فِيهَا بِالقِتَالِ، وَكَانَ مُؤَجَّلاً إِلَى أَنْ يَقْوَى المُسْلِمُونَ) .أيسر التفاسير لأسعد حومـــد (ص: ١٢٤١، بترقيم الشاملة آليا)

يُقتل العسيف (أي الأجير) أي العامل في الأرض من الكافرين من الكفار مثلاً؟ فقال الشافعي: يقتل و لم يصحح النهي عن قتله، وقال الآخرون بأنه لايقتل لأنه صار مقدوراً عليه، واختلفوا في الرهبان خارج الطوائف الكافرة وديارهم فقال الشافعي ومن معه: يُقتلون لعلة الكفر، وقال غيره: لا يقتلون لعدم تحقق العلة وهي الحرابة، وأما الديار والطوائف التي لم يعاهدها الإمام لمصلحة و لم تسلم أو تدفع الجزية فإنها تقاتل بلا خلاف حتى تصير ديار إسلام، فالشافعي ومن معه أجاز قتل كل كافر لم يأت الدليل على عدم قتله كالمرأة والصبي، والآخرون قالوا الأصل عدم القتل قصداً، واتفقوا على أن ما أصابه المسلمون من الكافرين هؤلاء بغير قصد لا حرج فيه، واحتج الجمهور بحديث حَنْظَلَةَ الْكَاتِبِ، قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – فِي غَزَاةٍ، فَمَرَّ بِامْرَأَةٍ مَقْتُولَةٍ وَالنَّاسُ عَلَيْهَا، فَقَالَ: «مَا كَانَتْ هَذِهِ لِتُقَاتِلَ، أَدْرِكْ خَالِدًا، فَقُلْ لَهُ: لَا تَقْتُلْ ذُرِّيَّةً، وَلَا عَسِيفًا»[19].

٢. لا يشكل على هذا الحديث ما جاء عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «لاَ تَمَنَّوْا لِقَاءَ العَدُوِّ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا»[20] لأن هذا الحديث على معنيين: أولاهما: تمني القتال، وهذا يستلزم وجوباً قدرياً وهو تمني سببه وذلك لما يتمنى بعض المجاهدين الغنيمة، أو لرغبة بعضهم بالقتال، وقد نبّه رسول الله ﷺ على هذا المعنى في حديث فتح خيبر فعَنْ أَبِي حَازِمٍ، قَالَ: أَخْبَرَنِي سَهْلٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَعْنِي ابْنَ سَعْدٍ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ خَيْبَرَ: «لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُفْتَحُ عَلَى يَدَيْهِ، يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ»، فَبَاتَ النَّاسُ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَى، فَغَدَوْا كُلُّهُمْ يَرْجُوهُ، فَقَالَ: «أَيْنَ عَلِيٌّ؟»، فَقِيلَ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ، فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ وَدَعَا لَهُ، فَبَرَأَ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ، فَأَعْطَاهُ فَقَالَ: أُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا؟ فَقَالَ: «انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ، فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ»[21] فهذا من هذا، وهو يبين سبب النهي عن القتال، لأن تمني القتال يعني تمني عدم إسلامهم وإسلامهم خير وأعظم من غنائمَ يجنونها. وثانيهما: أن هذا الحديث (النهي عن تمني لقاء العدو) إنما قيل في غزوة الأحزاب كما في بعض رواياته، وما فعله رسول الله ﷺ فيها من أعمال كلها تدل على كراهية (وهو إمام المسلمين) لقاء قريش ومن معها من غطفان وثقيف والأعراب، فكوْنه ﷺ لم يخرج إليهم بل تحصن في المدينة وحفر حولها الخندق، و لم ينزل إليهم أبداً خلال مدة الحصار بل كان عمله منْعَهم من المدينة، كل ذلك يدل على أن باب النهي إنما هو إرشاد إمام في اختيار خير الفعلين في رد عدوان الأحزاب، وهو من باب الشورى كما وقع في أحُد، أيخرج إليهم أم يتحصن في المدينة؟

---

[19] – تهذيب صحيح ابن حبان (١ – ٣) علي بن نايف الشحود (٢/ ٣٣٦)(٤٧٩١) (صحيح)

[20] – الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ٣٨٩)٣٠٢٦ – ١٠٩٦ – معلقا هنا [ش أخرجه مسلم في الجهاد والسير باب كراهة تمني لقاء العدو رقم ١٧٤١]

[21] – (خ) ٣٠٠٩ و(م) ٣٤ – (٢٤٠٦)

فاختار قول من قال الخروج[٢٢]، وفي الأحزاب اختار عدم الخروج وقال: (لا تتمنوا لقاء العدو) وذلك لأن هذا هو خير الأمرين للمسلمين في هذه الغزوة. والأمر والله أعلم لا يخرج عن هذين القولين، وقيلت أقوال أخرى أراها ضعيفة. والقول الأول عندي أقوى وأمتن، والسبب أن الصحابة وهم أعلم بمعنى الحديث كانوا يحتجون بالحديث بعموم لفظه، ناهين عن تمني القتال مع مسيرهم إليه، وذلك إقتداءً برسول الله ﷺ ففي صحيح مسلم أن الصحابي عبد الله بن أبي أوفى كتب إلى عمر بن عبيد الله حين سار إلى الحرورية يخبره أن رسول الله ﷺ كان في بعض أيامه التي لقي فيها العدو ينتظر حتى إذا مالت الشمس قام فيهم فقال: (يا أيها الناس لاتتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف) وفيه بلفظ آخر: (دعا على الأحزاب). والله أعلم.

٣. الحديث غيظ لأعداء الله من أهل العصر المبغضين لشرائع الإسلام، فإن أعظم نكيرهم اليوم على المجاهدين والداعين لأحكام الشريعة هو قولهم إن هؤلاء يحكمون على الناس بما هو حق لله تعالى، وأطلق بعضهم وصفنا بأننا –سكرتاريا القيامة– أي يقومون في الأرض بما هو حق لله يوم القيامة، وهذا من تمام غيظهم، والحديث حجة لهؤلاء المجاهدين والدعاة وذلك أنهم يفعلون في المشركين الرافضين لأمر الله تعالى ما هو مقدمة لما سيفعل الله بهم يوم القيامة، فهم سيعذبونهم بقتلهم وأخذ أموالهم لأمر الله لهم بذلك، والذي فوضهم لهذا الفعل هو الله كما قال تعالى: {قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ } [التوبة: ١٤]، وكما ورد في صحيح مسلم عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ – ﷺ –، قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ: " أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ، مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا، كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالٌ، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا، وَإِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ، إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَقَالَ: إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ، تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أُحَرِّقَ قُرَيْشًا، فَقُلْتُ: رَبِّ إِذًا يَثْلَغُوا رَأْسِي فَيَدَعُوهُ خُبْزَةً، قَالَ: اسْتَخْرِجْهُمْ كَمَا اسْتَخْرَجُوكَ، وَاغْزُهُمْ نُغْزِكَ، وَأَنْفِقْ فَسَنُنْفِقَ عَلَيْكَ، وَابْعَثْ جَيْشًا نَبْعَثْ خَمْسَةً مِثْلَهُ، **وَقَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مَنْ عَصَاكَ**..."[٢٣]

---

[٢٢] – قلت : لقد اختار النبي ﷺ رأي الأكثرية وأخذ به بالرغم أنه يخالف رأيه في البقاء في المدينة

[٢٣] – صحيح مسلم (٤/ ٢١٩٧) ٦٣ – (٢٨٦٥)

[ش (كل مال نحلته عبدا حلال) في الكلام حذف أي قال الله تعالى كل مال الخ ومعنى نحلته أعطيته أي كل مال أعطيته عبدا من عبادي فهو له حلال والمراد إنكار ما حرموا على أنفسهم من السائبة والوصيلة والبحيرة والحامي وغير ذلك وأنها لم تصر حراما بتحريمهم وكل مال ملكه العبد فهو له حلال حتى يتعلق به حق (حنفاء كلهم) أي مسلمين وقيل طاهرين من المعاصي وقيل مستقيمين منيبين لقبول الهداية (فاجتالتهم) هكذا هو في نسخ بلادنا فاجتالتهم وكذا نقله القاضي عن رواية الأكثرين أي استخفوهم فذهبوا بهم وأزالوهم عما كانوا عليه وحالوا معهم في الباطل وقال شمر اجتال الرجل الشيء ذهب به واجتال أموالهم ساقها وذهب بها (فمقتهم)

وأما قول المشركين المعرضين بأن قضية الإيمان والتوحيد والانقياد للشرائع هي بين الإنسان وربه ولا يحق للعباد محاسبتهم عليها فهذا دينهم الذي به يدينون، وأما ما يدين به المسلم المنقاد لحكم الله أن قضية التوحيد والإيمان والانقياد للشرائع هي حق لله أمر الله عباده بإقامتها في أنفسهم وإقامتها في الناس بالدعوة والموعظة الحسنة فإن أصروا على الإباء والإستكبار قوتلوا عليها ثم عذبوا حتى ينقادوا، ولا يضرهم قول هؤلاء الملاعين أن هذا مخالف لحقوق الإنسان وقواعد العصر فإن دين الله لا يقدم عليه مثل هذه الزبالات والعجب من بعض المفتونين من دعاة الإسلام -زعموا- يقيمون هذه الأحكام والأقوال في الفصل بين الخصومات الحاصلة بين الملحدين من العلمانيين وبين المسلمين.

فإن قيل للمجاهد من خَوَّلك وفَوَّضك لقتلي وأخذ مالي بسبب ما بيني وبين الله قيل له: إن الله أمرني بذلك ولو لم أفعل لكنت مثلك في العصيان، و لم أرَ غيظاً في قلوب هؤلاء على المجاهدين والدعاة بمثل هذه النكتة، إذ هو من قبيل الحسد الإبليسي أن الدعاة والمجاهدين يكِلون مستند أفعالهم لله والإسلام وليس لهم همّ إلا زبالات يعرفون صغارها وحقارتها.

٤. في الحديث بيان هوان الخلق على الله في الدنيا كما هو هوانهم عليه في الآخرة إن لم يسلموا له، فإن الله سبحانه خلق الخلق ليعبدوه ويطيعوا رسله وينقادوا لأمره، فإن لم يحصل هذا المقصد لم يكن لوجودهم أهمية ترعى أو تصان، بل هم هباء لا قيمة له، فما أهون الخلق على الله سبحانه من غير إسلام له، إذ لا قيمة لهم ولا لأبدانهم ولا لأموالهم ولا لملكهم ولا لسلطانهم، بل إن الله سبحانه وتعالى يسلط عليهم أهل الإيمان ليذيقوهم عذاب الدنيا قبل أن يصيروا إلى عذاب الله الآخرة، وأما دعاوى أهل العصر أن الحقوق واحدة بين عباد الله والمشركين فهي من دعاوى إبليس والله يقول: {أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦)} [القلم: ٣٥، ٣٦] فما يقال إن النفس الإنسانية محترمة بذاتها دون النظر لدينها إن هو إلا هراء كلام يبرؤ منه دين الله تعالى ويبرأ منه المؤمنون، فإن قال قائل معترضاً على شرع الله بقدره: فلمَ خلق الله الكفرة إذاً؟ فيقال: إن الله خلق الإنسان ليبتليه في باب التوحيد والإيمان، وما خُلقت الدنيا إلا من أجل هذا كما قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ } [البقرة: ٣٠] ولقوله تعالى: {إِنَّا

المقت أشد البغض والمراد بهذا المقت والنظر ما قبل بعثة رسول الله - ﷺ - (إلا بقايا من أهل الكتاب) المراد بهم الباقون على التمسك بدينهم الحق من غير تبديل (إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك) معناه لأمتحنك بما يظهر منك من قيامك بما أمرتك به من تبليغ الرسالة وغير ذلك من الجهاد في الله حق جهاده والصبر في الله تعالى وغير ذلك وأبتلي بك من أرسلتك إليهم فمنهم من يظهر إيمانه ويخلص في طاعته ومن يتخلف وينابذ بالعداوة والكفر ومن ينافق (كتابا لا يغسله الماء) معناه محفوظ في الصدور لا يتطرق إليه الذهاب بل يبقى على ممر الزمان (إذا يثلغوا رأسي) أي يشدخوه ويشجوه كما يشدخ الخبز أي يكسر (نغزك) أي نعينك

خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣)} [الإنسان: ٢، ٣].

وإن من ابتلاء الله للمؤمنين هو معاداة الناس على هذا الباب ليتم لهم تمام حبّ الله تعالى والحب في الله، وهذا لايقع إلا ببغض أعدائه ومقاتلتهم وإن من عذاب الله لعصاته أن يسلط عليهم المؤمنين فيزهقون أنفسهم ويغنمون أموالهم، وكما تقدم إن غزو الثأر للانتقام والقصاص، وقد ينشأ في أنفسهم الألم لذلك لكن ليس كالألم الذي يصيبهم من غزو أقوام سيطوقون ديارهم فإن سئلوا لِمَ جئتم قالوا: (اللَّهُ ابْتَعَثَنَا لِنُخْرِجَ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ، وَمِنْ ضِيقِ الدُّنْيَا إِلَى سِعَتِهَا، وَمِنْ جَوْرِ الْأَدْيَانِ إِلَى عَدْلِ الْإِسْلَامِ، فَأَرْسَلَنَا بِدِينِهِ إِلَى خَلْقِهِ لِنَدْعُوَهُمْ إِلَيْهِ، فَمَنْ قَبِلَ ذَلِكَ قَبِلْنَا مِنْهُ وَرَجَعْنَا عَنْهُ، وَمَنْ أَبَى قَاتَلْنَاهُ أَبَدًا حَتَّى نُفْضِيَ إِلَى مَوْعُودِ اللَّهِ. قَالُوا: وَمَا مَوْعُودُ اللَّهِ؟ قَالَ: الْجَنَّةُ لِمَنْ مَاتَ عَلَى قِتَالِ مَنْ أَبَى، وَالظَّفَرُ لِمَنْ بَقِيَ. فَقَالَ رُسْتُمُ: قَدْ سَمِعْتُ مَقَالَتَكُمْ، فَهَلْ لَكُمَ أَنْ تُؤَخِّرُوا هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى نَنْظُرَ فِيهِ وَتَنْظُرُوا؟ قَالَ: نَعَمْ، كَمْ أَحَبُّ إِلَيْكُمْ؟ أَيَوْمًا أَوْ يَوْمَيْنِ؟ قَالَ: لَا، بَلْ حَتَّى نُكَاتِبَ أَهْلَ رَأْيِنَا وَرُؤَسَاءَ قَوْمِنَا. فَقَالَ: مَا سَنَّ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ نُؤَخِّرَ الْأَعْدَاءَ عِنْدَ اللِّقَاءِ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثٍ، فَانْظُرْ فِي أَمْرِكَ وَأَمْرِهِمْ، وَاخْتَرْ وَاحِدَةً مِنْ ثَلَاثٍ بَعْدَ الْأَجَلِ. فَقَالَ: أَسَيِّدُهُمُ أَنْتَ؟ قَالَ: لَا، وَلَكِنَّ الْمُسْلِمُونَ كَالْجَسَدِ الْوَاحِدِ يُجِيرُ أَدْنَاهُمْ عَلَى أَعْلَاهُمْ.)[٢٤]

فإن الغيظ الواقع على قلوبهم من هذه المقالة يفوق الوصف، وهذا من تمام عذاب الله تعالى في هذه الدنيا للكافرين وهو من هوانهم على الله سبحانه وتعالى.

إن الإسلام الذي حرم قتل الحيوان إلا لمنفعة الأكل أو لدفع ضرره هو الذي أهان الكافر وأمر بقتله لرفضه التوحيد فكان شأنه أقل من الدابة كما قال تعالى: { إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا } [الفرقان: ٤٤] {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ } [الأنفال: ٥٥] فسبحانه ما أحكمه وأعدله في خلقه.

أهم إرشادات الحديث :

وفي هذا الحديث من الفقه أن الإمام إذا أدى اجتهاده عن نص من كتاب أو سنة مما يخفى على غيره من أماثل مأموميه، فإن الواجب هو متابعة الإمام على ما يريه الله إياه، فإن عمر رضي الله عنه ذهب اجتهاده إلى أن لا يقاتل من منع الزكاة وظن أن قول: لا إله إلا الله مع منع الزكاة يعتصم الدم حتى اشتد أبو بكر رضي الله عنه وأبان له بزيادة فقهه في قوله: (لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة) لأنه قاس الأصل المختلف فيه على أصل مجمع عليه، لأنه لم يكن في الصحابة من ينازع في أنه لو أن طائفة من الناس قالوا: (لا إله إلا الله) ثم لم يصلوا، أنهم يقاتلون.

---

[٢٤] – البداية والنهاية ط هجر (٩/ ٦٢٢)

وفي هذا الحديث من الفقه أيضا أن المؤمن قد يستدل بانشراح صدر المؤمن للقتال على ما لا يستدل به عند انشراحه للسلم لقوله: (فما هو إلا أن رأيت الله شرح صدر أبي بكر للقتال فعلمت أنه الحق) لأن في القتال من المؤن والأخطار ما ليس في السلم، ولا يحتملها العاقل المؤمن مثل أبي بكر إلا على يقين من أمره.

وفي هذا الحديث من الفقه أيضا أن الحق قد يخفى على الجماعة الكثيرة ويظهر الله عليه الواحد إذا كان في موضع ذلك من المقام في الإسلام.

وفي هذا الحديث من الفقه أيضا أن الإفصاح عن المعنى قد يكون أحيانا بالغضب في الأمر كما جرى لأبي بكر في ذلك.

وفي هذا الحديث من الفقه أيضا أن الغضب قد يكون في بعض المواطن عبادة لله عز وجل ولاسيما إذا كان مشعرا بشدة احتفال الغاضب بالأمر كهذا المقام الذي قام فيه أبو بكر رضي الله عنه، وعلى هذا يرجع هذا إلى قوله سبحانه: {فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا} وقوله عز وجل: {وأخذ برأس أخيه يجره إليه}، {قال ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي}.

وفيه من الفقه أيضا أنه يجوز مراجعة الإمام في بعض الأحداث المجتهد فيها بتذكيره أحاديث رسول الله – ﷺ – والسنة وما عساه أن يكون قد شده عنه كمراجعة عمر لأبي بكر و لم ينكر عليه.

وفيه أيضا من الفقه أن أبا هريرة سمى منع الزكاة كفرا لاستحلالهم ذلك، فقد انتشر في الإسلام تسميتهم بأهل الردة.[٢٥]

وحديث الباب وشواهده تدل على أنَّ من أسلم من الكفار، حرُم دمه وماله؛ لأنَّه أصبح في عداد المسلمين.

مفهوم الحديث، وشواهده تدل على أنَّ من أبى الإسلام، فإنَّه يجب قتاله حتى يسلم؛ تنفيذًا لأمر الله تعالى: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ} [البقرة: ١٩٣].أي: شرك، ويكون الدين لله، قاله ابن عباس وغيره.

وهذا مما يؤيد القول الراجح؛ أنَّ قتال الكفار ليس هو مجرد دفاع، وإنما هو قتال لأجل سير الدعوة وإبلاغها، وإزاحة من يقوم في وجه تبليغها.

قال ابن رجب: من المعلوم بالضرورة أنَّ النَّبيَّ -ﷺ- كان يقبل من كل من جاءه يريد الدخول في الإسلام الشهادتين فقط، ويعصم دمه بذلك، ويجعله مسلمًا، فقد أنكر على أسامة بن زيد قتله من قال: لا إله إلاَّ الله، لما رفع عليه السيف، واشتد نكيره عليه.

---

[٢٥] – الإفصاح عن معاني الصحاح (١/ ٦٨)

قال ابن رجب أيضًا: وقد ظنَّ بعضهم أنَّ معنى الحديث: أنَّ الكافر يقاتل حتى يأتي بالشهادتين، ويقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة، وفي هذا نظر.فإنَّ سيرة النبي -ﷺ- في قتال الكفار تدل على خلاف هـذا، ففي الصحيح من حديث أبي هريرة: أنَّ النَّبيَّ -ﷺ- دعا عليًّا يوم خيبر، فأعطاه الراية، وقال: "قاتلهم على أن يشهدوا أن لا إله إلاَّ الله، وأنَّ محمَّدًا رسول الله، فإذا فعلوا ذلك، فقد عصموا منك دماءهم، وأموالهم إلاَّ بحقها، وحسابهم على الله عزَّ وجل".

فجعل مجرد الإجابة إلى الشهادتين عصمة للنفوس والأموال إلاَّ بحقها، ومن حقها إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة بعد الدخول في الإسلام، كما فهمه الصحابة، رضي الله عنهم.

وقال الأستاذ محمد ياسين: الجهاد يعتبر الوسيلة العملية المشروعة؛ لتحقيق عقائد البشر، والعدل بين العباد، والقضاء على ظلم الطواغيت،وإزاحتهم من مركز القوة، وطريق الدعوة، فمن الطبيعي إذن أن ينتهي القتال كلَّما وصل الدعاة إلى تحقيق الدعوة الإسلامية، فغاية القتال في الإسلام يدل بوضوح على وجوب كف القتال عن قوم يقبلون الدخول في الإسلام.

وفي الحديث وأمثاله دلالة ظاهرة لمذهب المحققين، وجماهير السلف والخلف أنَّ الإنسان إذا اعتقد دين الإسلام اعتقادًا جازمًا، كفاه ذلك عن تعلم أدلة المتكلمين، ومعرفة الله تعالى بها، خلافًا لمن أوجب ذلك، وجعله شرطًا في كونه من أهل القبلة، وهذا خطأ ظاهر، فإنَّ المراد: التصديق الجازم، وقد حصل، ولأنَّ النَّبيَّ -ﷺ- اكتفى بالتصديق بما جاء به، و لم يشترط المعرفة بالدليل.

وقد تظاهرت بهذا الأحاديث التي يحصل بمجموعها العلم القطعي، والله أعلم.[٢٦]

الحديث الثاني: حق الله على العباد وحقهم عليه

عَنْ مُعَاذ بْنِ جَبَلٍ – قَالَ: بَيْنَا أَنَا رَدِيفُ النَّبِيِّ ﷺ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلَّا أَخِرَةُ الرَّحْلِ، فَقَالَ: «يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ» قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّه وَسَعْدَيْكَ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ: «يَا مُعَاذُ» قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّه وَسَعْدَيْكَ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ: «يَا مُعَاذُ» قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّه وَسَعْدَيْكَ، قَالَ: «هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللَّه عَلَى عِبَادِه» قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «حَقُّ اللَّه عَلَى عِبَادِه أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَلاَ يُشْرِكُوا به شَيْئًا» ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: «يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ» قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّه وَسَعْدَيْكَ، فَقَالَ: «هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ العِبَادِ عَلَى اللَّه إِذَا فَعَلُوهُ» قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «حَقُّ العِبَادِ عَلَى اللَّه أَنْ لاَ يُعَذِّبَهُمْ»[٢٧].

---

[٢٦] – توضيح الأحكام من بلوغ المرام (٦/ ٣٩٥)

[٢٧] – الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ٦٢٢)٥٩٦٧ – ١٧٠٩ –صحيح مسلم (١/ ٥٨) ٤٨ – ٥٠ (٣٠) [ش (ردف النبي ﷺ) الردف والرديف هو الراكب خلف الراكب (مؤخرة الرحل) هو العود الذي يكون خلف الراكب (لبيك رسول الله

هذا الحديث يحوي فقهاً عظيماً للقلوب الواعية، فإنه يبين علة الوجود وأسَّ قيمته، فمن وعاها فقد أفلح وأنجح وإلا فهو من حطيم جهنم -أعاذنا الله تعالى برحمته منها- ويبين بإشارته ما للمشرك من حق إن عمل صالحاً ليعلم أهل الإيمان قيمة هؤلاء الذين يموتون على عمل صالح من غير إسلام كالذين يقاتلون من أجل أرض وغيرها وهم على عملٍ شركيٍّ وكفريٍّ:

يكفي هذا الحديث بيان المقابلة بين ما هو حق على الإنسان أن يؤديه بمنْطوقه، والعقوبة التي يستحقها إن فرَّط في أدائه بمفهومه، فإن الحق الواجب عليه أداءُه هو عبادة الله تعالى وحده وترك الشرك به، إذ العبادة حق خالص له دون ما سواه والتوحيد شرط لقبولها وهو أجلُّ العبادات وأعلاها، فالعبد لا يأتي بعمل أعظم من التوحيد ويشهد لذلك حديث البطاقة فعَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْمَعَافِرِيِّ الْحُبُلِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ -:إِنَّ اللَّهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُؤُوسِ الْخَلاَئِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلاً، كُلُّ سِجِلٍّ مَدُّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: أَتُنْكِرُ شَيْئًا مِنْ هَذَا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لاَ يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ أَوْ حَسَنَةٌ؟ فَيُبْهَتُ الرَّجُلُ وَيَقُولُ: لاَ يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَى، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، وَإِنَّهُ لاَ ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ، فَيُخْرِجُ لَهُ بِطَاقَةً فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزْنَكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلاَّتِ؟ فَيَقُولُ: إِنَّكَ لاَ تُظْلَمُ. قَالَ: فَتُوضَعُ السِّجِلاَّتُ فِي كِفَّةٍ، وَالْبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلاَّتُ، وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ، قَالَ: فَلاَ يَثْقُلُ اسْمَ اللهِ شَيْءٌ[٢٨]..

فمن أتى بالتوحيد فقد حقق العبادة وحقه على الله ألا يعذبه، ومن ترك التوحيد فقد ضيع أعظم الحقوق وأجلها فاستحق العذاب، فليس للعبد من حق على الله سوى هذا، أما ما يحصل من فضل إيجابي على ترك العذاب بتحقيق التوحيد فهو من باب الفضل الإلهي لا من باب المقابلة ويشهد لذلك ما جاء عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَنْ يُنَجِّيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ» قَالُوا: وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «وَلاَ أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ، سَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَاغْدُوا وَرُوحُوا، وَشَيْءٌ مِنَ الدُّلْجَةِ، وَالقَصْدَ القَصْدَ تَبْلُغُوا» "[٢٩] فإن دخول الجنة ليس مقابلة للعمل الصالح توجب الأداء وأما قوله سبحانه وتعالى: { ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } [النحل: ٣٢] وقوله: { وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } [الزخرف: ٧٢] وقوله: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ

وسعديك) الأظهر أمن معنى لبيك إجابة لك بعد إجابة للتأكيد وقيل معناه قربا منك وطاعة لك ومعنى سعديك أي ساعدت طاعتك مساعدة بعد مساعدة]

[٢٨] - صحيح ابن حبان - (ج ١ / ص ٤٦١) (٢٢٥) صحيح لغيره

[٢٩] - الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ٦٥٤)٦٤٦٣ - ١٨١٥ -[ش أخرجه مسلم في صفات المنافقين وأحكامهم باب لن يدخل أحد الجنة بعمله رقم ٢٨١٦ (اغدوا) من الغدو وهو السير أول النهار. (روحوا) من الرواح وهو السير في النصف الثاني من النهار. (الدلجة) السير آخر الليل. (القصد) الزموا الوسط المعتدل في الأمور. (تبلغوا) مقصدكم وبغيتكم]

اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤) } [الأحقاف: ١٣، ١٤] وقوله: {كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } [الطور: ١٩] وما في معنى هذه الآيات التي تبين أن دخول الجنة معلق بالعمل فإن هذا من باب ذكر السبب، إذ لا يقع شيء في هذه الدنيا ولا في الآخرة إلا بسبب، ودخول الجنة لا يكون إلا بسبب، والسبب هو عبادة الله تعالى وحده، والجنة محرمة على المشركين، والحديث لا حجة لأحد فيه من المبتدعين الذين يجوزون على الله تعذيب المطيع ومكافأة العاصي إذ أن عدل الله وقدوسيته يأبيان هذا القول الشنيع الذي يجلُّ عنه حكماء البشر وفضلاؤهم. فإن قيل ما معنى ابْنِ الدَّيْلَمِيِّ، قَالَ: أَتَيْتُ أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ فَقُلْتُ لَهُ: وَقَعَ فِي نَفْسِي شَيْءٌ مِنَ الْقَدَرِ، فَحَدِّثْنِي بِشَيْءٍ لَعَلَّهُ أَنْ يَذْهَبَ مِنْ قَلْبِي، فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ لَوْ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ عَذَّبَهُمْ غَيْرَ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ كَانَتْ رَحْمَتُهُ خَيْرًا لَهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ، وَلَوْ أَنْفَقْتَ مِثْلَ أُحُدٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَا قَبِلَهُ اللَّهُ مِنْكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ، وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَأَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَلَوْ مُتَّ عَلَى غَيْرِ هَذَا، لَدَخَلْتَ النَّارَ» قَالَ: ثُمَّ أَتَيْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ، فَقَالَ مِثْلَ قَوْلِهِ، ثُمَّ أَتَيْتُ حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ، فَقَالَ مِثْلَ قَوْلِهِ، ثُمَّ أَتَيْتُ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ، فَحَدَّثَنِي عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - مِثْلَ ذَلِكَ.[٣٠] فهذا محمول على تقصير العباد في الشكر، فإن نعم الله تعالى توجب الشكر، ومهما شكر العبد فشكره قاصر عن أداء الواجب مقابلة، فالمطالبة متعينة في الذمة وإن كانت لرحمة الله لا تحصل، ولو حصلت لاستحق العبد الجزاء والعذاب للتقصير والتفريط فلذلك قال ﷺ: (لَوْ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ عَذَّبَهُمْ غَيْرَ ظَالِمٍ لَهُمْ).

وقوله ﷺ: (أن يعبدوه ولايشركوا به شيئاً) فيه بيان شرط التوحيد قبل العمل وأثنائه، فإنه لا يقبل الله من عامل عملاً إلا إن كان موحداً، ولا يقبل منه إلا أن أراده بهذا العمل وحده دون سواه، فالتوحيد أساس ولا بناء بلا أساس، وقصْد الله بهذا العمل شرط لطلب جزائه منه، ولو سأل سائل: فما هو جزاء المشرك على أعماله الصالحة؟ فالجواب: إن الكافر قد يقصد وجه الله بعمله مع شركه وكفره كما قال تعالى: {هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣)} [يونس: ٢٢، ٢٣] وغيرها من الآيات التي تبين إخلاص الكافر في دعائه عند حاجته واضطراره، وهذا يبين أن المشرك قد يعمل عملاً صالحا بشرطيه -التوحيد

[٣٠] - تهذيب صحيح ابن حبان (١ - ٣) علي بن نايف الشحود (١/ ١٩٦)(٧٢٧)(صحيح)

والإخلاص- مع شركه في أبواب أخرى، وقد يقصد الكافر بعمله الصالح غير وجه الله كمن تصدق وأراد الشهرة والصيت الحسن فحينئذ يكون الأمر كالتالي:

أما المشرك الذي قصد بعمله وجه الله كمشرك صلى لله وحده وحج لله وحده وتصدق لله وحده فهذا له حق على الله أن يخفف عنه من العذاب بمقدار عمله، عملاً بهذا الحديث، وعملاً بعموم الآيات والأحاديث التي تبين أن الله لا يضيع عمل عامل، وهذا مقتضى عدل الله تعالى وحكمته ورحمته، وأما تحصيل الحسنات والتي هي سبب الجنة فهو غير مستحق لها لأنها فضل إلهي لا يستحقها إلا الموحدون لما بينته الآيات والأحاديث الكثيرة.

وأما إن قصد غير وجه الله فله ما طلب لقوله تعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (١٩) } [الإسراء:] ولقوله: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ } [الشورى: ٢٠] وقوله: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٦)} [هود: ١٥، ١٦] ولحديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ -: «إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مُؤْمِنًا حَسَنَةً، يُعْطَى بِهَا فِي الدُّنْيَا وَيُجْزَى بِهَا فِي الْآخِرَةِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُطْعَمُ بِحَسَنَاتِ مَا عَمِلَ بِهَا لِلَّهِ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا أَفْضَى إِلَى الْآخِرَةِ، لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُجْزَى بِهَا»[٣١] وهو كذلك الموافق للعدل الإلهي المطلق، فإن العدل لا يخرم أبداً، إذ به تقوم السماء والأرض. وأما قوله تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [النور: ٣٩] فهو لفعل الكافر عموماً حسنه وسيئه، صالحه وفاسده، وإن حُمِل على العمل الصالح تخصيصاً فلا تعارض لأن عمل الكافر لا ينجيه من النار بالكليّة وإن كان يخفف عنه من عذابها به، وبالتالي ليس فيه كفاية، وحاله كحال الصديِّ العطشان في الصحراء وجد بعض قطرات الماء فلم تغنه في دفع البلاء عنه.

ومفهوم الحديث أن العبد يستحق العذاب بالشرك لتركه حق الله تعالى وإتيانه بضده، وهذا مفهوم نطقت به نصوص شرعية كثيرة، فإنه لا مقصد لخلق الإنسان إلا هذا، وغيره تبع له، فإن تعمير الأرض وسعيَ الإنسانِ فيها وقيامَه بشأن نفسه والآخرين إنما تكون أهميته حين يأتي به المرء على وجه التعبد لله لأنه الموافق لمقصد خلقه ووجوده، أما إن جاء بهذه الأعمال على وجه التمتع ورغد العيش والرفاهية فإن له ما تولى ولا أجر له، ولذا لا يستحق المدح الديني ولا نسبةَ الصلاح له، وبهذا يظهر

---

[٣١] - صحيح مسلم (٤/ ٢١٦٢) ٥٦ - (٢٨٠٨) - [ش (إن الله لا يظلم مؤمنا حسنة) معناه لا يترك مجازاته بشيء من حسناته والظلم يطلق بمعنى النقص (أفضى إلى الآخرة) أي صار إليها]

ضلالُ الكثيرين اليوم ممن يريدون إيجاب المدح الإلهي لقوم يكفرون به ويسبونه وينسبون له الشريك والولد، أو يأبون الخضوع لأمره وشرعه، وما دعاهم لهذا إلا سوءُ طويَّتهم وفراغُها من عظمة الله وهيبته ولو كان لله تعالى تعزيز في قلوبهم لما جرؤُوا على هذه المقالات الشنيعة، وإذا كان العبد لا يستحق الثناء ولا رفعة الدرجات ولا تحصيل الحسنات بعمله الصالح مع توحيده إذ ليس له من حق على الله إلا أن لا يعذبه فكيف يوجب هؤلاء المتهوكون على الله أن يعطي هؤلاء المشركين فضله وكرامته وهم يسبونه ويشركون به؟! اللهم إنّا نعوذ بك من العمي والضلالة.

حين وقع هذا الحديث موقعه من قلوب العالمين والمخبتين له فإنهم نسبوا كل ما يقع لهم من فضل في الدنيا إلى الله تعالى فهم أهل الحمد لربهم، كما سيكونون كذلك في جنة النعيم، إذ حمد الله تعالى في الأولى والآخرة، وحمده حين يرون صدق وعده ووعيده لأنهم لا يرون لهم حق واجب على مولاهم المنعم الرحيم، وكلما زادت النعم كلما غمط العابدون أنفسهم وامتلأت قلوبُهم حمداً لربهم حتى يصير بهم الأمر إلى الحشر يوم القيامة تحت لواء الحمد[٣٢] الذي يختص به أعظم الخلق على الله تعالى وهو الذي سمّاه الله أحمدَ ومحمداً.

وأساس الكفر نسبة النعم لغير الله تعالى كما قال الله عن المشركين { وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ } [فصلت: ٥٠] ومعنى قولهم: أي أني مستحق لهذه النعم، كما قال قارون: {إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي} [القصص: ٧٨] أي أتتني هذه النعم لما عندي من أسبابها التي تستحقها، وأساس التوحيد هو رؤية المنعم الحقيقي لكل ما يقع على الإنسان من خير وفضل، ولذلك جاءت الآيات والأحاديث تبين النعم الإلهية، مذكرة بها لينسب الإحسان لأهله، والقرآن أغلبه على هذا الباب في بيان حق التوحيد على العبيد كقوله: {أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥)} [الواقعة: ٥٨ - ٦٥] وكقوله: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠) وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١١) وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢) لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ

---

[٣٢] - عَنْ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ -: أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ فَخْرَ، وَأَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ، وَمُشَفَّعٍ، بِيَدِي لِوَاءُ الْحَمْدِ، تَحْتِي آدَمُ فَمَنْ دُونَهُ. صحيح ابن حبان - (ج ١٤ / ص ٣٩٨) (٦٤٧٨) صحيح

إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ (١٤)} [الزخرف:].

وتذكُّر النعم وحمْد الله تعالى عليها سببٌ لزيادهّا والبركة فيها كما قال تعالى: { وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ} [إبراهيم: ٧][٣٣] بل إن أعظم ما يَسأل به الإنسان العابد ربه هو أن يحمده ويشكره كما قال أمية بن أبي الصلت في مدح عبد الله بن جدعان:

أأذكر حاجتي أم قد كفاني — حياؤك إنّ شيمتك الحياء

إذا أثنى عليك المرء يوماً — كفاه من تعرضه الثناء

فبالشكر تدوم النعم وتزيد، وإّن أعظم شكرك لله أن تبذلَ له ما أنعم به عليك من نفسٍ ومالٍ وولدٍ.

ما يرشد إليه الحديث

قَوله : "أَن يَعبُدُوهُ ولا يُشرِكُوا بِهِ شَيئًا " المُراد بالعِبادَة عَمَلُ الطّاعات واجتِنابُ المَعاصِي وعَطَفَ عَلَيها عَدَمَ الشِّرك لأَنَّهُ تَمامُ التَّوحِيد ، والحِكمَةُ فِي عَطفه عَلَى العِبادَة أَنَّ بَعضَ الكَفَرَة كانُوا يَدَّعُونَ أَنَّهُم يَعبُدُونَ الله ولَكِنَّهُم كانُوا يَعبُدُونَ آلِهَةً أُخرَى فاشتَرَطَ نَفي ذَلِكَ ، وتَقَدَّمَ أَنَّ الجُملَة حالِيَّةٌ والتَّقدِيرُ يَعبُدُونَهُ فِي حالِ عَدَمِ الإِشراك بِهِ . قالَ ابن حِبّانَ : عِبادَة الله إِقرار بِاللِّسانِ وتَصدِيق بِالقَلبِ وعَمَل بِالجَوارِحِ ، ولِهَذا قالَ فِي الجَواب " فَما حَقّ العِباد إِذا فَعَلُوا ذَلِكَ " فَعَبَّرَ بِالفِعلِ ولَم يُعَبِّر بِالقَول.

قَوله : "هَل تَدرِي ما حَقّ العِباد عَلَى الله إِذا فَعَلُوهُ " ؟ الضَّمِير لِمّا تَقَدَّمَ مِن قَولِه : "يَعبُدُوهُ ولا يُشرِكُوا بِهِ شَيئًا " فِي رِوايَة مُسلِمٍ " إِذا فَعَلُوا ذَلِكَ. قالَ القُرطُبِيُّ : حَقُّ العِباد عَلَى الله ما وعَدَهُم بِهِ مِنَ الثَّواب والجَزاء ، فَحَقَّ ذَلِكَ ووجَبَ بِحُكمِ وعده الصِّدق ، وقَوله الحَقُّ الَّذِي لا يَجُوزُ عَلَيهِ

[٣٣] – إن شكر النعمة دليل على استقامة المقاييس في النفس البشرية. فالخير يشكر لأن الشكر هو جزاؤه الطبيعي في الفطرة المستقيمة .. هذه واحدة .. والأخرى أن النفس التي تشكر الله على نعمته، تراقبه في التصرف بهذه النعمة. بلا بطر، وبلا استعلاء على الخلق، وبلا استخدام للنعمة في الأذى والشر والدنس والفساد.

وهذه وتلك مما يزكي النفس، ويدفعها للعمل الصالح، وللتصرف الصالح في النعمة بما ينميها ويبارك فيها ويرضي الناس عنها وعن صاحبها، فيكونون له عونا ويصلح روابط المجتمع فتنمو فيه الثروات في أمان. إلى آخر الأسباب الطبيعية الظاهرة لنا في الحياة. وإن كان وعد الله بذاته يكفي لاطمئنان المؤمن، أدرك الأسباب أو لم يدركها، فهو حق واقع لأنه وعد الله.

والكفر بنعمة الله قد يكون بعدم شكرها. أو بإنكار أن الله واهبها، ونسبتها إلى العلم والخبرة والكد الشخصي والسعي! كأن هذه الطاقات ليست نعمة من نعم الله! وقد يكون بسوء استخدامها بالبطر والكبر على الناس واستغلالها للشهوات والفساد .. وكله كفر بنعمة الله ..

والعذاب الشديد قد يتضمن محق النعمة. عينا بذهابها. أو سحق آثارها في الشعور. فكم من نعمة تكون بذاتها نقمة يشقى بها صاحبها ويحسد الخالين! وقد يكون عذابا مؤجلا إلى أجله في الدنيا أو في الآخرة كما يشاء الله. ولكنه واقع لأن الكفر بنعمة الله لا يمضي بلا جزاء.ذلك الشكر لا تعود على الله عائدته. وهذا الكفر لا يرجع على الله أثره. فالله غني بذاته محمود بذاته، لا بحمد الناس وشكرهم على عطاياه.في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ – ت- علي بن نايف الشحود (ص: ٢٧٤٢)

الكَذبُ فِي الخَبَرِ ولا الخُلفُ فِي الوعدِ ، فالله سُبحانَهُ وتَعالَى لا يَجبُ عَلَيهِ شَيءٌ بِحُكمِ الأَمـــرِ إذ لا آمِرَ فَوقَهُ ولا حُكمَ لِلعَقلِ لأَنَّهُ كاشِفٌ لا مُوجِبٌ انتَهَى.

وفِي الحَدِيث جَوازُ رُكُوبِ اثنَينِ عَلَى حِمارٍ ، وفِيهِ تَواضُعُ النَّبِيِّ ﷺ ، وفَضلُ مُعاذ وحُسنُ أَدَبِهِ فِي القَولِ وفِي العِلمِ بِرَدِّهِ لِما لَم يُحِط بِحَقِيقَتِهِ إِلَى عِلمِ اللهِ ورَسُولِهِ ، وقُربِ مَنزِلَتِهِ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ وفِيـــهِ تَكرارُ الكَلامِ لِتَأكِيدِهِ وتَفهِيمِهِ ، واستِفسارِ الشَّيخِ تِلمِيذَهُ عَن الحُكمِ لِيَختَبِرَ ما عِندَهُ ويُبَيِّنَ لَـــهُ مـــا يُشكِلُ عَلَيهِ مِنهُ.

وقالَ ابن رَجَبٍ فِي شَرحِهِ لأَوائِلِ البُخارِيِّ : قالَ العُلَماءُ يُؤخَذ مِن مَنعِ مُعاذ مِن تَبشِيرِ النّاسِ لِـــئَلاَّ يَتَّكِلُوا أَنَّ أَحادِيث الرُّخَصِ لا تُشاعُ فِي عُمُومِ النّاسِ لِئَلاَّ يَقصُرَ فَهمُهُم عَن المُرادِ بِها ، وقَد سَـــمِعَها مُعاذ فَلَم يَزدَد إِلاَّ اجتِهادًا فِي العَمَلِ وخَشيَةً لِلَّهِ عَزَّ وجَلَّ ، فَأَمّا مَن لَم يَبلُغ مَنزِلَتَهُ فَلا يُؤمَنُ أَن يُقَصِّرَ اتِّكالاً عَلَى ظاهِرِ هَذا الخَبَرِ ، وقَد عارَضَهُ ما تَواتَرَ مِن نُصُوصِ الكِتابِ والسُّـــنَّةِ أَنَّ بَعـــضَ عُصـــاةِ المُوحِّدِينَ يَدخُلُونَ النّارَ ، فَعَلَى هَذا فَيَجِبُ الجَمعُ بَينَ الأَمرَينِ ، وقَد سَلَكُوا فِي ذَلِـــكَ مَســـالِكَ : أَحَدها قَولُ الزُّهرِيِّ إِنَّ هَذِهِ الرُّخصَةَ كانَت قَبلَ نُزُولِ الفَرائِضِ والحُدُودِ.، واستَبعَدَهُ غَـــيرُهُ مِـــن أَنَّ النَّسخَ لا يَدخُلُ الخَبَرَ ، وبِأَنَّ سَماعَ مُعاذ لِهَذِهِ كانَ مُتَأَخِّرًا عَن أَكثَرِ نُزُولِ الفَرائِضِ .وقِيلَ لا نَســـخَ بَل هُوَ عَلَى عُمُومِهِ ، ولَكِنَّهُ مُقَيَّدٌ بِشَرائِطَ كَما تُرَتَّبُ الأَحكامُ عَلَى أَسبابِها المُقتَضِيَةِ المُتَوقِّفَـــةِ عَلَـــى انتِفاءِ المَوانِعِ ، فَإِذا تَكامَلَ ذَلِكَ عَمِلَ المُقتَضِي عَمَلَهُ ، وإِلَى ذَلِكَ أَشارَ وهبُ بنُ مُنَبِّهٍ بِقَولِهِ المُتَقَدِّمِ فِي كِتابِ الجَنائِزِ فِي شَرحِ " أَنَّ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ مِفتاحُ الجَنَّةِ " : لَيسَ مِن مِفتاحٍ إِلاَّ ولَهُ أَسنانٌ.[٣٤]

قال بعض العلماء: جهاد المرء نفسه، هو الجهاد الأكمل، وهو أربع مراتب: حملها على تعلم أمـــور الدين، ثم حملها على العمل بذلك، ثم حملها على تعليم من لا يعلم، ثم الدعاء إلى توحيد الله.[٣٥]

دل الحديث على خلق التواضع وأنه من صفات النبي ﷺ ؛ ولهذا ركب على الحمار وأردف معاذ بن جبل خلفه ، قال الإمام عبد الله بن أبي جمرة رحمه الله : " فيه دليل على تواضع الـــنبي ﷺ وحســـن خلقه إذ أنه في الفضل حيث هو وكان يركب هو وغيره على دابة واحدة "

ولا شك أن مراكب المواصلات : من ميادين الدعوة ، التي تستغل لنشر الدعوة أثناء السير فالنبي ﷺ كان يعلِّم أثناء سيره وهو راكب على الحمار كما فعل مع معاذ رضي الله عنه في هـــذا الحـــديث ، وكما فعل مع ابن عباس رضي الله عنهما حينما كان رديفه على حمار....وهذا يبين للداعية أهميـــة انتهاز الفرص أثناء ركوبه على وسائل المواصلات ؛ قال الإمام عبد الله بن أبي جمـــرة رحمـــه الله في فوائد حديث معاذ رضي الله عنه : " فيه في دليل على جواز الحث في العمل في الطريق على الدواب ، هذا بشرط أن يكون الطريق ليس فيه اللغط الكثير ؛ لأنه قلَّ أن يأتي التعلم مع كثرة اللغط "

---

[٣٤] – فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (١١/ ٣٣٩)

[٣٥] – تطريز رياض الصالحين (ص: ٢٩٠)

فينبغي للداعية أن ينتهز الفرص أثناء ركوبه على وسائل المواصلات : كالسيارات ، والطائرات ، والقطارات ، والسفن البحرية وغيرها ، فينشر الدعوة ، ويعلم الخير ، إلا إذا منع من ذلك مانع ، أو عارض ذلك مصلحة شرعية ، أو خشي الداعية حصول مفسدة ، أو تعطل مصلحة أعظم . . . والداعية الحكيم هو الذي يضع دعوته في موضعها المناسب .

ودل هذا الحديث على أن من أساليب الدعوة طرح الداعية الأسئلة على المدعوين ؛ ليختبر ما عندهم من العلم ؛ ولهذا قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه : « يا معاذ هل تدري حق اللّه على عباده ؟ وما حق العباد على اللّه ؟ » وقد بيَّن الحافظ ابن حجر رحمه الله : أن في هذا الحديث من الفوائد " استفسار الشيخ تلميذه ؛ ليختبر ما عنده ، ويبيِّن له ما يشكل عليه منه "

ودل قوله ﷺ : " يا معاذ " على أنَّ نداء الشخص باسمه قبل إلقاء العلم إليه من أدب العلم ومن أساليب الدعوة إلى اللّه سبحانه وتعالى ؛ ولهذا بيَّن الإمام عبد الله بن أبي جمرة أن في هذا الحديث من الفوائد في جذب قلب المدعو : " إحضار ذهنه إليك ؛ ليعي ما تلقيه إليه ؛ لأن الأذهان قد يطرقها فكرة فتكون بها مشغولة فلا تعي كل ما يلقى إليها "

إن تعليم عامة الناس من أهم المهمات ، وليس من شرطه أن يبقى الداعية ينتظر أسئلتهم ، بل عليه أن يجتهد في تعليمهم العلم ، وقد دل قوله ﷺ لمعاذ رضي الله عنه : « حق اللّه على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا » أن الداعية يعلم الناس العلم ولو لم يسألوا عنه ؛ قال الإمام عبد الله بن أبي جمرة رحمه الله : " وفي تعليمه ﷺ معاذا من غير سؤال منه له ﷺ دليل لمن يقول إن للعالم أن يعلم دون أن يسأل "

وإن السؤال عما أشكل من الأمور المهمة ؛ ولهذا قال معاذ رضي الله عنه : « فقلت يا رسول اللّه أفلا أبشر به الناس ؟ قال : " لا تبشرهم فيتكلوا » ؛ قال الحافظ ابن حجر رحمه الله : " وفيه جواز استفسار الطالب عما يتردد فيه ، واستئذانه في إشاعة ما يعلم به وحده "

ودل الحديث على أهمية مراعاة أحوال المدعوين ؛ لأن النبي ﷺ علَّم معاذا أن : « حق العباد على اللّه أن لا يعذب من لا يشرك به شيئا » وعندما قال له معاذ رضي الله عنه : يا رسول اللّه أفلا أبشر الناس ؟ فقال ﷺ : « لا تبشرهم فيتكلوا » وهذا يبين أن الداعية يراعي أحوال المدعوين فيقدم لكل إنسان ما يناسبه

وقد ظهر هذا الأسلوب في هذا الحديث بقوله ﷺ : " يا معاذ " وكرر نداء معاذ " ثلاث مرات " وهذا التكرار ، لتأكيد الاهتمام بما يخبره به ؛ وليكمل تنبيه معاذ فيما يسمعه ، قال الإمام القرطبي رحمه الله : " وإنما كرر النبي ﷺ نداء معاذ ثلاثا ؛ ليستحضر ذهنه وفهمه ؛ وليشعره بعظم ما يلقيه عليه "

إن الداعية الناجح هو الذي يلتزم التثبت والوقار في تعليمه للناس الخير وإلقاء العلم إليهم ، ويؤخذ هذا من إبطائه ﷺ في الجواب ؛ ولهذا قال : « يا معاذ " فقال معاذ رضي الله عنه : قلت : لبيك يا رسول اللّه وسعديك . ثم سار ساعة فقال : " يا معاذ " فقال رضي الله عنه : لبيك رسول اللّه وسعديك . ثم سار ساعة ثم قال : " يا معاذ بن جبل " فقال معاذ : " لبيك رسول اللّه وسعديك » قال الإمام عبد الله بن أبي جمرة رحمه الله : " ويؤخذ من إبطائه ﷺ بين الندائين أن من سنة إلقاء العلوم الوقار ، والتؤدة " ومن كمال الحكمة والوقار والتؤدة أنه ﷺ ناداه بقوله : " يا معاذ " مرتين ثم زاد في الثالثة " يا معاذ بن جبل " قال ابن أبي جمرة رحمه الله عن هذه الزيادة " إنما هي إشارة إلى أن هذه الثالثة آخر النداء فاسمع ما يلقى إليك ؛ لأن زيادة (بن جبل) هو الكمال في التعريف ، فإذا كمل الشيء فقد تم "

دل هذا الحديث على التأكيد والتنبيه على الاقتراب من حلقات العلم ومجالسه ، وأن ذلك مما يعين السامع على الضبط ؛ ولهذا قال معاذ بن جبل رضي الله عنه : " ليس بيني وبينه إلا مؤخرة الرحل " قال الإمام النووي رحمه الله : " أراد المبالغة في شدة قربه ؛ ليكون أوقع في نفس سامعه ؛ لكونه أضبط "

ولا شك أنه ينبغي بل يلزم كل مسلم – وخاصة الداعية إلى اللّه سبحانه وتعالى – إذا سئل عن شيء لا يعلمه أن يقول : اللّه أعلم ، أو لا أدري ، أو سأراجع المسألة إن شاء اللّه ، وقد دل هذا الحديث على هذا الأدب الكريم في قول معاذ بن جبل رضي الله عنه : " اللّه ورسوله أعلم " .

ودل الحديث على أن القيام بالواجبات والابتعاد عن المحرمات من أعظم الفرائض التي فرضها اللّه على عباده ؛ ولهذا قال النبي ﷺ لمعاذ رضي الله عنه : « حق اللّه على عباده أن يعبدوه ، ولا يشركوا به شيئا » قال الكرماني رحمه الله : قوله ﷺ : « أن يعبدوه » أشار إلى العمليات ، وقوله : « ولا يشركوا به شيئا » أشار إلى الاعتقاديات .

فينبغي للداعية إلى اللّه عز وجل أن يدعو الناس إلى عبادة اللّه وحده ، ويحثهم على الإيمان باللّه ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وبالقدر خيره وشره من اللّه عز وجل ، والعمل بمقتضى الشهادتين : من إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج بيت اللّه الحرام لمن استطاع إليه سبيلا ، وأن يعبد العبد اللّه كأنه يراه ، فإن لم يكن يراه فإن اللّه يراه ، وصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وبر الوالدين ، وصلة الأرحام ، والوفاء بالعهد ، وإنجاز الوعد ، والإحسان إلى الجار ، واليتيم ، والمسكين ، والمملوك من الآدميين والبهائم ، وإكرام الضيف ، وتنفيس الكرب عن المكروب من المسلمين ، والتيسير على المعسر ، وستر المسلم ، وإعانته ، والإخلاص للّه ، والتوكل عليه ، والمحبة له ولرسوله ﷺ ، وخشية اللّه ، ورجاء رحمته ، والتوبة والإنابة إليه ، والصبر على حكمه ، والشكر لنعمه ، وقراءة القرآن ، وذكر اللّه ، والدعاء ، ومسألته والرغبة إليه ، والأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر ، والجهاد في سبيل اللّه للكفار والمنافقين ، وأن يصل المسلم من قطعه ، ويعطي من حرمه ، ويعفو عمن ظلمه ، والعدل في جميع الأمور ، وعلى جميع الخلق حتى الكفار ، وإطعام الطعام ، وإفشاء السلام ، والصلاة بالليل والناس نيام ، وحسن الخلق ، والدعوة إلى اللّه ، والنصيحة للّه ، ولرسوله ولكتابه ، ولأئمة المسلمين ، وعامتهم ، وغير ذلك من أنواع العبادات

ومن العبادات : أن يبتعد الإِنسان عن جميع المعاصي والسيئات ، فينبغي للداعية أن يحذر الناس عن الشرك ، والتكذيب بالرسل ، والكفر ، والحسد ، والكذب ، والفجور ، والخيانة ، والظلم ، والفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والغدر ، وقطيعة الرحم ، والجبن عن الجهاد ، والبخل ، والشح ، واختلاف السر والعلانية ، واليأس من روح اللّه ، والأمن من مكر اللّه ، والجزع عند المصائب ، والفخر والبطر عند النعم ، وترك فرائض اللّه ، واعتداء حدوده ، وانتهاك حرماته ، وخوف المخلوق دون الخالق ، ورجاء المخلوق دون الخالق ، والتوكل على المخلوق دون الخالق ، والعمل رياء وسمعة ، ومخالفة الكتاب والسنة ، وطاعة المخلوق في معصية الخالق ، والتعصب بالباطل ، والاستهزاء بآيات اللّه ، وجحد الحق ، والكتمان لما يجب إظهاره من علم وشهادة ، والسحر ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس التي حرم اللّه إلا بالحق ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا ، وإعطاء الرشوة وأخذها ، وأكل أموال الناس بالباطل ، والفرار من الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات ، والغيبة ، والنميمة ، وشهادة الزور ، وشرب الخمر ، والكبر والخيلاء ، والسرقة ، واليمين الغموس ، وتشبه الرجال بالنساء والنساء بالرجال ، والمنّ بالعطية ، وإنفاق السلعة بالحلف الكاذب ، وتصديق الكاهن والمنجم ، والتصوير لذوات الأرواح ، واتخاذ القبور مساجد ، والنياحة على الميت ، وإسبال الإِزار ، ولبس الحرير أو الذهب للرجال ، وأذى الجار ، وإخلاف الوعد ، ونقض العهد ، وغير ذلك من المحرمات

ودل الحديث على أن أهم موضوعات الدعوة : الدعوة إلى التوحيد والتحذير من الشرك باللّه عز وجل ؛ لأن النبي ﷺ قال في هذا الحديث : « حق اللّه على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا » وقد بين الإِمام عبد الله بن أبي جمرة رحمه الله : أن حق اللّه على عباده هو الجمع بين امتثال الحكمة في الأمر والنهي ، وحقيقة التوحيد"

فيلزم الداعية إلى اللّه عز وجل أن يبين للناس توحيد اللّه سبحانه وتعالى كما جاء في الكتاب والسنة ، ويوضح لهم أن التوحيد نوعان :

النوع الأول : التوحيد الخبري العلمي الاعتقادي ، وهو توحيد في المعرفة والإِثبات ، وهذا هو توحيد الربوبية ، والأسماء والصفات ، وهو إثبات حقيقة ذات الرب سبحانه وتعالى وصفاته ، وأفعاله ، وأسمائه ، وتكلمه بكتبه لمن شاء من عباده ، وإثبات عموم قضائه وقدره ، وحكمته ، وتنزيهه عما لا يليق به عز وجل من غير : تمثيلٍ ، ولا تعطيل ، ولا تكييف ، ولا تحريف ، ولا تفويض للمعاني .

النوع الثاني : التوحيد الطلبي القصدي الإرادي : وهو توحيد في الطلب والقصد : وهو توحيد الإلهية والعبادة .

والقرآن كله من أوله إلى آخره في إثبات وتقرير هذين النوعين ؛ لأنه إما خبر عن اللّه تعالى ، وأسمائه وصفاته وأفعاله ، وأقواله ، وما يجب أن يوصف به ، وما يجب أن يتره عنه . فهو التوحيد العلمي الخبري .

ودل الحديث على أهمية حب المسلم – وخاصة الداعية – الخير للناس وفرحه بذلك ؛ لأن معاذ بن جبل رضي الله عنه فرح فرحا شديدا بقوله ﷺ : « وحق العباد على اللّه أن لا يعذب من لا يشرك به شيئا » فقال معاذ : " يا رسول اللّه ، أفلا أبشر الناس ؟ "

فينبغي للداعية أن يحب الخير للناس ويدخل السرور عليهم بتبشيرهم بما يسرهم ؛ فإن ذلك يؤثر في نفوسهم ويكون وسيلة إلى قبول دعوته

ودل هذا الحديث على أن التحذير من الاتكال من موضوعات الدعوة ؛ لأن النبي ﷺ قال لمعاذ بن جبل رضي الله عنه : « لا تبشرهم فيتكلوا » وهذا فيه إنذار من الاتكال وترك العبادة ،فينبغي للداعية أن يحذر الناس من الاتكال والكسل ، ويحثهم على العمل والنشاط ؛ ولهذا قال سبحانه : { وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } (سورة التوبة ، الآية : ١٠٥) .

ودل على هذين الأسلوبين قوله ﷺ : « وحق العباد على اللّه أن لا يعذب من لا يشرك به شيئا » .

قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى : " حق اللّه على عباده ما أوجبه عليهم بحكمه وألزمهم إياه بخطابه ، وحق العباد على اللّه : هو ما وعدهم به من الثواب والجزاء ، فحقَّ ذلك ووجب بحكم وعده الصدق وقوله الحق ، الذي لا يجوز عليه الكذب في الخبر ، ولا الخلف في الوعد ، فاللّه تعالى لا يجب عليه شيء بحكم الأمر ، إذ لا آمر فوقه ، ولا بحكم العقل إذ العقل كاشف لا موجب "

ودل هذا الحديث على فصاحة النبي ﷺ وبلاغته ؛ لأنه جمع المعاني الكثيرة في الكلمات القليلة ، فقوله ﷺ : « حق اللّه على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا »« وحق العباد على اللّه أن لا يعذب من لا يشرك به شيئا » كلمات قصيرات ، شملت المعاني الكثيرة ، مع كمال الوضوح والبيان .

فينبغي للداعي أن يجتهد في الإيجاز في الألفاظ التي تتسع معانيها على حسب القدرة والاستطاعة .[٣٦]

الحديث الثالث: أي الناس أفضل

---

[٣٦] – فقه الدعوة في صحيح الإمام البخاري (١/ ٤٩٨)

عن أبي سَعِيدٍ الخُدْرِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مُؤْمِنٌ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ»،قَالُوا: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «مُؤْمِنٌ فِي شِعْبٍ مِنَ الشِّعَابِ يَتَّقِي اللَّهَ، وَيَدَعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ»[٣٧].

صدق صيارفة الحديث حين قالوا: إن للحديث الصحيح نوراً يعرف به وإنه للكذب ظلمة يعرف بها، ومن نظر في هذا الحديث بعين التقوى ومقصد خلقه علم أنه لا يخرج إلا من فم نبي، فإنه حدَّ للعابدين حدّي الخير لمبتغيه، ومن ينظر إلى اجتهادات الناس اليوم ومن سبق عَلِم أن الكثير مما يقولونه خارج عن حد الخير والعدل، فالحديث يهدي إلى فعل الطاعة لمن قدر عليها فإن تعذّرت فالخير في اعتزال الفعل، هذا إن أراد خير دينه، وأما قول من قال –وهم اليوم كثير– إن الشر هو خيارنا الوحيد فهم كاذبون على قدر الله وشرعه معاً فإن الشر لا يكون أبداً هو خيار المؤمن في حياته، إذ أن الخير هو الأغلب والأكثر في خلق الله وقدره، والله لا يأمر بالشر ولا يرضى به ولا يحبه، لكن إن صارت مطالب الإنسان متعلقة بالهوى والشهوة، لا بالكفاية والضرورة والحاجية حينئذ يتصور أنه لابدّ له من الشر والمعصية فيفتي له هواه وشيطانه من الجن والإنس أن ضرورة الحياة تجيز له المعصية والشر، وهذا هو أساس ضلال الكثير من الفتاوى هذه الأيام، فإنهم يأخذون أحكام الضرورات ويستخدمونها للتحسينات والشهوات.

الجهاد هو ذروة سنام الإسلام[٣٨]، والعامل فيه قائم في الذروة من الفضائل فلذلك هو أفضل أهل الإيمان، والجهاد بالنسبة لهذا الفاضل هو عمل حياته الذي رضيه لنفسه، فيه يقضي أوقاته، وفيه باب رزقه ومعيشته، وهذا هو الذي رضيه الله تعالى لأعظم البشر بعد الأنبياء وهم أصحاب النبي محمد ﷺ إذ كان الجهاد هو عمل حياتهم و لم ينتفعوا في حياتهم من مال ونعيم كما انتفعوا من حياة الجهاد ولذلك سمى الله الجهاد " حياة " كما قال تعالى: { يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ **إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ** وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (} [الأنفال: ٢٤].

والجهاد درجات أعظمها أن يجاهد المرء بنفسه وماله، فإن خرج بنفسه ومال غيره فحسن لكن دون الأول في الدرجة، وإن بذل ماله دون نفسه كان كذلك، وأولى الدرجات وهو أن يخرج بنفسه وماله فلا يعود بشيء من الغنيمة فإن أصابته الشهادة فهي منزلة المنازل وأعظمها وأجلها، والله يؤتي فضله من يشاء.

---

[٣٧] – الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ٣٦٥)٢٧٨٦ – ١٠٢٨ –[ش أخرجه مسلم في الإمارة باب فضل الجهاد والرباط رقم ١٨٨٨. (شعب) هو انفراج بين جبلين والمراد العزلة والانفراد عن الناس]

[٣٨] – عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، قَالَ: أَقْبَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَخْبِرْنِي عَنْ ذُرْوَتِهِ فَقَالَ: أَمَّا ذُرْوَتُهُ فَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَعْنِي ذُرْوَةَ الْإِسْلَامِ "الجهاد لابن أبي عاصم (١/ ١٥٣)(١٥ و١٦) ومصنف ابن أبي شيبة (٤/ ٢٠٢)(١٩٣١٢) صحيح لغيره

قوله: «مُؤْمِنٌ فِي شِعْبٍ مِنَ الشِّعَابِ يَتَّقِي اللَّهَ، وَيَدَعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ» فإن المؤمن الذي لا يقدر على الجهاد وما كان في معناه من طلب العلم ونشره والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإن أفضل ما يعمله هو الاعتزال بعيداً عن أذى الناس وإيذائهم، فالعزلة خيار إيماني أضاعه الناس اليوم من أذهانهم، وغيابه من خيارات الأعمال جرّ على الناس الكثير من الباطل والإثم. والعزلة لها أحكامها العامة، فهي خيار لمن لم يقدر على العمل سواء من جهة نفسه أو جهة واقعه، فإن الأفضل هو العمل فعَنِ ابْنِ عُمَرَ، عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - قَالَ: «الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ، وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ، خَيْرٌ مِنَ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ، وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ»[٣٩] ، ولكن مما خلق الله من البشر أن يكون ضيق النفس إن رأى الشر يعظ في الابتداء ثم تضجر نفسه فيتحول وعظه إلى تبكيت وقسوة فهذا في قلبه النكارة والكره فهذا يخاف على دينه وإيمانه، كما يُخاف عليه أن يقع فيما وقعوا فيه فهذا هروبه من الناس خير له وأسلم بل قد يكون بالإعراض والعظة والتنبيه، وكما قال تعالى: {وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا } [النساء: ١٤٠]، والذي يُعرف عن السابقين هو اعتزال الناس عموماً في آخر العمر وتفرغهم للعبادة كما ذكر أهل المدينة من تفرغ للعبادة بعد الأربعين إلا من كان متكلفاً عملاً من أعمال المسلمين الواجب أداءها.

وأما الاعتزال بسبب الواقع والحال فإن الشر قد يعم ويمنع الخير ويحارب وتصم الآذان عن السماع والاهتداء فإن سنة الأنبياء هو الهجرة كما وقع لإمام الحنفاء إبراهيم عليه السلام ومعه لوط الذي آمن معه، وفي الحديث "فَقَالَ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، أَكُونُ حَيًّا حِينَ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ» فَقَالَ وَرَقَةُ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا "[٤٠].

---

[٣٩] – الأدب المفرد مخرجا (ص:١٤٠) (٣٨٨) وسنن ابن ماجه (٢/ ١٣٣٨) (٤٠٣٢) صحيح

اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ الأَفْضَلَ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَخْتَلِطَ بِالنَّاسِ، وَيَحْضُرَ جَمَاعَاتِهِمْ وَمَشَاهِدَ الْخَيْرِ وَمَجَالِسَ الْعِلْمِ، وَأَنْ يَعُودَ مَرِيضَهُمْ، وَيَحْضُرَ جَنَائِزَهُمْ، وَيُوَاسِيَ مُحْتَاجَهُمْ، وَيُرْشِدَ جَاهِلَهُمْ، وَيَأْمُرَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيَدْعُوَ لِلْخَيْرِ، وَيَنْشُرَ الْحَقَّ وَالْفَضِيلَةَ، وَيُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لإِعْلاَءِ كَلِمَةِ اللَّهِ، وَإِعْزَازِ دِينِهِ مَعَ قَمْعِ نَفْسِهِ عَنْ إِيذَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَالصَّبْرِ عَلَى أَذَاهُمْ.

قَالَ النَّوَوِيُّ: إِنَّ الاِخْتِلاَطَ بِالنَّاسِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ هُوَ الْمُخْتَارُ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - وَسَائِرُ الأَْنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلاَمُهُ عَلَيْهِمْ، وَكَذَلِكَ الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ، وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ، وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَأَخْيَارِهِمْ لِقَوْلِهِ تَعَالَى {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى} وَقَوْلِهِ تَعَالَى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} وَقَوْلِهِ تَعَالَى: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ}.

هَذَا إِذَا لَمْ تَكُنْ هُنَاكَ فِتْنَةٌ عَامَّةٌ أَوْ فَسَادٌ سَائِدٌ لاَ يَسْتَطِيعُ إِصْلاَحَهُ، أَوْ غَلَبَ عَلَى ظَنِّهِ وُقُوعُهُ فِي الْحَرَامِ بِسَبَبِ الْمُخَالَطَةِ فَيُسْتَحَبُّ لَهُ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ الْعُزْلَةُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً} ... الموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (٢٣/ ١٧٤)

[٤٠] – صحيح البخاري (٦/ ١٧٣)(٤٩٥٣) وتهذيب صحيح مسلم- علي بن نايف الشحود (ص: ٧٤)(١٦٠)

والعزيمة مراتب يشرح مراتبها الرد على الذين لا يرون إلا خيار العمل بمعصية الله وكأنه لازم للمسلم، إذ نرى ونسمع الذين يسلكون سبل الباطل من الأعمال الكثيرة بحجة أنّ على أهل الإسلام أن يملؤوا هذه السبل وإلا تركت للعصاة أو غير المسلمين من المشركين والمرتدين، فدوماً حين يسألون عن دينهم الذي دانوا به حتى جلسوا هذه المجالس واقترفوا هذه الأعمال أجابوا بأن أهل الإسلام إن لم يعملوها عملها أهل الباطل، وهذا من باب تقليل الشر ما أمكن، والحديث هنا ليس على ما يجره سلوكهم من الباطل عليهم في دينهم كما نرى من واقعهم وعلى ما يجره على دين الله تعالى في أذهان الناس وعقولهم ولكن التنبيه هنا إلى أن هؤلاء القوم جهلوا أن الواجب اعتزال الباطل، فلسنا وكلاء على الناس كما قال الله لنبيه ﷺ {وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ} [الأنعام: ١٠٧] فالمطلوب هو تطبيق حكم الله تعالى أولاً وهو هجران الباطل {وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ } [الشورى: ٣٧] وقد أحسن من قال: إن فعل هؤلاء أشبه بمن يقول وقد رأى امرأة تريد الزنا ولا بدّ، فقال: أن أزني بها أنا وأسترها من الفضيحة (من باب تقليل الشر) خير أن يزني بها فاجر ويفضحها.

إن المؤمن الذي يتقي ربه ويريد سلامة دينه إن لم يقدر على الحق كما أمر الله تعالى به فإنه يهرب من الباطل ولا يأتيه، وهذه هي سيرة السلف التي عملوها وحضّوا الناس عليها، وقد سمى سفيان الثوري إتيان الباطل تحت ذرائع وهمية بخديعة إبليس، وقد صدق رحمه الله تعالى[٤١].

ولهؤلاء حجج كثيرة أغلبها تقوّل عن أهل العلم تتعلق بالموازنة بين الحق والباطل، وأن تقليل الشر مطلب شرعي كما تحصيل المنفعة، ومما لا ريب فيه أن هذه القواعد -الموازنات- قواعد صحيحة في وضعها العلمي لكن على ذلك تنبيهات فيها:

١. أنه لغلبة الهوى هذه الأيام وقلة التقوى كما هو مشاهد فإن أي منفعة ولو كانت من باب الشهوة والتحسينات فإنها تضخم وتسبغ عليها كلمات الباطل وكأنها من ضرورات العامة والمسلمين من أجل تبريرها وإتيانها، وواقع الحال وقواعد العمل يشهدان أنها شهوة خاصة ولا زيادة.

---

[٤١] – عَنْ حَفْصِ بْنِ عُمَرَ بْنِ سَعِيد – وَهُوَ ابْنُ أَخِي سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ – قَالَ: كَتَبَ سُفْيَانُ إِلَى عَبَّادِ بْنِ عَبَّاد: أَمَا بَعْدَ فَإِنَّكَ فِي زَمَانٍ كَانَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ يَتَعَوَّذُونَ أَنْ يُدْرِكُوهُ وَلَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَيْسَ لَنَا، وَلَهُمْ مِنَ الْقِدَمِ مَا لَيْسَ لَنَا فَكَيْفَ بِنَا حِينَ أَدْرَكْنَاهُ عَلَى قِلَّةٍ عِلْمٍ وَقِلَّةِ صَبْرٍ وَقِلَّةِ أَعْوَانٍ عَلَى الْخَيْرِ وَفَسَادٍ مِنَ النَّاسِ وَكَدَرٍ مِنَ الدُّنْيَا، فَعَلَيْكَ بِالْأَمْرِ الْأَوَّلِ وَالتَّمَسُّكِ بِهِ، وَعَلَيْكَ بِالْخُمُولِ فَإِنَّ هَذَا زَمَنُ خُمُولٍ، وَعَلَيْكَ بِالْعُزْلَةِ وَقِلَّةِ مُخَالَطَةِ النَّاسِ فَقَدْ كَانَ النَّاسُ إِذَا الْتَقَوْا يَنْتَفِعُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، فَأَمَّا الْيَوْمُ فَقَدْ ذَهَبَ ذَاكَ وَالنَّجَاةُ فِي تَرْكِهِمْ فِيمَا نَرَى، وَإِيَّاكَ وَالْأُمَرَاءَ أَنْ تَدْنُوَ مِنْهُمْ وَتُخَالِطُهُمْ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ، وَإِيَّاكَ أَنْ تُخْدَعَ فَيُقَالَ لَكَ تَشْفَعُ وَتَدْرَأُ عَنْ مَظْلُومٍ أَوْ تُرَدَّ مَظْلَمَةً **فَإِنَّ ذَلِكَ خَدِيعَةُ إِبْلِيسَ**، وَإِنَّمَا اتَّخَذَهَا فُجَّارُ الْقُرَّاءِ سُلَّمًا، وَكَانَ يُقَالُ: اتَّقُوا فِتْنَةَ الْعَابِدِ الْجَاهِلِ وَالْعَالِمِ الْفَاجِرِ فَإِنَّ فِتْنَتَهَا فِتْنَةٌ لِكُلِّ مَفْتُونٍ، وَمَا لَقِيتَ مِنَ الْمَسْأَلَةِ وَالْفُتْيَا فَاغْتَنِمْ ذَلِكَ وَلَا تُنَافِسْهُمْ فِيهِ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَكُونَ كَمَنْ يُحِبُّ أَنْ يُعْمَلَ بِقَوْلِهِ أَوْ يُنْشَرَ قَوْلُهُ أَوْ يُسْمَعَ مِنْ قَوْلِهِ، فَإِذَا تَرَكَ ذَاكَ مِنْهُ عُرِفَ فِيهِ، وَإِيَّاكَ وَحُبَّ الرِّيَاسَةِ فَإِنَّ الرَّجُلَ تَكُونُ الرِّيَاسَةُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَهُوَ بَابٌ غَامِضٌ لَا يُبْصِرُهُ إِلَّا الْبَصِيرُ مِنَ الْعُلَمَاءِ السَّمَاسِرَةِ، فَتَفَقَّدْ نَفْسَكَ وَاعْمَلْ بِنِيَّةٍ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ دَنَا مِنَ النَّاسِ أَمْرٌ يَشْتَهِي الرَّجُلُ أَنْ يَمُوتَ وَالسَّلَامُ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٦/ ٣٧٦) وأخبار الشيوخ وأخلاقهم (ص: ١٨٥)(٣٣٧) صحيح

٢. ومما يزيد الأمر خطورة أن الكثير من هذه المصالح الدنيوية تصادم حق الله تعالى وخاصة ما يتعلق بتوحيد الله في شرعه وأمره، وأهل العلم مجمعون على أن حق الله تعالى مصلحة أعظم من كل المصالح، فضرورة الدين مقدمة على كل الضرورات الأخرى كالنفس والمال والعرض والعقل، ولكنك ترى هؤلاء يجيزون أعمالاً شركية وكفرية مقابل تحصيل مصالح دنيوية لا تصل لدرجة الضرورة، وهذا من باب الجهل والضلالة.

٣. أن دقة "فقه الموازنات" في أحيان كثيرة لا يهتدي إليه الفقيه الراسخ لدقته أو لتعقيد الواقع وعدم تبسيطه كما هو في واقعه العلمي، ومع ذلك فإن هؤلاء يفتون للعامة وللجهلة ويوسعون الباطل شبراً فيأخذه الجاهل ذراعاً، ويجعل كلام هذا المفتي جسراً له على جهنم، فمثل هذه المسائل لا يطلق فيها القول لتغير الظروف حين يتعلق الأمر مع أمور دقيقة في تقديرها وموازنتها.

٤. ومما يشهد لانحراف هذه الفتاوى التي تطلق للعموم من باب " الموازنات" إنما هي في أصل وضعها من قبل العلماء السابقين كانت لمن تعينت في حقه من العلماء والمقدمين وأهل الفنون والعقل والنظر، و لم توضع لعموم الناس فيأخذها "الرويبضة"[٤٢] ويزعمون أنها لهم وهم أحق بها فيفسدون أكثر مما يصلحون، بل لو تركوها لأهل الباطل لكانت منهم منفعة أكثر، فإن الواقع يشهد أن كثيراً من المنافع للمسلمين تحصل على يد أهل الباطل بأكثر مما يحصله الزاعمون إتيانها تديناً، فإن هؤلاء تصبح عندهم "موازنة جديدة" وهو البقاء في العمل مصلحة على أي مصلحة أخرى، فخوف ذهاب المنصب أو العمل يحكم ما يأتون ويذرون، فلا الباطل تركوا ولا مصالح المسلمين حصلوا، فعاد الأمر باطلاً لا خير فيه.

والمحترزات والتنبيهات على فقه "الموازنات" كثيرة، وكل يوم نشهد باطلاً ينتشر وحقاً يكتم ويُستر، يمارسه المفتون به دون فقه دقيق، ولا ورع يحميهم، وآخذون به والفون بلا اهتمام لإيمانهم وتقواهم.

فهذا الحديث عظيم في هذا الباب لمن ابتغى حفظ دينه وطلب الفضل والرفعة وتحصيل التقوى: فإما الحق كما أمر الله تعالى، والجهاد للباطل أعلاه وأرفعه وإما الاعتزال والهجرة، وهذا أسلم للمرء لدينه في الدنيا والآخره، وأما الزاعمون أنهم قادرون على السباحة في الوحل وعندهم من التقوى ما يحمي قلوبهم، ثم لم يكتفوا بالسباحة بل تضلعوا منه شبعاً وريا فالله بصير بالقلوب وخطراتها، وهو أعلم بمن اتقى.

---

[٤٢] – عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ – ﷺ – قَالَ: «سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ سَنَوَاتٌ خَدَّاعَاتٌ يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ، وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ، وَيُخَوَّنُ فِيهَا الْأَمِينُ، وَتَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ قَالَ: «الرَّجُلُ التَّافِهُ يَنْطِقُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ»المفصل في أشراط الساعة وعلاماتها (ص: ٣٤) والفوائد الشهير بالغيلانيات لأبي بكر الشافعي (١/ ٣٢٣) (٣٣١) والمستدرك على الصحيحين للحاكم (٤/ ٥١٢) (٨٤٣٩) صحيح

كل هذا يقع حين تكون الموازنة بين خير وشر يشتبه أمرهما لدقة مقاربتهما في الفكر والنظر، ولكن واقعنا يشهد أن القوم -مفتين وأتباع- تجرؤوا على الحرمات الصريحة بنصوصها، فالربا والخمر وقول الباطل ولبس الإثم كل هذا صار يحل بشبه واهية تحت باب التيسير ووجود الاختلاف فيها، والمقدم من المفتين من يبيح أكثر من غيره ويوسع للناس شهواتهم وأهواءهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وبهذا يعلم أن أعظم ما في هذا الحديث من فقه: أن الباطل إما أن يجاهد، وإما أن يعتزل، والحق أن الباطل لا يرضى بعزلتك، لأن إمامه هو الشيطان، وقد وطن نفسه أن يهلك ابن آدم بالمعاصي بتزيينها كما قال: {قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧)} [الأعراف: ١٦، ١٧] بل سيشد على أذقانهم حبالاً ثقالاً ليجرهم إلى الباطل كما قال: {قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا } [الإسراء: ٦٢][٤٣] والباطل إن لم تشغله بالجهاد شغلك "بصوته ورَجِله وخيله"، ولذلك من أعظم طرق اتقاء الباطل هو مجاهدته.

وفي يومنا هذا يعد اعتزال الناس حتى لا تؤذيهم ويؤذونك ضرباً من العجائب، لأن جند الشيطان ألزموا الناس بكل قانون، ولاحقوهم حتى إنهم يدخلون معهم في أزواجهم وأموالهم {وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا} [الإسراء: ٦٤] فالجهاد هو السبيل الأقوم لتحقيق سعادة الدنيا ونعيم الآخرة.

وأما أجر الجهاد فهو في أبواب أخرى مذكورة في أبوابها، وأما ترك الشر والإساءة للناس فهي من أعظم الأعمال لمن عجز الصالحات العملية، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ التَّقْوَى هَاهُنَا» وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ «بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ»[٤٤]. ولعظمة حرمة المؤمن عند الله فإن النبي ﷺ ذكر ذلك في آخر ما أوصى به أمته، في يوم الحج الأكبر، في حجة الوداع، فعَنْ أَبِي بَكْرَةَ، وَرَجُلٌ - أَفْضَلُ فِي نَفْسِي مِنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ -،حُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: خَطَبَنَا النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ النَّحْرِ، قَالَ: «أَتَدْرُونَ أَيُّ

---

[٤٣] - وَقَالَ إِبْلِيسُ لِلرَّبِّ الكَرِيمِ مُتَوَاقِحاً: أَلاَ تَرَى إِلَى هَذا الَّذِي شَرَّفْتَهُ وَكَرَّمْتَهُ عَلَيَّ فَإِنْ أَخَرْتَنِي وَأَنْظَرْتَنِي إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، لأُضِلَّنَّ ذُرِّيَّتَهُ، وَلأُسَيْطِرَنَّ عَلَيْهِمْ، وَلأَحْتَوِيَنَّهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ.أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٢٠٩٢، بترقيم الشاملة آليا)

[٤٤] - صحيح مسلم (٤/ ١٩٨٦) ٣٢ - (٢٥٦٤) [ش (ولا يخذله) قال العلماء الخذل ترك الإعانة والنصر ومعناه إذا استعان به في دفع ظالم ونحوه لزمه إعانته إذا أمكنه و لم يكن له عذر شرعي (ولا يحقره) أي لا يحتقره فلا ينكر عليه ولا يستصغره ويستقله (التقوى ههنا) معناه أن الأعمال الظاهرة لا تحصل بها التقوى وإنما تحصل بما يقع في القلب من عظمة الله وخشيته ومراقبته]

يَوْمٍ هَذَا؟»،قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، قَالَ: «أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ؟» قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: «أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟»،قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، فَقَالَ «أَلَيْسَ ذُو الحَجَّةِ؟»،قُلْنَا: بَلَى، قَالَ «أَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟» قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، قَالَ «أَلَيْسَتْ بِالْبَلْدَةِ الحَرَامِ؟» قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: «فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، إِلَى يَوْمِ تَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ، أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟»،قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ، فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ، فَلَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ»[٤٥]، وقد أوصى النبي ﷺ في أحاديث ترك إيذاء المسلمين لمن عجز عن الصالحات فإن ذلك صدقة.

ثم تأمل نور هذا الحديث في بيان المقابلة بين ما هو أعظم الأعمال إيجاباً وبين أعظم الأعمال سلباً، وبين إيذاء الله أعداءَ الله بالجهاد وترك إيذاءِ المسلمين بالعزلة نعلم أن هذا الكلام لا يخرج إلا من فم نبي مهدي مسدّد {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (٥٣)} [الشورى: ٥٢، ٥٣].

وقد ورد لهذا الحديث ألفاظ منها ما جاء عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، أَنَّهُ قَالَ: «مِنْ خَيْرِ مَعَاشِ النَّاسِ لَهُمْ، رَجُلٌ مُمْسِكٌ عِنَانَ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، يَطِيرُ عَلَى مَتْنِهِ، كُلَّمَا سَمِعَ هَيْعَةً، أَوْ فَزْعَةً طَارَ عَلَيْهِ، يَبْتَغِي الْقَتْلَ وَالْمَوْتَ مَظَانَّهُ، أَوْ رَجُلٌ فِي غُنَيْمَةٍ فِي رَاسِ شَعَفَةٍ مِنْ هَذِهِ الشَّعَفِ، أَوْ بَطْنِ وَادٍ مِنْ هَذِهِ الْأَوْدِيَةِ، يُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَيُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَيَعْبُدُ رَبَّهُ حَتَّى يَاتِيَهُ الْيَقِينُ، لَيْسَ مِنَ النَّاسِ إِلَّا فِي خَيْرٍ»[٤٦].

وعَنْ مُجَاهِد، أَنَّ أُمَّ مُبَشِّرٍ سَأَلَتْ رَسُولَ اللَّه ﷺ: أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ مَنْزِلَةً عِنْدَ اللَّه؟ فَقَالَ: «رَجُلٌ عَلَى مَتْنِ فَرَسِهِ يُخِيفُ الْعَدُوَّ وَيُخِيفُونَهُ ، وَرَجُلٌ يُقِيمُ الصَّلَاةَ وَيُؤْتِي حَقَّ اللَّهِ فِي مَالِهِ ، وَهُوَ فِي غَنِيمَةٍ لَهُ وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى الْحِجَازِ»[٤٧]

---

[٤٥] – الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ٢٥٣)١٧٤١ – ٦٩٥ –صحيح مسلم (٣/ ١٣٠٥) ٢٩ ،٣٠ (١٦٧٩) [ش (أليس ذو الحجة) ذو مرفوع على أنه اسم ليس وخبرها محذوف والتقدير أليس ذو الحجة هذا الشهر. (كفارا) تفعلون ما يفعل الكفار في ضرب رقاب المسلمين أو يكفر بعضكم بعضا فيستبيح قتله]

[٤٦] – تهذيب صحيح مسلم– علي بن نايف الشحود (ص: ٦٩٧)(١٨٨٩)

[ش (معاش الناس) المعاش هو العيش وهو الحياة وتقديره والله أعلم من خير أحوال عيشهم رجل ممسك (ممسك عنان فرسه) أي متأهب ومنتظر وواقف بنفسه على الجهاد في سبيل الله (يطير على متنه) أي يسرع جدا على ظهره حتى كأنه يطير (هيعة) الصوت عند حضور العدو (أو فزعة) النهوض إلى العدو (يبتغي القتل والموت مظانه) يعني يطلبه من مواطنه التي يرجى فيها لشدة رغبته في الشهادة (غنيمة) تصغير غنم أي قطعة منها (شعفة) أعلى الجبل]

[٤٧] – مسند إسحاق بن راهويه (٥/ ٩٥)(٢٢٠٠) صحيح

وعَنْ أُمِّ مَالِكٍ الْبَهْزِيَّةِ، قَالَتْ: ذَكَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِتْنَةً، فَقَالَ: «خَيْرُكُمْ فِيهَا، وَخَيْرُ النَّاسِ فِيهَا رَجُلٌ مُعْتَزِلٌ فِي مَالِهِ يَعْبُدُ اللهَ، وَيُعْطِي حَقَّهُ، وَرَجُلٌ أَخَذَ بِرَأْسِ فَرَسِهِ يُخِيفُ الْعَدُوَّ وَيُخِيفُونَهُ»[٤٨]

وعَنِ ابْنِ طَاوُسٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خَيْرُ النَّاسِ فِي الْفِتَنِ رَجُلٌ أَخَذَ بِرَأْسِ فَرَسِهِ يُخِيفُ الْعَدُوَّ وَيُخِيفُونَهُ، وَرَجُلٌ مُعْتَزِلٌ يُؤَدِّي حَقَّ اللَّهِ عَلَيْهِ»[٤٩]

ما يرشد إليه الحديث

في هذا الحديث فضيلة عظيمة للمؤمن المجاهد بنفسه وماله، وأنه أفضل الناس ؛ قال الحافظ ابن حجر رحمه الله : " . . . وكأن المراد بالمؤمن من قام بما تعيّن عليه القيام به، ثم حَصَّل هذه الفضيلة، وليس المراد من اقتصر على الجهاد وأهمل الواجبات العينية، وحينئذٍ فيظهر فضل المجاهد ؛ لما فيه من بذل نفسه وماله لله تعالى ؛ ولما فيه من النفع المتعدي . . . ". وهذا يدل على فضل الجهاد مع الإيمان، وأن ثواب ذلك الجنة والكرامة .

ودل الحديث على أن أفضل الناس مؤمن يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله، ويليه في الفضيلة مؤمن في شعب من الشعاب يتقي الله ويدع الناس من شره ؛ لأن الذي يخالط الناس-في الغالب- لا يسلم من ارتكاب الآثام .

قال الإمام النووي رحمه الله : " وأجاب الجمهور عن هذا الحديث بأنه محمول على الاعتزال في زمن الفتن، والحروب، أو هو فيمن لا يسلم الناس منه، ولا يصبر عليهم، أو نحو ذلك من الخصوص، وكانت الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وجماهير الصحابة والتابعين، والعلماء، والزهاد مخـتلطين فيحصِّلون منافع الاختلاط : كشهود الجمعة، والجماعة، والجنائز، وعيادة المرضى، وحلق الذكر، وغير ذلك . . . "

إن في هذا الحديث ما يؤكد على مراعاة أحوال السائلين ؛ لأن النبي ﷺ سئل عن : أفضل الأعمال، وأفضل الناس، فكانت إجابته على حسب أحوال السائلين، فعلى الداعية أن يراعي أحوال المدعوين ويخاطبهم على قدر علمهم وحاجتهم ؛ لأن المصالح تختلف باختلاف الأشخاص، والأحوال، والأعراف والأوقات

دل هذا الحديث على أهمية السؤال عما يحتاج إليه الإنسان من أمور الدين ؛ لأن حسن السؤال نصف العلم.

من الأساليب التي تقرّب المعاني للمدعو وتوضحها في صورة محسوسة، أسلوب التشبيه، وقد ظهر في مفهوم هذا الحديث التشبيه ؛ قال العلامة القسطلاني على قوله ﷺ : " . . . « في شعب من الشعاب

---

[٤٨] – المعجم الكبير للطبراني (٢٥/ ١٥٠)(٣٦٢) صحيح لغيره

[٤٩] – السنن الواردة في الفتن للداني (٢/ ٤٢٦)(١٥٧) صحيح لغيره

» . . . " : " وليس بقيد بل على سبيل المثال، والغالب على الشعاب الخلو عن الناس ؛ لذا مثَّل بهذا للعزلة والانفراد، فكل مكان يبعد عن الناس فهو داخل في هذا المعنى : كالمساجد والبيوت " .[٥٠]

الحديث الرابع: تعس عبد الدينار

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ -،قَالَ: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ، وَعَبْدُ الخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلاَ انْتَقَشَ، طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَشْعَثَ رَأْسُهُ، مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ، إِنْ كَانَ فِي الحِرَاسَةِ، كَانَ فِي الحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ، إِنِ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ»[٥١].

العبادة هي الخضوع والطاعة، فيقال: عَبَّدتُ الطريق، أي سهلتها للمسير عليها، وذلك بإزالة الموانع حتى تستجيب للسالك فكل من انقاد لشيء على جهة الحب والخوف استقلالا فهو عابد له، وضابطه هو ما ورد في هذا الحديث وهو قوله ﷺ: (إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط) ذلك لأن نيته ونهمته دون سواه، فهو عامل له، ساعٍ من أجله، فسعي المؤمن في صلاته وعبادته هو تحصيل رضى الله تعالى، فإن حصلها فهي غايته لا يطلب سواها، وإن فاتته الطاعة وهي سبب رضى الله تعالى حزن، ومن سعى لدرهم أو غيره في صلاته وعبادته كالجهاد ونشر العلم وغيرها فحصل مطلوبه رضيت نفسه وفرحت لما نالت من مطلوبها، وإن فاتها المطلوب حزنت وسخطت، فهذا هو الدليل على معبود الإنسان في عمله، وهو ضابط الرياء والإخلاص، وهو كما ترى تحقيق معنى العبادة لغوياً، لأن العبادة كما تعلم هي الخضوع والطاعة، وهذا الضابط المذكور هو المعنى الحقيقي للخضوع القلبي والطاعة الباطنة، فإن من خضع لشيء أحبه حتى صار مطلوبه ونهمته، يرى كل شيء فيه، يسير وجهته ويطلب رضاه ويتبع أثره.

في هذا الحديث كذلك ضابط حقيقة الجهاد في الله تعالى دون سواه وهو قوله: (طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله)...إلخ الحديث المذكور، فإن حال المخلص لربه هو عدم الإنتصاب لغيره لا

---

[٥٠] – فقه الدعوة في صحيح الإمام البخاري (١/ ٢٢٩)

[٥١] – صحيح البخاري (٤/ ٣٤) (٢٨٨٦ – ٢٨٨٧)

[ش (تعس) سقط على وجهه أو شقي وهلك. (عبد الدينار) مجاز عن الحرص عليه وتحمل الذلة من أجله فمن بالغ في طلب شيء وانصرف عمله كله إليه صار كالعابد له. (القطيفة) دثار مخمل والدثار ما يلبس فوق الشعار والشعار ما لامس الجسد من الثياب. (الخميصة) كساء أسود مربع له خطوط. (أعطي) من المال. (رضي) عن الله تعالى وعمل العمل الصالح. (انتكس) انقلب على رأسه وهو دعاء عليه بالخيبة والخسران. (شيك) أصابته شوكة. (فلا انتقش) فلا قدر على إخراجها بالمنقاش ولا خرجت والمراد إذا أصيب بأقل أذى فلا وجد معينا على الخلاص منه. (طوبى) من الطيب أي كانت له حياة طيبة وجزاء طيب. (بعنان) لجام. (أشعث) متفرق الشعر غير مسرح. (إن كان في الحراسة) جعل في مقدمة الجيش ليحرسه من العدو. (كان في الحراسة) قام بها راضيا. (الساقة) مؤخرة الجيش. (تعسا) اللفظ من / محمد ٨ /. (طوبى) اللفظ من / الرعد ٢٩ /.وقيل هو اسم للجنة]

في زيه ولافي عمله ولافي حاله: أما الزي فهو في قوله: (أشعث رأسه، مغبرة قدماه) وذلك لالتهائه عن ذلك بما هو فيه من الانغماس في الجهاد، فهو مستغرق فيه بكليته، لا يتطاول بشارة ليبصره الناس، وبِعَلَمٍ يعلم الناس مكانه وأفعاله، وقوله ﷺ (أشعث رأسه، مغبرة قدماه) لا يعني أنه يتكلف ذلك ليكون كذلك، بل هو في حال لا تكون نتيجته إلا كذلك، ومن نافلة القول التنبيه أنّ تكلف ذلك ليس عبادة مطلوبة لله تعالى، بل تكلف ضدهما في حال لا يكون مشغولاً بطاعة الجهاد هو المطلوب الشرعي من التجمل والاغتسال عن الأدران وغيرها لأحاديث عدة ولقوله تعالى: {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } [الأعراف: ٣٢] ومقصود هذا الوصف (أشعث... مغبرة...) إنما هو الانشغال التام بما هو فيه وذلك لإخلاصه، فلو كان غير ذلك لما أهمه في إحسان عمله بل رغبته بتحسين صورته. وأما العمل فهو قوله ﷺ: (إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة) فهذا رجل لا يفاضل بين الأعمال بحسب قيمتها بين الناس إنما بحسب ما يطلب منه لأنه الأليق به فيما يرى له أميره، أو فيما يرى من نفسه، ومثل هذه الأعمال سمتها الخفاء وجفاء الناس عنها لمشقتها وعدم تنافس الناس فيها لعدم صيتها وقلة مرتبتها في الدنيا، وإن كان لا قِوامَ للجهاد إلا بهما، ولكن الناس يرون أن هذه الأعمال من مراتب الخدمة التي تهين صاحبها في دنياهم فيرغبون عنها في جهادهم، وشتان بين العمل حين يكون لدنيا وأجرة وحين يكون في سبيل الله، فهذا إبراهيم عليه السلام خليل الله، وابنه إسماعيل الصادق المرضي يكلفهما الله تعالى بخدمة بيته فيقول: { وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ } [البقرة: ١٢٥]، وقال عن إبراهيم خاصة كما في سورة الحج: {وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ } [الحج: ٢٦].

وأجر الحراسة عظيم كما في عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يَقُولُ:" عَيْنَانِ لَا تَمَسُّهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ "[٥٢] ، وخدمة العابدين كانت قريش تتنافسها وراثة من أبيهم إبراهيم عليه السلام، فالسقاية أحد الألوية التي كانوا يتنافسونها مع الرفادة وهي إطعام الحجيج. وقد رغب النبي ﷺ أن ينزل مع الساقة للحجيج ولكن تركه مخافة أن ينازع الناس أهله وظنهم أن هذا جائز لهم -أي منازعة أهله- فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ جَاءَ إِلَى السِّقَايَةِ فَاسْتَسْقَى، فَقَالَ العَبَّاسُ: يَا فَضْلُ، اذْهَبْ إِلَى أُمِّكَ فَأْتِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِشَرَابٍ مِنْ عِنْدِهَا، فَقَالَ: «اسْقِنِي»، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ أَيْدِيَهُمْ فِيهِ،

[٥٢] - سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ١٧٥) (١٦٣٩) صحيح

قَالَ: «اسْقِنِي»، فَشَرِبَ مِنْهُ، ثُمَّ أَتَى زَمْزَمَ وَهُمْ يَسْقُونَ وَيَعْمَلُونَ فِيهَا، فَقَالَ: «اعْمَلُوا فَإِنَّكُمْ عَلَى عَمَلٍ صَالِحٍ» ثُمَّ قَالَ: «لَوْلاَ أَنْ تُغْلَبُوا لَنَزَلْتُ، حَتَّى أَضَعَ الحَبْلَ عَلَى هَذِهِ» يَعْنِي: عَاتِقَهُ، وَأَشَارَ إِلَى عَاتِقِهِ "[٥٣]، مع أن السقاية كانت لعمه العباس رضي الله عنه، فالمقصود أن المخلص لربه في جهاده لا يتشوق إلا إلى رضاه، فهو غافل عن حظ نفسه، ولو أرادها لما اختار إلا الأعمال التي فيها الحظوظ لها، وأمره ليس كذلك. وأما في حاله فهو قوله: (**إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع**) ذلك لأنه خفي عن الناس بما هو فيه من إعمار الباطن، فالناس لا يعرفونه لعدم اشتهار اسمه أو نسبه أو أفعاله، والحق أن أهل الإيمان والتقوى لا يخفى عليهم حال هؤلاء، بل يعرفونهم وقد يطلبونهم كما كان يفعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه فعَنْ أَبِي رَافِعٍ، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، كَانَ مُسْتَنِدًا إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ، وَعِنْدَهُ ابْنُ عُمَرَ، وَسَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ فَقَالَ: اعْلَمُوا أَنِّي لَمْ أَقُلْ فِي الْكَلاَلَةِ شَيْئًا، وَلَمْ أَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِي أَحَدًا، وَأَنَّهُ مَنْ أَدْرَكَ وَفَاتِي مِنْ سَبْيِ الْعَرَبِ، فَهُوَ حُرٌّ مِنْ مَالِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَقَالَ سَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ: أَمَا إِنَّكَ لَوْ أَشَرْتَ بِرَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَائْتَمَنَكَ النَّاسُ، وَقَدْ فَعَلَ ذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ وَائْتَمَنَهُ النَّاسُ، فَقَالَ عُمَرُ: «قَدْ رَأَيْتُ مِنْ أَصْحَابِي حِرْصًا سَيِّئًا، وَإِنِّي جَاعِلٌ هَذَا الْأَمْرَ إِلَى هَؤُلاءِ النَّفَرِ السِّتَّةِ الَّذِينَ مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ عَنْهُمْ رَاضٍ» ، ثُمَّ قَالَ عُمَرُ لَوْ أَدْرَكَنِي أَحَدُ رَجُلَيْنِ، ثُمَّ جَعَلْتُ هَذَا الْأَمْرَ إِلَيْهِ لَوَثِقْتُ بِهِ سَالِمٌ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ "[٥٤]

وعمر كان خبيراً بالرجال ومع ذلك قال: (يَرْحَمُ اللَّهُ أَبَا بَكْرٍ كَانَ أَعْلَمَ بِالرِّجَالِ مِنِّي)[٥٥] والبعض كان يتركهم لما هم فيه من الرغبة في الاختفاء، والمقصود أن هذا الإخلاص لا يغيره ما يقوله الناس عنه، ولو كان مقصوده غير الله لسخط كما يسخط غيره، كما قال تعالى: { وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ (٥٨) وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ (٥٩)} [التوبة: ٥٨، ٥٩]، وحين ترى اليوم بعضهم وهو يعدد فعاله وتاريخه ليدلل على أن له شأناً لم يقم به الناس له، و لم يقابلوه بمثله، فيجعل ذلك سبباً للسخط والغضب وترك العمل الصالح، فيقول أحدهم: (لقد تكلمت كلمة الحق وعذبت في سبيلها و لم أجد أحداً ينتصر لي أو لم يأبه لي أحد، فهؤلاء قوم لا يستحقون أن يقدم لهم شيء) ولو تفكر هذا القائل بهذه المقالة الخبيثة لعلم أن عمله قد حبط بسببها، ولو راجع تاريخ العاملين لدين الله تعالى لعلم أن هذه سيرة مضطردة، فأنصار رسول الله ﷺ ورضي الله عنهم قدّموا كل شيء، المال والروح والولد، و لم يجدوا ما يقابل ذلك شيئاً من الدنيا، بل أخبرهم

---

[٥٣] – صحيح البخاري (٢/ ١٥٦)(١٦٣٥) [ش (السقاية) الموضع الذي يسقى فيه الماء. (ويعملون فيها) يترحون منها الماء. (لولا أن تغلبوا) بأن يجتمع عليكم الناس إذا رأوني أعمل اقتداء بي فيغلبوكم عليها لكثرتهم]

[٥٤] – مسند أحمد مخرجا (١/ ٢٨٠)(١٢٩) حسن

[٥٥] – البداية والنهاية ط هجر (٩/ ٦٥٠) وتاريخ ابن خلدون (٢/ ٥٤٢)

رسولنا ﷺ أنهم سيجدون بعده أثرة فأمرهم بالصبر وقد فعلوا فرضي الله عنهم وأرضاهم، وقد رأوا المال العظيم يقسم أمام أعينهم لمن قاتلوهم وذلك في حنين، فوجدوا في أنفسهم بعض شكوى فلما هبت ريح الإيمان بموعظة رسول الله: (أما ترضون أن يرجع الناس بالشاة والبعير وترجعون برسول الله إلى رحالكم) حتى بكت عيونهم فرحاً بما رجعوا به، وقالوا: (رضينا). فعنِ ابْنِ شِهَابٍ، أَخْبَرَنِي أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، أَنَّ أُنَاسًا مِنَ الْأَنْصَارِ قَالُوا: يَوْمَ حُنَيْنٍ، حِينَ أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَمْوَالِ هَوَازِنَ مَا أَفَاءَ، فَطَفِقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُعْطِي رِجَالًا مِنْ قُرَيْشٍ، الْمِائَةَ مِنَ الْإِبِلِ، فَقَالُوا: يَغْفِرُ اللَّهُ لِرَسُولِ اللهِ، يُعْطِي قُرَيْشًا وَيَتْرُكُنَا وَسُيُوفُنَا تَقْطُرُ مِنْ دِمَائِهِمْ، قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ: فَحُدِّثَ ذَلِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، مِنْ قَوْلِهِمْ، فَأَرْسَلَ إِلَى الْأَنْصَارِ، فَجَمَعَهُمْ فِي قُبَّةٍ مِنْ أَدَمٍ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا جَاءَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، فَقَالَ: «مَا حَدِيثٌ بَلَغَنِي عَنْكُمْ؟ "فَقَالَ لَهُ فُقَهَاءُ الْأَنْصَارِ: أَمَّا ذَوُو رَأْيِنَا، يَا رَسُولَ اللهِ، فَلَمْ يَقُولُوا شَيْئًا، وَأَمَّا أُنَاسٌ مِنَّا حَدِيثَةٌ أَسْنَانُهُمْ، قَالُوا: يَغْفِرُ اللَّهُ لِرَسُولِهِ، يُعْطِي قُرَيْشًا وَيَتْرُكُنَا، وَسُيُوفُنَا تَقْطُرُ مِنْ دِمَائِهِمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «فَإِنِّي أُعْطِي رِجَالًا حَدِيثِي عَهْدٍ بِكُفْرٍ، أَتَأَلَّفُهُمْ، أَفَلَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالْأَمْوَالِ، وَتَرْجِعُونَ إِلَى رِحَالِكُمْ بِرَسُولِ اللهِ؟ فَوَاللهِ لَمَا تَنْقَلِبُونَ بِهِ خَيْرٌ مِمَّا يَنْقَلِبُونَ بِهِ» فَقَالُوا: بَلَى، يَا رَسُولَ اللهِ، قَدْ رَضِينَا، قَالَ: «فَإِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ أَثَرَةً شَدِيدَةً، فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوُا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَإِنِّي عَلَى الْحَوْضِ» قَالُوا: سَنَصْبِرُ "[٥٦]

بل هذا رسول الله ﷺ لم يطلب من أمته شيئاً لنفسه في هذه الدنيا سوى مودة أهل بيته فقال سبحانه: {قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى} [الشورى: ٢٣] ومع ذلك قتل الناس أحب أهل بيته إليه الحسين بن علي رضي الله عنهما، وما رعوا لرسول الله ﷺ حرمة، وهؤلاء كبار الصحابة كسعد بن أبي وقاص يتنازع الناس الخلافة وهو مشغول عنهم ببناء حوض ماءٍ لإبله، والذين يتنازعونها ما أسلموا إلا بيده وأيدي أمثاله، وهذه الخلافة قد آلت إلى من قوتلوا على الإسلام، ومن قاتلهم عليه حاضر يرى كما قال ابن عمر فصبروا وتذكروا ما أعد الله من النعيم في الجنة فسكنت نفوسهم، فعن أَيُّوبَ، قَالَ: نُبِّئْتُ أَنَّ ابْنَ عُمَرَ، كَانَ عِنْدَ مُعَاوِيَةَ، فَقَالَ: مَنْ أَحَقُّ بِهَذَا الْأَمْرِ مِنَّا، وَمَنْ يُنَازِعُنَا فِي هَذَا الْأَمْرِ؟ قَالَ:" فَهَمَمْتُ أَنْ أَقُولَ: الَّذِينَ قَاتَلُوكَ وَأَبَاكَ عَلَى الْإِسْلَامِ، فَخَشِيتُ أَنْ يَكُونَ

---

[٥٦] – تهذيب صحيح مسلم- علي بن نايف الشحود (ص: ٣٤٥)(١٠٥٩)

[ش (حين أفاء الله على رسوله من أموال هوازن ما أفاء) أي حين جعل الله من أموالهم ما جعله فيئا على رسوله وهو من الغنيمة مالا تلحقه مشقة وهوازن قبيلة (في قبة من آدم) القبة من الخيام بيت صغير مستدير وهو من بيوت العرب ومن أدم معناه من جلود وهو جمع أديم بمعنى الجلد المدبوغ ويجمع أيضا على أدم (أتألفهم) أي أستميل قلوبهم بالإحسان ليثبتوا على الإسلام رغبة في المال وكان النبي ﷺ يعطي المؤلفة من الصدقات وكانوا أشراف العرب فمنهم من كان يعطيه دفعا لأذاه ومنهم من كان يعطيه طمعا في إسلامه وإسلام نظرائه وأتباعه ومنهم من كان يعطيه ليثبت على إسلامه لقرب عهده بالجاهلية (رحالكم) أي منازلكم (أثرة شديدة) فيها لغتان أحداهما ضم الهمزة وإسكان الثاء وأصحهما وأشهرهما بفتحهما جميعا والأثرة الاستئثار بالمشترك أي يستأثر عليكم ويفضل عليكم غيركم بغير حق]

فِي قَوْلِي هَذَا هِرَاقَةُ الدِّمَاءِ، وَأَنْ يُحْمَلَ قَوْلِي عَلَى غَيْرِ الَّذِي أَرَدْتُ، وَذَكَرْتُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْجِنَانِ "

فعَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ:" دَخَلْتُ عَلَى حَفْصَةَ وَنَسْوَاتُهَا تَنْطُفُ، قُلْتُ: قَدْ كَانَ مِنْ أَمْرِ النَّاسِ مَا تَرَيْنَ، فَلَمْ يُجْعَلْ لِي مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ، فَقَالَتْ: الحَقْ فَإِنَّهُمْ يَنْتَظِرُونَكَ، وَأَخْشَى أَنْ يَكُونَ فِي احْتِبَاسِكَ عَنْهُمْ فُرْقَةٌ، فَلَمْ تَدَعْهُ حَتَّى ذَهَبَ، فَلَمَّا تَفَرَّقَ النَّاسُ خَطَبَ مُعَاوِيَةُ قَالَ: مَنْ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَتَكَلَّمَ فِي هَذَا الأَمْرِ فَلْيُطْلِعْ لَنَا قَرْنَهُ، فَلَنَحْنُ أَحَقُّ بِهِ مِنْهُ وَمِنْ أَبِيهِ، قَالَ حَبِيبُ بْنُ مَسْلَمَةَ: فَهَلَّا أَجَبْتَهُ؟ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَحَلَلْتُ حُبْوَتِي، وَهَمَمْتُ أَنْ أَقُولَ: أَحَقُّ بِهَذَا الأَمْرِ مِنْكَ مَنْ قَاتَلَكَ وَأَبَاكَ عَلَى الإِسْلاَمِ، فَخَشِيتُ أَنْ أَقُولَ كَلِمَةً تُفَرِّقُ بَيْنَ الجَمْعِ، وَتَسْفِكُ الدَّمَ، وَيُحْمَلُ عَنِّي غَيْرُ ذَلِكَ، فَذَكَرْتُ مَا أَعَدَّ اللَّهُ فِي الجِنَانِ "[٥٧].

فهذه سيرة مضطردة تكشف مخبوء النفوس ونيتها في عملها وجهادها.

وهكذا المقابلة بين الحالين: حال من سخط لذهاب بغيته ورضاه إن حصلها، وحال من عمل من أجل الآخرة فهي همته ورغبته لا يعيضه شيئ عنها، لا يهمه إن فات ما فات و لم تفت هي، وطوبى: من الطيب لغةً، قلبت الياء واواً، وفي الحديث عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، عَنْ رَسُولِ اللهِ – ﷺ –، أَنَّهُ قَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا طُوبَى؟ قَالَ: شَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ مَسِيرَةُ مِائَةِ سَنَةٍ، ثِيَابُ أَهْلِ الْجَنَّةِ تَخْرُجُ مِنْ أَكْمَامِهَا.[٥٨].

وفي الحديث من الفوائد: أن مقامات الآخرة والفضل الإلهي ليس بحسب مقامات الناس بينهم في المناصب والأموال، بل إن المترفين هم أكثر الناس صدوداً عن الذكر كما قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٣٤) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٦)

---

[٥٧] – صحيح البخاري (٥/ ١١٠) (٤١٠٨)

[ش (نسواتها) ذوائبها قيل الأصح نوساتها. (تنطف) تقطر ماء وقيل تتحرك. (أمر الناس) أراد ما وقع بين علي ومعاوية رضي الله عنهما من القتال واحتكامهم فيما اختلفوا فيه فراسلوا من بقي من الصحابة في الحرمين وغيرهما وتواعدوا على الاجتماع في الأمر فشاور ابن عمر رضي الله عنهما أخته في التوجه إليهم وعدمه فأشارت عليه باللحوق بهم خشية أن ينشأ من غيبته اختلاف فتستمر الفتنة. (فلم يجعل لي) أي لم يسند إلي شيء من أعمال الخلافة والإمارة و لم يؤخذ رأيي في ذلك. (الحق) بهمزة وصل مكسورة فعل أمر من لحق يلحق أي أدرك القوم في اجتماعهم (احتباسك) تأخرك أو امتناعك من الذهاب. (فرقة) افتراق بين الجماعة واختلاف بينهم. (تفرق الناس) بعدما جرى التحكيم واختلف الحكمان وانتهى الأمر على تثبيت معاوية رضي الله عنه. (قرنه) رأسه. (حبوتي) من احتبى الرجل إذ جمع ظهره وساقيه بثوب ونحوه. (من قاتلك) يريد عليا رضي الله عنه فإنه قاتل معاوية وأباه أبا سفيان رضي الله عنهما يوم أحد والخندق وكانا كافرين وهو يومئذ مسلم. (يحمل عني غير ذلك) يحمل كلامي على خلاف ما أردت. (حبيب) بن مسلمة. (حفظت وعصمت) حفظك الله تعالى وحماك من الفتنة وإثارها. (محمود) بن غيلان المروزي أحد شيوخ البخاري ومسلم رحمهم الله تعالى. (ونوساتها) أي بدل نسواتها]

[٥٨] – الإيمان بيوم القيامة وأهواله ط٢ (ص: ٣٦٨) وصحيح ابن حبان – (ج ١٦ / ص ٤٢٩) (٧٤١٣) حسن

وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ (٣٧)} [سبأ: ٣٤ - ٣٧] وفي القرآن ربط دائم بين العلو والفساد كما قال عن بني إسرائيل: {وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ} [الزخرف: ٢٣] وكما قال عن فرعون: {إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ} [القصص: ٤] .

وقد وعد الله وراثة الأرض للذين {تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} [القصص: ٨٣] .

والجهاد والبلاء لا يستقيم إلا لأهل الصبر والاحتساب، وقد كشف الله المنافقين بالجهاد كما في سورة التوبة، تلك السورة التي سميت بالفاضحة لأنها فضحت المنافقين، وغالب ما فيها من صفات فاضحة لهم إنما كشفت بالجهاد فهم الذين: {لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} [التوبة: ٤٢] وهم ({وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦) لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧)} [التوبة: ٤٦، ٤٧]) وهم {وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ} [التوبة: ٤٩] وهم الذين {فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ} [التوبة: ٨١] وهم {وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ } [التوبة: ٨٦] وغيرها، وهذا يدل على قوة هذا الضابط في التفريق بين الصادق والمرائي، بين المؤمن والمنافق وفي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ، وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ، مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ"[٥٩] وهو تفسير لهذه الآيات ولا شك.

قوله ﷺ: (**تعس وانتكس**) هو شأن من عمل لغير الله لا يدوم أمره ولا يصبر، بل ينقلب حيث لم يصب مراده من الدنيا، وهو وإن كان دعاءً من رسول الله ﷺ عليه، فهو كونه وقدره، صفة لازمة لمن لا يريد وجه الله تعالى كما قال تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ }[الحج : ١١]، وقوله: (**وإذا شيك فلا انتقش**) فهو دعاء عليه أن لا يصيب مراده بانتكاسته، فإن هذا يرتد

---

[٥٩] - صحيح مسلم (٣/ ١٥١٧) ١٥٨ - (١٩١٠)

[ش والمراد أن من فعل هذا فقد أشبه المنافقين المتخلفين عن الجهاد في هذا الوصف فإن ترك الجهاد أحد شعب النفاق]

وينقلب على عقبه رجاء جبر دنياه الذاهبة بسبب البلاء، فرسول الله ﷺ يدعو عليه أن لايلتئم له شأنه ولا يعود له ما رجاه حتى لو كان مجرد زوال شوكة عنه. أما قوله (تعس) فهو دعاء وحقيقة كونية، فإن من تشتت همّه إلى مطالب عدة تنقلت به أمواله وأتعبته سبلها، كلما أراد شيئاً وجده سراباً لا غناء فيه ولا كفاية، ومن جعل الله قصده وغايته ونيته فهو كافيه لأنه نعم الوكيل {أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ }[الزمر : ٣٦]

وفي الحديث فائدة جليلة أن العبادة ليست في أعمال النسك فقط كالصلاة والسجود والدعاء بل هي أشمل من ذلك وأعم، وهذا ما لا يعرفه إلا أهل الإسلام من معنى العبادة، بل لا يعرفه إلا العالمون بسنة رسول الله ﷺ، فالحمد لله على تعليم رسول الله ﷺ لأمته هذا الفضل والكرم.

ما يرشد إليه الحديث

في هذا الحديث من الفقه: أن رسول الله – ﷺ – دعا على عبد الدينار والدرهم والقطيفة، والخميصة، بأن يتعس، ومعنى هذا: أنه يكون عبد درهمه، أو درهم غيره، وكذلك عبد خميصته أو خميصة يرجوها من غيره، أو قطيفة أو غير ذلك.

وإنما يذم إذا كان لا يبالي من أين اكتسب ذلك، فأما المؤمن فإنه شرفت نفسه فلم يرض أن يملكها إلا خالق الخلائق كلهم، فيكون عبدًا لله يملكه الله ما يشاء من خلقه وعباده.

وفي حديث ما يدل على أن علامة هذا العبد الذي تملكه هذه الأشياء:ألا يرضى إلا إذا أعطي، ولا يسخط إلا إذا منع وحرم، فمن وجد ذلك في نفسه فليحذر أن يكون ممكن يتناوله هذا الدعاء.

وقوله: (طوبى لعبدٍ آخذ بعنان فرسه)، يعني – ﷺ –: إنه واحد وليس له من يملك فرسه، فهو آخذ بعنانها، إذا نزل عنها فهو وحيد فريد غير مذكور ولا معدود ولا معروف، وإنما خرج لله عز وجل متطوعًا لجهاد أعداء الله.[٦٠]

وفيه أن العبادة هي ما قصد بها وجه الله والدَّار الآخرة؛ فمن تعبَّد لأجل الدنيا، وليس له غرضٌ ولا مأربٌ سواها، فهذا رَكَن إلى الدنيا، وجعلها همه وغايته؛ وبهذا فقد تعس، وهلك، وسقط، وغرق في مسلكه، فلا قوام له، إلاَّ أنْ يتداركه الله تعالى بالتوبة النصوح.

فهذا قلبه وقالبه معلَّق بالدنيا، إنْ أُعطيَ منها، رضي، وحمد، وأثنى، وإنْ لم يعط، سخط، وتبرَّم، وقد وصف الله المنافقين بهاتين الصفتين؛ فقال تعالى: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ (٥٨)} [التوبة].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي في شرحه على كتاب التوحيد: وأما العمل لأجل الدنيا، وتحصيل أغراضها: إنْ كانت إرادة العبد كلها لهذا المقصد، و لم يكن له إرادةٌ لوجه الله والدَّار الآخرة، فهذا

---

[٦٠] – الإفصاح عن معاني الصحاح (٧/ ٣٦٠)

ليس له في الآخرة من نصيب؛ وهذا العمل لا يصدر من مؤمن؛ فإنَّ المؤمن ولو كان ضعيف الإيمان لابُدَّ أنْ يريد الله والدَّار الآخرة.

وأمَّا من عمل لوجه الله ولأجل الدنيا، والقصدان متساويان، فهذا وإنْ كان مؤمنًا، فإنَّه ناقص الإيمان، والتوحيد، والإخلاص، وعمله ناقصٌ؛ لفقده كمال الإخلاص.

وأمَّا من عمل لله وحده، وأخلص في عمله إخلاصًا تامًّا؛ ولكنه يأخذ على عمله جُعلاً يستعين به على العمل والدِّين؛ كالجعالة التي تجعل على أعمال الخير، وكالمجاهد الَّذي يرتب على جهاده غنيمة أو رزق، وكالأوقاف التي تجعل على المساجد والمدارس، والوظائف الدينية التي يقوم بها، فهذا لا يضر أخذه في إيمان العبد وتوحيده؛ لكونه لم يرد بعمله الدنيا، وإنَّما أراد الدِّين، وقصد أنْ يكون ما حصل له معينًا على القيام بالدِّين.[٦١]

وينبغي للداعية أن يبين للناس خطر إرادة الدنيا ويحذرهم من ذلك ؛ لأن إرادة الدنيا والعمل لأجلها شرك ينافي كمال التوحيد الواجب ويحبط العمل، وإرادة الدنيا أعظم من الرياء ؛ لأن مريد الدنيا قد تغلب إرادته تلك على كثير من عمله، وأما الرياء فقد يعرض له في عمل دون عمل ولا يسترسل معه، والمؤمن يكون حذرا من هذا وهذا

وهكذا حال من كان متعلقا برئاسة أو بغير ذلك من أهواء نفسه إن حصل له رضي وإن لم يحصل له سخط، فهذا عبد ما يهواه من ذلك، وهو رقيق له ؛ لأن الرق والعبودية في الحقيقة رق القلب وعبوديته، فما استرقَّ القلب واستعبده فهو عبده ؛ لأن العبد حرّ ما قَنِعَ، والحر عبد ما طَمِعَ، وطالب المال الذي لا يريد إلا المال يستعبده ويسترقه، وهذه الأمور نوعان : منها ما يحتاجه العبد : من طعامه، وشرابه، ومسكنه، ومنكحه، ونحو ذلك، فهذا يطلبه من الله ويرغب إليه فيه مع بذل الأسباب، ويكون المال عنده يستعمله في حاجاته بمنزلة حماره الذي يركبه، وبساطه الذي يجلس عليه، بل بمنزلة الكنيف الذي يقضي فيه حاجته من غير أن يستعبده، ومنها ما لا يحتاج العبد إليه، فهذه ينبغي أن لا يعلق قلبه بها

قال ابن حجر رحمه الله : " وسوغ الدعاء عليه لكونه قصر عمله على جمع الدنيا، واشتغل بها عما أمر به من التشاغل بالواجبات والمندوبات "

وينبغي للداعية إلى الله عز وجل أن يقنع بما أعطاه الله ويذكر دائما قوله ﷺ : « قد أفلح من أسلم، ورزِق كفافا وقنعه الله بما آتاه » .

وينبغي للعبد المسلم أن يجعل همه طاعة الله ورسوله، يبتغي ثواب الله، ويخشى عقابه، ويطمع في رضاه . (٢)

---

[٦١] – توضيح الأحكام من بلوغ المرام (٧/ ٣٥٧)

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله : وفي قوله ﷺ : " طوبى " " إشارة إلى الحض على العمل بما يحصل به خير الدنيا والآخرة "

إن المسلم الصادق هو الزاهد في الدنيا الذي لا يرغب في رئاستها، ولا حب الشهرة والظهور بدون عمل ؛ ولهذا قال ﷺ : « طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله أشعث رأسه مغبرة قدماه » فقد انصرف عن حظوظ وخواص نفسه إلى الجهاد وما يقتضيه، حتى إن شعره لم يدهن، وعلى قدميه الغبار .

إن من الصفات الحميدة : إتقان العمل كما يحبه الله عز وجل ؛ ولهذا قال النبي ﷺ : « " إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة » أي يكون كاملا في تلك الحالة، فلا يخاف الانقطاع، ولا يهتم بالسبق بل يلازم عمله، وما هو لأجله وهذا يدل على عنايته بما أمر به، وملازمته لعمله وإتقانه له، فإن كان في الحراسة في مقدمة الجيش أتقنها، . لئلا يهجم عليهم العدو، وإن كان في الساقة في مؤخرة الجيش أقام حيث أقيم لا يفقد من مكانه بحال "

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله : " فيه ترك حب الرئاسة والشهرة، وفضل الخمول والتواضع " فهو إن استأذن لم يؤذن له ؛ لعدم ماله وجاهه، وإن شفع في ما يحبه الله ورسوله لم تقبل شفاعته .

وقال الطيبي رحمه الله : " خص العبد بالذكر ؛ ليؤذن بانغماسه في محبة الدنيا، وشهواتها، كالأسير الذي لا خلاص له عن أسره . و لم يقل : مالك الدنيا أو جامع الدنيا ؛ لأن المذموم من الدنيا الزيادة على قدر الحاجة، لا قدر الحاجة "

وأسلوب التأكيد يوضح المعاني ويحمل القلوب على الفهم والتصديق . فينبغي العناية به في الدعوة إلى اللّه عز وجل .

وقال الطيبي رحمه الله : " تقرر في علم المعاني أن الشرط والجزاء إذا اتحدا دل على فخامة الجزاء وكماله، والشريطتان مؤكدتان للمعنى السابق ؛ فإن قوله ﷺ : « آخذ بعنان فرسه » يدل على اهتمامه بشأن ما هو فيه من المجاهدة في سبيل اللّه، وليس له هم سواه، لا الدراهم ولا الدنانير، بله نفسه، فتراه أشعث رأسه مغبرة قدماه . فإن كان في الحراسة يبذل جهده فيها لا يفتر عنها بالنوم والغفلة ونحوهما ؛ لأنه ترك نصيبه من الراحة والدعة، وإن كان في ساقة الجيش لا يخاف الانقطاع، ولا يهتم إلى السبق، بل يلازم ما هو لأجله، فعلى هذه القرينة إلى آخرها جاءت مقابلة للقرينة الأولى، فدلت الأولى على اهتمام صاحبها بعيش العاجلة، والثانية على اهتمام صاحبها بعيش الآجلة "[٦٢]

---

[٦٢] – فقه الدعوة في صحيح الإمام البخاري (٢/ ١٠١)

الحديث الخامس: كلكم راع

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ فَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالأَمِيرُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُمْ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُمْ، وَالمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ بَعْلِهَا وَوَلَدِهِ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُمْ، وَالعَبْدُ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُ، أَلاَ فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»[٦٣].

هذا دين حق وخير، من أين أتيته وجدته هدى ونوراً، وما أفسد الأمة إلا الأهواء وآراء الباطل التي تحملتها من غير سبيل القرآن والسنة، فهذا الحديث هو باب حقيقة الفاعلية التي يسعى إليها العقلاء لأمتهم فإن فساد الأمم وشعوبها في إلقاء التكاليف والكسل والعجز، والانكفاء على الذات، وأن حياة الأمم والشعوب في فهم وتحمل المسؤولية، بحيث يرى كل واحد أنه المعنيُّ بالخطاب وأن الأمر له دون بقية أهله، محتقب بالإثم إن فرط فيه أو قصّر عنه، وما حقق الأولون من أعمال عظيمة كانت لها الفرادة في تاريخ البشرية، والصدارة في إنجازات الأمم إلا لهذه العقائد والمفاهيم، وحين دخل النسك العجمي والتعبد الجاهلي على أمتنا وانسحب الناس عن مسؤولياتهم عاد الجَمْرُ حطباً بارداً ورفاتاً هيناً، وحين يحس المرء بأهميته لأمته وأهميةِ أمته له تكتمل دورة الحياة وتحصل المنجزات، أما حين تموت هذه الصلة بين الفرد والأمة، فلا يرى لنفسه شأناً معها ولها، ولا يرى لأمته قيمة فحينها يكون الموت الحقيقي لكل المشاريع التي هي حقيقة حياة الأمم ومقاصدها.

المسؤولية، والفعالية، وصيغة العلاقة بين الأمة وحقيقة الروابط، وتوزيع التكاليف، ومصدر الحق وطبيعته، هذه أسئلة أعيت الأمم وأتعبت عقلاءهم، وسُكب من أجلها آلاف المحابر، وتناطح فيها دعاة الإصلاح، لأنها إن أدركت وخضع الناس لها بتراضٍ ورغبة باطنية تحقق المراد من الفرد باعتباره مستقل الإرادة محترم الاعتبار، وتحقق المراد من الاجتماع بتسمية المجموع أمة تتحقق لها أهدافها ويحصل لها مقصودها، بلا تعارض بين الفرد والأمة، وبلا تفريط في الحقوق، وبلا ضياعٍ للأهداف.

هذا الحديث لوحده كافٍ للإجابة على هذه الأسئلة الأرضية الحائرة، وبكلمات نبوية صادقة حَمَّل الكلَّ التكليف، وأخضع الجميع للواجب، وفرض على الكل الطاعة، وفسَّر مصدر الحق ومنبع قوته.

إن الحياة لا تستقيم إلا بتنظيم، وهذا التنظيم في ظاهره يوزع الأمة إلى دوائر، وللوهلة الأولى يحصل الوهم أن هذه الدوائر والمؤسسات هو تفرق وتنازع، كما يحصل الوهم أن هذا التوزع يلغي العلاقة بين أفراد هذه المؤسسات وبين الآخرين من هذه الأمة، فحين يكلف الشرع الحاكم القيام بالجهاد مثلا فيُظنَّ أن الجهاد هو تكليف لمؤسسة ولدائرة من الأمة هو الدولة وبقية الأمة غير معنية به، ومثل ذلك الحدود، أو حين تنشأ مؤسسة ودائرة للعلماء فينشأ الوهم أن العلم مسؤولية لهذه المؤسسة دون

---

[٦٣] – الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ٣٤٢)٢٥٥٤ – ٩٦٤ –[ش أخرجه مسلم في الإمارة باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر رقم ١٨٢٩. (بعلها) زوجها]

سواها، وبقية الأمة غير مكلفة بهذا الواجب وهذه هي البدعة الكبرى التي تصيب الأمم وتدمرها، وإذا كان للعابدين بدع تفسد عبادتهم، وإذا كان للعلماء بدع تفسد عملهم فإن للأمم بدعاً تفسد فاعليتها وأهدافها كلها تدور حول المسؤولية.

الغاية المثلى هي خضوع الأمة للمفاهيم، بحيث تكون السلطة لها، فتكون هذه المفاهيم أعرافاً في حس الناس ومشاعرهم وفي القانون الغالب، يخضع له الناس ويتداولونه كما يتداولون لغتهم، وكما يتداولون مفاهيمهم الفطرية كالعلاقة بين الأب وأبنائه والأم وأبنائها، وكلما رقت المفاهيم الشرعية وخضع الناس لها ببواطنهم كلما اقتربت المفاهيم من كونها فطرة وسجية، ولما كان الإسلام هو الحق وهو الفطرة فإن الأليق به في صورة المثال هو تحققه خلال قانون الفطرة والعرف الباطني، فيستسلم له الناس بلا توزيع ولا تقسيم ولا تقنين لكل فئة دون بقية الأمة، ومن أمثلة ذلك "المؤسسة العلمية"، فهذه في صورتها الصحيحة الأولى كانت موجودة، لها سلطانها، وقوانينها، وضوابطها، وحدودها، وكل ذلك مثبوت في حسّ الأمة ومشاعرها ووجدانها، وهذا الوجود الكامن في داخل الأمة له قوة آسرة، ووضوح بيّن أقوى من أي سلطة مقننة ومُعْلَنٍ عنها ككيان، ولم يكن هذا الوجود يحتاج إلى فرضهِ بقانون يعزله ويفصله عن بقية نشاطات الأمة، فالمسجد بنايته، مفتوحة أبوابه للجميع، وحلقات العلم جزء من نسيج هذا الجميع، فلا طبقية ولا عزل أو استئثار، ولو قارنت هذه "المؤسسة العلمية" في تاريخنا مع أي مؤسسة أخرى في تاريخ الأمم الأخرى كالنشاطات النقابية لوجدت أن الفارق كبير، حيث تتحول "المؤسسة النقابية" إلى عصابة وحزب له رجاله الذين يجعلون "الشخص" أو "العائلة" هو الأصل و"التنظيم" وسيلة للذات لا الفكرة، ولذلك عمدت "الدولة" في تاريخ الأمم دائماً إلى ابتلاع هذه المؤسسات وجعلها قوة لتوحشها ضد فكرة المؤسسة نفسها، فأنشأت ما يسمى بمنصب المفتي العام، أو "هيئة العلماء" وجعلتها مربوطة بنظام "الدولة" وجزءاً منها، وبالتالي تحولت المؤسسة إلى ناب لوحش الدولة تبطش به ضد خصومها، فالمسجد للدولة كما هي حال أي دائرة حكومية، وبالتالي صار العلم نشاط "مؤسسة حكومية" لا حركة أمة ومن ذلك "مؤسسة الجهاد" فالجهاد أمر رباني للمسلمين جميعاً بلا استثناء، حتى العجزة لهم وجود في هذا النشاط الإنساني الإسلامي العظيم، فهو حركة أمة، وليس نشاط دائرة معيّنة به دون غيرها، وكلما كان هذا المفهوم معمماً كلما كانت فاعليته أقوى، وكلما اقترب من تحجيم المؤسسة والتقنين كلما فُقِدَت هذه الفاعلية، وذلك لخروج طوائف من المسؤولية، فتعميم المسؤولية هو تحقيق للفاعلية، وتحديد "المؤسسة" هو قصم لهذه المسؤولية وبالتالي إبطال لقوة الفاعلية، فَفَرْق أن يكون الجهاد هو حركة أمة كما كان في صورته الأولى، وبين أن يصبح نشاط "مؤسسة حكومية" فيها أراضها.

وهذا لا يلغي مفهوم التنظيم والإدارة، فنظام الدواوين ليس هو "المؤسسة" التي تعزل البعض عن الكل وبالتالي يسهل ابتلاعه من قِبَلِ "الدولة" على حساب "الأمة"، بل هو تنظيم لفعل أمة، وليس صناعة "لمؤسسة" محددة.

النشاطات يجب أن تكون تكاليف أمة، وذلك من خلال المفاهيم المسيطرة في المجتمع، وانتقالها إلى تكاليف "مؤسسة" يجعلها محتاجة لتقنين وبالتالي يقع العزل وتدمير الفاعلية، وسهولة قنصها واختطافها لخدمة "الشخص" أو "الدولة" لا الفكرة التي انتصبت من أجلها.

في القرآن الكريم والسنة النبوية تكاليف موجهة للأمة، وإذا وجدت أوامر للبعض فهو لاختصاص هذا البعض بالقدرة اللازمة لهذا التكليف، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مكلف به كل من رآه «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»[٦٤] بما أنزل الله تكليف لأمة {وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ }[المائدة : ٤٧]، وهكذا جميع النشاطات بلا استثناء، وتكليف الحاكم بإقامة الحدود وإعلان الجهاد هو من قبيل الوكالة عن الأمة، فهو وكيل بعقد بينه وبين الأمة لإقامة أحكام العامة، وسلطانه يستمد من هذا العقد، وقوة هذا السلطان مصدره رضا الأمة، فليست السلطة توكيل إلهي ولا الغلبة والقهر، وإن كان أمر الأمة يعرف بقوة الشوكة والتي تظهر عن طريق الغلبة أحياناً. والعقد طرفاه الأمة من جهة والحاكم من جهة أخرى، والمعقود عليه هو أحكام العامة، ويبطل العقد بأمور تصيب العاقدين ككفر الحاكم أو جنونه أو بتخلف مقاصد العقد وهي المعقود عليه كتعطيل الحدود وإبطال الجهاد، وحين يبطلها الحاكم يعود أمرها إلى الأمة ولا تسقط عنها، فالجهاد لا يبطله حاكم، وإن عطله وجب على الأمة أن تقوم به وكذلك الحدود وغيرها.

وهذا الوصف الذي قدمناه يفيد أن دائرة الدولة ضيقة جداً، وهكذا يجب أن تكون، أما ربط التكاليف بالدولة والحاكم وتوسيع ذلك فهو انحراف وبدعة، ومن العجيب أن يوجد بعض الفقهاء من وقع من فتاوى تؤيد هذه البدعة وتنصرها، وذلك مثل ربط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بإذن الحاكم أو إقامة الجمعة، بل وصل بعض هذه الأقوال الغريبة إلى دعاء القنوت في النوازل لأمر الحاكم وإذنه، وهذا لعمر الحق انحراف في تصور حقيقة الأمر الشرعي، وأثره السيّء على الأمة أقوى من أثر البدع الفردية والسلوكية الشخصية. وكما رفع الله بعضاً فوق بعض درجات، كذلك جعل الناس أقساماً من ذكر وأنثى، وأب وأم، وسيد وعبد، وخادم وآمر، وبائع ومشتري، وهكذا تقع نشاطات الحياة باعتبار أمرها القدري الذي فطر الله الخلق عليه، وهذا الأمر الفطري يجب اتباعه والإقرار به، وهو كذلك في حس الناس ووجدانهم إلا ما يقع من إبليس وجنده من {وَلأُضِلَّنَّهُمْ

---

[٦٤] – صحيح مسلم (١/ ٦٩) ٧٨ – (٤٩)

وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيّاً مِّن دُونِ اللّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُّبِيناً }[النساء : ١١٩]، وبالتالي يؤمر الابن أن لا يقرّ أباه على طاعة، ولا الزوجة لزوجها، ولا الصغير لكبير وذلك تحت شعارات بهيمية معروفة.

هذا التوزيع الفطري مع الحكم الشرعي هو الذي يحقق الفاعلية الحقيقية للأمم ويديمها، وكلما حصل فساد في أحدهما تعوقت الأمم وسارع فيها الفساد وبالتالي حقت كلمة الله بالعذاب والإهلاك والدمار، وهذا التوزيع هو مصدر من مصادر المسؤولية والتكليف، خلقه الله وأقره شرعه، وهو عقد فطري، والفطرة هي أقوى أدلة الشرائع والأحكام بلا خلاف بين عقلاء البشر.

هذا الحديث يحمّل المسؤولية لكل من كلف رعاية حق، فالرعاية تعطى في بعض جوانبها مفهوم التقدم على الغير، فتُنشئ وَهمَ الطاعة دون السؤال والمراجعة، ومع التقادم وضياع البعد الأخلاقي يحصل الاستعلاء وهي أسُّ الفساد والخراب كما هو في كتاب الله تعالى، فحين تحصل الإمارة مع فقدان مفهوم المساءلة والمراجعة لا يبقى من الإمارة إلا مفهوم الطاعة، أي طاعة المأمور وخضوعه للأمير، والمفاهيم الباطلة تنتج الانحراف السلوكي، وأعظم ما يصيب البشر هو الطغيان الذي أساسه الكبر، وفي الحديث عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الْأَجْشَعِيِّ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُمْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةً فَقَامَ فَقَرَأَ سُورَةَ الْبَقَرَةِ لَا يَمُرُّ بِآيَةِ رَحْمَةٍ إِلَّا وَقَفَ فَسَأَلَ ، وَلَا يَمُرُّ بِآيَةِ عَذَابٍ إِلَّا وَقَفَ فَتَعَوَّذَ ، قَالَ: ثُمَّ رَكَعَ بِقَدْرِ قِيَامِهِ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ: «**سُبْحَانَ ذِي الْجَبَرُوتِ وَالْمَلَكُوتِ وَالْكِبْرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ**» ، ثُمَّ سَجَدَ بِقَدْرِ قِيَامِهِ ثُمَّ قَالَ فِي سُجُودِهِ مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ قَامَ فَقَرَأَ بِآلِ عِمْرَانَ ثُمَّ قَرَأَ سُورَةً سُورَةً "[٦٥]

وهذه هي التي نازعَه سبحانَه الخلقُ فيها، وهي أساس كل فساد في الدنيا والآخرة.

المفهوم الشرعي للملك هو رعايته، أي قيام بأداء الواجبات والحقوق، ومساءلة في الدنيا والآخرة، كما هي في حس الناس طاعة وامتثال، مع أن القاعدة الفقهية المقررة: الواجبات قبل الحقوق.

وفي الحديث إطلاق لمفهوم المسؤولية وبالتالي لا يجوز قصرها على الإثم الأخروي، بل هي كذلك في الدنيا، وهذا الذي طبقه الجيل الأول وأتمروا به كما قال الصديق: (أَطِيعُونِي مَا أَطَعْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَإِذَا عَصَيْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَلَا طَاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ)[٦٦] وهذه الكلمات ليست مواعظ إرشادية بل هي

---

[٦٥] – الأسماء والصفات للبيهقي (١/ ٣٤٤)(٢٧٦) حسن

[٦٦] – وقول أبي بكر رضي الله عنه:" أَطِيعُونِي مَا أَطَعْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَإِذَا عَصَيْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَلَا طَاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ " يدل على أصل عظيم من أصول السياسة الشرعية في الإسلام، وهو أن الأمراء يطاعون بالمعروف، ولا يطاعون في معصية الله، وأوامرهم المخالفة لشرع الله يجب إبطالها وإلغائها، ولا يجوز تنفيذها، وبهذا لن يستطيع الإمام أو غيره من الأمراء أن يلزموا الأمة بطاعتهم في معصية الله إذا تمسكت الأمة بهذا الأصل العظيم، وهو الامتناع عن طاعة الأمراء في معصية الله، ويجب على من أمر بالمعصية من الولاة الرجوع عما أمر به، ورد الشيء المتنازع فيه إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله – ﷺ –،وقد قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} [النساء:٥٩] المفصل في شرح السنن النبوية في الأحكام السياسية (ص: ٢٧١)

دستور وعقد ملزم للطرفين، وحين جاع الموالي عام الرمادة وسرقوا من مال سيدهم لم يقتص منهم عمر رضي الله عنه لأنهم أخذوا ما هو حق لهم من مال سيدهم الذي منعهم إياه، وحين استفتت هند بنت عتبة رسول الله ﷺ هل تأخذ من مال زوجها الذي منعها لشحٍّ منه أجاز لها رسول الله ﷺ فعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَتْ هِنْدٌ لِلنَّبِيِّ - ﷺ -:إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ شَحِيحٌ، وَلَيْسَ لِي إِلَّا مَا يُدْخِلُ عَلَيَّ، قَالَ: «خُذِي مَا يَكْفِيكِ وَوَلَدَكِ بِالْمَعْرُوفِ»[٦٧]

وهذا الحديث أصل في مسألة "استيفاء الحقوق بغير إذن صاحبها إن جحدها أو منعها"، فما قررت الفطرة والشرع من حقوق فالمساءلة حق لا يجوز لأحد أن يعطلها.

فمن الواجبات الملقاة على أمتنا ولا سعادة إلا بها، وهي باب فاعلية الأمة بين الأمم، كما هي أساس نقاء الأمة وبراءتها من الفساد الداخلي: " إقامة الحدود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومن ذلك الحسبة والجهاد في سبيل الله " وهذه هي خصائص هذه الأمة التي تجعل لها حق قيادة الغير، والنصوص الدالة على ذلك كثيرة تراجع في فطانها، وهذه يجب على الأمة القيام بها، توكل غيرها من الأمراء وغيرهم لمباشرتها، فإن قصّرت فيها أو عطلها الوكلاء أثمت الأمة جميعاً، ولا يسقط الإثم عن الواحد إلا بالأداء بحسب الوسع والاستطاعة.

واجبات الخليفة

يجب على خليفة المسلمين ما يلي:

١ - إقامة الدين:

ويتم ذلك بحفظه، والعمل به، والدعوة إليه، وتعليمه، ودفع الشبه عنه، وحمل الناس عليه، وتنفيذ أحكامه وحدوده، والجهاد في سبيل الله، والحكم بين الناس بما أنزل الله.

١ - قال الله تعالى: {يَادَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦)} ... [ص: ٢٦].

٢ - وقال الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (٥٨)} ... [النساء: ٥٨].

٢ - اختيار الأكفاء للمناصب والولايات:

١ - قال الله تعالى: {قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَاأَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (٢٦)} ... [القصص: ٢٦].

---

[٦٧] - تهذيب صحيح ابن حبان (١ - ٣) علي بن نايف الشحود (٢/ ٢٣١)(٤٢٥٥) (صحيح)

٢ – وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ – ﷺ – قَالَ: «مَا بَعَثَ اللهُ مِنْ نَبِيٍّ، وَلا اسْتَخْلَفَ مِنْ خَلِيفَةٍ، إِلا كَانَتْ لَهُ بِطَانَتَانِ: بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالمَعْرُوفِ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ، وَبِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالشَّرِّ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ، فَالمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَ اللهُ تَعَالَى». أخرجه البخاري[٦٨]

٣ – تفقد أحوال الرعية، وتدبير أمورها: لحديث الباب

٤ – الرفق بالرعية، والنصح لهم، وعدم تتبع عوراتهم:

عَنْ مَعْقِلِ بن يَسَارٍ المُزنيّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ – ﷺ – يَقُولُ: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللهُ رَعِيَّةً، يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ، إِلا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ»[٦٩].

وَعَنْ مَعْقِلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ – ﷺ – يَقُولُ: «مَا مِنْ أَمِيرٍ يَلِي أَمْرَ المُسْلِمِينَ، ثُمَّ لا يَجْهَدُ لَهُمْ وَيَنْصَحُ إِلا لَمْ يَدْخُلْ مَعَهُمُ الجَنَّةَ».[٧٠]

٥– أن يكون قدوة حسنة لرعيته: قال الله تعالى: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤)} [القلم: ٤].

وقال الله تعالى: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤)} [السجدة: ٢٤]

٦ – محاسبة الولاة والعمال فيما وكَّلهم فيه:

عَنْ أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: اسْتَعْمَلَ النَّبِيُّ – ﷺ – رَجُلا مِنَ الأَزْدِ، يُقال لَهُ ابْنُ اللُّتْبِيَّةِ، عَلَى الصَّدَقَةِ، فَلَمَّا قَدِمَ قالَ: هَذَا لَكُمْ وَهَذَا أُهْدِيَ لِي. قالَ: «فَهَلا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ أَوْ بَيْتِ أُمِّهِ، فَيَنْظُرَ يُهْدَى لَهُ أَمْ لا؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لا يَأْخُذُ أَحَدٌ مِنْهُ شَيْئًا إِلا جَاءَ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ يَحْمِلُهُ عَلَى رَقَبَتِهِ، إِنْ كَانَ بَعِيراً لَهُ رُغَاءٌ، أَوْ بَقَرَةً لَهَا خُوَارٌ، أَوْ شَاةً تَيْعَرُ». ثُمَّ رَفَعَ بِيَدِهِ حَتَّى رَأَيْنَا عُفْرَةَ إِبْطَيْهِ: «اللَّهُمَّ هَل بَلَّغْتُ، اللَّهُمَّ هَل بَلَّغْتُ». متفق عليه[٧١].

٧ – استيفاء الحقوق المالية لبيت المال، وصرفها في مصارفها الشرعية:

مثل الزكاة، والجزية، والخراج، والفيء، والغنائم ونحوها من الموارد كالبترول والمعادن ونحوها.

قال الله تعالى: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣)} [التوبة: ١٠٣].

٨ – الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر:

قال الله تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥)} ... [النحل: ١٢٥]. وقال الله تعالى:

---

[٦٨] – أخرجه البخاري برقم (٧١٩٨).

[٦٩] – متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٧١٥٠)، ومسلم برقم (١٤٢)، واللفظ له.

[٧٠] – أخرجه مسلم برقم (١٤٢).

[٧١] – متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٢٥٩٧)، واللفظ له، ومسلم برقم (١٨٣٢).

{وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤)} [آل عمران: ١٠٤].

٩ - رعاية مصالح الأمة الداخلية والخارجية.

قال الله تعالى: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٢٨)} [التوبة: ١٢٨].

١٠ - مشاورة الإمام أهل الشورى:

ليجمع الرأي السديد، ويطيِّب قلوب من يشاور، ويستفيد من طاقتهم لمصلحة الأمة.

قال الله تعالى: {وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩)} ... [آل عمران: ١٥٩].

١١ - عدم موالاة الكفار:

قال الله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١)} ... [المائدة: ٥١].

وقال الله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٥٧)} ... [المائدة: ٥٧].[٧٢]

ما يرشد إليه الحديث

قالَ الخَطّابِيُّ : اشتَرَكُوا أَي الإِمام والرَّجُل ومَن ذُكِرَ فِي التَّسمِيَة أَي فِي الوصف بِالرّاعِي ومَعانِيهم مُختَلفَة.

فَرِعايَة الإِمام الأَعظَم حِياطَة الشَّرِيعَة بِإِقامَة الحُدُود والعَدل فِي الحُكم ، ورِعايَة الرَّجُل أَهله سِياسَته لأَمرِهم وإِيصالهم حُقُوقهم ، ورِعايَة المَرأَة تَدبِير أَمر البَيت والأَولاد والخَدَم والنَّصِيحَة لِلزَّوجِ فِي كُلّ ذَلكَ ، ورِعايَة الخادِم حِفظ ما تَحتَ يَده والقِيام بِما يَجب عَلَيه مِن خِدمَته.

قالَ الطِّيبِيُّ فِي هَذا الحَدِيث أَنَّ الرّاعِي لَيسَ مَطلُوبًا لِذاتِه وإِنَّما أُقِيمَ لِحِفظ ما استَرعاهُ المالِكُ فَيَنبَغِي أَن لا يَتَصَرَّف إِلاَّ بِما أَذِنَ الشّارِع فِيه وهُو تَمثِيل لَيسَ فِي الباب أَلطَف ولا أَجمَع ولا أَبلَغ مِنهُ ، فَإِنَّهُ أَجمَلَ أَوَّلاً ثُمَّ فَصَّلَ وأَتَى بِحَرف التَّنبِيه مُكَرَّرًا ، قالَ والفاء فِي قَولُه : "أَلا فَكُلّكُم " جَواب شَرط مَحذُوف ، وخَتَمَ ما يُشبِه الفَذلَكَة إِشارَة إِلَى استِيفاء التَّفصِيل.

وقالَ غَيره دَخَلَ فِي هَذا العُمُوم المُنفَرِد الَّذِي لا زَوج لَهُ ولا خادِم ولا ولَد فَإِنَّهُ يَصدُق عَلَيه أَنَّهُ راعٍ عَلَى جَوارِحه حَتَّى يَعمَل المَأمُورات ويَجتَنِب المَنهِيّات فِعلاً ونُطقًا واعتِقادًا فَجَوارِحه وقُواهُ وحَواسّه رَعِيَّته ، ولا يَلزَم مِنَ الاتِّصاف بِكَونِه راعِيًا أَن لا يَكُون مَرعِيًّا بِاعتِبارٍ آخَر . وجاءَ فِي حَدِيث أَنَس

[٧٢] - موسوعة الفقه الإسلامي (٥/ ٣١١)

مثل حَديث ابن عُمَر فَزادَ فِي آخره " فَأَعدُّوا لِلمَسأَلَة جَوابًا ، قالُوا : وما جَوابها ؟ قالَ : أَعمال البِرّ " أَخرَجَهُ ابن عَديّ والطَّبَرانيُّ فِي "الأَوسَط " وسَنَده حَسَن.

ولَهُ مِن حَديث أَبِي هُرَيرَة " ما مِن راعٍ إلاَّ يُسأَل يَومَ القيامَة أَقامَ أَمر الله أَم أَضاعَهُ".

ولابن عَديّ بسَنَد صَحيح عَن أَنَس " إنَّ الله سائل كُلّ راعٍ عَمّا استَرعاهُ حَفِظَ ذَلِكَ أَو ضَيَّعَهُ " واستُدلَّ به عَلَى أَنَّ المُكَلَّف يُؤاخَذ بالتَّقصير فِي أَمر مَن هُو فِي حُكمه ، وتَرجَمَ لَهُ فِي النِّكاح " باب قُوا أَنفُسَكُم وأَهليكُم نارًا " وعَلَى أَنَّ للعَبد أَن يَتَصَرَّف فِي مال سَيِّده بإذنه وكَذا المَرأَة والولَد ، وتَرجَمَ لكَراهَة التَّطاوُل عَلَى الرَّقيق وتَقَدَّمَ تَوجيهه هُناكَ[٧٣]

في هذا الحديث من الفقه أن الأمة على شبيه الشجرة، وصلاح كل أصل منها سبب لصلاح من بعده؛ فالإمام راع لجميع الأمة، وهو مسؤول عن رعيته، وهذا السؤال يتناول كل ما يقتضي السؤال عنه من أمر دينه ودنياه، ومن مفهوم الخطاب ما يدل على أن الرعية مسؤولة عن إمامها عن كل ما يتعلق بهم من أمره من دين ودنيا، والرجل مسؤول عن رعيته من تعليم أهله ما يجب عليهم تعلمه وصونهم عن البذلة، والغيرة على النساء منهم، ومن تربية الأطفال وحفظهم فيما في أيديهم من ماله.

وقوله: (والمرأة راعية في بيت زوجها، وهي مسؤولة) عن حفظ زوجها بالغيب، وأن لا تتصدق من ماله إلا بإذنه، فما ظنك بغير ذلك؟!

وقوله: (والخادم في مال سيده راع) يعني – ﷺ – إن كان في يد هذا الخادم ماشية أحسن القيام عليها، من أن يهبط بها الخصب، ويجنبها الجدب، ويتبع شاذتها، ويهنأ جرباها.[٧٤]

الحديث السادس: ما أوتيه النبي ﷺ وحيا أوحاه الله إليه

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ»[٧٥].

معنى الحديث: أن من سنة الله في الأنبياء جميعاً أن يمدهم بالمعجزات فلا يبعث نبياً إلاّ أعطاه معجزة يستدل بها على نبوته ويثبت بها رسالته، ويتحدى بها كل من عارضه وكذب به، فالمعجزة أمر خارق للعادة يظهر على يد مدّعي الرسالة ليكون شاهد إثبات له، كما أعطى الله موسى العصى وكما

---

[٧٣] – فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (١٣/ ١١٣)

[٧٤] – الإفصاح عن معاني الصحاح (٤/ ١٨)

[٧٥] – صحيح البخاري (٦/ ١٨٢)(٩٨١)

[ش أخرجه مسلم في الإيمان باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ رقم ١٥٢(أعطي ما مثله آمن عليه البشر) أجري على يديه من المعجزات الشيء الذي يقتضي إيمان من شاهدها بصدق دعواه لأنها من خوارق العادات حسب زمانه ومكانه. (أوتيته) المعجزة التي أعطيتها. (وحيا) قرآنا موحى به من الله تعالى يبقى إعجازه على مر الأزمان ولذلك يكثر المؤمنون به ويوم القيامة يكون أتباعه العاملون بشريعته المنزلة أكثر من الأتباع العاملين بالشرع الحق لكل نبي]

أعطى عيسى إبراء الأكمه، والأبرص، وإحياء الموتى بإذن الله. وهذا هو معنى قوله: " ما من الأنبياء نبي إلاّ أعطي ما مثله آمن عليه البشر " أي ليس هناك نبي إلا وقد أعطي من المعجزات ما يكفي لإثبات رسالته فلا ينظر أحد إلى المعجزة التي ظهرت على يديه من أهل النفوس السليمة من العناد والاستكبار إلا بادر إلى الإيمان به كما فعل سحرة فرعون لما شاهدوا معجزة موسى " وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليَّ " أي وإنما كانت المعجزة العظمى التي أعطاها الله لي هي هذا الكتاب الخالد الباقي إلى يوم القيامة، فما من أحد يقرأه بتأمل وتدبّر دون عناد أو حسد أو تكبر إلاّ عرف أنه كلام الله، وأني رسول الله لما فيه من أنباء الغيب التي لا تأتي إلاّ من خبر السماء، وما اشتمل عليه من الأحكام والقوانين الإلهية التي تصانُ بها حقوق الإنسان من دين ونفس ومال ونسب وعقل وعرض. والقرآن لا تنتهي معارفه عند حد، وإنما هي تتجدد وتنكشف على مر العصور والأزمان. وليس معنى هذا أنه – ﷺ – لم يؤت معجزة أخرى غير القرآن كلا فلقد أوتي – ﷺ – من المعجزات ما لم يؤت نبي قبله، ومن ذلك نبع الماء من بين أصابعه، وهي أبلغ من معجزة موسى، لأن نبع الماء من الصخر أمر مشاهد مألوف، أما نبع الماء من بين اللحم والعظم والأصابع فإنه لا يخطر على البال، ولكن معنى قوله: " وإنما كان الذي أوتيته وحياً " أن معجزة القرآن أعظم معجزاته – ﷺ – لأن تلك المعجزات لا يعرفها إلاّ من عاصرها أما القرآن فإنّه العجزة الدائمة الباقية إلى يوم القيامة يعرفها ويراها ويقرأها كل من أرادها، ويستدل بها على صدقه – ﷺ – وصحة رسالته – ﷺ – " فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً " أي وبما أني قد أعطيت هذه المعجزة العظمى، وهي هذا الكتاب الخالد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فإني أرجو أن يقرأه الناس على مر العصور، فيدخلوا في دين الله أفواجاً، فأكون أكثر الأنبياء أتباعاً.[٧٦]

كان من حجج الكافرين على نبينا محمد ﷺ من أجل تصديقه واتباعه أن يأتيهم بآية كونية كما أرسل مع النبيين السابقين، وقد ذكر الله تعالى هذا الأمر كثيراً في القرآن مما يسترعي الانتباه فقد ذكره في سورة الأنعام ويونس وطه والأنبياء وأشار إلى ذلك في مواطن أخرى كما في الأعراف والنحل والقصص، ومما ذكره الله تعالى في هذه المواطن أن هذه الآيات لم تكن سبباً لإيمانهم وتصديقهم، بل كان إرسالها سبباً في تعجيل العذاب كما قال تعالى في سورة الإسراء: {وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفاً [الإسراء : ٥٩] وقال في الأنبياء: {مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ [الأنبياء : ٦] وقال في القصص: {فَلَمَّا جَاءهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ [القصص : ٤٨] ولم يقع

[٧٦] – منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٥/ ٧٩)

خلاف ذلك إلا مع قوم يونس عليه السلام كما قال تعالى: { وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٩٧) فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (٩٨) } [يونس]، والقرآن كشف بهذا كذب هذه الحجج وتعنّت طالبيها، وأن مرادهم هو المجادلة بالباطل والتعجيز، ولذلك توقفت هذه الآيات الكونية و لم تعد هي السبيل للحجة مع الحق، فقال تعالى في سورة طه: {وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى} [طه: ١٣٣] والآية تحتمل معنيين، أولاهما: أن الذكر في القرآن هي ما جاءت به الصحف الأولى فدل هذا على صدق القرآن ويشهد لهذا المعنى ما قال الله تعالى في سورة الأنبياء من قوله: {بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ} [الأنبياء: ٥] إلى قوله: {لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ } [الأنبياء: ١٠]، والثاني: أن ما جاء من الآيات الكونية في الصحف الأولى وأنه لم يحقق الإيمان في قلوبهم كاف أن لا يرسلها الله مرة أخرى، وفي سورة القصص قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} [القصص: ٤٣]

وهو يشهد لهذا المعنى، وهذه الآية في سورة القصص تبين أن إهلاك أمة كاملة بسبب تعنتها قد توقف، وإن كان إهلاك القرى بإزالة قوتها وعلوها لم يتوقف كما قال تعالى في سورة الإسراء: (وَإِن مَّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً [الإسراء : ٥٨]، والمقصود أن الآيات الكونية الكبرى للشهادة على صدق الأنبياء والتي يتعلق بها الدمار إن كفروا بها و لم يصدقوها قد توقف، وكل من طلبها فهو متعنت كشف الله كذب سلفه قال تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (١١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (١١٩) } [البقرة: ١١٨، ١١٩]، والحجة الكبرى التي جعلها الله تعالى لنبينا محمد ﷺ وهي حجة الدعاة والمجاهدين والعلماء إنما هي كتاب الله تعالى وما فيه من الآيات لا غير، فمن سأل دليلاً آخر على صدق أيّ مسألة فهو متعنت مجادل بالباطل لا غير، والقرآن هو الحجة وهو الهداية، وقد ربط الصحابة هداية رسول الله ﷺ بسبب أخذه بالكتاب فقد قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه في خطبة البيعة كما في الصحيح عن ابْنِ شِهَابٍ، أَخْبَرَنِي أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، أَنَّهُ سَمِعَ عُمَرَ، الغَدَ حِينَ بَايَعَ المُسْلِمُونَ أَبَا بَكْرٍ، وَاسْتَوَى عَلَى مِنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، تَشَهَّدَ قَبْلَ أَبِي بَكْرٍ فَقَالَ: «أَمَّا بَعْدُ، فَاخْتَارَ اللَّهُ لِرَسُولِهِ ﷺ الَّذِي عِنْدَهُ عَلَى الَّذِي عِنْدَكُمْ، وَهَذَا الكِتَابُ الَّذِي هَدَى اللَّهُ بِهِ رَسُولَكُمْ، فَخُذُوا بِهِ تَهْتَدُوا وَإِنَّمَا هَدَى اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ» "[٧٧].

[٧٧] - (خ) ٧٢٦٩

هذا الحديث يدل على أن الله أعطى كل نبي آية وفيها الكفاية لإثبات صدق النبوة، وفي المعجزات الباهرة والتي لا يقدر على مثلها البشر، وفيها البصيرة التامة كما قال موسى عليه السلام لفرعون: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَامُوسَى مَسْحُورًا (١٠١) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَافِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (١٠٢)} [الإسراء: ١٠١، ١٠٢].

وفي سورة الأعراف ذكر الله نوعين من البينات لإقامة الحجة: أولاهما: البينة القدرية الكونية كما قال عن قوم ثمود: {وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [الأعراف: ٧٣] وكذلك ما قاله موسى عليه السلام عندما طلبوا منه آية فقال فرعون: {قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} [الأعراف: ١٠٦]، والثانية: هي البينة الشرعية كما ذكر عن شعيب عليه السلام: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [الأعراف: ٨٥].

وأما المعجزة الكبرى التي جاء بها رسولنا محمد ﷺ فهي القرآن الكريم: (وإنّما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ) وليس الحديث معناه أنه لم يكن له معجزات كونية تدل على صدقه كانشقاق القمر وخروج الماء من بين أصابعه الشريفة وتكثير الطعام وتسليم الحجر عليه وغيرها مما هو مذكور في سيرته بأسانيد صحيحة وإنما المقصود أن الآية الكبرى هي القرآن، و لم تكن تلك الآيات الكونية مما تعلق بها الدمار والهلاك كآيات الأنبياء الآخرين عليهم الصلاة والتسليم، وهذا الذي جاء به رسولنا ﷺ هو ميراثه لنا، لا نحتج إلا به في جهادنا ودعوتنا وإثبات الحقائق الشرعية، فالحق لا يثبت إلا بالشرع وهو الكتاب وما دل عليه الكتاب كالسنة الشريفة كقوله تعالى: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا} [الحشر: ٧]، وإنْ أكرم الله العاملين بكرامة كونية فهي زيادة رحمة لحصول الاطمئنان كما طلب إبراهيم عليه السلام في قوله: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [البقرة: ٢٦٠]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ:" نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ: {رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي المَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي} [البقرة:٢٦٠] وَيَرْحَمُ اللَّهُ لُوطًا، لَقَدْ كَانَ يَاوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ، وَلَوْ لَبِثْتُ فِي السِّجْنِ طُولَ مَا لَبِثَ يُوسُفُ، لَأَجَبْتُ

الدَّاعِيَ "[٧٨] أي في طلب الطمأنينة، وهي أمر زائد عن الإيمان واليقين، والمؤمنون في طلبها ليسوا متجاوزين حد الشرع والعبودية، وأما ما يطلبه البعض من الآيات الكونية لإثبات صدق ما يقوم به المجاهدون والدعاة فهو طلب تعنّت لا التفات إليه، ومن ذلك أن ينصر الله طائفة علم وجهاد، وأن لا يحصل لهم الهزيمة أبداً أو الهلكة الكلية لهم، فليس هناك اليوم طائفة يقال فيها ما جاء عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، فِي قِصَّةِ بَدْرٍ قَالَ: وَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَهُ فَقَالَ: «إِنَّكَ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ فَلَنْ تَعْبُدَ فِي الْأَرْضِ أَبَدًا» فَقَالَ لَهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «خُذْ قَبْضَةً مِنَ التُّرَابِ، فَأَخَذَ قَبْضَةً مِنَ تُرَابٍ فَرَمَى بِهَا وُجُوهَهُمْ، فَمَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا أَصَابَ عَيْنَيْهِ وَمِنْخَرَيْهِ وَفَمَهُ تُرَابٌ مِنْ تِلْكَ الْقَبْضَةِ، فَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ»[٧٩] لأن الإسلام وأهله في كل مكان، وطوائف العلم والجهاد متوزعون في الأمصار، إن هلكت طائفة لسنة الله في الحياة لعدم القدرة أو كفاية هذه القدرة فهناك طوائف أخرى تبقى بفضل الله، وما يحصل من الشك والريب في قلوب البعض إن هلكت عصابة حق، فيقال لو كانت على الحق لنصرها الله تعالى هو من قبيل الجهل بسنة الله تعالى في التعامل مع الحق، فأهل الأخدود أبيدوا جميعاً، والله جعل النصر هو الثبات على الإيمان فقال: ({وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [آل عمران: ١٣٩]، وليس هناك من وعد إلهي أن كل من ثبت على الحق أن ينصره على خصمه بنصر مادي على ما يفهم الناس، فهذا عليّ رضي الله عنه كان على الحق ضد معاوية رضي الله عنه في قتاله و لم ينتصف منهم لعوامل سننية لا تتبدل ولا تتحول، وكم قُتل من عالم أمام طاغية كسعيد بن جبير أمام الحجاج وأهل الدرعية أمام إبراهيم بن محمد علي باشا الألباني، والأمثلة تملأ مجلدات في هذا الباب، والمقصود أننا حين نقول: إن الله معنا لأننا على الحق، فالله سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء ويختار لأسباب كونية وشرعية لا تتبدل، والله لا يُكرهه أحد ولا يوجب عليه موجب، وما نحن إلا عبيده نؤمن بما جاء به رسوله ﷺ ونتوكل عليه، ثم نرضى بما يقع علينا من أقدار الله تعالى ونصبر عليها، وها هو ربنا يحذر رسولنا ﷺ من هذه الشُّبَه الشيطانية التي يلقيها أتباعه فيقول: { فَلَعَلَّكَ

---

[٧٨] – الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ٤٢٦)٣٣٧٢ – ١١٩٠ –[ش أخرجه مسلم في الإيمان باب زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة. وفي الفضائل باب من فضائل إبراهيم الخليل – رقم ١٥١. (أحق) أولى بالسؤال عن كيفية الإحياء أو الشك فيه لو كان سؤاله شكا ولكنه طلب المزيد من اليقين والاطمئنان. (ليطمئن) ليسكن ويصير علم اليقين عندي عين اليقين بالمشاهدة / البقرة ٢٦٠ /. (يأوي) يستند ويعتمد. (ركن شديد) قوي وعزيز يمتنع به ويستنصر بذلك – إلى قوله تعالى {لو كان أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد} / هود ٨٠ /.قال العيني رحمه الله تعالى وكأنه – استغرب ذلك القول وعده نادرا منه إذ لا ركن أشد من الركن الذي كان يأوي إليه. وقال النووي رحمه الله تعالى يجوز أنه نسي الالتجاء إلى الله في حمايته الأضياف أو أنه التجأ إلى الله فيما بينه وبين الله وأظهر للأضياف العذر وضيق الصدر. (الداعي) الذي دعاه إلى الخروج من السجن ولأسرعت في الخروج يشير بذلك – إلى قوله تعالى {فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن} / يوسف ٥٠ /.وقوله – ذلك تواضع منه حيث إنه وصف يوسف عليه السلام بشدة الصبر ولا يعني ذلك قلة صبره – أو أنه – يشير إلى الأخذ بالأسهل فيما ليس فيه معصية]

[٧٩] – القضاء والقدر للبيهقي (ص: ١٧٥)(١٤٥) حسن

تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ } [هود: ١٢].

إن ثبت الفعل بالدليل، فأنت على الحق إن انتصرت مادياً، وأنت على الحق إن هزمت مادياً، وأنت على الحق إن استجاب الله دعاءك، وأنت على الحق إن أجّل الله إجابته، وأنت على الحق وإن مشى خصمك على الماء أو طار في الهواء، فإن طلبت آية أو علامة على صدق ما أنت عليه لبرد الاطمئنان لا لدليل تحتج به لم تعد أن تكون مقتدياً بإبراهيم عليه السلام، والله تعالى له الأمر من قبل ومن بعد.

ثُمّ اعلم أن الاستقامة هي أكبر كرامة، والثبات هو دليل الصدق، ويشهد لهذا ما جاء عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رضي الله عنه – قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ – ﷺ –: «مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[٨٠]. فكم دخل أفراد وطوائف في دين الله تعالى لما رأوا ثبات أهل هذا الدين عليه وثقتهم به، وإن برد اليقين مع الضعف لهو أعجوبة هذه الحياة، وإنه بحمد الله تعالى ما نراه اليوم مع طوائف الجهاد هذه الأيام فالحمد لله على نعمه وكرامته.

وفي الحديث مسألة: أن القرآن فيه آيات بيّنات لكل عصر ومكان، ولذلك فالحديث حجة للعلماء والدعاة الذين يستنبطون منه البراهين العلمية والكونية والجغرافية والتاريخية والطبية والعددية وغيرها مما هو عمل بعض العلماء اليوم، فهؤلاء على ثغرة من ثغور هذا الدين بشرط العلم وعدم التكلف فجزاهم الله خيراً، وقد كان في ما قالوه حجة على كثير ممن سمع منهم فآمنوا وصدقوا هذا الدين واتبعوا الكتاب، والإنكار على أصل هذا العلم جهل وأما الإنكار على المتكلفين والمتكلمين بالخرص والظن فهو حق ودين.

ما يرشد إليه الحديث

قَوله : "وإِنَّما كانَ الَّذي أُوتيته وحيًا أَوحاهُ الله إِلَيَّ" أَي إِنَّ مُعجزَتِي الَّتي تَحَدَّيت بِها الوحيُ الَّذي أُنزِلَ عَلَيَّ وهُو القُرآن لِما اشتَمَلَ عَلَيه مِنَ الإِعجاز الواضِح ، ولَيسَ المُراد حَصر مُعجزاته فِيه ولا أَنَّهُ لَم يُؤتَ مِنَ المُعجزات ما أُوتِيَ مَن تَقَدَّمَهُ ، بَل المُراد أَنَّهُ المُعجزَة العُظمَى الَّتي اُختُصَّ بِها دُون غَيره ، لأَنَّ كُلّ نَبيّ أُعطِيَ مُعجزَة خاصَّة بِه لَم يُعطَها بِعَينِها غَيره تَحَدَّى بِها قَومه ، وكانَت مُعجزَة كُلّ نَبيّ تَقَع مُناسِبَة لِحال قَومه كَما كانَ السِّحر فاشيًا عِند فِرعَون فَجاءَهُ مُوسَى بِالعَصا عَلَى صُورَة ما يَصنَع السَّحَرَة لَكِنَّها تَلَقَّفَت ما صَنَعُوا ، ولَم يَقَع ذَلِكَ بِعَينِه لِغَيرِه وكَذَلِكَ إِحياء عِيسَى المَوتَى وإِبراء الأَكمَه والأَبرَص لِكَون الأَطِبّاء والحُكَماء كانُوا فِي ذَلِكَ الزَّمان فِي غايَة الظُّهُور ، فَأَتاهُم مِن جِنس عَمَلهم بِما لَم تَصِل قُدرَتهم إِلَيه.

---

[٨٠] – التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح (ص: ٥٢١)١٨٢٠ – (بخاري: ٤٩٨١)

ولهَذا لَمّا كانَ العَرَب الَّذينَ بُعثَ فيهم النَّبيّ ﷺ في الغايَة منَ البَلاغَة جاءَهُم بالقُرآن الَّذي تَحَدّاهُم أَن يَأتُوا بسُورَة مثله فَلَم يَقدرُوا عَلَى ذَلكَ.

وقيلَ المُراد أَنَّ القُرآن لَيسَ لَهُ مثل لا صُورَة ولا حَقيقَة ، بخلاف غَيره منَ المُعجزات فَإنَّها لا تَخلُو عَن مثل.

وقيلَ المُراد أَنَّ كُلّ نَبيّ أُعطيَ منَ المُعجزات ما كانَ مثله لمَن كانَ قَبله صُورَة أَو حَقيقَة ، والقُرآن لَم يُؤتَ أَحَد قَبله مثله ، فَلهَذا أَردَفَهُ بقَوله : "فَأَرجُو أَن أَكُون أَكثَرهم تابعًا.

وقيلَ المُراد أَنَّ الَّذي أُوتيته لا يَتَطَرَّق إلَيه تَخييل ، وإنَّما هُو كَلام مُعجز لا يَقدر أَحَد أَن يَأتي بما يَتَخَيَّل منهُ التَّشبيه به ، بخلاف غَيره فَإنَّهُ قَد يَقَع في مُعجزاهم ما يَقدر السّاحر أَن يُخَيِّل شَبَهه فَيَحتاج مَن يُمَيِّز بَينهما إلَى نَظَر ، والنَّظَر عُرضَة للخَطَأ ، فَقَد يُخطئ النّاظر فَيَظُنّ تَساويهما.

وقيلَ المُراد أَنَّ مُعجزات الأَنبياء انقَرَضَت بانقراض أَعصارهم فَلَم يُشاهدها إلاَّ مَن حَضَرَها ، ومُعجزَة القُرآن مُستَمرَّة إلَى يَوم القيامَة ، وخَرقه للعادَة في أُسلُوبه وبَلاغَته وإخباره بالمَغيبات ، فَلا يَمُرّ عَصر منَ الأَعصار إلاَّ ويَظهَر فيه شَيء ممّا أَخبَرَ به أَنَّهُ سَيَكُونُ يَدُلّ عَلَى صحَّة دَعواهُ ، وهَذا أَقوى المُحتَمَلات ، وتَكميله في الَّذي بَعده.

وقيلَ المَعنَى أَنَّ المُعجزات الماضيَة كانَت حسِّيَّة تُشاهَد بالأَبصار كَناقَة صالح وعَصا مُوسَى ، ومُعجزَة القُرآن تُشاهَد بالبَصيرَة فَيَكُون مَن يَتبَعهُ لأَجلها أَكثَر ، لأَنَّ الَّذي يُشاهَد بعَين الرَّأس يَنقَرض بانقراض مُشاهده ، والَّذي يُشاهَد بعَين العَقل باقٍ يُشاهدهُ كُلّ مَن جاءَ بَعد الأَوَّل مُستَمرًّا.

قُلت : ويُمكن نَظم هَذه الأَقوال كُلّها في كَلام واحد ؛ فَإنَّ مُحَصَّلها لا يُنافي بَعضه بَعضًا.

قَوله : "فَأَرجُو أَن أَكُون أَكثَرهم تابعًا يَوم القيامَة " رَتَّبَ هَذا الكَلام عَلَى ما تَقَدَّمَ من مُعجزَة القُرآن المُستَمرَّة لكَثرَة فائدَته وعُمُوم نَفعه ، لاشتماله عَلَى الدَّعوة والحُجَّة والإخبار بما سَيَكُونُ ، فَعَمَّ نَفعه مَن حَضَرَ ومَن غابَ ومَن وُجدَ ومَن سَيُوجَدُ ، فَحَسُنَ تَرتيب الرَّجوى المَذكُورَة عَلَى ذَلكَ ، وهَذه الرَّجوى قَد تَحَقَّقَت ، فَإنَّهُ أَكثَر الأَنبياء تَبَعًا.[٨١]

فَالْمُرَادُ بالْوَحْيِ هُنَا الْقُرْآنُ الَّذي هُوَ نَفْسُهُ دَعْوَةٌ، وَفي نَظْمه مُعْجزَةٌ، وَهُوَ لَا يَنْقَرضُ بمَوْته كَمَا تَنْقَرضُ مُعْجزَاتُ غَيْره. قَالَ الْقَاضي وَغَيْرُهُ أَيْ: مُعْظَمُ الَّذي أُوتيتُ وَأَفْيَدُهُ إذْ كَانَ لَهُ غَيْرَ ذَلكَ مُعْجزَاتٌ منْ جنْسِ مَا أُوتيتُهُ غَيْرُهُ، وَالْمُرَادُ بالْوَحْيِ الْقُرْآنُ الْبَالغُ أَقْصَى غَايَة الْإعْجَاز في النَّظْمِ وَالْمَعْنَى، وَهُوَ أَكْثَرُ فَائدَةً وَأَعَمُّ مَنْفَعَةً منْ سَائرِ الْمُعْجزَات، فَإنَّهُ يَشْتَملُ عَلَى الدَّعَوَات وَالْحُجَّة، وَيَسْتَمرُّ عَلَى مَرِّ الدُّهُورِ وَالْأَعْصَارِ، وَيَنْتَفعُ به الْحَاضرُونَ عنْدَ الْوَحْيِ، الْمُشَاهدُونَ لَهُ، وَالْغَائبُونَ عَنْهُ،

---

[٨١] - فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (٩/ ٦)

وَالْمَوْجُودُونَ بَعْدَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ عَلَى السَّوَاءِ، وَلِذَلِكَ رُتِّبَ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: (فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ) : وَقَدْ حَقَّقَ اللَّهُ رَجَاءَهُ كَمَا تَقَدَّمَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.[٨٢]

وفي هذا الحديث من الفقه تبيين رسول الله – ﷺ – أن من كان قبله من الأنبياء كل منهم بعث إلى أمة الغالب عليهم الحسن ونظر الصور والأشكال؛ فكانت الآيات عندهم لا تؤثر إلا فيما يشهد له الحس؛ كانفجار الماء من الحجر، وانفلاق البحر، وطوفان نوح وغير ذلك، وكانت فضيلة رسول الله – ﷺ –، وما من الله به عليه، أن جعل لدينه روحًا ولذة، بحيث تشهد العقول لها لا الإحساس من النور البين، والحكمة العظيمة؛ ولذلك كان أكثر تابعًا يوم القيامة؛ لأن شاهده ما يأخذ بالقلوب ويقصر النفوس على الحق.[٨٣]

ودل هذا الحديث على أن من فضائل القرآن كونه المعجزة الخالدة لنبينا – ﷺ – في جميع العصور والأزمان، ولهذا اقتصر على ذكره في هذا الحديث، حتى كأن النبي – ﷺ – لم يأت بمعجزة أخرى سواه، لا لأنه – ﷺ – لم يأت بمعجزات أخرى غيره، ولكن لأن تلك المعجزات لا تأثير لها إلاّ في زمنه – ﷺ –، أما هذه المعجزة فإنها يستدل بها على صدق رسالته – ﷺ – مدى الحياة، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. ثانياً: كثرة أتباع نبينا – ﷺ – يوم القيامة لقوله – ﷺ –: " فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً ".[٨٤]

الحديث السابع: سباب المسلم فسوق وقتاله كفر

عَنْ زُبَيْد، قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا وَائِلٍ عَنْ الْمُرْجِئَةِ، فَقَالَ: حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ»[٨٥]

البناء لا تستقيم منفعته لغيره حتى يستقيم في داخله، وفي المرء طاقات إن صرفها عن الحق صُرِفت إلى الباطل، وإن أعظم ما يحقق القوة بين الأمم والجماعات هو الاتحاد والذي لا يكون إلا بالحب والاحترام، والشيطان إن يأس من أن يُعبد غير الله تعالى فإنه لا ييأس أن يقطع أواصر الحب والود بين العابدين لربهم كما في الحديث الصحيح، فما من طريق أفضل لتحقيق مراد المؤمنين أفضل من أن تتكامل قواهم الإيمانية ليكونوا يداً واحدة على الحق، لأن الإيمان لا تظهر آثاره في هذه الدنيا إلا

---

[٨٢] – مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٩/ ٣٦٧٤)

[٨٣] – الإفصاح عن معاني الصحاح (٦/ ٢٧١)

[٨٤] – منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٥/ ٨٠)

[٨٥] – الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ٤٤)٤٨ – ٣٨ –[ش أخرجه مسلم في الإيمان باب بيان قول النبي ﷺ سباب المسلم رقم ٦٤ (المرجئة) الفرقة الملقبة بذلك من الإرجاء وهو التأخير سموا بذلك لأنهم يؤخرون العمل عن الإيمان يقولون لا يضر مع الإيمان معصية. (سباب المسلم) شتمه والتكلم في عرضه بما يعيبه ويؤذيه. (فسوق) فجور وخروج عن الحق. (كفر) أي إن استحله. والمراد إثبات ضرر المعصية مع وجود الإيمان]

بالاجتماع والوحدة، فقد ينجو المؤمن يوم القيامة بإيمانه الفردي، لكن لا يتحقق للإيمان أثره في الأرض إلا بالكثرة والتي لا تكون إلا بالوحدة والاجتماع، وإن من أعظم ما يجب أن يعلم أن "التفرد" عن الجماعة هو من الكبائر، وهذا من الفقه المنسي هذه الأيام فإن النبي ﷺ عد من الكبائر: (التَّعَرُّبُ بَعْدَ الْهِجْرَةِ)[٨٦] والتعرب هو العيش على صيغة الأعراب بلا اجتماع ومدنيّة، وفي هذا الحديث أن العمران والتمدن من الإيمان وضدها من الكبائر والإثم العظيم، وعلى الدوام كانت الأطراف البعيدة عن حواضر الإسلام من البوادي والقرى النائية مصدر جهل وغفلة ثم كانت يد شر مع أعداء المسلمين ضد الإسلام وأهله، وقد ذكر أهل العلم أن من أعظم ما كان سبباً لجهل الخوارج هو تفردهم في البوادي وتركهم حواضر الإسلام واجتماعَهم، وقد رأينا في تاريخنا المعاصر أن "الأعراب " هم من أطاح بدولة الخلافة عندما صاروا جنود كفر مع الإنجليز، وهم اليوم جنود كفر مع اليهود في فلسطين، والأمثلة كثيرة جداً، و"التعرب" هو منهج حياة، وليس نسباً ولا عرقاً بشرياً، فما يقال اليوم من كلمة "البدو" للدلالة على أصل عرق القوم أو الرجل ليس هو "التعرب" المذموم في الحديث، وليس هو مرادنا في هذا الكلام، فـ"التعرب" هو العيش بلا اجتماع يُضبط بقانون ملزم للفرد داخل الجماعة، ولذلك قد يكون الرجل يعيش في المدينة وهو "متعرب" لا يعيش إلا لنفسه وبقانونه الخاص به دون الناس من إخوانه، ولكن لما كان العيش في جزء من الأرض يصنع هذا المنهج فصار الاسم ألصق بهم من غيرهم، ولذلك لما يحصل الاجتماع في "الأعراب" يحصل منهم للخير العظيم كما فعل عبد الله بن ياسين وهو أصل طائفة المرابطين في المغرب حين "مدّن" طوائف من "الأعراب" فكان منهم المجاهدون العلماء الذين حافظوا على الإسلام في المغرب زمناً وعلى رأسهم يوسف بن تاشفين، وكذا مثله ما صنعه السنوسيون حين قدموا من الجزائر وأنشؤوا في الصحراء ما يقال له "الزوايا" على طريقة وتسمية الصوفية، وهي حواضر تمدن، صار فيها العلم والاجتماع والجهاد.

هذا الحديث الذي بين أيدينا يحرّم أن يؤذي المسلمُ المسلمَ بلسانه أو بيده، فسبُّ المسلم فسوق، وهو كبيرة من الكبائر، والسب هو رمي المسلم بفاحش الكلام مما يؤذي نفسه وقلبه، «بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ»[٨٧]، فلا يسب في

---

[٨٦] – [تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر ٦/ ٦٤٣] و [الكنى والأسماء للدولابي ٣/ ١٠٥٢] (١٨٥٥) و [تفسير ابن أبي حاتم، الأصيل – مخرجا ٣/ ٩٣٣] (٥٢١٢) حسن لغيره

(التعرب بعد الهجرة) قال ابن الأثير في النهاية: " هو أن يعود إلى البادية ويقيم مع الأعراب بعد أن كان مهاجرا ، وكان من رجع بعد الهجرة إلى موضعه من غير عذر يَعُدُّونه كالمرتد.

[٨٧] – صحيح مسلم (٤/ ١٩٨٦) ٣٢ – (٢٥٦٤)

ماله ولا في دمه ولا في عرضه، ولا يؤذي في واحد منها بفعل ولا بقول، وأعظم من السب هو القتال، لأن القتال لا ينشأ إلا وقد تضمن السب، بل كثيراً مما ينشأ القتال بسبب الكلام السيّء بين الناس، فملعون من حمل حديده على أخيه، «إِذَا التَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ»،فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا القَاتِلُ فَمَا بَالُ المَقْتُولِ قَالَ: «إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ»[٨٨]، وقد جاء في تسمية قتال المسلم كفر أحاديث أخرى عَنْ جَرِيرٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهُ فِي حَجَّةِ الوَدَاعِ: «اسْتَنْصِتِ النَّاسَ» فَقَالَ: «لاَ تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ»[٨٩] فإن المسلم لا يقاتل أخاه إلا وقد غفل عن الإيمان وروابطه وما يأمر به، هذا وإن كان المقصود بالكفر هنا هو الكفر الأصغر الذي لا يخرج المرء من الملّة لقوله تعالى: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } [الحجرات: ٩]

فسمى الطائفتين بالمؤمنين، ولكن لا يمنع أن هذا الكفر مما يحبط العمل، فإن الكبائر تحبط الأعمال فكما أن الحسنات يذهبن السيئات، فكذلك بعض السيئات يحبطن بعض الصالحات، ولذلك عنون الإمام البخاري على هذا الحديث قوله " بَابُ خَوْفِ الْمُؤْمِنِ مِنْ أَنْ يَحْبَطَ عَمَلُهُ وَهُوَ لاَ يَشْعُرُ "[٩٠]، ولا يمنع أن ينشأ من القتال بين المؤمنين خروج بعضهم من الإسلام، فقد رأينا من والى المشركين ونصرهم ضد طائفة مسلمة يكرهها ويقاتلها، وقد حدث هذا كثيراً في تاريخ الإسلام، وهذا من باب تسمية الشيء باسم ما يؤول إليه، كما قال تعالى على لسان أحد السجينين مع يوسف عليه السلام: { أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا} [يوسف: ٣٦] وإنما الذي يُعصر هو العنب ليصير خمراً، والقتال بين المسلمين كثيراً ما يكون سبباً لأقوال الكفر وأفعاله التي تخرج من الملة، كأن يسب دينه أو يشك في الإسلام أو يوالي المشركين كما يُرى من بعض الأحزاب الإسلامية اليوم كما هو شأن البارحة.

إن من الواجبات الملقى على المسلم أن يبتعد عن أسباب الفسق والكفر ومن ذلك الحسد الذي يفسد الدين ويدفعه للظلم والسب والقتال، وكذلك العصبية لغير الحق، فالانتصار لا يكون إلا للحق دون

[ش (ولا يخذله) قال العلماء الخذل ترك الإعانة والنصر ومعناه إذا استعان به في دفع ظالم ونحوه لزمه إعانته إذا أمكنه و لم يكن له عذر شرعي (ولا يحقره) أي لا يحتقره فلا ينكر عليه ولا يستصغره ويستقله (التقوى ههنا) معناه أن الأعمال الظاهرة لا تحصل بها التقوى وإنما تحصل بما يقع في القلب من عظمة الله وخشيته ومراقبته]

[٨٨] – [ش أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة باب إذا تواجه المسلمان بسيفهما رقم ٢٨٨٨(هذا الرجل) هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه. (التقى المسلمان بسيفهما) أي بقصد العدوان. (في النار) أي يستحقان دخول النار. (فما بال المقتول) ما شأنه يدخل النار وقد قتل ظلما. (حريصا) عازما]

[٨٩] – الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ٥٨)١٢١ – ٧٥ –[ش أخرجه مسلم في الإيمان باب بيان معنى قول النبي ﷺ لا ترجعوا بعد كفارا رقم ٦٥ (استنصت الناس) اطلب منهم أن يسكتوا ويستمعوا لما أقوله لهم. (كفارا) تفعلون مثل الكفار]

[٩٠] – صحيح البخاري (١/ ١٨)

النظر للأشخاص والمذاهب والأحزاب، والعجيب اليوم أن طوائف من المسلمين ساروا في ركاب الشرك كما حصل لبعض من كان من أهل الجهاد ثم انقلب على عقبيه حسداً أن غيرهم وقع عليهم الفضل الإلهي بالنصرة والتأييد، فوقع منهم ما وقع من اليهود كما قال تعالى: ({بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ } [البقرة: ٩٠]، حتى قال بعض من لا يتقي الله تعالى عن طائفة "طالبان " المجاهدة أنها عار على الإسلام، وذلك خلال حرب الكافرين لها، فكان قوله نصرة للكافرين على المسلمين، وهذا هو السبّ الذي يفسق به المرء ثم لا يمنع أن يكون بعد ذلك كفراً وقد وقع، والعياذ بالله تعالى.

إن أي سب وقدح في مسلم بغير حق هو من الفسق، ويشتد الإثم حين تُسبُّ طائفة لأخطاء اجتهادية، أو لفعل بعض أهلها دون بعضهم لتنفير الناس منهم، وذلك كما يقع من بعض طلبة العلم من سبّ مذاهب العلماء بذكر بعض الأقوال الضعيفة سواء كانت اجتهادية أو خلافية حتى يسقط ما يجب من الاحترام لهذه المذاهب والعلماء فيها، ويجعلون ذلك طريقاً لإلحاق الناس بمذاهبهم أو مشايخهم، وهذا كله من قلة الدين والورع، وهو من السباب المنهي عنه ومن قلة الإنصاف وضعف الدين والعلم كذلك، والمسلم عليه أن يعلم أن أي سب، وهو ما يُلحِق العار بالغير هو من الفسق، وأشد منه القتال، فليس هناك شيء من أشياء الدنيا يجيز للمسلم أن يرفع حديدة في وجه مسلم آخر، وهذا ليس هو باب دفع الصائل، ولا القتال في الدفاع عن المال والعرض والنفس والدين، بل المنهي عنه هو القتال الذي هو من تحريض الشيطان، والذي دافِعُه الغضب والشهوة والانتصار للباطل، وفي العموم كل قتال بين المسلمين فغيره أولى منه من العفو والصفح.

وليحذر الذين صار في أيديهم السّلاح سهلاً ميسوراً أن يتجاوزوا به الحد، كما على الذين آتاهم الله منابر الحديث والقدرة على الكلام أن يحذروا من أن يتجاوزوا به الحد، وباستقامة القوة (السلاح) مع استقامة القول يتم الفلاح ودوام الحال على خير ما يريده الله من عباده، أما فساد أحدهما فهو المَحَقِ والدمار.

ما يرشد إليه الحديث :

قال أبو الفرج زين الدين بن رجب. وقد ظهر لي في القرآن شاهد لتسمية القتال كفرا، وهو قوله تعالى مخاطبا لأهل الكتاب {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفدُوهُمْ (٢) وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْض} [البقرة: ٨٣ - ٨٥] .

والمعنى: أن الله حرم على أهل الكتاب أن يقتل بعضهم بعضا أو يخرج بعضهم بعضا من داره، كان اليهود حلفاء الأوس والخزرج بالمدينة، فكان إذا وقع بين الأوس أوالخزرج وبين اليهود قتال ساعد كل فريق من اليهود بحلافه من الأوس والخزرج على أعدائهم فقتلوهم معهم وأخرجوهم معهم من ديارهم بعد أن حرم عليهم ذلك في كتابهم وأقروا به وشهدوا به، ثم بعد أن يوسر أولئك اليهود يفدوهم هؤلاء الذين قاتلوهم امتثالا لما أمروا به في كتابهم من افتداء الأسرى منهم، فسمى الله عز وجل فعلهم للافتداء لإخوانهم إيمانا بالكتاب وسمى قتلهم وإخراجهم من ديارهم كفرا بالكتاب؛ فدلت هذه الآية عل أن القتال والإخراج من الديار إذا كان محرما يسمى كفرا، وعل أن فعل بعض الطاعات يسمى إيمانا؛ لأنه سمى افتداءهم للأسارى إيمانا؛ وهذا حسن جدا، و لم أر أحدا من المفسرين تعرض له، ولله الحمد والمنة.[٩١]

(وقتاله كفر) قيل: مقابلته بالفسوق يقتضي أن يكونَ المرادُ من الكفر ههنا، الكفر المخرج عن الملة. والجواب: أنه أطلقَ الكفر على الفسوق تغليظًا، ولو قال: وقتاله فسوق، لساوى حال السِّباب، مع أن القتال أشدُ من السِّباب، فلإظهار هذه الشِّدة أطلقَ عليه الكفر. وهذا الذي يُعنونَ بقولهم: إنه محمولٌ على التغليظ.

والأصل: أن الحديث اتَّبع القرآن في ذلك، فإن الله تعالى أخبرَ عن جزاءِ القتل بالخلود - بأي معنى كان - والخلود جَزَاء الكفر، فاتبَّعه الحديث وقال: قتال المسلم كفر. وإن لم يحكم به الفقهاء في الدنيا، إلا أن الحديثَ يختارُ من التعبيرات ما هو أدعى للعمل فيشددُ فيه لا محالة.

وقال الدَّوَّاني: إنه وعيدٌ ويجوز الخُلْفُ في الوعيد. وأنت تعلم أنه إنشاءٌ لا خبر. وقيل: إنه محمولٌ على التَّشبُه كقوله: «لا تَرْجِعُوا بعدي كفارًا يضربُ بعضُكم رقاب بعض» ومعلومٌ أن المرءَ لا يصير كافرًا بضرب الرقاب، ولكن لما كان شأنُ القتل أن يجري بين مسلم وكافر، لا بين مسلم ومسلم فمن ضرب رقبة أخيه وقاتل، فقد تشبه بالكفار، وفعل ما يفعلُهُ الكفار، ومن تشبَّه بقومٍ فهو منهم. وهذا هو المختار عندي في الجواب، والله أعلم.[٩٢]

وَهَذَا مَحْمُول على من سبّ مُسلما أَو قَاتله من غير تَأْوِيل، فقد قَالَ عمر فِي حَاطِب: دَعْنِي أضْرب عنق هَذَا الْمُنَافِق، فَلم يُنكر عَلَيْهِ الرَّسُول لتأويله. وَإِذا قَاتل الْمُسلم الْمُسلم من غير تَأْوِيل كَانَ ظَاهر أمره أَنه رَآهُ كَافِرًا، أَو رأى دين الْإِسْلَام بَاطِلا، أَو لَا يرى أَن الْإِسْلَام قد عصم دَمه، فيكفر باعتقاد ذَلِك.

وَيحْتَمل هَذَا الحَدِيث وَمَا فِي مَعْنَاهُ مثل قَوْله: " فقد بَاء بهَا أَحدهمَا "، وَقَوله: " لَا ترجعوا بعدي كفَّارًا يضْرب بَعْضكُم رِقَاب بعض " وَقَوله: " كفر بِاللَّه " انْتِفَاء من نسب، وَإِن دق أَن يكون إِنَّمَا

---

[٩١] - فتح الباري لابن رجب (١/ ٢٠٢)

[٩٢] - فيض الباري على صحيح البخاري (١/ ٢٢٢)

نسب هَذِه الْأَشْيَاء إِلَى الْكفْر لِأَنَّهَا أَفعَال الْكفَّار، وَيكون ذكر ذَلِك على جِهَة التغليط، لَا أَن ذَلِك يخرج عَن الْملَّة.[٩٣]

وليس المراد هنا بالكفر حقيقته التي هي الخروج عن الملة، وإنما أطلق عليه الكفر مبالغة في التحذير، معتمدًا على ما تقرر من القواعد على عدم كفره بمثل ذلك، مثل حديث الشفاعة، وقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ}، وقد مضى بعض الكلام على هذا في باب المعاصي من أمر الجاهلية، أو أُطلق عليه الكفر لشبهه به؛ لأن قتال المؤمن من شأن الكافر، أو المراد الكفر اللغوي وهو التغطية، لأن حق المسلم على المسلم أن يعينه وينصره ويكف عنه أذاه، فلما قاتله كان كأنه غطى على هذا الحق، والأوَّلان أليق بمراد المصنف، وأولى بالمقصود من التحذير من ذلك والزجر عنه، بخلاف الثالث.

وقيل: المراد بقوله: كفر، أي: قد يؤول هذا الفعل بشؤمه إلى الكفر، وهذا بعيد، وأبعد منه حمله على المُسْتَحِلِّ لذلك؛ لأنه لا يطابق الترجمة، ولو كان مرادًا لم يحصل التفريق بين السباب والقتال، فإن مستحل لعن المسلم بغير تأويل يكفر أيضًا كما يأتي مبوبًا له في كتاب المحاربين إن شاء الله تعالى.

فإن قيل: هذا وإن تضمن الرد على المرجئة، لكن ظاهره يقوي مذهب الخوارج الذين يكفِّرون بالمعاصي، فالجواب: إن المبالغة في الرد على المبتدع اقتضت ذلك، ولا متمسك للخوارج فيه، لأن ظاهره غير مراد، لكن لما كان القتال أشد من السباب لأنه مفضٍ إلى إزهاق الروح، عبر عنه بلفظ أشد من لفظ الفسق وهو الكفر، و لم يرد حقيقة الكفر التي هي الخروج عن الملة .. إلخ ما مر قريبًا.

ومثل هذا الحديث قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: "لا ترجعُوا بعدي كفارًا يضربُ بعضكم رقابَ بعضٍ" ففيه هذه الأجوبة، وسيأتي إن شاء الله تعالى في كتاب الفتن. ونظيره قوله تعالى: {أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ} بعد قوله: {ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ} الآية، فدل على أن بعض الأعمال يطلق عليه الكفر تغليظًا.[٩٤]

الْمَعْنَى: مُجَادَلَتُهُ وَمُحَارَبَتُهُ بِالْبَاطِلِ كُفْرٌ بِمَعْنَى: كُفْرَانُ النِّعْمَةِ وَالْإِحْسَانِ فِي أُخُوَّةِ الْإِسْلَامِ، وَأَنَّهُ رُبَّمَا يَئُولُ إِلَى الْكُفْرِ، أَوْ أَنَّهُ فِعْلُ الْكَفَرَةِ، أَوْ أَرَادَ بِهِ التَّغْلِيظَ وَالتَّهْدِيدَ وَالتَّشْدِيدَ فِي الْوَعِيدِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ ﷺ: " «مَنْ تَرَكَ صَلَاةً مُتَعَمِّدًا فَقَدْ كَفَرَ» " نَعَمْ قِتَالُهُ مَعَ اسْتِحْلَالِ قَتْلِهِ كُفْرٌ صَرِيحٌ، فَفِي النِّهَايَةِ السَّبُّ الشَّتْمُ، يُقَالُ: سَبَّهُ يَسُبُّهُ سَبًّا وَسِبَابًا. قِيلَ هَذَا مَحْمُولٌ عَلَى مَنْ سَبَّ أَوْ قَاتَلَ مُسْلِمًا مِنْ غَيْرِ تَأْوِيلٍ، وَقِيلَ: إِنَّمَا ذَلِكَ عَلَى جِهَةِ التَّغْلِيظِ، لَا أَنَّهُ يُخْرِجُهُ إِلَى الْفِسْقِ وَالْكُفْرِ، وَفِي شَرْحِ السُّنَّةِ إِذَا اسْتَبَاحَ دَمَهُ مِنْ غَيْرِ تَأْوِيلٍ وَلَمْ يَرَ الْإِسْلَامَ عَاصِمًا لَهُ فَهُوَ رِدَّةٌ وَكُفْرٌ. قَالَ الطِّيبِيُّ: مَعْنَى الْحَدِيثِ رَاجِعٌ إِلَى قَوْلِهِ ﷺ: " «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ» " وَقَدْ تَقَرَّرَ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْمُسْلِمِ

---

[٩٣] – كشف المشكل من حديث الصحيحين (١/ ٢٩٩)

[٩٤] – كوثر المعاني الدراري في كشف خبايا صحيح البخاري (٢/ ٣٢١)

هُنَا الْكَامِلُ فِي الْإِيمَانِ الْمُؤَدِّي حُقُوقَهُ بِحَسَبِ اسْتِطَاعَتِه، فَالنِّسْبَةُ إِلَى الْكُفْرِ فِي هَذَا الْحَدِيثِ إِشَارَةٌ إِلَى نُقْصَانِ إِيمَانِه تَغْلِيظًا اهـ. وَهُوَ مِنْهُ وَهَمٌ حَيْثُ ظَنَّ أَنَّ الْإِضَافَةَ مِنْ بَابِ إِضَافَةِ الْمَصْدَرِ إِلَى فَاعِلِه، وَلَيْسَ كَذَلِكَ كَمَا قَدَّمْنَاهُ؛ لِأَنَّ سَبَّ الْمُسْلِمِ وَقِتَالَهُ فِسْقٌ وَكُفْرَانٌ سَوَاءٌ يَكُونُ كَامِلَ الْإِسْلَامِ أَمْ لَا. هَذَا وَفِي شَرْحِ السُّنَّةِ: فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى الْمُرْجِئَةِ الَّذِينَ لَا يَرَوْنَ الطَّاعَةَ مِنَ الْإِيمَانِ وَيَقُولُونَ: إِنَّ الْإِيمَانَ لَا يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ وَلَا يَنْقُصُ بِالْمَعْصِيَةِ، فَإِنَّهُ - ﷺ - أَشَارَ بِقَوْلِه: قِتَالُهُ كُفْرٌ إِلَى أَنَّ تَرْكَ الْقِتَالِ مِنَ الْإِيمَانِ، وَأَنَّ فِعْلَهُ يَنْقُصُ الْإِيمَانَ.[٩٥]

ما يؤخذ من الحديث:

١ - الفسوق هو الخروج عن طاعة الله تعالى إلى معصيته، وأنَّ سباب المسلم من معاصيه التي نهى عنها وحرَّمها.

٢ - مفهوم الحديث: أنَّ سباب الكافر جائز، ولكن إنْ كان كافرًا معاهدًا فهو أذيةٌ له، وقد نُهيَ عن أذيته؛ فلا يعمل بمفهوم الحديث في حقِّه من أدلَّة واعتبارات أخر.

٣ - المراد هنا تحريم سباب المسلم المستور الَّذي ظاهره العدالة والاستقامة، أمَّا الَّذي خلع جلباب الحياء، وجاهر بالمعاصي، فهذا لا غيبة له، ولا لسبابه حرمة؛ فقد أخرج مسلم أنَّ النَّبيَّ -ﷺ- قال: "كل أمَّتي معافى إلاَّ المجاهرين" [رواه البخاري (٦٥٦٩) ومسلم (٢٩٩٥)]، وهم الَّذي جاهروا بمعاصيهم، فهتكوا ما ستر الله عليهم.

٤ - وقوله: "وقتاله كفر" فمعناه: أنَّه إن استحل قتال المسلم، فهو كافر كفرًا يخرج من الملَّة؛ ذلك لأنَّه مكذِّبٌ للنصوص الصحيحة الصريحة، وأمَّا إذا لم يستحل قتاله، فالمراد بالكفر هنا كفر النعمة، والإحسان، والأخوَّة الإسلامية، فإنكار هذه المعاني الإسلامية الكريمة جحودٌ لها، فهو كفر نعمة لا يخرج من الإسلام، والله أعلم.[٩٦]

الحديث الثامن:وصية الرسول ﷺ بالأنصار

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ المِنْبَرَ، وَكَانَ آخِرَ مَجْلِسٍ جَلَسَهُ مُتَعَطِّفًا مِلْحَفَةً عَلَى مَنْكِبَيْهِ، قَدْ عَصَبَ رَأْسَهُ بِعِصَابَةٍ دَسِمَةٍ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ إِلَيَّ»، فَثَابُوا إِلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ هَذَا الحَيَّ مِنَ الأَنْصَارِ، يَقِلُّونَ وَيَكْثُرُ النَّاسُ، فَمَنْ وَلِيَ شَيْئًا مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَاسْتَطَاعَ أَنْ يَضُرَّ فِيهِ أَحَدًا أَوْ يَنْفَعَ فِيهِ أَحَدًا، فَلْيَقْبَلْ مِنْ مُحْسِنِهِمْ وَيَتَجَاوَزْ عَنْ مُسِيِّهِمْ»[٩٧].

---

[٩٥] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٧/ ٣٠٢٦)

[٩٦] - توضيح الأحكام من بلوغ المرام (٧/ ٤١٢)

[٩٧] - صحيح البخاري (٢/ ١١)(٩٢٧)

إنه كما جاء في بعض الأحاديث عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لِكُلِّ قَرْنٍ مِنْ أُمَّتِي سَابِقُونَ»[٩٨] يكونون طليعة الخير ومقدمي قومهم إلى الهدى والسَّبق، فإذا شاع الأمر واتسع ترى أن هؤلاء السابقين في خفاء وقلة، وكأن لم يكن لهم من الخير شيئاً، فيبرز للناس غيرُهم، ويتصدر سواهم، وهؤلاء القلة السابقة إن أخلصوا لربهم ونظروا إلى ما أعد الله لهم في الآخرة من وعود يفرحون لشيوع الأمر ويحمدون الله تعالى أن صرف عنهم زهرة الدنيا فلا يُنقص من أعمالهم شيء بسبب التعجيل، وكذا يفرحون أن الفتن صرفت عنهم، فهم ذاقوا مرارة البداية وعاشوا فتنة الضراء التي تصيب الدعوات في بدايتها، فإذا اشتد الأمر وصار له الصدارة جاءت فتن العاجلة والمال والقيادة والصيت والسمعة، وكذا فتن اللاحقين الذين دخلوا في الأمر مع قلة علم لحقيقته ولكنّهم التحقوا بالناس اتباعاً للشيوع والانتشار من الأمور، وهذه فتن السراء التي صرفت عنهم والتي تكون عادة للدعوات بعد انتصارها وشيوعها.

الأنصار هم مادة الإسلام الأولى في تحقيق انتصاره، تلك المادة التي كانت وقود الصبر الأول والجهاد الثاني، فقدموا الأرواح الغالية من قادتهم الكبار كسعد بن الربيع الذي قُتل في أحد، وسعد بن معاذ الذي قتل في الخندق، وقدموا أصول أموالهم التي يقتاتون بها هم وأهلهم من الثمار والحدائق، وقطعوا كل أسباب القوة التي يركنون إليها قبل الإسلام، فاليهود أحلافهم انقلبوا عليهم بالعداوة، وقرى العلاقات من مكة والطائف صارت حرباً، وأعراب البادية مطامعهم في أرضهم وثمارهم وأهلهم، فذاقوا بحق مرارة البداية الحارقة، ولما كادت الثمرة أن تينع رأوا زهرتها تُجْتَنَى ممن قاتلوهم على الإسلام، ففي حنين وقد جاء خير عظيم من غنائم غطفان وهوزان فما راعهم إلا أن المال والزهرة الجميلة تفيض بلا عد ولا كيل على "المؤلفة قلوبهم"، أما هم فلا شيء، وهاجت نفوسهم بالألم، مع خوف غشي القلوب أن رسول الله ﷺ قد وجد مكة بلدَه وسيكون فيها مستره، ومعنى ذلك أن يرجعوا إلى مدينتهم الحبيبة بلا شيء، ولن يجدوا فيها شيئاً، فقد خربت مزارعهم وثمارهم لانشغالهم بالجهاد عنها، وحينها لا يملكون إلا الدموع، فجرت هذه المعاني الحزينة على ألسنتهم بألم واستحياء دفين حتى وصلت إلى الحبيب ﷺ، فأرسل لهم جامعاً، حتى إذا جاؤوا وقف يكلمهم، بل في الحقيقة وقف يفجر براكين الإيمان، ويرسل ريح الهدى، ويشعل قناديل النور، فرحلت النفوس للجنان وسمت على كل هذه الدنيا الفانية، كيف لا وهو كلام رجل أحبهم أكثر من أنفسهم، ويشفق عليهم أكثر من شفقة أمهاتهم عليهم، ورحيم بهم أكثر من رحمتهم على أنفسهم، إنه كلام الحب العميق الذي يصل إلى حشاشة القلوب، واليقين البارد الذي يطفئ نيران الشهوات العاجلة والآلام الإنسانية، فقد

[ش (متعطفا ملحفة) مرتديا إزارا كبيرا كالمعطف. (بعصابة دسمة) بعمامة تغير لونها من كثرة الطيب والدهن أو هي سوداء كلون الزيت الدسم. (فثابوا) اجتمعوا. (يتجاوز) يعف. (مسيئهم) في نسخة (مسيهم)]

[٩٨] – حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١/ ٨) حسن

عدّ فضائلهم على الخير، وذكّرهم بفضائل الخير عليهم، ثم "إن المحيا محياهم والممات مماتهم" وما سيرجعون به إلى رحالهم خير مما سيرجع به الناس، إنهم سيرجعون برسول الله ﷺ.

هكذا هي سمة الأوائل مع دعوة الحق، وفي كل قرن، ومع كل إحياء وتجديد لهذا الدين، فالطليعة الأولى إما إلى الشهادة مع الابتلاء، ومن بقي يتوارى عن مناصب الدنيا لكثرة الزحام بعد ذلك.

مع هذه السنة الجارية لا يمكن أن يصبر ويصمد إلا أهل اليقين على الآخرة، أولئك الذين عملوا لوجه الله، و لم يدخلوا في هذا الدين إلا من أجل الجنة والحصول على نعيمها، وأما من كان في قلبه دَخَن أو في نيته فساد فسيسخط وسيصرخ من قلة الوفاء حيث لم يضعه الناس موضعه، وسيتهم العاملين بانحراف الطريق وتغيير المسير، وما درى أنها السنن، ها هو أبو أيوب الأنصاري يرفض زماناً أن يقاتل تحت يزيد بن معاوية بن أبي سفيان وقد رأى ما يكره، وينكر ما لا يعرف، ثم يتذكر أنه جهاد في سبيل الله، فيعاود نفسه ويخرج تحت إمرة يزيد في فتح القسطنطينية ويصيب مبتغاه في الشهادة، فالجندي في هذا الدين لا يضره من يتصدر، لأنه جهاد في سبيل الله تعالى وعمل من أجل الجنة لا غير.

في هذا الحديث وصية من رسول الله ﷺ تعالى بالرعيل الأول، وبالسابقين في الخير حيث يكثر الزحام، وصية بهم للأمراء ولكل من بيده زهرة دنيا أصابها من هذا الدين أن لا ينسى هؤلاء، بل يقيم لهم ما يميزهم عن غيرهم، فهؤلاء ليسوا ككل الناس، فهم أتوا عند القلة والضعف، فإيمانهم له السّبق وله الفضل لذا يستحقون ما يميزون به، ولذلك جعل الله السابقين {ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (١٤)} [الواقعة: ١٣، ١٤] وهؤلاء بخلاف غيرهم من أهل الخير من أهل اليمين فقد قال فيهم: {ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (٣٩) وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ (٤٠)} [الواقعة: ٣٩، ٤٠]فالسابقون دائماً في قلة في آخر الأمر، والآية وإن كانت تتحدث عن الصحابة ومن بعدهم في بعض أقوال أهل التفسير، فالسابقون كثير في الصحابة وقليل فيمن بعدهم وهو اختيار ابن كثير رحمه الله في تفسيره فإن الآية تفيد كذلك في بعض معانيها قلة السابقين في كل قرن كذلك والله أعلم، فهذه القلة يجب على الأمة عموماً وعلى الأمراء خصوصاً أن يراعوا فضلهم فيقبلوا منهم القليل إن أحسنوا، إذ قليلهم ليس بقليل كما قال القائل:

قليل منك يكفيني ولكن قليلك لا يقال له قليل

وفي الحديث في فضل السابقين من أصحابه على بقية الأصحاب عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لاَ تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ، ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ، وَلاَ نَصِيفَهُ»[٩٩]، وقد عُلم أن كثرة العبادة صارت في المتأخرين أكثر من الأولين ولكن

[٩٩] – الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ٤٧٢)٣٦٧٣ – ١٣٢٤ –[ش أخرجه مسلم في فضائل الصحابة باب تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم رقم ٢٥٤٠. (ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه) المراد أن القليل الذي أنفقه أحدهم أكثر ثوابا من الكثير

هيهات أن يبلغ فضلها ما بلغ به الأولون، لأن الأولين هم أصل الأمر وأوله وهم الداعون له، والتابع تابع كما قالوا فما هو إلا فرع لأصل ولاحقٌ لمتقدم، فهل ما أنفَقَتْه خديجة رضي الله عنهما مهما كان قليلاً في ظاهره هو أقل مما أنفقه أي لاحق؟! لا والله، وهل ما أنفقه أبو بكر رضي الله عنه كما أنفقه غيره؟! وهل المعادلة تكون بالعدد أم بالأثر والسبق والتقدم؟! اللهم إن الأولين السابقين لا يعدلهم أحد في الفضل والإيمان وهؤلاء السابقون إن أساؤوا -وهي صفة لازمة للبشر مهما كان صلاحهم وفضلهم لقوله ﷺ: «كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ»[100] فإن أساؤوا في غير الحدود فحسناتهم ماضية عند الله وكذا يجب أن يكون الأمر عند البشر، فعلى الناس أن يتجاوزوا ويعفوا ويصفحوا عن سيئاتهم، فلا يلاحقونهم كما يلاحقون غيرهم، ولا يثربون عليهم كما يثربون على الصغار، وهذا ليس من الباب الذي حذّر منه رسول الله ﷺ ووقعت فيه بنوا إسرائيل فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَانُ المَرْأَةِ المَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ، فَقَالُوا: وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالُوا: وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ، ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ، أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ، وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا "[101]، فهذا يفترق في أمرين: أن المنكر في هذا الحديث هو إسقاط الحدود وهي حق الله لا تسقط عن أحد، ولو سقطت الحدود لسقطت عن مسطح بن أثاثة رضي الله عنه في حادثة الإفك وهو البدري الذي قال عنهم رسول الله ﷺ: (لعلّ الله اطّلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم)، والثاني: أن معيار التفضيل عند المغضوب عليهم هو الشرف والفقر والقوة والضعف، وهذا شر وسبيل شراء الذمم وضياع الحقوق.

فيا أهل الجهاد، ويا أهل الخير والفضل احفظوا لأهل الفضل فضلهم، فاحفظوا للسابقين سبقهم، وللأنصار انتصارهم ولأهل البيت قرابتهم من الحبيب المصطفى ﷺ، ولأهل العلم علمهم، وأنزلوا

الذي ينفقه غيرهم وسبب ذلك أن إنفاقهم كان مع الحاجة إليه لضيق حالهم ولأنه كان في نصرته – وحمايته غالبا ومثل إنفاقهم في مزيد الفضل وكثير الأجر باقي أعمالهم من جهاد وغيره لأنهم الرعيل الأول الذي شق طريق الحق والهداية والخير فكان لهم فضل السبق الذي لا يداينه فضل إلى جانب شرف صحبتهم رسول الله – وبذلهم نفوسهم وأرواحهم رخيصة دفاعا عن رسول الله – ونصره لدينه. والنصيف هو النصف]

[100] – سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٦٥٩) (٢٤٩٩) حسن

[101] – الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ٤٤٤)٣٤٧٥ – ١٢٣٦ –[ش أخرجه مسلم في الحدود باب قطع السارق الشريف وغيره رقم ١٦٨٨. (أهمهم) أحزنهم وأثار اهتمامهم. (شأن ..) حالها وأمرها. (المخزومية) نسبة إلى بني مخزوم واسمها فاطمة بنت الأسود وكانت سرقت حليا يوم فتح مكة. (حب) محبوب. (أتشفع في حد) تتوسل أن لا يقام حد فرضه الله تعالى والحد عقوبة مقدرة من المشرع. (الشريف) الذي له شأن في قومه بسبب مال أو نسب أو عشيرة. (الضعيف) من ليس له عشيرة أو وجاهة في قومه. (وايم الله) لفظ من ألفاظ القسم أصلها وأيمن الله فحذفت النون تخفيفا وقد تقطع الهمزة وقد توصل]

الناس منازلهم، فخيار أهل الإسلام هم خيارهم في الجاهلية إذا فقهوا، وأشد الناس محبة لهذا الدين هم أشدهم عداوة له قبل الإسلام كما في الصحيح معناه.

اللهم إني أحب الأنصار من أهل مدينة الحبيب واحشرني مع لوائهم يوم القيامة.

ما يرشد إليه الحديث :

فيه من الفقه أن المريض قد يخرج للحاجة.

* وفيه أن التحاف المريض أصون له، والدسماء هي السوداء.

* وفيه ما يدل على فضيلة الأنصار وتشبيههم بالملح لأنه يطيب كل طعام.

* وفيه إشارة مفهومة إلى أن الأنصار ليس لهم في الأمر شيء؛ لأن النبي - ﷺ - أوصى بهم المهاجرين، وقال: (من تولى منكم شيئًا فليقبل من محسنهم) و لم يوص إليهم.

* وفيه أن رسول الله - ﷺ - لطف بهم في إخراجهم من الأمر بهذا لطفًا. خرج أحسن مخرج بحيث فهمه أهل العلم عنه في تأكيد الحفظ لهم؛ ولأنه يقطع التجاذب في الأمر بعده من المهاجرين والأنصار.

* وقوله: (يقلون ويكثر الناس) يجوز أن يكون أراد به في العدد، ويجوز أن يكون فيه إشارة إلى أنهم يلون شيئًا.

وفيه وصية النبي - ﷺ - بالأنصار بالعفو عن مسيئهم، ومكافأة محسنهم.وإخباره - ﷺ - عن قلة الأنصار، وهذا من معجزاته الظاهرة.وأنه يسن الفصل بين المقدمة وموضوع الخطة بقول: أما بعد،[١٠٢]

الحديث التاسع: هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم

عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ، قَالَ: رَأَى سَعْدٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ لَهُ فَضْلًا عَلَى مَنْ دُونَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضُعَفَائِكُمْ»[١٠٣].

الأمة تراعي أبناءها كأبناء الأم الحنون ترعاهم أمهم بحسب حاجتهم وكما قال الأعرابي وقد سئل: من أحب أبنائك إليك؟ فقال: "الصغير حتى يكبر، والمريض حتى يبرأ، والغائب حتى يعود"، فالرعاية والحب والعطف لا يكون بحسب الفضْل والقوة بل قاعدته الصحيحة بحسب الحاجة والضعف، وقانون الحب هذا هو قانون دوام الحياة وسرها الباطن، فالقوي حاله حال ضالة الإبل فعَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الجُهَنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَسَأَلَهُ عَنْ اللُّقَطَةِ، فَقَالَ: «اعْرِفْ

---

[١٠٢] - الإفصاح عن معاني الصحاح (٣/ ١٨٣)

[١٠٣] - صحيح البخاري (٤/ ٣٧)(٢٨٩٦)

[ش (رأى) ظن. (فضلا) زيادة مترلة بسبب شجاعته وغناه ونحو ذلك. (بضعفائكم) ببركتهم ودعائهم لصفاء ضمائرهم وقلة تعلقهم بزخرف الدنيا فيغلب عليهم الإخلاص في العبادة ويستجاب دعاؤهم]

عِفَاصَهَا وَوِكَاءَهَا، ثُمَّ عَرِّفْهَا سَنَةً، فَإِنْ جَاءَ صَاحِبُهَا وَإِلَّا فَشَانَكَ بِهَا» قَالَ: فَضَالَّةُ الغَنَمِ؟ قَالَ: «هِيَ لَكَ أَوْ لِأَخِيكَ أَوْ لِلذِّئْبِ»،قَالَ: فَضَالَّةُ الإِبِلِ؟ قَالَ: «مَا لَكَ وَلَهَا، مَعَهَا سِقَاؤُهَا وَحِذَاؤُهَا، تَرِدُ المَاءَ وَتَأْكُلُ الشَّجَرَ حَتَّى يَلْقَاهَا رَبُّهَا»[١٠٤]

فالقوي يوكل إلى قوته، لكن العبرة والإحسان إنما يكون للمحتاج الضعيف، يراعى بحسب حاجته، وقد نشأت مجتمعات وتجمعات بشرية لا تقيم إلا لنوع واحد من القوة الأهمية والاعتبار، وتنبذ ما عداهم ممن لا يملكون هذه القوة وهذه التجمعات وإن بدت سليمة في بداية الأمر إلا أن عوامل الضعف سرعان ما تسارع إليها، لأن الحياة لا تقوم على نوع واحد مهما كان هذا قوياً، فالاستقلال مهلكة كالاقتصار على نوع واحد من الطعام، فإنه مهما كان هذا الطعام مغذياً مليئاً بالفوائد إلا أن الاقتصار عليه يوهي البدن ويضعف صاحبه ويورده الموت والهلكة، فالحياة لا تستقيم بعلم بلا قوة، ولا بقوة دون رحمة، ولا برحمة دون مسؤولية، ولا بمسؤولية دون مشورة، وهكذا سبيل الحياة، وعالم الغيب ليس غائباً في تأثيره عن الحياة الدنيا وإن كان غائباً بصورته عن الأعين فيها، فحركة الغيب المرتبطة بالإخبات والدعاء والطاعة والمعصية لها حقائق واقعية على الأرض ومن يعيش عليها من إنس وجن وحيوان ونبات، فالذين ينظرون إلى الحياة الدنيا وحساباتها فقط من ماديات ومحسوسات سيصادمون بالسنن الإلهية المتعلقة بحبّ الله وبغضه ولذلك جعل الله من انتقامه لأعدائه أن يأخذهم "بغتة"، أي دون وجود مقدمات تنذرهم للتغيير والتحضير لها والدارسون للسّنن الاجتماعية خاصة يعلنون كثيراً أن علوم الاجتماع في دراسة الظواهر ليست مطلقة إذ كثيراً ما تحصل هبات مفاجئة تصدم الدارسين والمراقبين، وهو تحقيق لهذا التحذير الإلهي بالبغتة، وأما الظواهر الكونية من الزلازل والبراكين والأعاصير فأمرها في هذا الباب أشهر من غيرها، وهي بحق ينطبق عليها لمن أراد البصيرة ما جاء عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لاَ عَدْوَى وَلاَ صَفَرَ وَلاَ هَامَةَ» فَقَالَ أَعْرَابِيٌّ: يَا رَسُولَ اللَّه، فَمَا بَالُ إِبِلِي، تَكُونُ فِي الرَّمْلِ كَأَنَّهَا الظِّبَاءُ، فَيَأتِي البَعِيرُ الأَجْرَبُ فَيَدْخُلُ بَيْنَهَا فَيُجْرِبُهَا؟ فَقَالَ: «فَمَنْ أَعْدَى الأَوَّلَ؟»[١٠٥]

---

[١٠٤] – الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ٣٢٣)٢٣٧٢ – ٩١٨ –[ش أخرجه مسلم في أول كتاب اللقطة رقم ١٧٢٢ (ترد الماء) تأتي منابع الماء وتشرب. (يلقاها ربها) يجدها صاحبها]

[١٠٥] – الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ٦١٠)٥٧١٧ – ١٦٦٤ –[ش أخرجه مسلم في السلام باب لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر .. رقم ٢٢٢٠ (الرمل) هو التراب وفتات الصخر ولعل المراد هنا البرية والصحراء (كأنها الظباء) في النشاط والقوة جمع ظبي وهو الغزال. (الأجرب) المصاب بالجرب]

قال الحافظ ابن حجر قوله : (فيجربها) وَهُوَ بِنَاء عَلَى مَا كَانُوا يَعْتَقِدُونَ مِنْ الْعَدْوَى،أَيْ يَكُون سَبَبًا لِوُقُوعِ الْجَرْب بِهَا،وَهَذَا مِنْ أَوْهَام الْجُهَّال،كَانُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الْمَرِيض إِذَا دَخَلَ فِي الْأَصِحَّاء أَمْرَضَهُمْ فَنَفَى الشَّارِع ذَلِكَ وَأَبْطَلَهُ،فَلَمَّا أَوْرَدَ الْأَعْرَابِيّ الشُّبْهَة رَدَّ عَلَيْهِ النَّبِيّ – ﷺ – بِقَوْلِهِ : " فَمَنْ أَعْدَى الْأَوَّل " ؟ وَهُوَ جَوَاب فِي غَايَة الْبَلَاغَة وَالرَّشَاقَة . وَحَاصله مِنْ أَيْنَ الْجَرَب لِلَّذِي أَعْدَى بِزَعْمِهِمْ ؟ فَإِنْ أُجِيبَ مِنْ بَعِير آخَر لَزِمَ التَّسَلْسُل أَوْ سَبَب آخَر فَلْيُفْصِحْ بِهِ،فَإِنْ أُجِيبَ بِأَنَّ الَّذِي فَعَلَهُ فِي الْأَوَّل هُوَ الَّذِي فَعَلَهُ فِي الثَّانِي ثَبَتَ

والقصد أن عالم الباطن وعالم الغيب حضورهما بالتأثير في عالم الشهادة بيّن وواضح لأولي الألباب، وكذلك المجتمعات لا تشعر بحاجتها للرحمة والعطف، وتعلم أن الضعيف لازم من لوازم الحياة كما القوي، وهذا أمر لا نختاره بل هو سنة الحياة التي نتعامل معها من خلال قانونها ووجوده في حركة الأمة والطوائف للجهاد، وهي حركة أصيلة ثابتة لأمة محمد ﷺ بل لاحياة لأمة من الأمم إلا بها لقوله ﷺ: «ما غُزِيَ قومٌ في عُقْرِ دارِهم إلاّ ذُلُّوا» [١٠٦] ، قد ينشأ وهم أن هذا المجتمع معسكر لا لزوم فيه إلا للأقوياء والأصحاء والشجعان فبالتالي غيرهم عالة عليهم، وفي مدينة أسبارطة القديمة وصل غرور القوة وعسكرة المجتمع أنهم كانوا إذا وُلِد ولدٌ ضعيف أو فيه مرض أو تشوّه ذهبوا به إلى جبل عال ورموه من فوقه تخلصاً منه لجاهليتهم أنه لا حاجة لحياتهم له، فهذا الحديث النبوي تنبيه لتأثير عالم الغيب على عالم الشهادة، فالضعفاء هم محط نظر الله تعالى، لأنهم أحوج من غيرهم لهذا النظر، فحيث كان البلاء كانت الرحمة، إذ أن عدل الله ورحمته يمنعان العسر بلا يسر، والضعف بلا رعاية، والحاجة بلا عناية، وهذا العدل الإلهي هو الذي يحبه الله لعبيده أن يتصفوا به، وهذه الرحمة التي إن وجدت في القلوب كانت سبباً لرحمة الله تعالى، وهؤلاء الضعفاء تنكسر قلوبهم بصدق عند الطلب فهم يسألون من حاجة، وفرق بين سؤال الممتلئ وسؤال الفقير، والله يحب هذا من عبيده لأن العزة هي إزارُه والكبرياء رداؤه، والله لا يحب كل جبار متكبر، ولذلك كثر في الجنة الضعفاء وهم دوماً أتباع الأنبياء كما قال هرقل في حواره مع أبي سفيان، ومن السنن الحميدة أن يُخرج إلى الدعاء بالبذاذة ومع الضعفاء والمحتاجين، وقد ذكر الله في كتابه أن من مساوئ ترك الجهاد هو حصول النقمة والغضب من الضعفاء على أهل القوة لتقصيرهم وقال تعالى في سورة النساء: {وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا} [النساء: ٧٥] فغضب هؤلاء هو سبب غضب الله تعالى فعَنْ عَائِذِ بْنِ عَمْرٍو، أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ، أَتَى عَلَى سَلْمَانَ، وَصُهَيْبٍ، وَبِلَالٍ فِي نَفَرٍ، فَقَالُوا: وَاللهِ مَا أَخَذَتْ سُيُوفُ اللهِ مِنْ عُنُقِ عَدُوِّ اللهِ مَاخَذَهَا، قَالَ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَتَقُولُونَ هَذَا لِشَيْخِ قُرَيْشٍ وَسَيِّدِهِمْ؟،فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: «يَا أَبَا بَكْرٍ لَعَلَّكَ أَغْضَبْتَهُمْ، لَئِنْ كُنْتَ أَغْضَبْتَهُمْ، لَقَدْ أَغْضَبْتَ رَبَّكَ» فَأَتَاهُمْ أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: يَا إِخْوَتَاهْ أَغْضَبْتُكُمْ؟ قَالُوا: لَا يَغْفِرُ اللهُ لَكَ يَا أَخِي "[١٠٧].

الْمُدَّعَى،وَهُوَ أَنَّ الَّذِي فَعَلَ بِالْجَمِيعِ ذَلِكَ هُوَ الْخَالِق الْقَادِر عَلَى كُلّ شَيْء وَهُوَ اللَّه سُبْحَانه وَتَعَالَى "فتح الباري (٢٥٢/١٠) والأساليب النبوية في التعليم – ط١ (ص: ٦٨)

[١٠٦] – هو معروف من كلام علي ضمن خطبة له في «البيان والتبيين» (٥٣/٢) ، و «الكامل» للمبرد (٣٠/١) ، و «العقد الفريد» (٧٠/٤) ، و «الأغاني» (٢٦٧/١٦) ، و «نهج البلاغة» (ص ٦٩) وغيرها. والعراق في أحاديث وآثار الفتن (٢/ ٧٤٢)

[١٠٧] – تهذيب صحيح مسلم– علي بن نايف الشحود (ص: ٨٩٧)(٢٥٠٤)

وهذا الحديث وإن كان فيه فضل الضعفاء على الأقوياء، إذ لا يرزق الأقوياء ولا ينصرون إلا بالضعفاء، فإن هذا لا يعني أن الضعيف مقدم في إيمانه على القوي، لأن اجتماع القوة مع الإيمان خير من استقلال الإيمان لوحده بلا قوة، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ ...»[١٠٨] لأن مقاصد الإسلام في الفرد والجماعة لا تقوم إلا بالقوة، وكون الشيء محتاج إلى غيره لا يعني أن غيره خير منه، فالإنسان محتاج إلى الطعام والخادم وغيرها وليس هما بأفضل منه كما هو معلوم، ولذلك من الواجب السعي للقوة، فقد قال تعالى: (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً) فالمال قوام الحياة ولا يجوز إفساده بإعطائه لغير رُعَاتِه وحَفَظَتِه، وقال تعالى: (وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة)، وقد قال النبي ﷺ في عمرة القضية لأصحابه لما دخلوا مكة وهي في يد المشركين من قريش: (رحم الله امرءاً أراهم منّا قوة)، وإنما يكون الفضل للضعيف لعدم قدرته على تحصيل القوة وأما المقصِّر فهو آثم تارك لواجب.

ما يرشد إليه الحديث :

فيه من الفقه أن سعدًا أنما رأى الفضل له على من دونه لغنائه في الإسلام، وقوته في الجهاد، وجده في أمر الله تعالى. فقال رسول الله – ﷺ –: (هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم؟) يعني أن الذي جعلته سببًا لفضيلتك من قوتك في أمر الله تعالى فإنما أمدك فيه، وشاركك في حصوله الفقراء والضعفاء؛ وجعلها كلمة شاملة لسعد وغيره.[١٠٩]

فهذا الحديث فيه: أنه لا ينبغي للأقوياء القادرين أن يستهينوا بالضعفاء العاجزين، لا في أمور الجهاد والنصرة، ولا في أمور الرزق وعجزهم عن الكسب.

بين الرسول ﷺ أنه قد يحدث النصر على الأعداء وبسط الرزق بأسباب الضعفاء، بتوجههم ودعائهم، واستنصارهم واسترزاقهم.

وذلك: أن الأسباب التي تحصل بها المقاصد نوعان.

[ش (أتى على سلمان) هذا الإتيان لأبي سفيان كان وهو كافر في الهدنة بعد صلح الحديبية (لا يغفر الله لك) قال القاضي قد روى عن أبي بكر أنه قد نهى عن مثل هذه الصيغة وقال قل عافاك الله رحمك الله لا تزد أي لا تقل قبل الدعاء لا فتصير صورته نفي الدعاء قال بعضهم قل لا ويغفر الله لك (أخي) ضبطوه بضم الهمزة على التصغير وهو تصغير تحبيب وترقيق وملاطفة وفي بعض النسخ بفتحها]

[١٠٨] – تهذيب صحيح مسلم– علي بن نايف الشحود (ص: ٩٤٢)(٢٦٦٤)

[ش (المؤمن القوي خير) المراد بالقوة هنا عزيمة النفس والقريحة في أمور الآخرة فيكون صاحب هذا الوصف أكثر إقداما على العدو في الجهاد وأسرع خروجا إليه وذهابا في طلبه وأشد عزيمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على الأذى في كل ذلك واحتمال المشاق في ذات الله تعالى وأرغب في الصلاة والصوم والأذكار وسائر العبادات وأنشط طلبا لها ومحافظة عليها ونحو ذلك (وفي كل خير) معناه في كل من القوي والضعيف خير لاشتراكهما في الإيمان مع ما يأتي به الضعيف من العبادات]

[١٠٩] – الإفصاح عن معاني الصحاح (١/ ٣٤٤)

نوع يشاهد بالحس، وهو القوة بالشجاعة القولية والفعلية، وبحصول الغنى والقدرة على الكسب. وهذا النوع هو الذي يغلب على قلوب أكثر الخلق، ويعلقون به حصول النصر والرزق، حتى وصلت الحال بكثير من أهل الجاهلية أن يقتلوا أولادهم خشية الفقر، ووصلت بغيرهم إلى أن يتضجروا بعوائلهم الذين عدم كسبهم، وفقدت قوتهم، وهذا كله قصر نظر، وضعف إيمان، وقلة ثقة بوعد الله وكفايته، ونظر للأمور على غير حقيقتها.

النوع الثاني: أسباب معنوية، وهي قوة التوكل على الله في حصول المطالب الدينية والدنيوية، وكمال الثقة به، وقوة التوجه إليه والطلب منه.

وهذه الأمور تقوي جدا من الضعفاء العاجزين الذين ألجأتهم الضرورة إلى أن يعلموا حق العلم، أن كفايتهم ورزقهم ونصرهم من عند الله، وأنهم في غاية العجز. فانكسرت قلوبهم، وتوجهت إلى الله، فأنزل لهم من نصره ورزقه – من دفع المكاره، وجلب المنافع – ما لا يدركه القادرون. ويسر للقادرين بسببهم من الرزق ما لم يكن لهم في حساب؛ فإن الله جعل لكل أحد رزقا مقدرا.

وقد جعل أرزاق هؤلاء العاجزين على يد القادرين، وأعان القادرين على ذلك، وخصوصا من قويت ثقتهم بالله، واطمأنت نفوسهم لثوابه فإن الله يفتح لهؤلاء من أسباب النصر والرزق ما لم يكن لهم ببال، ولا دار لهم في خيال.

فكم من إنسان كان رزقه مقترا، فلما كثرت عائلته والمتعلقون به، وسع الله له الرزق من جهات وأسباب شرعية قدرية إلهية.

ومن جهة وعد الله الذي لا يخلف: {وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ} [سبأ: ٣٩]

ومن جهة: دعاء الملائكة كل صباح يوم: «اللهم أعط منفقا خلفا، وأعط ممسكا تلقا» .

ومن جهة أن أرزاق هؤلاء الضعفاء توجهت إلى من قام بهم، وكانت على يده.

ومن جهة أن يد المعطي هي العليا من جميع الوجوه.

ومن جهة أن المعونة من الله تأتي على قدر المؤنة، وأن البركة تشارك كل ما كان لوجهه، ومرادا به ثوابه. ولهذا نقول:

ومن جهة إخلاص العبد لله، وتقربه إليه بقلبه ولسانه ويده، كلما أنفق، توجه إلى الله وتقرب إليه. وما كان له فهو مبارك.

ومن جهة قوة التوكل، وثقة المنفق، وطمعه في فضل الله وبره. والطمع والرجاء من أكبر الأسباب لحصول المطلوب.

ومن جهة دعاء المستضعفين المنفق عليهم، فإنهم يدعون الله – إن قاموا وقعدوا، وفي كل أحوالهم – لمن قام بكفايتهم. والدعاء سبب قوي: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ} [غافر: ٦٠]

وكل هذا مجرب مشاهد، فتبا للمحرومين، وما أجل ربح الموفقين، والله أعلم. فهذا الحديث فيه: أنه لا ينبغي للأقوياء القادرين أن يستهينوا بالضعفاء العاجزين، لا في أمور الجهاد والنصرة، ولا في أمور الرزق وعجزهم عن الكسب.

بين الرسول ﷺ أنه قد يحدث النصر على الأعداء وبسط الرزق بأسباب الضعفاء، بتوجههم ودعائهم، واستنصارهم واسترزاقهم.

وذلك: أن الأسباب التي تحصل بها المقاصد نوعان.

نوع يشاهد بالحس، وهو القوة بالشجاعة القولية والفعلية، وبحصول الغنى والقدرة على الكسب. وهذا النوع هو الذي يغلب على قلوب أكثر الخلق، ويعلقون به حصول النصر والرزق، حتى وصلت الحال بكثير من أهل الجاهلية أن يقتلوا أولادهم خشية الفقر، ووصلت بغيرهم إلى أن يتضجروا بعوائلهم الذين عدم كسبهم، وفقدت قوتهم، وهذا كله قصر نظر، وضعف إيمان، وقلة ثقة بوعد الله وكفايته، ونظر للأمور على غير حقيقتها.

النوع الثاني: أسباب معنوية، وهي قوة التوكل على الله في حصول المطالب الدينية والدنيوية، وكمال الثقة به، وقوة التوجه إليه والطلب منه.

وهذه الأمور تقوي جدا من الضعفاء العاجزين الذين ألجأتهم الضرورة إلى أن يعلموا حق العلم، أن كفايتهم ورزقهم ونصرهم من عند الله، وأنهم في غاية العجز. فانكسرت قلوبهم، وتوجهت إلى الله، فأنزل لهم من نصره ورزقه – من دفع المكاره، وجلب المنافع – ما لا يدركه القادرون. ويسر للقادرين بسببهم من الرزق ما لم يكن لهم في حساب؛ فإن الله جعل لكل أحد رزقا مقدرا.

وقد جعل أرزاق هؤلاء العاجزين على يد القادرين، وأعان القادرين على ذلك، وخصوصا من قويت ثقتهم بالله، واطمأنت نفوسهم لثوابه فإن الله يفتح لهؤلاء من أسباب النصر والرزق ما لم يكن لهم ببال، ولا دار لهم في خيال.

فكم من إنسان كان رزقه مقترا، فلما كثرت عائلته والمتعلقون به، وسع الله له الرزق من جهات وأسباب شرعية قدرية إلهية.

ومن جهة وعد الله الذي لا يخلف: {وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ} [سبأ: ٣٩]

ومن جهة: دعاء الملائكة كل صباح يوم: «اللهم أعط منفقا خلفا، وأعط ممسكا تلفا» .

ومن جهة أن أرزاق هؤلاء الضعفاء توجهت إلى من قام بهم، وكانت على يده.

ومن جهة أن يد المعطي هي العليا من جميع الوجوه.

ومن جهة أن المعونة من الله تأتي على قدر المؤنة، وأن البركة تشارك كل ما كان لوجهه، ومرادا به ثوابه. ولهذا نقول:

ومن جهة إخلاص العبد لله، وتقربه إليه بقلبه ولسانه ويده، كلما أنفق، توجه إلى الله وتقرب إليه. وما كان له فهو مبارك.

ومن جهة قوة التوكل، وثقة المنفق، وطمعه في فضل الله وبره. والطمع والرجاء من أكبر الأسباب لحصول المطلوب.

ومن جهة دعاء المستضعفين المنفق عليهم، فإنهم يدعون الله – إن قاموا وقعدوا، وفي كل أحوالهم – لمن قام بكفايتهم. والدعاء سبب قوي: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ} [غافر: ٦٠]

وكل هذا مجرب مشاهد، فتبا للمحرومين، وما أجل ربح الموفقين، والله أعلم.[١١٠]

وظهر في هذا الحديث أن من موضوعات الدعوة : الحث على العناية بالضعفاء والمساكين ؛ ولهذا حث النبي ﷺ على هذا بقوله : « هل تنصرون وترزقون إلا ضعفائكم » والله عز وجل قد جعل الإحسان إلى الفقراء والمساكين من صفات المتقين فقال عز وجل : { لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ } سورة البقرة، الآية : ١٧٧ .

ودل الحديث على التواضع ؛ لأن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ظن أن له فضلا على من دونه من أصحاب النبي ﷺ، بسبب شجاعته، ونحو ذلك من جهة الغنى وكثرة المال، فقال ﷺ : « هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم ؟ » وهذا فيه حث على التواضع ونفي الكبر والفخر، وترك احتقار المسلم في كل حالة .

وظهر أسلوب الترغيب في هذا الحديث ؛ من قول النبي ﷺ : « هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم ؟ » وهذا فيه ترغيب في الإحسان إلى هؤلاء وعدم احتقارهم، وهذا ليس فيه ما يعارض الأحاديث الأخرى التي مدح فيها الأقوياء، وأن المؤمن القوي أحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وإنما المراد أن ذلك من أعظم أسباب الرزق والنصر، وقد يكون لذلك أسباب أخرى ؛ فإن الكفار والفجار قد يرزقون وينصرون استدراجا، وقد يخذل المؤمنون ؛ ليتوبوا ويخلصوا، ولكن العاقبة الحميدة لهم، فيجمع لهم بين مغفرة الذنب وتفريج الكرب، وليس كل إنعام كرامة ولا كل امتحان عقوبة .

الاستفهام الإنكاري من أساليب الدعوة إلى الله عز وجل وقد ظهر هذا الأسلوب في قوله ﷺ : « هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم ؟ » فقد أنكر ﷺ على سعدٍ رضي الله عنه ما ظنه وبيَّن فضل الضعفاء على الأمة، وأبرز ذلك في صورة الاستفهام ؛ ليدل على مزيد التعزير والتوبيخ .

---

[١١٠] – بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار ط الوزارة (ص: ١٥٢)

ودل هذا الحديث على حكمة النبي ﷺ في تغيير المنكر وتأليف القلوب، وتوجيهها إلى ما يحبه الله ويرضاه ؛ فإنه أنكر على سعدٍ رضي الله عنه ببيان فضل الضعفاء وأن وجودهم بين المسلمين من أسباب النصر والرزق، وقد استخدم ﷺ الاستفهام الإنكاري . وهذا يبين للدعاة إلى الله عز وجل أهمية أسلوب الحكمة ؛ قال الله تعالى : { ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } (سورة النحل، الآية : ١٢٥ .) وحقيقة الحكمة : وضع كل شيء في موضعه بإحكام وإتقان، والإصابة في الأقوال والأفعال[١١١] .

الحديث العاشر: أنت مع من أحببت

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ السَّاعَةِ، فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: «وَمَاذَا أَعْدَدْتَ لَهَا». قَالَ: لاَ شَيْءَ، إِلَّا أَنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﷺ، فَقَالَ: «أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ». قَالَ أَنَسٌ: فَمَا فَرِحْنَا بِشَيْءٍ، فَرَحَنَا بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ» قَالَ أَنَسٌ: «فَأَنَا أُحِبُّ النَّبِيَّ ﷺ وَأَبَا بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ بِحُبِّي إِيَّاهُمْ، وَإِنْ لَمْ أَعْمَلْ بِمِثْلِ أَعْمَالِهِمْ» [١١٢].

الحياة الدنيا لها عنوان جامع لحركة الموجودات فيها، هذا العنوان هو " الحب "، وهو المعنى السائر في هذا الكون وفي الإنسان، ومن خلاله تحصل الإرادات وبالتالي تتم الأفعال والأقوال، وهذا شيء يعرفه الناس بعمومهم حين يدركون أسرار الوجود، ولكن من عظمة هذا الدين أن يجعل الحياة الآخرة كذلك، فهي حياة قائمة على الحب كذلك و" الحب " هذا المعنى اللطيف الآسر، فيملك قوة التأثير مع خفائه، وموطنه القلب الباطن، وآثاره على الوجود المشهود، ففي الإنسان يظهر على وجهه وقسماته، وعلى أقواله وحركاته ونومه وقيامه، والوجود كله لا يكتسب جمالاً ونضرة إلا بالحب، فحياة الوجود من حركة وإرادة تنشأ بالحب، وجمال الوجود ونضارته لا يكون إلا بالحب، والعبودية لا تنشأ إلا بالحب، وكذا المتابعة، والأسرة لا يستقيم أمرها إلا بالحب سواء بين الزوج والزوجة أو بين الآباء والأبناء، وكذا المجتمع الحي لا يستقيم إلا بهذا المعنى اللطيف الجميل والعظيم كذلك.

إن البشرية معرضة أن تتحول إلى وحوش ينهش بعضها بعضاً، وإلى مصالح جافة لا فضل فيها للمعاني الباطنة، وبالتالي تنشأ الشرور والبغضاء والحروب النجسة والمنافسة البغيضة.

إن هذا الدين دين الجمال والمعاني اللطيفة السامية، دين يُنشئ علاقة حب وجمال بين الإنسان والمخلوقات من غيره مهما بدت جامدة لا حياة فيها، فرسول الله ﷺ يقول عن جبل أحد: «هَذَا

---

[١١١] – فقه الدعوة في صحيح الإمام البخاري (٢/ ١١٩)

[١١٢] – صحيح البخاري (٥/ ١٢)(٣٦٨٨) وتهذيب صحيح مسلم- علي بن نايف الشحود (ص: ٩٣٣)(٢٦٣٩)

[ش (رجلا) قيل هو ذو الخويصرة اليماني. (متى الساعة) وقت قيام القيامة. (أعددت لها) هيأت من الأعمال الصالحة التي هي أحق بالسؤال عنها والاهتمام بها]

جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ»[113]، فالجبلُ يُحِبّ ويُحَبُّ والمدينة المنورة مدينة حب لقوله ﷺ: «اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا المَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ..»[114]، ولذلك إذا مات الكافر { فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ } [الدخان: ٢٩] [115]أي أنهما يبكيان على المؤمن لعلاقة الحب بينهما، وأخبار الحب بين الصحابة ودوابهم وشجرهم كثيرة جداً، وأما مع رسول الله ﷺ فهي عجب من الأعاجيب فعَنْ أَنَسٍ، قَالَ: قَالَ أَنَسٌ: أَصَابَنَا وَنَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَطَرٌ، قَالَ: فَحَسَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ثَوْبَهُ، حَتَّى أَصَابَهُ مِنَ الْمَطَرِ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ لِمَ صَنَعْتَ هَذَا؟ قَالَ: «لِأَنَّهُ حَدِيثُ عَهْدٍ بِرَبِّهِ تَعَالَى»[116]، إنه بصر الباطن في الأشياء والموجودات ورؤية أسرارها الخفية الجميلة، وعلاقتها بأعظم محبوب وأجمل موجود، إنه الوحيد الذي يُحَب لذاته: إنه الله تعالى. عَنْ أَبِي عُثْمَانَ، قَالَ: حَدَّثَنِي عَمْرُو بْنُ العَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، بَعَثَهُ عَلَى جَيْشِ ذَاتِ السُّلاَسِلِ، فَأَتَيْتُهُ فَقُلْتُ:" أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: «عَائِشَةُ»،فَقُلْتُ: مِنَ الرِّجَالِ؟ فَقَالَ: «أَبُوهَا»،قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ» فَعَدَّ رِجَالًا "[117]. فهي حبيبته وهو حبيبها ولا خجل في هذا المجتمع من هذا الحب الرائع العظيم، يحبّها حتى إنه ليضع فمه على مكان شربها من الإناء ليمس بفمه الشريف مكان فمها الطيب الجميل، فعَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: كُنْتُ أَتَعَرَّقُ الْعَرْقَ «فَيَضَعُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَاهُ حَيْثُ وَضَعْتُ وَأَنَا حَائِضٌ، وَكُنْتُ أَشْرَبُ مِنَ الْإِنَاءِ فَيَضَعُ فَاهُ حَيْثُ وَضَعْتُ وَأَنَا حَائِضٌ»[118]

---

[113] – الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ٥٩٣)٥٤٢٥ – ١٦٠٩ –

[114] – الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ٢٧٠)١٨٨٩ – ٧٥٤ –

[115] – عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر قَالَ: أَتَى ابْن عَبَّاس رَضِيَ اللَّه عَنْهُمَا رَجُل فَقَالَ يَا أَبَا الْعَبَّاس أَرَأَيْت قَوْل اللَّه تَعَالَى "فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ " فَهَلْ تَبْكِي السَّمَاء وَالْأَرْض عَلَى أَحَد؟ قَالَ رَضِيَ اللَّه عَنْهُ: نَعَمْ إِنَّهُ لَيْسَ أَحَد مِنَ الْخَلَائِق إِلَّا وَلَهُ بَاب فِي السَّمَاء مِنْهُ يَنْزِل رِزْقه وَفِيهِ يَصْعَد عَمَله، فَإِذَا مَاتَ الْمُؤْمِن فَأُغْلِقَ بَابه مِنَ السَّمَاء الَّذِي كَانَ يَصْعَد فِيهِ عَمَله وَيَنْزِل مِنْهُ رِزْقه فَفَقَدَهُ بَكَى عَلَيْهِ، وَإِذَا فَقَدَهُ مُصَلَّاهُ مِنَ الْأَرْض الَّتِي كَانَ يُصَلِّي فِيهَا وَيَذْكُر اللَّه عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا بَكَتْ عَلَيْهِ، وَإِنَّ قَوْم فِرْعَوْن لَمْ تَكُنْ لَهُمْ فِي الْأَرْض آثَارٌ صَالِحَة وَلَمْ يَكُنْ يَصْعَد إِلَى اللَّه عَزَّ وَجَلَّ مِنْهُمْ خَيْر، فَلَمْ تَبْكِ عَلَيْهِمْ السَّمَاء وَالْأَرْض".أخرجه الطبري ٢٢/ ٣٦و ٢٥/ ٧٥ وابن كثير ٧/ ٢٥٤و٢٥٥ من طرق تقوي بعضها.الاستعداد للموت وسط عادي- ط٤ (ص: ٢٦٣)

[116] – تهذيب صحيح مسلم- علي بن نايف الشحود (ص: ٢٩٠)(٨٩٨)

[ش (تهمه نفسه) ضبطناه بوجهين فتح التاء مع ضم الهاء وضم التاء مع كسر الهاء يقال همه الشيء وأهمه أي اهتم له]

[117] – الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ٤٧٠)٣٦٦٢ – ١٣١٩ –[ش أخرجه مسلم في فضائل الصحابة باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه رقم ٢٣٨٤. (ذات السلاسل) أي الغزوة المسماة بذلك وهو اسم مكان وكانت الغزوة سنة سبع للهجرة وقيل سميت كذلك لأن المشركين ارتبط بعضهم إلى بعض وقيل لأن الأرض التي كانوا فيها ذات رمل ينعقد بعضه على بعض كالسلسلة. (فعد رجالا) أي ذكر عددا من الرجال الذين يحبهم منهم أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه]

[118] – السنن الكبرى للنسائي (١/ ٩٥)(٦٢) صحيح

قالَ أَبُو بَكْرٍ: فَدَلَّ هَذَا الْحَدِيثُ عَلَى طَهَارَةِ الْبُزَاقِ وَعَلَى طَهَارَةِ سُؤْرِ الْحَائِضِ"الأوسط في السنن والإجماع والاختلاف (١/ ٢٩٨)

فأين هذا من مجتمعات القسوة التي يخجل المرء من إعلان حبه لمحبوبته وزوجته ثمّ يُسأل عن أحب الرجال إليه فيقول: (أبو بكر)، فالرجل يحب الرجل، ومن الدين أن يخبر المرء أخاه أنه يحبه[١١٩]، ولقد كان من محبته للأطفال أن يمر بهم ويسلم عليهم، ويوطئ كتفه الشريف إن أرادوا لعباً أو لهواً يليق بهم، فهو ينحني ليركب أبناؤه -الحسن والحسين رضي الله عنهما ولعن الله من أبغضهما وقتل الحسين- هما يركبان على ظهره الشريف وبحب رائع جميل، فعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّاب، قَالَ: رَأَيْتُ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ عَلَى عَاتِقَيِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقُلْتُ: نِعْمَ الْفَرَسُ تَحْتَكُمَا. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَنِعْمَ الْفَارِسَانِ هُمَا» [١٢٠]

وعَنْ سَعْدٍ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - وَالْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ يَلْعَبَانِ عَلَى بَطْنِهِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتُحِبُّهُمَا ؟ فَقَالَ: وَمَالِي لا أُحِبُّهُمَا ؟ هُمَا رَيْحَانَتَايَ.[١٢١]

وكان يحب البنات فكان يبش لرؤية حبيبته فاطمة ويوسع لها ويفرش لها رداءه، واسمع إلى حديث الحب مع بنت تلهو بختم النبوة على ظهره: فعَنْ أُمِّ خَالِدٍ بِنْتِ خَالِدِ بْنِ سَعِيدٍ، قَالَتْ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَعَ أَبِي وَعَلَيَّ قَمِيصٌ أَصْفَرُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «سَنَهْ سَنَهْ» - قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: وَهِيَ بِالحَبَشِيَّةِ حَسَنَةٌ -، قَالَتْ: فَذَهَبْتُ أَلْعَبُ بِخَاتَمِ النُّبُوَّةِ، فَزَبَرَنِي أَبِي، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «دَعْهَا»، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَبْلِي وَأَخْلِفِي ثُمَّ، أَبْلِي وَأَخْلِفِي، ثُمَّ أَبْلِي وَأَخْلِفِي» قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَبَقِيَتْ حَتَّى ذَكَرَ [١٢٢]

فليس هناك شيء مقدس عن لمس الطفل يمنع منه، بل كان الطفل يبول في حجر النبي ﷺ، وما أمْرُه بالرش من بول الطفل[١٢٣] والغسل من بول الجارية[١٢٤] إلا إشارة أن لا يمنعكم بولُهم من حملهم واللعب معهم فعلاً من أفعال الحب اللائقة بين الناس.

---

[١١٩] - عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: مَرَّ بِالنَّبِيِّ ﷺ رَجُلٌ، فَقَالَ رَجُلٌ: إِنِّي لَأُحِبُّهُ فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «أَأَعْلَمْتَهُ؟» قَالَ: لَا. قَالَ: «فَأَعْلِمْهُ» . قَالَ: فَلَقِيتُ الرَّجُلَ فَأَعْلَمْتُهُ. فَقَالَ: أَحَبَّكَ اللَّهُ الَّذِي أَحْبَبْتَنِي لَهُ » المستدرك على الصحيحين للحاكم (٤/ ١٨٩)(٧٣٢١) صحيح

[١٢٠] - شرح مذاهب أهل السنة لابن شاهين (ص: ٢٨٩)(١٧٨) وفضائل الخلفاء الراشدين لأبي نعيم الأصبهاني (ص: ١٢١)(١٣٥) ومسند البزار = البحر الزخار (١/ ٤١٧)(٢٩٣) صحيح

[١٢١] - كشف الأستار عن زوائد البزار - (٣ / ٢٢٥) (٢٦٢٢) صحيح

[١٢٢] - صحيح البخاري (٤/ ٧٤)(٣٠٧١)

[ش (فزبرني) نهرني. (أبلي) من أبليت الثوب إذا جعلته عتيقا وأخلقي بمعناه والمعنى عيشي وخرقي ثيابك وارقعيها وهكذا. وفي نسخة (وأخلفي) من الخلف وهو العوض والبدل أي اكتسبي خلفه بعد بلائه. (فبقيت حتى ذكر) عاشت أم خالد حتى ذكر الراوي زمنا طويلا نسي طول مدته ويروى (حتى ذكرت) أي صارت مذكورة عند الناس لخروجها عن العادة. وفي نسخة (دكن) من الدكنة وهي غبرة أي اسود لونه من طول ما لبس]

[١٢٣] - عَنْ أُمِّ قَيْسٍ بِنْتِ مِحْصَنٍ، أَنَّهَا «أَتَتْ بِابْنٍ لَهَا صَغِيرٍ، لَمْ يَأْكُلِ الطَّعَامَ، إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَأَجْلَسَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَجْرِهِ، فَبَالَ عَلَى ثَوْبِهِ، فَدَعَا بِمَاءٍ، فَنَضَحَهُ وَلَمْ يَغْسِلْهُ» الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ٧٢)٢٢٣ - ١١٨ -[ش

بالحب وحده تحصل المتابعة بين التابع والمتبوع فمن غير حبٍّ قلبي لرسول الله ﷺ لا يحصل التأسّي والانقياد.

وبالحب وحده تحصل العبودية لله رب العالمين، فحينها تُنصب الأقدام وتنفق الأموال وتزهق الأرواح وتبذل النفائس رجاء أن ترى وجه المحبوب يوم القيامة.

وبالحب وحده يُطاع الأمر في الباطن عن رضا وقبول كما يطاع في الظاهر، ولا حياة للمجتمعات والجماعات إلا بهذه الطاعة الباطنة الراضية.

إن المعاني الجميلة ليس أمراً زائداً عن الحياة، وليست مكملاً لضرورات وحاجيات الحياة، بل هي أسّ الحياة وضرورتها الأولى وغيرها مكمل لها وهامش على جوانبها، ومن لم يفهم هذا فهو أضل من دواب الأرض وأنعامها، لأن الأنعام تفهم هذه المعاني وتراعيها على حساب أشيائها بل وعلى حساب حياتها، فالأسد يموت من أجل زوجته والدب يموت من أجل أولاده، وقد ذكر الله في كتابه أن من عذاب الله تعالى على الناس أن تضيع هذه المعاني بين الناس والدواب والجبال والبحار فقال سبحانه: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } [الروم: ٤١][١٢٥]

تبقى مسألة وهي مهمات تحصيل الحب، والحق أن الشرع كله من كتاب وسنة ما وضع إلا لهذا المقصد، وكلما حصّل المرء طاعة بينه وبين ربه اقترب بمقدارها إلى حب الله بل أكثر منها لأن كرم الله يقتضي ذلك فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:" يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً "[١٢٦]، وكلما حصل المرء طاعة بينه وبين ربه يزداد قرباً من أحباء الله

أخرجه مسلم في الظهارة باب حكم بول الطفل الرضيع وكيفية غسله. وفي السلام باب التداوي بالعود الهندي رقم ٢٨٧ (فنضحه) رشه بماء عمه من غير سيلان]

[١٢٤] – عَنْ لُبَابَةَ بِنْتِ الْحَارِثِ قَالَتْ: كَانَ الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي حِجْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَبَالَ عَلَيْهِ فَقُلْتُ: الْبَسْ ثَوْبًا وَأَعْطِنِي إِزَارَكَ حَتَّى أَغْسِلَهُ. قَالَ: «إِنَّمَا يُغْسَلُ مِنْ بَوْلِ الْأُنْثَى وَيُنْضَحُ مِنْ بَوْلِ الذَّكَرِ»سنن أبي داود (١/ ١٠٢)(٣٧٥)حسن صحيح

[١٢٥] – ظَهَرَ الفَسَادُ فِي العَالَمِ بالفِتَنِ والحُروبِ والاضْطِرابَات. . وذَلكَ بِسَبَبِ مَا اقتَرَفَهَ النَّاسُ منَ الظُّلمِ، وانتهَاكِ الحُرُمَاتِ، والتَّنَكُّرِ للدِّينِ، ونَسيَانِ يومِ الحِسَابِ فانْطَلَقَت النُّفُوسُ مِنْ عِقَالِها، وَعَاثَتْ فِي الأَرضِ فَسَاداً بِلاَ وَازِعٍ وَلا رَقِيبٍ مِنْ ضَمِيرٍ أَوْ وُجدَانٍ أو حَيَاءٍ أَو حِسَابٍ لدِينٍ، فأَذَاقَهُم اللهُ جزاءَ بعضِ ما عَمِلُوا مِنَ المَعَاصِي والآثَامِ، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ إلى الحَقِّ، وَيَكُفُّونَ عَنِ الضَّلالِ والغِوايَةِ، وَيَتَذَكَّرُونَ يومَ الحِسَابِ.أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٣٣٣١، بترقيم الشاملة آليا)

[١٢٦] – الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ٧٠٩)٧٤٠٥ – ١٩٥٨ –[ش أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة باب الحث على ذكر الله تعالى وباب فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله تعالى. وفي التوبة باب الحض على التوبة والفرح بها رقم ٢٦٧٥ (أنا عند ظن عبدي بي) أجازيه بحسب ظنه بي فإن رجا رحمتي وظن أني أعفو عنه وأغفر له فله ذلك لأنه لا يرجوه إلا مؤمن علم أن له ربا يجازي. وإن يئس من رحمتي وظن أني أعاقبه وأعذبه فعليه ذلك لأنه لا ييأس إلا كافر. (معه) بعوني ونصرتي وحفظي. (ذكرته في

وعبيده وخلقه، وكذا تحصيل الطاعات مع الخلق من حسنِ خُلقٍ وإنفاق ورحمة بهم وعفو عن إساءتهم وتغابي عما يفعلون كل ذلك وغيره من خيرات الحب، وتفصيل ذلك يطول، ولكن المقصد أن الحب هو ميزان الدنيا وعنوانها، وهو ميزان الآخرة ودرجاتها، فأحبوا الصالحين والمجاهدين والعلماء والعاملين تحشروا معهم يوم القيامة برحمة الله وفضله، وأميتوا شرورَ القلوب وإساءات الآخرين بالحب، وقد صدق من قال: " اقتلوا أعداءكم بالحب "، فوالله إن الأمر كما قال رسول الله ﷺ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ لِي قَرَابَةً أَصِلُهُمْ وَيَقْطَعُونِي، وَأُحْسِنُ إِلَيْهِمْ وَيُسِيئُونَ إِلَيَّ، وَأَحْلُمُ عَنْهُمْ وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ، فَقَالَ: «لَئِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ، فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمُ الْمَلَّ وَلَا يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللهِ ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ»[١٢٧] أي الرماد الحامي، فإن الخصم يفرح إن رأى أنه أصاب منك، فلما يراك لا تغضب لصنيعه بل تزداد له قرباً وصلة فإما أن يصلح أمره كما قال تعالى: {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ} [فصلت : ٣٤] كما صارت صفية بنت حيي بن أخطب حبيبة لقاتل زوجها وأبيها وعمها وإما أن يعذّب بإحسانك له.

وعلى كل فهذا باب تُؤلف فيه المجلدات شهد الله لكن ما أردت إلا الإشارة لأهمية هذا الباب، فإن كثيراً من الناس في عقله قل هذا العمل القلبي العظيم، وكفى بفضله أنه يثقل الضعيف حتى يلحق بالكبار والعاملين، فإن المرء مع من أحب، وإنه من عدل الله ورحمته أن يجمع الأحبة ولا يفرق بينهم.

ما يرشد إليه الحديث :

في هذا الحديث من الفقه أن من أحب قومًا كان معهم، ومعنى ذلك أنه أحبهم على الإيمان لعملهم بالحق فصار ذلك من محبي الحق وحزبه، فكان به بمحبة الحق درجة الذين يؤثرون نصر الحق وظهوره، فألحقه الله تعالى بفضله بأهل الحق.[١٢٨]

نفسي) أي إن عظمني وقدسني ونزهني سرا كتبت له الثواب والرحمة سرا وقيل إن ذكرني بالتعظيم أذكره بالإنعام. (ملأ) جماعة من الناس. (ملأ خير منهم) جماعة من الملائكة المقربين وهم أفضل من عامة البشر. (شبرا) مقدار شبر وهو قدر بعد ما بين رأس الخنصر ورأس الإبهام والكف مبسوطة مفرقة الأصابع. (ذراعا) هي اليد من كل حيوان وهي من الإنسان من المرفق إلى أطراف رؤوس الأصابع. (باعا) هو مسافة ما بين الكفين إذا بسطتهما يمينا وشمالا. (هرولة) هي الإسراع في المشي ونوع من العدو وهذا والذي قبله مجاز عن قبوله سبحانه وسرعة إجابته للعبد ومزيد تفضله عليه]

[١٢٧] – تهذيب صحيح مسلم- علي بن نايف الشحود (ص: ٩١٣)(٢٥٥٨)

[ش (ويجهلون علي) أي يسيئون والجهل هنا القبيح من القول وهو تشبيه لما يلحقهم من الألم بما يلحق آكل الرماد الحار من الألم (تسفهم الملّ) الملّ هو الرماد الحار أي كأنما تطعمهموه (ظهير) الظهير المعين والدافع لأذاهم]

[١٢٨] – الإفصاح عن معاني الصحاح (٥/ ٢٠٩)

وقوله – ﷺ –: «ما أعددت لها» . من أسلوب الحكيم؛ لأنه سأل عن الوقت فقيل له: ما لَكَ ولها، إنما يهمك التزود لها والعمل بما ينفعك فيها. فطرح الرجل ذكر أعماله، ونظر إلى ما في قلبه من محبة الله ورسوله فقدمه بين يديه.[١٢٩]

قوله: (أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ) لا يُرِيدُ به المَعِيَّةَ في مترلته، حتى لا يَبْقَى بينه وبين النبيِّ ﷺ فَرْقٌ، ولكنه أراد به – والله سبحانه وتعالى أعلم: أن مَنْزِلَةَ المُحبِّ تكون في الجنة بِحَسَبِ حبِّه مع النبيِّ ﷺ وتفصيلُه على ما ظَهَرَ لنا من الشَّرْعِ أن الدُّخُولَ في الجنة يَدُورُ بالإيمان، وأمَّا الطاعاتُ فَتَنْفَعُ في الاتقاءِ عن النار، وأمَّا تعيينُ مترلته في الجنة فباعتبار حبِّه للنبيِّ ﷺ فإنَّ أَوَّلَ خيمةٍ تُضْرَبُ تَكُونُ للسلطان، ثم تَكُونُ لسائر الناس على قدر منازلهم منه. فَمَنْ يكونُ أقربَ عنده مترلةً، تُنْصَبُ خيمته أقرب منه مكانًا، وهكذا – ثم وثم – فهذا هو المرادُ من المَعِيَّة. فإنَّ الجنةَ كلَّها كالمكانِ الواحدِ، والمَعِيَّةُ فيها بِحَسَبِ القُرْبِ والبُعْدِ من مترلة النبيِّ ﷺ وهو يَدُورُ بالمحبَّة، لا أن المرادَ به المَعِيَّةُ في عين ذلك المكان والمحلِّ، فإنه مُحَالٌ.[١٣٠]

وَقَالَ الطِّيبِيُّ: سَلَكَ مَعَ السَّائِلِ طَرِيقَ الْأُسْلُوبِ الْحَكِيمِ ؛ لِأَنَّهُ سَأَلَ عَنْ وَقْتِ السَّاعَةِ، فَقِيلَ لَهُ: فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا؟ وَإِنَّمَا يَهُمُّكَ أَنْ تَهْتَمَّ بِأُهْبَتِهَا، وَتَعْتَنِي بِمَا يَنْفَعُكَ عِنْدَ إِرْسَالِهَا مِنَ الْعَقَائِدِ الْحَقَّةِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ. فَأَجَابَ بِقَوْلِهِ: مَا أَعْدَدْتَ لَهَا إِلَّا أَنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ اهـ. وَبَعْدَهُ مِنَ الْمَبْنَى وَالْمَعْنَى لَا يَخْفَى. (قَالَ أَنَسٌ: فَمَا رَأَيْتُ الْمُسْلِمِينَ فَرِحُوا بِشَيْءٍ بَعْدَ الْإِسْلَامِ) أَيْ: بَعْدَ فَرَحِهِمْ بِهِ أَوْ دُخُولِهِمْ فِيهِ (فَرَحَهُمْ) : بِفَتَحَاتٍ أَيْ: كَفَرَحِهِمْ (بِهَا) أَيْ: بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ وَهِيَ: أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ. قَالَ الْخَطَّابِيُّ: أَلْحَقَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِحُسْنِ النِّيَّةِ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةِ عَمَلٍ بِأَصْحَابِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ اهـ. وَلَا يَخْلُو عَنْ إِيهَامٍ وَإِبْهَامٍ، وَالتَّحْقِيقُ أَنَّهُمْ حَسِبُوا أَنْ لَا تَحْصُلَ الْمَعِيَّةُ بِمُجَرَّدِ الْمَحَبَّةِ مَعَ وُجُودِ الْمُتَابَعَةِ، بَلْ تَتَوَقَّفُ عَلَى كَثْرَةِ الْعِبَادَاتِ، وَزِيَادَةِ الرِّيَاضَاتِ وَالْمُجَاهَدَاتِ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ مَا جَاءَ عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَاللَّهِ إِنَّكَ لَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، وَإِنَّكَ لَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَهْلِي، وَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ وَلَدِي، وَإِنِّي لَأَكُونُ فِي الْبَيْتِ، فَأَذْكُرُكَ فَمَا أَصْبِرُ حَتَّى آتِيَكَ، فَأَنْظُرُ إِلَيْكَ، وَإِذَا ذَكَرْتُ مَوْتِي وَمَوْتَكَ عَرَفْتُ أَنَّكَ إِذَا دَخَلْتَ الْجَنَّةَ رُفِعْتَ مَعَ النَّبِيِّينَ، وَإِنِّي إِذَا دَخَلْتُ الْجَنَّةَ خَشِيتُ أَنْ لَا أَرَاكَ. فَلَمْ يُرِدَّ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى نَزَلَ جِبْرِيلُ بِهَذِهِ الْآيَةِ: {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ} [النساء: ٦٩] » الْآيَةَ "[١٣١]

---

[١٢٩] – تطريز رياض الصالحين (ص: ٢٥١)

[١٣٠] – فيض الباري على صحيح البخاري (٤/ ٤٧٥)

[١٣١] – المعجم الأوسط (١/ ١٥٣)(٤٧٧) حسن

فَتَبَيَّنَ بِهَذَا أَنَّ الْمُرَادَ بِالْمَعِيَّةِ هُنَا مَعِيَّةٌ خَاصَّةٌ، وَهِيَ أَنْ تَحْصُلَ فِيهَا الْمُلَاقَاةُ بَيْنَ الْمُحِبِّ وَالْمَحْبُوبِ، لَا أَنَّهُمَا يَكُونَانِ فِي دَرَجَةٍ وَاحِدَةٍ ؛ لِأَنَّهُ بَدِيهِيُّ الْبُطْلَانِ.[١٣٢]

الحديث الحادي عشر: يسِّرا ولا تعسِّرا، وبشِّرا ولا تنفِّرا وتطاوعا ولا تختلفا

عَنْ أَبِي بُرْدَةَ، قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّه ﷺ أَبَا مُوسَى، وَمُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ إِلَى اليَمَنِ، قَالَ: وَبَعَثَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَى مِخْلاَفٍ، قَالَ: وَاليَمَنُ مِخْلاَفَانِ، ثُمَّ قَالَ: «يَسِّرَا وَلاَ تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا وَلاَ تُنَفِّرَا»،فَانْطَلَقَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا إِلَى عَمَلِهِ، وَكَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا إِذَا سَارَ فِي أَرْضِهِ كَانَ قَرِيبًا مِنْ صَاحِبِهِ أَحْدَثَ بِهِ عَهْدًا، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَسَارَ مُعَاذٌ فِي أَرْضِهِ قَرِيبًا مِنْ صَاحِبِهِ أَبِي مُوسَى، فَجَاءَ يَسِيرُ عَلَى بَغْلَتِهِ حَتَّى انْتَهَى إِلَيْهِ، وَإِذَا هُوَ جَالِسٌ، وَقَدِ اجْتَمَعَ إِلَيْهِ النَّاسُ وَإِذَا رَجُلٌ عِنْدَهُ قَدْ جُمِعَتْ يَدَاهُ إِلَى عُنُقِهِ، فَقَالَ لَهُ مُعَاذٌ: يَا عَبْدَ اللَّه بْنَ قَيْسٍ أَيُّمَ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا رَجُلٌ كَفَرَ بَعْدَ إِسْلاَمِه، قَالَ: لاَ أَنْزِلُ حَتَّى يُقْتَلَ، قَالَ: إِنَّمَا جِيءَ بِهِ لِذَلِكَ فَانْزِلْ، قَالَ: مَا أَنْزِلُ حَتَّى يُقْتَلَ، فَأَمَرَ بِهِ فَقُتِلَ، ثُمَّ نَزَلَ فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللَّه، كَيْفَ تَقْرَأُ القُرْآنَ؟ قَالَ: أَتَفَوَّقُهُ تَفَوُّقًا، قَالَ: فَكَيْفَ تَقْرَأُ أَنْتَ يَا مُعَاذُ؟ قَالَ: أَنَامُ أَوَّلَ اللَّيْلِ، فَأَقُومُ وَقَدْ قَضَيْتُ جُزْئِي مِنَ النَّوْمِ، فَأَقْرَأُ مَا كَتَبَ اللَّهُ لِي، فَأَحْتَسِبُ نَوْمَتِي كَمَا أَحْتَسِبُ قَوْمَتِي"[١٣٣] والمجتمعات والجماعات لها أرواح، وأرواح الأفراد كأرواح الجماعات تنبسط وتنقبض، وتحزن وتفرح والروح لما تقبض بالقهر والقسوة والعنف تتعطل قواها الفاعلة لأنها تنكمش نكوصاً إلى داخلها الحزينة، وتتلبس باليأس إن طال القهر وامتد زمانه، ولا يوجد ثمة بيئة تنتج الإبداع وتقوّيه سوى بيئة التسامح والانفتاح والحبور والأمل، فهذه بيئة العطاء، لأن النفس المبتهجة هي التي تفكر بالإبداع والإحسان، وتنطلق من هموم ذاتها إلى غيرها بالحب والعطاء، والقهر والقسوة والعنف وإن حققت بيئتهم بعض النتائج حيناً إلا أنها لا يمكن أن تدوم، فالخوف إن طال إما أن يتحول إلى مرض ووسواس قهري وإما بالمخالفة والانقلاب حين يتم التجاوز.

المجتمع الإسلامي والأمة الإسلامية والجماعات الحية التي دام تأثيرها كمذاهب العلماء وحلقات الدراسة مادامت إلا بهذا القانون النبوي العظيم (بشرا ولا تنفرا وتطاوعا ولا تختلفا).

أما اليسر فهو في التكاليف والمهام العملية.

وأما التبشير فهو في الخطاب ومقال اللسان ومقام البيان.

---

[١٣٢] – مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٣١٣٦)

[١٣٣] – الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ٥٢٠)٤٣٤١ – ١٤٣٨ –[ش أخرجه مسلم في الجهاد والسير باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير. وفي الأشربة باب بيان أن كل مسكر خمر رقم ١٧٣٣ (مخلاف) إقليم فكان معاذ رضي الله عنه للجهة العليا إلى صوب عدن وأبو موسى رضي الله عنه للجهة السفلي. (أحدث به عهدا) جدد العهد بزيارته. (أيم) أي شيء. (أتفوقه) ألازم قراءته ليلا ونهارا شيئا بعد شيء ولا أقرأ وردي دفعة واحدة. مأخوذ من فواق الناقة وهو أن تحلب ثم تترك ساعة حتى يجتمع لبنها ثم تحلب وهكذا. (فأحتسب) أطلب الثواب. (نومتي) فترة نومي)

وأما التطاوع فهو في مقام الآراء في تحقيق الاجتماع والأنفة.

فالراعي ييسر على رعيته في التكاليف ولا يكلفهم ما لا يطيقون، فلا يطلب منهم " كرائم أموالهم "[١٣٤] كما جاء في الحديث الشريف، ولا يشق عليهم فيخونوه ويخدعوه، فالأب والأم والمعلم والسيِّد والأمير والسلطان كل هؤلاء لا يستقيم لأمرهم تنفيذ أو دوام إلا بأن ييسروا على رعيتهم، لأان الحياة طويلة، والتكاليف دائمة ليست ليوم ولا يومين بل للعمر كله وبهذا الحال لا يتم التواصل إلا باليسير لا العسير.

وبالتبشير يتم دفع النفس للعمل، فهو وقودها لا تقوى إلا به، ولا تتواصل إلا بهذا المدد، ومن ذلك الذي يقال له " التشجيع "، وهي تسمية معاصرة لممارسات عملية كالهدية وقولية كالمديح تدفع صاحبها للإقبال على العمل وبذل المزيد من الجهد، وهذا باب معطّل في العمل الإسلامي بسبب التربية الفاسدة في مجتمعات إسلامية معينة وبسبب غزو الدين الصوفي[١٣٥] لكثير من عقول المربين والعلماء.

لنر ما تقوم به التجمعات الجاهلية من مديح و"تشجيع" لرجالها وأعمالهم، ولنقارن هذا ما يحصل في الصف الإسلامي، وذلك لانتشار الحسد والتنافس الجاهلي بين أهل الإسلام، وكأن تقدم واحد مضر بالآخرين، و لم يعلموا أن تقدم مسلم إنما هو للإسلام وإن ضُرَّ مسلم هو للمسلمين جميعاً، لكنها جاهلية الشر من الحسد والكبر والغرور.

بالتيسير يحصل الدوام وبالتبشير يحصل الاندفاع وكثرة العطاء، والنفوس تُظْلِم بكثرة التقريع والغلظة، وتدبر إن لم تجد من يكشف لها حسن ما تعمل كما تجد من يصوّب خطأها، وليس هذا من باب الرياء في شيء لا من قريب ولا بعيد، فإن الرياء هو أن يعمل المرء عمله لغير الله، وذلك بأن يطلب رضاهم غير ناظر إلى وجه الله والدار الآخرة، أما فرح النفوس حين ترى تقدير الناس لأعمالهم مع أن عملها ما قام إلا لوجه الله تعالى فهذا شيء منتشر بين أخلص القلوب وهم أصحاب رسول الله ﷺ وكم كان يسوؤهم أن يروا الكراهة في نفوس إخوانهم لما يفعلون، ومن ترك الشر حياءً من الناس فهو مؤمن لأن الحياء من الإيمان، ومن عمل عملاً من الصالحات لإدخال البهجة على نفوس الصالحين من إخوانه فهو مؤمن لأن أصل الفعل هو الحب في الله والبغض في الله، وهذا من لم يدركه فهو جاهل صوفي أخرق.

فالتبشير وهو ذكر الحسنات والبشائر والفأل إنما هو وصية رسول الله ﷺ لأمته، وهي وصية أليق بالرعاة والأئمة والقادة والعلماء وهي بحق لا تليق إلا بهم، وما كان يذكره رسول الله ﷺ من فضائل

---

[١٣٤] – المسند الموضوعي الجامع للكتب العشرة (١/ ٧)

[١٣٥] – يقصد الفكر الصوفي الخرافي

أصحابه، وما يظهره من فرح لما يعملون من خير شيء كثير جداً في سنته، ولذلك كانوا في تنافس لكسب حبه ووده وسروره.

وقوله ﷺ: (تطاوعا ولا تختلفا) إنما هو لدرء أسباب الفتنة والضعف وذهاب الريح والقوة، وهذا لا يكون إلا بأن يطيع كل واحد صاحبه ويرى لقول صاحبه فضلاً على قوله، وإن من أفسد الأخلاق وأقبحها في الحياة ما يقال له " التصلب في الرأي " و" الإصرار على القول "، وإن من الشر أن يرى البعض أن هذا من قبيل الرجولة والبطولة أو أنه من قبيل الثقة في النفس، لا والله بل هو من باب الشر والشيطان، فإن الحكيم هو الذي حرّكتْه التجارب وأدرك أن الحياة تتسع لأقوال الآخرين كما تتسع لرأيه، وأن قوة الفعل أن تدرك مآخذ قول أخيك وترى وجه حسنه وصوابه كما ترى مآخذ قولك وحسنه وصوابه، وإن هذا والله من باب العقل والتجربة والحكمة وسعة العلم.

الصغار مهما كبرت مناصبهم وأسماؤهم هم الذين لا يرون إلا أنفسهم ولا يثقون إلا بأقوالهم وأما الكبار فهم الذين يسَعُون الناس ويصبرون على متابعتهم والاستماع لهم واحتمال آرائهم والنزول عليها، ثم إن الاجتماع أهم مقصد يجب أن نسعى له، ومن أجله قد يتم التنازل عن بعض الحق من أجل ما هو عظيم جليل، إذ الاجتماع هو الشرط الأوليّ لتحقيق مصالح الإسلام ومقاصده.

ما أدوم الحياة وأجملها بهذه الوصايا لأن فيها متعةَ الروحِ وإبداعَاها ودوامَها، وما أشقى الحياة وأقساها وأظلمها حين تخالفها وتسير في الضد منها.

ما يرشد إليه الحديث :

قَالَ الطِّيبِيُّ: الْأَحَادِيثُ الثَّلَاثَةُ مُتَعَاضِدَةٌ عَلَى مَعْنَى عَدَمِ الْحَرَجِ وَالتَّضْيِيقِ فِي أُمُورِ الْمِلَّةِ الْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} [الحج: ٧٨] مَفْعُولٌ أَوَّلٌ، وَ (فِي الدِّينُ) ثَانٍ، وَزِيدَتْ (مِنْ) لِلْاسْتِغْرَاقِ، وَالتَّنْكِيرُ فِي (حَرَجٍ) لِلشُّيُوعِ، وَ (عَلَيْكُمْ) مُتَعَلِّقٌ بِهِ قُدِّمَ لِلْاخْتِصَاصِ، كَأَنَّهُ قِيلَ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ دِينَكُمْ يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ خَاصَّةً، وَرَفَعَ الْحَرَجَ عَنْكُمْ أَيًّا كَانَ، فَظَهَرَ مِنْ هَذَا تَرْجِيحُ فِعْلِ الْأَوَّلِينَ مِنَ السَّلَفِ الصَّالِحِينَ عَلَى رَأْيِ الْمُتَكَلِّفِينَ فِيمَا نَقَلَهُ الشَّيْخُ مُحْيِي الدِّينِ النَّوَوِيُّ فِي الرَّوْضَةِ مِنَ الشَّرْحِ الْكَبِيرِ ؛ مِنْ أَنَّهُ لَا يُشْتَرَطُ أَنْ يَكُونَ لِلْمُجْتَهِدِ مَذْهَبٌ مُدَوَّنٌ، وَإِذَا دُوِّنَتِ الْمَذَاهِبُ فَهَلْ يَجُوزُ لِلْمُقَلِّدِ أَنْ يَنْتَقِلَ مِنْ مَذْهَبٍ إِلَى مَذْهَبٍ؟ إِنْ قُلْنَا: يَلْزَمُهُ الِاجْتِهَادُ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ، وَغَلَبَ عَلَى ظَنِّهِ أَنَّ الثَّانِيَ أَعْلَمُ ؛ يَنْبَغِي أَنْ يَجُوزَ بَلْ يَجِبَ، وَإِنْ خَيَّرْنَاهُ فَيَنْبَغِي أَنْ يَجُوزَ أَيْضًا، كَمَا لَوْ قَلَّدَ فِي الْقِبْلَةِ هَذَا أَيَّامًا وَهَذَا أَيَّامًا، وَلَوْ قَلَّدَ مُجْتَهِدًا فِي مَسَائِلَ وَآخَرَ فِي مَسَائِلَ أُخْرَى، وَاسْتَوَى الْمُجْتَهِدَانِ عِنْدَهُ خَيَّرْنَاهُ، لَكِنِ الْأُصُولِيُّونَ مَنَعُوا مِنْهُ، وَحَكَى الْحَانِطِيُّ وَغَيْرُهُ عَنْ أَبِي إِسْحَقَ: فِيمَا إِذَا اخْتَارَ مِنْ كُلِّ مَذْهَبٍ مَا هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ أَنْ يَفْسُقَ بِهِ، وَعَنْ أَبِي حَنِيفَةَ أَنَّهُ لَا يَفْسُقُ بِهِ، وَيُعَضِّدُ هَذَا التَّرْجِيحَ قَوْلُ الْإِمَامِ مَالِكٍ: حِينَ أَرَادَ الرَّشِيدُ الشُّخُوصَ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى الْعِرَاقِ ؛ وَقَالَ لَهُ: يَنْبَغِي أَنْ تَخْرُجَ مَعِي فَإِنِّي عَزَمْتُ أَنْ أَحْمِلَ النَّاسَ عَلَى الْمُوَطَّأِ كَمَا

حَمَلَ عُثْمَانُ النَّاسَ عَلَى الْقُرْآنِ ؛ فَقَالَ: أَمَّا حَمْلُ النَّاسِ عَلَى الْمُوَطَّأِ فَلَيْسَ لَكَ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلٌ ؛ لِأَنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – افْتَرَقُوا بَعْدَهُ فِي الْأَمْصَارِ، فَحَدَّثُوا فَعِنْدَ كُلِّ أَهْلِ مِصْرٍ عِلْمٌ...".[١٣٦]

الحديث الثاني عشر: مَثَل المسلمين واليهود والنصارى

عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " مَثَلُ الْمُسْلِمِينَ، وَاليَهُودِ، وَالنَّصَارَى، كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَأْجَرَ قَوْمًا يَعْمَلُونَ لَهُ عَمَلًا يَوْمًا إِلَى اللَّيْلِ، عَلَى أَجْرٍ مَعْلُومٍ، فَعَمِلُوا لَهُ إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ، فَقَالُوا: لاَ حَاجَةَ لَنَا إِلَى أَجْرِكَ الَّذِي شَرَطْتَ لَنَا وَمَا عَمِلْنَا بَاطِلٌ، فَقَالَ لَهُمْ: لاَ تَفْعَلُوا، أَكْمِلُوا بَقِيَّةَ عَمَلِكُمْ، وَخُذُوا أَجْرَكُمْ كَامِلًا، فَأَبَوْا، وَتَرَكُوا، وَاسْتَأْجَرَ أَجِيرَيْنِ بَعْدَهُمْ، فَقَالَ لَهُمَا: أَكْمِلاَ بَقِيَّةَ يَوْمِكُمَا هَذَا وَلَكُمَا الَّذِي شَرَطْتُ لَهُمْ مِنَ الأَجْرِ، فَعَمِلُوا حَتَّى إِذَا كَانَ حِينُ صَلاَةِ العَصْرِ، قَالاَ: لَكَ مَا عَمِلْنَا بَاطِلٌ، وَلَكَ الأَجْرُ الَّذِي جَعَلْتَ لَنَا فِيهِ، فَقَالَ لَهُمَا: أَكْمِلاَ بَقِيَّةَ عَمَلِكُمَا مَا بَقِيَ مِنَ النَّهَارِ شَيْءٌ يَسِيرٌ، فَأَبَيَا، وَاسْتَأْجَرَ قَوْمًا أَنْ يَعْمَلُوا لَهُ بَقِيَّةَ يَوْمِهِمْ، فَعَمِلُوا بَقِيَّةَ يَوْمِهِمْ حَتَّى غَابَتِ الشَّمْسُ، وَاسْتَكْمَلُوا أَجْرَ الفَرِيقَيْنِ كِلَيْهِمَا، فَذَلِكَ مَثَلُهُمْ، وَمَثَلُ مَا قَبِلُوا مِنْ هَذَا النُّورِ "[١٣٧] الحرص على النهايات ينبغي أن يكون بمقدار همّة البدايات وإلاّ خاب المسعى وضاع الجهد والعرق، والنفوس قد تنشط للبدايات لأسباب عديدة منها عدم إدراك النفوس ما ستلاقيه من تعب ونصب إذ تقبل على الأعمال برؤية الجمال فإذا أصابها لظى العمل وقسوتُه ارتدت وانتكست، ومنها أن بعض الأعمال تبدأ بصفة الجمهور وبنزعة القطيع ثمّ تبدأ التصفيات وصولاً للقلة الواعية، ومنها ما يصيب النفوس من كسل أو يأس، كسل في الإرادة والأعمال، ويأس من النتائج إن طالت الطريق، وكل هذا من أمراض النفوس وعدم ثقتها بالحق نفسه، {وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ} [فصلت: ٣٥]، فالصبر هو وقود الثبات، وكما قال الله تعالى: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ } [السجدة: ٢٤]

فالصبر يمد بالثبات، واليقين يمد بالأمل "، ولا علاج للنفوس إلا بالثقة على الحق وعدم الندم على ضياع الشهوات الدنيوية، والعاملون لدين الله تعالى من مجاهدين وعلماء ودعاة هم أحوج الناس إلى الصبر واليقين، فإن الطريق طويل طيلة الحياة إلى الموت، والطريق شاقّ محفوف بالابتلاء، ابتلاء يصيب البدن وابتلاء يصيب العقل والمعاني، وهكذا المعالي لا تكون إلا بالكَبَد كما قال تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ } [البقرة: ٢١٤]، وفي الآية أنه لا يكون النصر واليسر والفتح حتى تَصلَ ذروةُ الابتلاء أقصاها كما قال الله عن الثلاثة الّذين خُلِّفت

---

[١٣٦] – مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٤٢٢)

[١٣٧] – صحيح البخاري (٣/ ٩٠)(٢٢٧١) [ش (وما عملنا باطل) أبطلناه وكأنه لم يكن. (النور) نور الهداية إلى الحق]

توبتهم: {وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [التوبة: ١١٨]، والقصد أن الخط البياني مع البلاء في صعود وكلما ارتقى الابتلاء درجة سقط قوم والتحق آخرون، فمن سقط يسقط لجهله وشهوته، ومن التحق فإنما لالتقاء عقله وقلبه مع هذه المعاني الراقية العظيمة، فإذا كانت النهايات لم يخلص إليها إلا ذو حظ عظيم كما قال الله تعالى، فهذا الدين عمل مع الله تعالى وهو دين الآخرة كما قال عن أصحابه: { إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ } [ص: ٤٦][١٣٨].

في هذا الحديث التحذير من النكوص على الأعقاب قبل التمام، فإن عدم التمام يدمر البدايات، فتعساً لرجل عمل للجنة حتى إذا اقترب المغيب صار إلى أصحاب أعمال النار.

في واقعنا كم رأينا من كانت بدايته على خير ودين ونصرة للحق وأهله، وصدعاً بكلمة الحق حتى لتظن أن هؤلاء هم وُرَّاث المرحلة، فيُبسط لهم في قلوب الخلق حباً ثمّ إن هي غلوة طريق حتى أخذوا ذهاباً يميناً وشمالاً فبئس ما ضيعوا.

وفي الحديث إشارة أن السبق لا يُمدح إن لم يواصل، فالسابقون فضلهم بالثبات حتى اليقين، أما تجار التاريخ الذاهب والزمن الخالي وهم في عدوة أهل الباطل فهؤلاء ذمُّهم أولى من غيرهم لأنهم عرفوا الحق وأعرضوا عنه.

لقد علمتني الحياة قيمة هذا الحديث وهو صعوبة النهايات ومشقتها على النفوس، فإن الهمم يصيبها التعب كما يصيب الأبدان، والمرء يحتاج إلى تجديد همّته كما يحتاج إلى تغذية بدنه، وتغذية الهمم تكون بالتذكرة ورفقة الأصحاب، والحرص على مجالسة المبتدئين في قوتهم وإقبالهم وهدايتهم فلهؤلاء قلوب جديدة وهمم سابقة، إذ أن طول الأمد يخلق ويبلى.

أهل الجهاد هم أولى الناس بهذا الحديث، فإن الناس يعلمون أن النصر مع الصبر، وفي لحظات تهب رياح وتذهب رياح، فعندما أضاع الصحابة رضي الله عنهم هذا المعنى أصابهم ما أصابهم، وفي حنين حيث تداعت الصفوف وتضعضعت وصاح من صاح أن بطل السحر، ثبت رسول الله ﷺ مع قلة لا يصلون للمئة فحصل النصر وهبت رياحه حتى وقع ما يحب الله ورسوله والمؤمنون، ولذلك الحذر من حصول الغفلة أو التهاون أو اليأس، فكم من نصر بالغفلة والتهاون صار هزيمة وخزيا وعارا، وكم من هزيمة تحولت بدفع اليأس وحصول اليقين إلى نصر وتأييد، ثم ليحذر المجاهد أن يركن على تاريخه ويضع السلاح فإن في ذلك ضياع أجره وذهاب فضله.

---

[١٣٨] – إنا خصصناهم بخاصة عظيمة، حيث جعلنا ذكرى الدار الآخرة في قلوبهم، فعملوا لها بطاعتنا، ودعوا الناس إليها، وذكّروهم بها. وإنهم عندنا لمن الذين اصطفيناهم لرسالتنا، واخترناهم لطاعتنا.التفسير الميسر (١/ ٤٥٦)

وفي الحديث كذلك فضل اللاحقين إن ورثوا الأمر كما يجب، لأن كثيراً من اللاحقين إنما تأخروا لمعاني في قلوبهم أو لظروف في أحوالهم فلما حصل الخير ارتقت نفوسهم بمعاني حصلوها مع الإيمان ومراتب حصلوها بالعمل والمواقف، ولذلك قال النبي ﷺ: (استكملوا أجر الفريقين كليهما)، فهذا الفاروق ابن الخطاب الذي كان إسلامه عزّاً للإسلام وكان لإمارته فتح وصفه الحبيب المصطفى بقوله: (لم يفر أحد فريه)، فعَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «رَأَيْتُ النَّاسَ مُجْتَمِعِينَ فِي صَعِيدٍ، فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ فَنَزَعَ ذَنُوبًا أَوْ ذَنُوبَيْنِ، وَفِي بَعْضِ نَزْعِهِ ضَعْفٌ، وَاللَّهُ يَغْفِرُ لَهُ ثُمَّ أَخَذَهَا عُمَرُ فَاسْتَحَالَتْ بِيَدِهِ غَرْبًا، فَلَمْ أَرَ عَبْقَرِيًّا فِي النَّاسِ يَفْرِي فَرِيَّهُ حَتَّى ضَرَبَ النَّاسُ بِعَطَنٍ»،وَقَالَ هَمَّامٌ: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «فَنَزَعَ أَبُو بَكْرٍ ذَنُوبًا أَوْ ذَنُوبَيْنِ»[١٣٩] وذلك فضل الله تعالى يقع على أهله ومن يستحقه.

ما يرشد إليه الحديث :

تنازع أهل الأصول فيمن أمر أن يعمل عملاً إلى وقت غير معين، ثم أمر بترك ذلك العمل، والعمل بغيره: هل هو نسخ في حقه، أم لا؟ مثل قوله تعالى: {فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ} [البقرة: ١٠٩] .

وفي الجملة، فاستحقاق اليهود والنصارى قيراطاً واحداً على عملهم وإحباط أجرهم وإبطاله هو بالنسبة إلى طائفتين منهم، لا إلى طائفة واحدة.

وقد استدل أصحابنا بحديث أبي موسى على أن من استؤجر لعمل في مدة معينة، فعمل بعضه في بعض المدة، ثم ترك العمل في باقي المدة باختياره من غير عذر، أنه قد أسقط حقه من الأجرة، ولا يستحق منها شيئاً.[١٤٠]

وظاهر المثل الذي في حديث أبي موسى أن الله تعالى قال لليهود: آمنوا بي وبرسلي إلى يوم القيامة، فآمنوا بموسى إلى أن بعث عيسى، فكفروا به. وذلك قدر نصف المدة التي من بعث موسى إلى قيام الساعة. فقولهم: لا حاجة لنا إلى أجرك إشارة إلى أنهم كفروا وتولوا، واستغنى الله عنهم. وهذا من إطلاق القول وإرادة لازمه، لأن لازمه تَرْك العمل المعبر به عن ترك الإيمان.

قال ابن المنير: يستنبط من هذا الحديث أن وقت العمل ممتد الى غروب الشمس، وأقرب الأعمال المشهورة بهذا الوقت صلاة العصر، فهو من قبيل الإشارة لا من صريح العبارة، فإن الحديث مثال،

---

[١٣٩] – الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ٤٦٥)٣٦٣٣ – ١٣٠٥ –[ش أخرجه مسلم في فضائل الصحابة باب من فضائل عمر رضي الله عنه رقم ٢٣٩٣. (رأيت) في المنام. (صعيد) هو في اللغة وجه الأرض. (ذنوبا) الدلو الممتلئ ماء. (غربا) هو الدلو الكبير يسقى به البعير وهو أكبر من الذنوب وتفسير هذا ما حصل من طول خلافته وما كان فيها من فتح وخير. (عبقريا) هو الحاذق في عمله وعبقري قومه سيدهم. (يفري فري) يعمل عملا مصلحا وجيدا مثله ويقوى قوته]

[١٤٠] – فتح الباري لابن رجب (٤/ ٣٤٦)

وليس المراد العمل الخاص بهذا الوقت، بل هو شامل لسائر الأعمال من الطاعات في بقية الإمهال إلى قيام الساعة.

وقال إمام الحرمين: إن الأحكام لا تؤخذ من الأحاديث التي تأتي لضرب الأمثال، واستُدل بالحديث على أن بقاء هذه الأئمة يزيد على الألف، لأنه يقتضي أن مدة اليهود نظير مدتي النصارى والمسلمين، وقد اتفق أهل النقل على أن مدة اليهود الى بعثة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كانت أكثر من ألفي سنة، ومدة النصارى من ذلك ست مئة، وقيل أقل من ذلك، فتكون مدة المسلمين أكثر من ألف قطعًا،

وفي الحديث أن أجر النصارى كان أكثر من أجر اليهود، ولأن اليهود عملوا نصف النهار بقيراط، والنصارى نحو ربع النهار بقيراط، ولعل ذلك باعتبار ما حصل لمن آمن من النصارى بموسى وعيسى فحصل لهم تضعيف الأجر مرتين بخلاف اليهود، فإنهم لما بعث عيسى كفروا به. وفي الحديث تفضيل هذه الأمة، وتوفير أجرها مع قلة عملها، وفيه جواز استدامة صلاة العصر إلى أن تغيب الشمس.[١٤١]

الحديث الثالث عشر: يعقد الشيطان قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قَالَ: «يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيَةِ رَاسِ أَحَدِكُمْ إِذَا هُوَ نَامَ ثَلَاثَ عُقَدٍ يَضْرِبُ كُلَّ عُقْدَةٍ عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ، فَارْقُدْ فَإِن اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللَّهَ، انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ صَلَّى انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَأَصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ وَإِلَّا أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلاَنَ»[١٤٢].

العمل قد يفسد في بدايته، وفساده في بدايته بتسويفه وتأجيله تحت ظن إمكانية إدراكه في زمن آت، فالعمر طويل!، وقد يفسد في وسطه بعدم تمامه وترك إكماله، وقد يفسد لفساد مقدماته، فالمقدمات الفاسدة تنشئ النهايات الفاسدة.

فالعمل الصالح لا يتم إلا بإرادة تمحو التسويف والتأجيل، وتنبيه حتى التمام، وبحبّ له مع علم به والشيطان يعمل عمله في رغائب النفس وشهواتها، وتذهب قوته وتأثيره بالعمل الصالح اللازم للفعل، فهذا الإنسان حين ينام –والنوم راحة للبدن لابدّ منه لكنه يصبح رغبة وشهوة لها علاقة بالكسل إن طال وخرج عن حده– فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قَالَ: «يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ عَلَى

---

[١٤١] – كوثر المعاني الدراري في كشف خبايا صحيح البخاري (٨/ ٧٥)

[١٤٢] – الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ١٨٩)١١٤٢ – ٤٩٩ – [ش أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها باب ما روي فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح رقم ٧٧٦ (يعقد) يربط فيثقل عليه النومه. (قافية) مؤخرة العنق أو القفا. (يضرب كل عقدة) يحكم عقدة ويؤكده. (فارقد) فنم ولا تعجل بالقيام. (طيب النفس) مرتاح النفس لما وفقه الله تعالى إليه من القيام. (خبيث النفس) مكتئبا يلوم نفسه على تقصيره في ترك الخير والقيام في الليل]

قَافِيَةِ رَاسِ أَحَدِكُمْ إِذَا هُوَ نَامَ ثَلاَثَ عُقَدٍ يَضْرِبُ كُلَّ عُقْدَةٍ عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ، فَارْقُدْ فَإِنِ اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللَّهَ، انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ صَلَّى انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَأَصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ وَإِلَّا أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلاَنَ»[١٤٣]

وهذه طبيعة الحياة قائمة على التركيب، فلا يوجد شيء في الدنيا متوحد يقوم بنفسه دون غيره، سواء كان من أعمال الخير أو الشر، سواء في الخلق أو النفس، وإذا كان الأمر كذلك فلا يصلحه ولا يتم بناؤه بفعل واحد بل لابدّ من تكرار له في حالات أو في مزجه في حالات معينة، وهذا كما في قدر الله تعالى فهو في شرعه كذلك -وسيأتي إن شاء الله تعالى شرح ذلك في باب الشرعيات كالدعاء-، وهذه العقد الشيطانية مع تركيبها إلا أنها تتلاءم مع المحل وإلا لما كان لها نفع، وهذا من كيد الشيطان ومعرفته بالسنن، وههنا ملاءمتها مع المحل بختمها بختم: (عليك ليل طويل فارقد)، فهي تتلاءم مع الزمان -"عليك ليل"- ووتتلاءم مع النفس -"فارقد"-.

هذا الفعل الشيطاني لا بد من هزيمته، وهزيمتُه إزالتُه، وهذا ككل الشر، وشرط هزيمته هو حصول التكافؤ، وهذا الشرط كثيراً ما يغفل عنه العاملون، إذ يظنون أن مجرد وجود الفعل كاف لتحقيق الفعل، وهذا خطأ منتشر في عقول المسلمين في الشرعيات كثيراً كما هو منتشر في الكونيات فبما يتعلق بالعمل لدين الله تعالى وتحقيق النصر والهداية، والتكافؤ لابدّ له من التتابع حيناً كما لا بد له من التنوّع والتركيب حيناً آخر وقد يحتاج إلى الأمرين -التتابع والتركيب-، كما حصل مع الرجل الذي شكى للنبي ﷺ استطلاق (من الاطلاق والانفلات) بطن أخيه، فأمره النبي ﷺ أن يسقيه عسلاً، فسقاه فلم يشف، ثم عاد شاكياً، فأمره بالزيادة وهكذا حتى حصل المقصود، فبمجرد جرعة من عسل لا تكفي لبعض الأمراض بل لابدّ من التكافؤ، فالبعض يظن أنه بمجرد لعقة من عسل لابدّ من الشفاء لقوله تعالى: { يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [النحل: ٦٩]، بل أن بعض الأمراض لا يكفي العسل لوحده، كما قال سلفنا قديماً -ومنهم ابن القيم في الطب النبوي-: إن الأطعمة غير المركبة ينفع لأمراضها الأدويةُ غير المركبة، لكن الأمراض المركبة لابدّ لها من الأدوية المركبة، فبعض الأمراض لا ينفعها العسل لوحده، إذ لابدّ من التكافؤ في شيئين: الكمية والنوع، وهذا الذي عنيته بـ "التتابع والتركيب"، فهذا النائم لم ينفعه أن يذكر الله تعالى لحلّ كل العقد بل احتاج إلى التنوع والتتابع، فالعقدة الأولى أزالها الذكر، والثانية لابدّ لها من ملائم مكاني وهو الوضوء، والثالثة لم ينفعها إلا الصلاة، وفي العمل الجماعي لابد من هذا

---

[١٤٣] - الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ١٨٩)١١٤٢ - ٤٩٩ -[ش أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها باب ما روي فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح رقم ٧٧٦ (يعقد) يربط فيثقل عليه النومه. (قافية) مؤخرة العنق أو القفا. (يضرب كل عقدة) يحكم عقدة ويؤكده. (فارقد) فنم ولا تعجل بالقيام. (طيب النفس) مرتاح النفس لما وفقه الله تعالى إليه من القيام. (خبيث النفس) مكتئبا يلوم نفسه على تقصيره في ترك الخير والقيام في الليل]

الأمر وتذكُّره ودليله حديث الذين آواهم المبيت إلى الغار فلم ينفعهم إلا الدعاء بصالح أعمالهم[١٤٤]، ولما ينجهم دعاء واحد منهم، بل دعوا جميعاً، وكل واحد حقق من الفرج بمقدار دعائه، ولم يقع الفرج الكلي إلا بدعائهم جميعاً، فإن هذا هو الملائم لما هم فيه، فهذا القانون والسنة لا يجوز أن تغيب عن أذهاننا في الجهاد والدعوة والدعاء وأي عمل من أعمال الدنيا أو الآخرة، والانحراف في هذه القاعدة هو الذي يوقعنا في جهالة فهم قدر الله تعالى من جهة وجهل وعود الله تعالى وشرعه من جهة أخرى، فتكثر الأسئلة: لِمَ لَمْ تقع هذه النتيجة وقد حققنا شرطها؟، والصواب: أن سنة الله تعالى جارية بأن الفعل لابد من وقوعه إن تحققت شروطه، لكن هذا السؤال ينتج بسبب جهالة ما هي الشروط، فليس مجرد الدعاء يحقق الإجابة بل لابد من التكافؤ كما تقدم في حديث الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى الغار، وليس مجرد الجهاد يحقق النصر بل لابد من التكافؤ، ومن شروط التكافؤ هو معادلة الموانع، لأن القوة الكافية هي سلامة الفعل وعدم وجود الموانع كما قال ابن حزم رحمه الله تعالى.

فهذا الذي انحلت عقده كلها ووقع المطلوب صار هذا الفعل سبباً لفعل آخر لقوله ﷺ: (أصبح نشيطاً طيّب النفس)، وهكذا تتوالى الحياة مركبة، كل فعل يحتاج إلى ما قبله، وكل فعل يحتاج إلى شروط في نفسه، وكل فعل يحتاج إلى شروط تحيط به وتواكبه، ولذلك لا يقال اليوم: لِمَ لا ننتصر؟ ففي هذا السؤال عماية عن تاريخنا الذي ورثنا نتائجه، نتائج أفكار منحرفة وأعمال ضالة وكسل

---

[١٤٤] – عَنِ الزُّهْرِيِّ، حَدَّثَنِي سَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: " انْطَلَقَ ثَلاَثَةُ رَهْطٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَتَّى أَوَوْا المَبِيتَ إِلَى غَارٍ، فَدَخَلُوهُ فَانْحَدَرَتْ صَخْرَةٌ مِنَ الجَبَلِ، فَسَدَّتْ عَلَيْهِمُ الغَارَ، فَقَالُوا: إِنَّهُ لاَ يُنْجِيكُمْ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ إِلَّا أَنْ تَدْعُوا اللَّهَ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ: اللَّهُمَّ كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَكُنْتُ لاَ أَغْبِقُ قَبْلَهُمَا أَهْلًا، وَلاَ مَالًا فَنَأَى بِي فِي طَلَبِ شَيْءٍ يَوْمًا، فَلَمْ أُرِحْ عَلَيْهِمَا حَتَّى نَامَا، فَحَلَبْتُ لَهُمَا غَبُوقَهُمَا، فَوَجَدْتُهُمَا نَائِمَيْنِ وَكَرِهْتُ أَنْ أَغْبِقَ قَبْلَهُمَا أَهْلًا أَوْ مَالًا، فَلَبِثْتُ وَالقَدَحُ عَلَى يَدَيَّ، أَنْتَظِرُ اسْتِيقَاظَهُمَا حَتَّى بَرَقَ الفَجْرُ، فَاسْتَيْقَظَا، فَشَرِبَا غَبُوقَهُمَا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَفَرِّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ، فَانْفَرَجَتْ شَيْئًا لاَ يَسْتَطِيعُونَ الخُرُوجَ "، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : " وَقَالَ الآخَرُ: اللَّهُمَّ كَانَتْ لِي بِنْتُ عَمٍّ، كَانَتْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَأَرَدْتُهَا عَنْ نَفْسِهَا، فَامْتَنَعَتْ مِنِّي حَتَّى أَلَمَّتْ بِهَا سَنَةٌ مِنَ السِّنِينَ، فَجَاءَتْنِي، فَأَعْطَيْتُهَا عِشْرِينَ وَمِائَةَ دِينَارٍ عَلَى أَنْ تُخَلِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِهَا، فَفَعَلَتْ حَتَّى إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهَا، قَالَتْ: لاَ أُحِلُّ لَكَ أَنْ تَفُضَّ الخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ، فَتَحَرَّجْتُ مِنَ الوُقُوعِ عَلَيْهَا، فَانْصَرَفْتُ عَنْهَا وَهِيَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَتَرَكْتُ الذَّهَبَ الَّذِي أَعْطَيْتُهَا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ، فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ غَيْرَ أَنَّهُمْ لاَ يَسْتَطِيعُونَ الخُرُوجَ مِنْهَا "، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : " وَقَالَ الثَّالِثُ: اللَّهُمَّ إِنِّي اسْتَأْجَرْتُ أُجَرَاءَ، فَأَعْطَيْتُهُمْ أَجْرَهُمْ غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ تَرَكَ الَّذِي لَهُ وَذَهَبَ، فَثَمَّرْتُ أَجْرَهُ حَتَّى كَثُرَتْ مِنْهُ الأَمْوَالُ، فَجَاءَنِي بَعْدَ حِينٍ فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ أَدِّ إِلَيَّ أَجْرِي، فَقُلْتُ لَهُ: كُلُّ مَا تَرَى مِنْ أَجْرِكَ مِنَ الإِبِلِ وَالبَقَرِ وَالغَنَمِ وَالرَّقِيقِ، فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ لاَ تَسْتَهْزِئُ بِي، فَقُلْتُ: إِنِّي لاَ أَسْتَهْزِئُ بِكَ، فَأَخَذَهُ كُلَّهُ، فَاسْتَاقَهُ، فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهُ شَيْئًا، اللَّهُمَّ فَإِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ، فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ، فَخَرَجُوا يَمْشُونَ "صحيح البخاري (٣/ ٩١)(٢٢٧٢)

[ش (رهط) ما دون العشرة من الرجال ولا يكون فيهم امرأة ولا واحد له من لفظه. (أووا المبيت) التجؤوا إلى موضع ليبيتوا فيه. (أغبق) من الغبوق وهو شرب العشي. (فناء بي) بعد. (أرح) أرجع. (برق الفجر) ظهر الضياء. (فأردها عن نفسها) كناية عن طلب الجماع. (ألمت بها سنة) نزلت بها سنة من سني القحط فأحوجتها. (الرقيق) المملوك يطلق على الواحد والجمع والذكر والأنثى]

أحاط كل جوانب العمل أو أغلبها في حياة أمتنا. وفيه عماية عن شروط النصر الذاتية وفيه عماية عن الشروط الموضوعية التي تحيط بنا. كما لا يجوز لنا أن نسأل عن عمل صالح لا يحقق النتيجة النهائية، لأن النتيجة النهائية هي ثمرة لتجمع أعمال طويلة لم تكن وقتها كافية لإظهار النتيجة، فالشجرة العظيمة لا يتلفها قضمة نملة صغيرة، لكن هذه القضمة هي الوحدة الأولى لانهيار الشجرة فهذا النائم لا يسأل: ماذا سينفعك الذكر إذ لا يحل عقدك كلها؟ لأن الذكر هو اللبنة الأولى لإزالة هذه العقدة.

هذه هي حكمة الحياة وهذه سننها، ومع الفهم لدين الله تعالى وحرقة التجارب تستقر الحكمة في القلوب والعقول، ويبقى أمر: هل يئس الشيطان من أن يعقد على رأس كل نائم، وفي كل ليلة؟ الجواب معروف، لكن لِمَ ييأس أهل الإسلام من محاربته في كل صباح وكل يوم وكل لحظة؟ هذه هي المعضلة. كل يوم وفي كل لحظة أنت مدعو للمجاهدة والصبر والذكر والثبات والتذكر والتفكر والتعلم، {فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ (٧) وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ (٨)} [الشرح: ٧، ٨].

ما يرشد إليه الحديث :

قال أبو عبيد: فكأن معنى الحديث، أن على قفا أحدكم ثلاث عقد للشيطان أن ثلاث أعداده بتسليطه من الآدمي على ما لا يختص بنوم دون يقظة، ولا يقظة دون نوم، ولا صباح دون مساء، ولا مساء دون صباح، ولا إقامة دون سفر، ولا سفر دون إقامة؛ بل في سائر أحوال الآدمي له مكائد، وحال الآدمي معه على حال معترك القتال.

وأن الله سبحانه وتعالى أرسل محمدًا – ﷺ – هاديًا لخلق لمصالحهم، ومنبهًا على مكائد شيطانهم، وكان من ذلك أن الإنسان عند نومه إذا أوى إلى مضجعه، وعقد الشيطان على رقبته ثلاث عقد، ثم فسرها النبي – ﷺ – وبينها، وأنه يأتي بها الآدمي على جهة التنصح، وأنه يوهمه بطول الليل عليه ليسرق منه الزمان الذي يهب فيه لتهجده؛ فإنه لو جاء مجاهرًا بالمكر وآمرًا بترك التهجد لم يكن يقبل منه؛ لأنه كان يبدو له في صورة لا تخفى عليه أنه شيطان لدفعه عن الخير بالكلية، ولكنه لما جاءه يذكر يذكر بطول الليل عليه ونصحه من جهة الرفق ببدنه بقوله: (عليك ليل طويل) ليحظى منه إما بتفويته الأصل التهجد، أو قريبًا من الفجر؛ ليدخله فيه في وقت ضيق فيفوته التدبير بقراءته وأذكار صلواته الذي يتمكن منه في سعة الوقت عليه، فكان عقده على القافية، وهي ما فسره أبو عبيد أن قافية الرأس مؤخره، أي: فيأتيه من ورائه.

وإذا استيقظ وذكر الله انحلت عقدة، وذلك أن ذكر الله عز وجل يبعده، فتنحل عقدة من عقده، وهي قربه منه، ثم إذا توضأ وتمضمض ويستنشر فغسل لموضع حبو منه على خياشيمه، ثم أزال الحدث عنه انحلت العقدة الثانية، فتوجه بعضده إلى العبادة، فإذا صلى انحلت العقد كلها.

* وهذا فإنما يفعله –قاتله الله –مع أهل قيام الليل وذوي التهجد، فكيف بالغافلين!

* فأما قوله: (فأصبح نشيطًا طيب النفس)، فإن المتهجد إذا قام من جوف الليل فيما بعد نصف الليل إلى الصلاة، وكان وضوؤه وتكبيره وركوعه وسجوده وجلوسه مدنيا طعامه عن معدته، وحاطبًا غداءه إلى قعر معدته التي بها هضمه، ثم يتبعها بعد ذلك نومة خفيفة يتمم هضمه، فيصبح نشيطًا طيب النفس، كما قال – ﷺ –، وإن لم يفعل ذلك كان طعامه يقف بحاله في رأس معدته حيث الهضم أسوأ ما كان قبيح خبيث النفس كسلان.[١٤٥]

فِيهِ الْحَثُّ عَلَى ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى عِنْدَ الِاسْتِيقَاظِ وَجَاءَتْ فِيهِ أَذْكَارٌ مَخْصُوصَةٌ مَشْهُورَةٌ فِي الصَّحِيحِ مِنْهَا حَدِيثُ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ «مَنْ تَعَارَّ مِنْ اللَّيْلِ فَقَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَاَللَّهُ أَكْبَرُ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاَللَّهِ ثُمَّ قَالَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي أَوْ دَعَا اُسْتُجِيبَ لَهُ فَإِنْ تَوَضَّأَ قُبِلَتْ صَلَاتُهُ» وَلَا يَتَعَيَّنُ لِتَحْصِيلِ هَذَا الْمَقْصُودِ ذِكْرٌ لَكِنَّ الْأَذْكَارَ الْمَأْثُورَةَ فِيهِ أَفْضَلُ

وَفِيهِ التَّحْرِيضُ عَلَى الْوُضُوءِ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ وَهُوَ كَوْنُهُ تَنْحَلُّ بِهِ إحْدَى عُقَدِ الشَّيْطَانِ وَإِنْ لَمْ تَنْضَمَّ إلَيْهِ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ صَلَاةٌ.

فِيهِ فَضِيلَةُ الصَّلَاةِ بِاللَّيْلِ وَإِنْ قَلَّتْ لَكِنْ هَلْ يَحْصُلُ انْحِلَالُ عُقْدَةِ الشَّيْطَانُ الْأَخِيرَةِ بِمُجَرَّدِ الشُّرُوعِ فِي الصَّلَاةِ أَوْ بِتَمَامِهَا؟ الظَّاهِرُ الثَّانِي فَإِنَّهُ لَوْ أَفْسَدَهَا قَبْلَ تَمَامِهَا لَمْ يَحْصُلْ بِذَلِكَ غَرَضٌ وَرَأَيْت وَالِدِي – رَحِمَهُ اللَّهُ – لَمَّا سُئِلَ عَنْ الْحِكْمَةِ فِي افْتِتَاحِ صَلَاةِ اللَّيْلِ بِرَكْعَتَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ أَجَابَ عَنْ ذَلِكَ بِأَنَّ الْحِكْمَةَ فِيهِ اسْتِعْجَالُ حَلِّ عُقَدِ الشَّيْطَانِ وَهُوَ مَعْنًى حَسَنٌ بَدِيعٌ وَمُقْتَضَاهُ مَا رَجَّحْته مِنْ أَنَّهُ لَا يَحْصُلُ ذَلِكَ إلَّا بِتَمَامِ الصَّلَاةِ وَلَا يَخْدِشُ فِي هَذَا الْمَعْنَى أَنَّ النَّبِيَّ – ﷺ – مُنَزَّهٌ عَنْ عَقْدِ الشَّيْطَانِ عَلَى قَافِيَتِهِ لِأَنَّا نَقُولُ إنَّهُ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – فَعَلَ ذَلِكَ تَشْرِيعًا لِأُمَّتِهِ لِيَقْتَدُوا بِهِ فَيَحْصُلَ لَهُمْ هَذَا الْمَقْصُودُ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ.[١٤٦]

لا يتعين للذكر شيء مخصوص لا يجزىء غيره، بل كل ما صدق عليه ذكر الله أجزأ. ويدخل فيه تلاوة القرآن، وقراءة الحديث النبويّ، والاشتغال بالعلم الشرعي[١٤٧]

وفيه التحذير مما يفعله الشيطان من إرخاء النوم على المسلم، وحرمانه من صلاة الليل أو صلاة الصبح، بسبب هذه العقد، وأنه متى استيقظ وذكر الله انحلت العقدة الأولى، ثم تنحل الثانية بالوضوء، والثالثة بالصلاة. ومن أراد وقاية نفسه من ذلك، فعليه بقراءة آية الكرسي قبل نومه. وفيه أن صلاة الصبح في وقتها سبب للنشاط الجسمي والراحة النفسية، وكذلك صلاة الليل.[١٤٨]

---

[١٤٥] – الإفصاح عن معاني الصحاح (٧/ ٢٧٠)

[١٤٦] – طرح التثريب في شرح التقريب (٣/ ٨٤)

[١٤٧] – كوثر المعاني الدراري في كشف خبايا صحيح البخاري (١١/ ٥٠)

[١٤٨] – منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٢/ ٣٣٤)

الحديث الرابع عشر: يستجاب لأحدكم ما لم يستعجل

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:" يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ، يَقُولُ: دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي "[١٤٩].

كما أن الأمور الكونية لا تقع إلا بشرط التكافؤ بين المقدمات والنتائج، لابدّ من عامل الزمن كما نرى في نمو الخلق من إنسان وحيوان ونبات، وكما نرى في تحقق الشفاء للأمراض والجروح، فكذلك الأمر مع الأمور الشرعية، فإنه لابدّ من التكافؤ بتتابع الفعل، والتتابع لا يقع إلا مع عامل الزّمن، فوضع آلاف الأطنان والمكاييل من المياه دفعة واحدة على النبتة الصغيرة لا يصنع منها شجرة باسقة يانعة، بل لابدّ من التتابع السُّنني، ويفسد هذه السنة العظيمة مرض الاستعجال، هذا المرض الذي إن جمع مع مرض اليأس يصفان كل هزيمة وفساد.

العاملون لدين الله تعالى من مجاهدين وعلماء ودعاة هم أحوج الناس لبصيرة السنن، والكثير من الشرعيات قد فقهها هؤلاء هذه الأيام لكن حاجتهم إلى سنن النفس والاجتماع والنصر والهزيمة والفعل هو في العدل من حاجتهم إلى ما يحقق حب الله تعالى من خلال أمره، فأمره يحقق الحب الإلهي وقدره يحقق الوعود {وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} [الصف: ١٣].

يظن الكثير من العاملين لدين الله تعالى أن عالم الغيب تحققه يقع من خلال القدرة الإلهية دون اعتبار لهذه السنن، إذ يحسبون أنَّ السُّنن قانون خاص للحياة الدنيا وللأرض دون الغيب والسماء، ولعمر الحق هذا انحراف شنيع، فإن الله تعالى قال: { إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [هود: ٥٦] إذ مقتضى هذا أن لا يقع شيء إلا من خلال سنته وسببه، فربنا خلق السماوات والأرض في ستة أيام وهو القادر على أن يخلقها بكلمة واحدة وهي -كوني- لكن كل شيء خلق من خلال سنته، وتلك الأيام في طولها الزمني ليست كأيام الأرض كما هو معلوم من كتاب الله {وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ } [الحج: ٤٧] وصعود الملائكة بالأمر في أيام طول اليوم فيها خمسون ألف سنة كما قال تعالى: {تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ} [المعارج: ٤] مكان هذا الذكر لطول الأيام مقدمة لقوله: { فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا (٥) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا (٦) وَنَرَاهُ قَرِيبًا (٧)} [المعارج: ٥ - ٧] والمناسبة بينهما واضحة في ما نحن فيه لمن تفكر فيه والحمد لله رب العالمين. ولذلك لا يتحقق شيء إلا من خلال سنته، وهذا الإنسان خلقه الله في السماء من طينة

[١٤٩] - الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ٦٤٥)٦٣٤٠ - ١٧٨٦ -[ش أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة باب بيان أنه يستجاب للداعي ما لم يعجل .. رقم ٢٧٣٥ (يستجاب لأحدكم) يجاب دعاؤه. (ما لم يعجل) يسأم ويترك الدعاء أو يستبطئ الإجابة]

الأرض وجرى ما جرى له في السماء من ابتلاءٍ كشف حقيقته وضعفه ومن عدوه وماهي مداخل هذا العدو فيه، كل ذلك لتجري الأمور من خلال سنتها، ومقتضى الحب من الإحسان لا يقع إلا من خلال السنة كما أن مقتضى البغض من الإهلاك لا يقع إلا من خلال السنة حتى لو وجد الموجب، وتأمل قوله تعالى في سورة النحل: {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ} [النحل: ٦١][١٥٠] فالموجب للعذاب من الغضب الإلهي بسبب المعاصي قد وقع ولكن تأخر العذاب حتى تأتي سنته، وهذه الآية هي في نفس السورة (أي النحل) التي فيها قوله: {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [النحل: ٤٠]، فدل على أن الفعل الإلهي لا يقع إلا من خلال السنة، ومن جهْلِ الكفرة بهذا جعلوا التأجيل وعدم وقوع الفعل دليلاً على عدم استحقاقهم له فقالوا {لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ} [المجادلة: ٨] وقال الله عنهم: {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ } [الحج: ٤٧]، وهذه المعاني الباطلة التي جعلت إقبال الكفار على المعاصي واستحقاقهم بها هي التي تقع في قلوب المسلمين وتدفعهم لترك الصالحات كما في هذا الحديث –حديث الباب– وهو أن أحدهم حين يدعو ولا يرى سرعة الإجابة يترك الدعاء والعمل، وقريباً منها هو الذي وقع في قلوب المنافقين وفي غزوة أحد فقالوا: {يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [آل عمران: ١٥٤] فإن فيها معنى " لو كنا على الحق لما تخلف النصر عنا " وإن كان هذا المعنى ملحق لا الأصلي، والقصد أن الفعل لابدّ له من سنة ومنها ظرفُه التاريخي لوقوعه، وتأخُّرُه لا يدل على عدم وجوده فالثمرة قوة كامنة في الشجرة حتى قبل ظهورها، وحين تبدو لا تخضر كزهرة تامة، والزارع يفهم ذلك كله ولا يترك العمل لخفاء الثمر أو لعدم نضجه بل يرعاه دائماً ويرقبه وهو موقن بوصوله إلى مطلبه يوماً، وهكذا العامل لدين الله تعالى فإنه ليقينه على الوعود الإلهية يرعاها وهي في علم الغيب وعداً ثم يرعاها وهي تنمو حتى تصل لكمالها كالدعاء، فإن المرء يدعو ربَّه وبالدعاء يكون الإجابة لوعد الله الذي لا خلف فيه {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} [غافر: ٦٠] ({وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} [البقرة: ١٨٦] ثم يرعاه بالزيادة والاجتهاد وكثرة

---

[١٥٠] – يُخْبِرُ اللهُ تَعَالَى العِبَادَ بِأَنَّهُ يَحْلُمُ عَلَى العُصَاةِ مِنَ البَشَرِ، مَعْ ظُلْمِهِمْ، وَأَنَّهُ لاَ يُعْجِّلُ بِمُؤَاخَذَتِهِمْ بِأَفْعَالِهِمْ، وَبِمَا كَسَبُوا، وَلُوْ أَنَّهُ فَعَلَ ذَلِكَ لأَهْلَكَ مَا عَلَى الأَرْضِ مِنْ مَخْلُوقَاتٍ، وَلَمْ يَتْرُكْ عَلَى ظَهْرِهَا مَخْلُوقاً يَدِبُّ عَلَيْهَا. وَلَكِنَّهُ تَعَالَى يَحْلُمُ عَلَى العُصَاةِ، وَيَسْتُرُ عَلَيْهِمْ عُيُوبَهُمْ وَأَعْمَالَهُمْ، وَلاَ يُعَاجِلُهُمْ بِالعُقُوبَةِ، وَإِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى اليَوْمِ المُحَدَّدِ لَهُمْ، فَإِذَا جَاءَ الأَجَلُ لاَ يُمْهَلُونَ لَحْظَةً وَاحِدَةً.أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٩٦٢، بترقيم الشاملة آليا)

السؤال وتحري أوقات وأماكن القبول حتى يصل إلى النهاية وذلك بوقوع الوعد على الوجه الذي رجاه السائل لربه، ولذلك قال النبي ﷺ في هذا الحديث: (يستجاب لأحدكم) ثم قال: (يقول دعوت فلم يستجب لي) فأين الإجابة إذاً؟، الجواب في مثال حصول الولد بالنكاح، فإن الولد يكون بالنكاح، والمستعجل يقول: أين الولد؟ فالمرأة لا ترعى الجنين لعدم رؤيته فيخرج سقطاً قد لا تراه وتظنه دم حيض والحق أنه استجيب له، لكن استعجل فبالتالي كان كمن لم يجب له ابتداء لعدم الاكتمال ولو بقي راعياً للإجابة الأولى لحصل المقصود بكمال القدر الإلهي المحبوب للإنسان، كما تقدم مثال الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى الغار، فلو قالوا: لم يُستجب لأولنا لأنهم لم يخرجوا بدعائه وإن كان حصل الإجابة – فلو تركوا الدعاء لما خرجوا، فهكذا يستجاب له وإن لم يقع، فإن واصل وقع وإلا لم يستجب له، وهذا هو معنى الحديث: يستجاب لأحدكم إن رعى دعاءه وإلا فإن الإجابة الأولى غير كافية لحصول المقصود، وكذلك تأخر الإجابة قد لا يكون بسبب الحاجة للرعاية ولكن لا بدّ لهذا الفعل من زمن ملائم لسنة الله فيه كما وقع مع يوسف عليه السلام، فإنه رأى رؤيا، ولحصول الرؤيا كان لابدّ لهذا الفعل من مقدمات زمنية وفعلية طويلة ليقع التأويل، والله لا يجري شيئاً في هذه الدنيا إلا من خلال السنن إلا ما يقع من المعجزات والكرامات وهي خلاف العادة، – ولو شئت لبسطت القول وقلت: حتى المعجزات والكرامات تقع من خلال السنن ولكن شرح ذلك يطول والكل مجمع أن الحياة جريانها على غير المعجزة والكرامة –، فالداعي يرى أن دعاءه الأول لم يجب، وإن كان في الحقيقة قد أجيب فبترك الدعاء لباقي ما هو محتاجه فحينئذ لا يقع ما يريد لتخلف السبب وهو الدعاء، وهذان المعنيان هما على معنى واحد في ما نحن فيه من فهم عالم الغيب والوعود الإلهية مع الأفعال، كنصر المؤمنين واليسر بعد العسر والرزق بعد الفاقة أو قلة ذات اليد وغير ذلك من وعود إلهية مبسوطة في الكتاب والسنة.

ومن عجائب ما يراه المرء الناظر في سنة المصطفى ﷺ هو اجتهاده ﷺ في الدعاء يوم بدر اجتهاداً شديداً فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ الْقِبْلَةَ، ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ، فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ: "اللهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ"، فَمَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ، مَادًّا يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ، حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ، فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ، فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ، ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ، وَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ، كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ، فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ} [الأنفال: ٩] فَأَمَدَّهُ اللهُ بِالْمَلَائِكَةِ"[١٥١] وأبو بكر لم يعلم بالوعد إلا من خلال هذا الداعي العظيم – رسول الله ﷺ–، فهل أبو بكر ذاكر لأمر نسيه رسول الله ﷺ؟ – وهذا ليس ببعيد لجواز نسيان

[١٥١] – المسند الموضوعي الجامع للكتب العشرة (٧/ ٢٦١)، (م) ٥٨ – (١٧٦٣)

الحبيب المصطفى ﷺ- ولكن ليس هذا هو الواقع- مع جواز وجوده كوناً- وإنما الواقع هو حاجة الوعد للمكاثرة والمتابعة حتى يتحقق، ورسول الله ﷺ أعلم بهذا من أبي بكر، فأبو بكر نظر إلى الوعد بإطلاق ورسول الله ﷺ رأى ما يجب عليه من حقوق لهذا الوعد، وما يحتاجه هذا الوعد حتى يقع، وهو وعد عظيم يحتاج إلى اجتهاد ملائم له حتى يقع، مع أن في هذا الحديث فضيلة عظيمة للصديق وهي شفقته على رسول الله ﷺ من قيامه بهذا الإجتهاد الملائم لوقوع الوعد بالنصر، ولكن هيهات أن يترك الحبيب المصطفى ﷺ حق هذا الواجب أو أن لا يشارك فيه بالنصيب الأوفر وذلك بالدعاء والاستغاثة في طلب النصر.

هكذا المجاهدون والعلماء والدعاة والعبّاد ترقب قلوبهم البوادر ومطالع الوعود فيرعونها مع غفلة الناس عنها أو استهزاء المنكرين لها، كاستهزاء قوم نوح به وهو يصنع السفينة على اليابسة، ولكن هم يفهمون فهم القلوب الزائد عن العلم بالحد الشرعي كما قال تعالى عن سليمان تفضيلاً له على أبيه داوود عليهما السلام: { فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ } [الأنبياء: ٧٩] وقال: {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ } [النمل: ١٥].

ليتذكر العاملون سنن السماء والغيب وليرعوها كما يرعون سنن الأرض فإن لهم شأناً معها، وليتذكروا أن رسول الله ﷺ دعا ربه شهراً كاملاً لينج الله بعض أصحابه حتى استجيب له، ودعا في مكة ثلاث عشرة سنة حتى تحقق أول النصر بهداية أهل المدينة من الأنصار وجاهد عشر سنين حتى فتح مكة، فهذه ثلاث وعشرون سنة كاملة حتى تحقق الوعد، وعندما دعا على قوم مضت سنة الله في غير ما كان يدعو به رسول الله ﷺ لوجود موجب آخر أنزل الله عليه -(لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ [آل عمران : ١٢٨ ومن تأمل تمام الآية في قوله: (أو يتوب عليهم أو يعذّبهم فإنّهم ظالمون) علم حقاً ما نحن بصدده، وعندما دعا ربه أن لا يجعل عذاب هذه الأمة بالقتال بينها لم يجب الله لدعائه لجريان القدر بخلاف ما يريد رسول الله ﷺ لأمته وما يحبه لها.

ولولا أن الأمر مع هذه الأبواب أمر إشارة وتنبيه لكان الشرح طويلاً، والله يغفر لي ولإخواني، وهو الهادي إلى سواء السبيل، وما ضياع الأعمال إلا بالاستعجال - (ولكنّكم تستعجلون)[١٥٢].

ما يرشد إليه الحديث :

---

[١٥٢] - عَنْ خَبَّابِ بْنِ الأَرَتِّ، قَالَ: شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الكَعْبَةِ فَقُلْنَا: أَلاَ تَسْتَنْصِرُ لَنَا أَلاَ تَدْعُو لَنَا؟ فَقَالَ: «قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ، يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهَا، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الحَدِيدِ، مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهِ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرُ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لاَ يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ». صحيح البخاري (٤/ ٢٠١) (٣٦١٢)

[ش (متوسد بردة) جعلها وسادة له. (تستنصر) تطلب النصرة من الله تعالى. (ليتمن) من الإتمام والكمال. (هذا الأمر) وهو الإسلام. (تستعجلون) النتائج والثمرات]

في هذا الحديث من الفقه: إشعار العبد بأن الله سبحانه يجيب كل داع على الإطلاق؛ إلا أنه قد يكون سوء اختيار الداعي ما لا يرضي الله، لفضله أن يجعله تبعًا لسوء ذلك الاختيار، فيكون إما يدعو بإثم قد شرع الله فيما أوجب على عبده ألا يأتيه، فكيف يصلح لعبد أن يسأل الله سبحانه أن يؤتيه ما هو نهى عنه؛ أو يكون قد أداه سوء اختياره إلى طلب الأدنى بدلًا من الذي هو خير؛ فيكون من نظر الله له أن يسرع إجابته، أو يكون قد دعا عبد على عبد، وقد دعا ذلك المدعو عليه على الداعي عليه، فترتفع الدعوتان إلى الله عز وجل فيتعارض السؤالان، فيكون من جود الله سبحانه وفضله ألا يرد هذا ولا هذا؛ ولكن يترفق بهما معًا إلى أمد: إما بأن يصلح بينهما أو يؤخرهما ليصطلحا، فترديد الخصوم يفضي إلى صلحهم، أو يكون حين دعا الداعيان أحدهما أرحم وأرفق بالآخر، فيسرع إجابة الأرفق والأرحم نظرًا منه سبحانه لهما كليهما؛ أو يدعو والد على ولده في غيظه أو ضجره، فيؤخر الله إجابته عالمًا سبحانه من الوالد أن سيشكر بعد قليل ترك الإجابة.

فإذا غفل الداعي عن حكمة الله تعالى التي هذه الوجوه التي ذكرناها بعضها وجزء منها، فنسب تأخير الدعاء إلى ما يناسب سوء اختياره ولا يناسب جود الله وحكمته، فطفق يقول لنفسه أو لغيره: دعوت فلم يستجب لي، مثربًا بذلك لجهله.

ثم إنه يغاضب بترك الطلب ومراجعة السؤال جهلًا منه وقلة فقه، فحذر رسول الله - ﷺ - من ذلك، على أنه لو تتابعت هذه المواقع من إجابة هذا السائل السيئ الاختيار الذي أخبرنا الله سبحانه أنه قد يكره الشيء وهو خير له، ويحب الشيء وهو شر له حتى ينتهي إلى حين موته، فإن الله سبحانه وتعالى يمنعه جوده من أن يجب سوء الاختيار، وقد أخبرنا سبحانه أنه يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، فحينئذ يصرف الإجابة من الدنيا إلى الآخرة،ويجيبه في دعوات معدودة لأوقات معلومة أحوج ما كان لأنفع ما تكون بأن يقال له: دعوت في وقت كذا بكذا، فمنع من إجابتك كذا وادخر لك إلى اليوم فاطلب كذا، فيود كل من أجيب إلى الدعاء في الدنيا أنه لم يكن أجيب؛ لما يرى من ربح من أخرت إجابته.[١٥٣]

قال ابن القيم في الجواب الكافي: ومن الآفات التي تمنع ترتيب أثر الدعاء عليه: أن يستعجل العبد ويستبطيء، ويدع الدعاء، وهو بمنزلة من بذَر بذرًا، أو غرس غرسًا، فجعل يتعاهد ويسقيه، فلما استبطأ كماله وإدراكه، تركه وأهمله.[١٥٤]

ودل هذا الحديث على ما يأتي: أولاً: أن من شروط الدعاء وآدابه أن لا يستعجل الإِجابة، وأن يلح في الدعاء مرات ومرات دون يأس أو ملل، أو ضجر نفسي، قال الحافظ في هذا الحديث أدب من

---

[١٥٣] - الإفصاح عن معاني الصحاح (٦/ ٢٤٥)

[١٥٤] - توضيح الأحكام من بلوغ المرام (٧/ ٤٩٥)

آداب الدعاء، وهو أن يلازم الطلب، ولا ييأس من الاجابة لما في ذلك من الانقياد والاستسلام، وإظهار الافتقار

ودل هذا الحديث على أن الإلحاح في الدعاء مع قوة الرجاء سبب في الإجابة وتحقيق المطلوب لقول الصادق المصدوق: " يستجاب لأحدكم ما لم يعجل ".

قال الداودي: يخشى على من خالف وقال: دعوت فلم يستجب لي أن يحرم الإجابة، وما قام مقامها من الادّخار والتكفير. رابعاً: أنه لا يليق بالمؤمن، ولا يصدق عليه أن يقول: " دعوت فلم يستجب لي " لأن دعوة المؤمن مجابة في عموم الأحوال إما أن تعجل له الإجابة، وإما أن يدفع عنه من السوء مثلها، وإما أن يدخر له في الآخرة خير مما سأل.[١٥٥]

قال النووي في الأذكار: إنَّ المذهب المختار الذي عليه الفقهاء، والمحدِّثون، وجماهير العلماء من الطوائف كلها، من السلف والخلف: أنَّ الدعاء مستحبٌّ؛ قال تعالى: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ} [غافر: ٦٠].

١ - فمن آدابه -وهو آكدها-: تجنب الحرام مأكلًا، وملبسًا، ومشربًا، ووجه ذلك: أنَّ ملابسة المعصية مقتضية لعدم الإجابة، إلاَّ إذا تفضَّل الله على عبده، وهو ذو الفضل العظيم.

٢ - ومنها: الإخلاص لله، وهذا الأدب هو أعظم الآداب في إجابة الدعاء؛ لأنَّ الإخلاص هو الذي تدور عليه دوائر الإجابة، وقال عزَّ وجل: {مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} [الأعراف: ٢٩]، فمتى دعا ربه غير مخلص، فهو حقيق بأن لا يُجاب له، إلاَّ أن يتفضل الله عليه، فهو ذو الفضل العظيم.

٣ - ومنها: الوضوء.

٤ - ومنها: استقبال القبلة؛ ووجه ذلك: أنَّها الجهة التي يتوجه إليها العابدون لله عزَّ وجل، والعابدات له، والمتقربات، والمتقربون إليه.

٥ - ومنها: الثناء على الله عزَّ وجل.

٦ - ومنها: الصلاة على نبيه -ﷺ-.

٧ - ومنها: بسط اليدين، ورفعهما حذو المنكبين.

٨ - ومنها: التأدب، والخشوع، والمسكنة، والخضوع، وهذا المقام أحق المقامات بهذه الأوصاف؛ لأنَّ المدعو هو رب العالم، وخالق الخلق، ورازق الكل، وفي ذلك تسبُّب للإجابة؛ لأنَّ العبد إذا خشع وخضع، رحمه الله، وتفضل عليه بالإجابة ومن ذلك: قول الله عزَّ وجل: {ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً} [الأعراف: ٥٥].

---

[١٥٥] - منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٥/ ٢٧٩)

٩ – ومنها: أن يسأل الله بأسمائه العظام الحسنى، وبالأدعية المأثورة؛ ويدل على ذلك قوله تعالى: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا} [الأعراف: ١٨٠].

١٠ – ومنها: الاعتراف بالذنوب.

١١ – ومنها: أن يسأل بعزمٍ ورغبةٍ، وجدٍّ واجتهادٍ.

١٢ – ومنها: إحضار القلب، وتحسين الرجاء.

١٣ – ومنها: تكرير الدعاء، والإلحاح فيه.

١٤ – ومنها: أن لا يستعجل، فيقول: قد دعوت فلم يُسْتجب لي، ووجهه ما في الصحيحين من حديث أبي هريرة؛ أنَّ رسول الله –ﷺ– قَال: "يُسْتَجَابُ لأحدكم ما لم يعجل، يقول: دعوت فلم يستجب لي".

١٥ – ومنها: أن يترصد الأوقات الشريفة.

١٦ – ومنها: أن يغتنم الأحوال الشريفة؛ كحالة السجود، ونزول الغيث.

١٧ – ومنها: أن يدعو بلسان الذلَّة والافتقار، لا بلسان الفصاحة والانطلاق.[١٥٦]

الحديث الخامس عشر: إنّما الصّبر عند الصدمة الأولى

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِامْرَأَةٍ عِنْدَ قَبْرٍ وَهِيَ تَبْكِي، فَقَالَ: «اتَّقِي اللَّهَ وَاصْبِرِي» وزاد مسلم، فَقَالَتْ: وَمَا تُبَالِي بِمُصِيبَتِي فَلَمَّا ذَهَبَ، قِيلَ لَهَا: إِنَّهُ رَسُولُ اللهِ –، فَأَخَذَهَا مِثْلُ الْمَوْتِ، فَأَتَتْ بَابَهُ، فَلَمْ تَجِدْ عَلَى بَابِهِ بَوَّابِينَ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ لَمْ أَعْرِفْكَ، فَقَالَ: «إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ أَوَّلِ صَدْمَةٍ»، أَوْ قَالَ: «عِنْدَ أَوَّلِ الصَّدْمَةِ»[١٥٧].

من فوت البدايات لم يدرك النهايات إلا بمشقة زائدة، ذلك لأن الأمور لا تؤتي ثمارها إلا في ما يلائمها، وبالإدلاج –وهو المسير مبكراً– يبلغ المرء مراده، وإلا فإن نفسه قد تنقطع ولا يبلغ، والبدايات لا يقوى عليها إلا من له رشد لا يتيه عند الفجاءات، فالصدمة تقذف في النفس الهلع والاضطراب، وأهل الرسوخ لهم إفاقة، وعندهم ثبات في العقل والنفس فلا تعميهم الفجاءات عما

---

[١٥٦] – توضيح الأحكام من بلوغ المرام (٧/ ٥٥٤)

[١٥٧] – الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ٢٠١)١٢٥٢ – ٥٢٨ –[ش أخرجه مسلم في الجنائز باب في الصبر عند الصدمة الأولى رقم ٩٢٦ (اتقي الله) بترك الجزع المحبط للأجر]

ففي هذا الحديث أمرٌ من النبي ﷺ – – بالكفِّ عن هذا الخطأ، وهو البكاء الشديد، أو النياحة، كما قال القرطبي: «الظاهر أنه كان في بكائها قدر زائد من نَوْحٍ أو غيره، ولهذا أمرها بالتقوى».

وفي هذا الحديث من الفوائد غير ما تقدم ما كان فيه ﷺ من التواضع، والرفق بالجاهل، ومسامحة المصاب، وقبول اعتذاره، وملازمة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وأن من أُمر بمعروف ينبغي له أن يقبل، ولو لم يعرف الآمر، وفيه أن الجزع من المنهيات لأمره لها بالتقوى مقروناً بالصبر» فتح الباري: ٣/ ١٧٨ ومنهاج الرسول ﷺ في تصحيح الأخطاء (ص: ١٤٤)

يجب عليهم حفظه وعمله، وهذا رسولنا الحبيب ﷺ لو تاه عقله يوم الحنين و لم يصمد ثبات الجبال الرواسي فعَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى الْبَرَاءِ، فَقَالَ: أَكُنْتُمْ وَلَّيْتُمْ يَوْمَ حُنَيْنٍ يَا أَبَا عُمَارَةَ؟ فَقَالَ: أَشْهَدُ عَلَى نَبِيِّ اللهِ ﷺ مَا وَلَّى، وَلَكِنَّهُ انْطَلَقَ أَخِفَّاءُ مِنَ النَّاسِ، وَحُسَّرٌ إِلَى هَذَا الْحَيِّ مِنْ هَوَازِنَ، وَهُمْ قَوْمٌ رُمَاةٌ، فَرَمَوْهُمْ بِرِشْقٍ مِنْ نَبْلٍ كَأَنَّهَا رِجْلٌ مِنْ جَرَادٍ، فَانْكَشَفُوا، فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَأَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ يَقُودُ بِهِ بَغْلَتَهُ، فَنَزَلَ وَدَعَا وَاسْتَنْصَرَ، وَهُوَ يَقُولُ: «أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ، اللهُمَّ نَزِّلْ نَصْرَكَ»،قَالَ الْبَرَاءُ: «كُنَّا وَاللهِ إِذَا احْمَرَّ الْبَاسُ نَتَّقِي بِهِ، وَإِنَّ الشُّجَاعَ مِنَّا لَلَّذِي يُحَاذِي بِهِ، يَعْنِي النَّبِيَّ ﷺ »[158]

وقد أرجع فضل الثابت في موطن الصدمة إلى نبوة صادقة وإلى نسب عريق فالنبوة رشد وهداية والنسب العريق يمنع فعل العار من الهروب، وهذا شأن الحق الكامل وذلك في اجتماع الفضل في إناء من الفضل يناسبه لما ردَّهم إلا البحر كما قال بعضهم، وسقوط الناس لا يكون إلا عند بداية الملمة فيتيه عقله ويضطرب نفسه ويحار عن وجه الصواب فتكون حينئذ للعدو عليه صولة الانتصار والعلو، ولذلك مدح الفاروق عمرو رضي الله عنه الروم بقوله إنهم: " إِنَّ فِيهِمْ لَخِصَالًا أَرْبَعًا: إِنَّهُمْ لَأَحْلَمُ النَّاسِ عِنْدَ فِتْنَةٍ، وَأَسْرَعُهُمْ إِفَاقَةً بَعْدَ مُصِيبَةٍ، وَأَوْشَكُهُمْ كَرَّةً بَعْدَ فَرَّةٍ وَخَيْرُهُمْ لِمِسْكِينٍ وَيَتِيمٍ وَضَعِيفٍ، وَخَامِسَةٌ حَسَنَةٌ جَمِيلَةٌ: وَأَمْنَعُهُمْ مِنْ ظُلْمِ الْمُلُوكِ"[159]

ومن كان هذا شأنه مع تحضير واستعداد لم تهزه المصائب و لم تعمه الفجاءات، وأما الأمة التي لا تصحو إلا بعد أن طارت الطيور بأرزاقها وبلغ غيرها بعيداً في الشوط فإن اللحاق عسير إن حصل وذلك بتقطع شسع النعال ولهث الأنفاس ودفع ضريبة الكسل والعجز، وقد دلت الحياة أن العدو إنما يرمي بكل قوته بالصدمة الأولى ليحقق الانتصار السريع واستغلال عامل الفجأة فإذا وجد من يصبر له ويتلقى الصدمة الأولى بثبات انتكس وخاب، وهذه قريش أرادت تلك الضربة القاضية على المدينة ومن فيها من المسلمين بقيادة النبي ﷺ فلما ثبت لها الأصحاب بثبيت الله لهم ارتدوا خائبين فعَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ صُرَدٍ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ الْأَحْزَابِ: «نَغْزُوهُمْ، وَلاَ يَغْزُونَنَا»[160]، وذلك بأن قوة الانطلاق قد ضعفت في قريش وتحولت تلك القوة إلى جهة النبي ﷺ وأصحابه، وتلك سنة الله تعالى في التداول.

---

[158] – تهذيب صحيح مسلم- علي بن نايف الشحود (ص: ٦٤٨)(١٧٧٦)

[ش (كأنها رجل من جراد) يعني كأنها قطعة من جراد قال في النهاية الرجل بالكسر الجراد الكثير (فانكشفوا) أي انهزموا وفارقوا مواضعهم وكشفوها (إذا احمر البأس) احمرار البأس كناية عن شدة الحرب واستعير ذلك لحمرة الدماء الحاصلة فيها في العادة أو لاستعار الحرب واشتعالها كاحمرار الجمر]

[159] – صحيح مسلم (٤/ ٢٢٢٢) ٣٥ – (٢٨٩٨)

[160] – صحيح البخاري (٥/ ١١٠)(٤١٠٩) [ش (نغزوهم ولا يغزوننا) أي نحن الذين نقوم بغزو قريش بعد هذا اليوم وهي لا تقوم بغزونا. وهذا ما وقع إذ سار إليهم رسول الله ﷺ وفتح مكة]

لقد نامت أمتنا كثيراً، نامت حتى انهارت قيمتها، ونامت حتى سبقها الغير في الإعداد والعتاد، فلما أصبحت وإذا طوارق الشرق حطت في بيوتها، وبعد سنين من الغزو وثبات الكفر في الديار صار البعض يتحدث عن " صحوة إسلامية "، وآخرون يتحدثون عن " الوعي "، وكل ذلك دليل على أن الخدر ما زال سارياً في البدن والنعاس في العيون، ومن تحرك فإنما يتحرك بارتعاش الألم، والصارخ فيهم متّهم بـ "إقلاق الأمن" و"فتان الوحدة"، وفي الأمة من المصائب ما لو حلت في الدواب لانتصرت ولكن هيهات، فما لجرح بميت إيلام.

حتى نعادل الغير فلا ينفع الآن أن نمشي مشيهم بل لابد من أن نسارع ونجد ونتعب، ونديم الصراخ المنذر المهتدي، ونعمل بلا كلل دون التفات لأهل النوم الذين حسنوا كل فساد، وأسبغوا الشرعية على كل ضلالة، فالتكاليف عظيمة ولا يقوى لها إلا العظماء.

الصبر هو النصر والظفر، ولا يتحقق إلا بالاستشراف، وذلك بقراءة الدلائل الأولى والتعامل معها قبل أن تينع، ولذلك قال الله تعالى لنبيه معلماً وهادياً: {وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ} [الأنفال: ٥٨]

وهذا الصديق الأكبر أبو بكر رضي الله عنه يعالج الردة في منبتها، والفاروق يطلب من الإمهال، والصديق يأبى، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: لَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّه - ﷺ - وَاسْتُخْلِفَ أَبُو بَكْرٍ بَعْدَهُ، وَكَفَرَ مَنْ كَفَرَ مِنَ العَرَبِ، قَالَ عُمَرُ لِأَبِي بَكْرٍ: كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ؟ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّه - ﷺ -:" أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَمَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ، إِلَّا بِحَقِّهِ وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ "،فَقَالَ: وَاللَّهِ لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ، فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ المَالِ، وَاللَّهِ لَوْ مَنَعُونِي عِقَالًا كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِهِ، فَقَالَ عُمَرُ: «فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُ اللَّهَ قَدْ شَرَحَ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الحَقُّ»[١٦١] لأنه يرى أن ما وراء العقل -وهو حبل رقه يُقاد به الجمل- يرى أن وراء هذا الشر ما هو أكبر منه، فقطع الشر قبل استفحاله هو عين السياسة والحكمة، فإنه إن ترك قوي واشتد أمره وصار عصياً عن الإزالة، وهذا ما شكى منه علي بن أبي طالب رضي الله عنه لما طالبه من طالبه أن يقتص من قتلة عثمان بن عفان رضي الله عنه وقد صاروا كثيراً ولهم المنعة والقوة، فإن معالجتهم بالقوة حينئذ مفسدة كما كان معالجة المنافقين في أول الإسلام في المدينة مفسدة، فعَنْ عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ، أَنَّ عَبْدَ اللَّه بْنَ عَبْدِ اللَّه بْنِ أُبَيٍّ أَتَى رَسُولَ اللَّه ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّه، إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّكَ تُرِيدُ قَتْلَ عَبْدِ اللَّه بْنِ أُبَيٍّ فِيمَا بَلَغَكَ عَنْهُ، فَإِنْ كُنْتَ فَاعِلًا، فَمُرْنِي بِه فَأَنَا أَحْمِلُ إِلَيْكَ رَأْسَهُ، فَوَاللَّه لَقَدْ عَلِمَتِ الْخَزْرَجُ مَا كَانَ فِيهَا رَجُلٌ أَبَرَّ بِوَالِدِه مِنِّي، وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ تَأْمُرَ بِه غَيْرِي فَيَقْتُلَهُ، فَلَا تَدَعُنِي نَفْسِي أَنْ أَنْظُرَ إِلَى قَاتِلِ عَبْدِ اللَّه بْنِ أُبَيٍّ يَمْشِي فِي

[١٦١] - صحيح البخاري (٩/ ٩٣) (٧٢٨٤) وصحيح مسلم (١/ ٥١) ٣٢ - (٢٠)

النَّاسِ فَأَقْتُلَهُ، فَأُقْتَلَ مُؤْمِنًا بِكَافِرٍ، فَأَدْخُلَ النَّارَ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: «بَلْ نَرْفُقُ بِهِ وَنُحْسِنُ صُحْبَتَهُ مَا بَقِيَ مَعَنَا» وَجَعَلَ بَعْدَ ذَلِكَ الْيَوْمِ إِذَا أَحْدَثَ الْحَدَثَ كَانَ قَوْمُهُ هُمُ الَّذِينَ يُعَاتِبُونَهُ، وَيَأْخُذُونَهُ وَيُعَنِّفُونَهُ وَيَتَوَعَّدُونَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّاب حِينَ بَلَغَهُ ذَلِكَ عَنْهُمْ مِنْ شَأْنِهِمْ «كَيْفَ تَرَى يَا عُمَرُ؛ أَمَا وَاللَّه لَوْ قَتَلْتُهُ يَوْمَ أَمَرْتَنِي بِقَتْلِه لَأَرْعَدَتْ لَهُ آنَفٌ، لَوْ أَمَرْتُهَا الْيَوْمَ بِقَتْلِهِ لَقَتَلَتْهُ» ؛ قَالَ: فَقَالَ عُمَرُ: قَدْ وَاللَّه عَلِمْتُ لَأَمْرُ رَسُولِ اللَّه ﷺ أَعْظَمُ بَرَكَةً مِنْ أَمْرِي "[١٦٢].

إن الذين يدعون مهلاً إلى إيقاف الجهاد حتى تتربى الأمة -زعموا- هم في حقيقة الأمر ودون أن يعوا إنما يتركون للباطل أن يُقّوي نفسه ويرمي بجرانه في القلوب والنفوس أكثر وأكثر، ولو علم هؤلاء القوم أن ما يقولونه هو عين ما يحبه الأعداء لما قالوا هذه المقالة الشنيعة، فها هي دولة يهود اليوم حين نركن تحت دعوى الإعداد والتربية قد صارت إلى أمر لا يعلمه إلا الله من القوة، وإزالتها يكلف الكثير من الثمن والقوة والدماء والرجال، ولكن في بدايتها كم كانت تحتاج حتى ينتهي أمرها ولا يكون لها الوجود؟؟ ولو قال أهل أفغانستان عندما غزاهم الروس هذه المقالة وتركوا الباطل يتجذر فهل سيكون أمرها أبعد من حال الشيشان؟! واليوم أمريكا في العراق، ومن قرأ بعين الدين والتقوى لا بعين الهوى والدنيا علم صدق المقال على الحال والله الهادي، ومن يضلل فما له من هاد.

ما يرشد إليه الحديث :

في هذا الحديث: أَن ثواب الصبر إِنَّما يحصل عند مفاجأة المصيبة، بخلاف ما بعدها، فإن صاحبها يسلو كما تسلو البهائم.[١٦٣]

ودل الحديث على مشروعية زيارة القبور للرجال والنساء معاً، قال النووي: وبالجواز قطع الجمهور، وأما ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي - ﷺ - " لعن زوّارات القبور " فقد كان قبل الترخيص لهن كما قال أهل العلم .

وفيه الترغيب في الصبر عند أول وقوع المصيبة، لما يترتب على ذلك من عظيم المثوبة والأجر عند الله تعالى، حيث يؤجر على ذلك بغير حساب. كما قال تعالى: (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) فالصبر عند أوّل نزول البلاء هو الذي يثاب عليه بغير حساب كما قال - ﷺ -: " إنما الصبر عند الصدمة الأولى ".[١٦٤]

وفي هذا الحديث ما كان فيه عليه الصلاة والسلام من التواضع والرفق بالجاهل، ومسامحة المصاب وقبول اعتذاره، وملازمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وفيه أن القاضي لا ينبغي له أن يتخذ من يحجبه عن حوائج الناس، وأن من أمر بمعروف ينبغي له أن يقبل ولو لم يعرف الأمر وفيه أن الجزع

---

[١٦٢] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٢٢/ ٦٦٩) صحيح مرسل

[١٦٣] - تطريز رياض الصالحين (ص: ٤٢)

[١٦٤] - منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٢/ ٣٧٨)

من المنهات، لأمره لها بالتقوى مقرونًا بالصبر. وفيه الترغيب في احتمال الأذى عند بذل النصيحة، ونشر الموعظة، وأن المواجهة بالخطاب، إذا لم تصادف المنوي، لا أثر لها.[١٦٥]

واستدل به هنا على جواز زيارة القبور، سواء كان الزائر رجلًا أو امرأة كما مرَّ، وسواء كان المزور مسلمًا أو كافرًا، لعدم الاستفصال في ذلك.

قال النوويّ: وبالجواز قطع الجمهور، وقال صاحب الحاوي، أي الماوَرْدِيّ: لا تجوز زيارة قبر الكافر، وهو غلط، وحجة الماوردي قوله تعالى: {وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ} قال في "الفتح": وفي الاستدلال بذلك نظرٌ لا يخفى. قلت: الظاهر ما قاله الماوَرْدِيّ من عدم جواز زيارة قبر الكافر، لما في زيارته من توهين عقيدة عوامّ المسلمين، وتعظيم محالّ الكفار، وتقويتهم على ضلالهم، ولأن محل قبر الكافر حفرة من حفر النار، كما في الحديث الصحيح، فكيف يؤمر بزيارة حُفر النار؟. وقد أمر عليه الصلاة والسلام بعدم دخول محالّ العذاب، وقبر الكافر من محالّ العذاب كتابًا وسنة واجماعًا. فما قاله الماورديّ متعين، واستدلاله واضح في محله.

وقال ابن حبيب: لا بأس بزيارة القبور والجلوس إليها والسلام عليها عند المرور بها، وقد فعل ذلك رسول الله -ﷺ-، وسئل مالك عن زيارة القبور فقال: "كان نهى عنه، ثم أذن فيه، فلو فعل ذلك إنسان، و لم يقل إلا خيرًا" لم أر بذلك بأسًا.

وفي "التوضيح" أجمعت الأمة على زيارة قبر نبينا -ﷺ-، وأبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما، عَنْ نَافِعٍ أَنَّ ابْنَ عُمَرَ كَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ دَخَلَ الْمَسْجِدَ ، ثُمَّ أَتَى الْقَبْرَ ، فَقَالَ: " السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ ، السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أَبَا بَكْرٍ ، السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أَبَتَاهُ "[١٦٦]. ومعنى النهي عن زيارة القبور إنما كان في أول الإسلام .[١٦٧]

الحديث السادس عشر: إنّ حقاً على الله أن لا يرفع شيئاً من الدّنيا إلاّ وضعه

عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: كَانَتْ نَاقَةٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ تُسَمَّى: العَضْبَاءَ، وَكَانَتْ لاَ تُسْبَقُ، فَجَاءَ أَعْرَابِيٌّ عَلَى قَعُودٍ لَهُ فَسَبَقَهَا، فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى المُسْلِمِينَ، وَقَالُوا: سُبِقَتِ العَضْبَاءُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ لاَ يَرْفَعَ شَيْئًا مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا وَضَعَهُ»[١٦٨].

إن الكمالات في الخلق مؤذنة بالنّهايات، فحين تأخذ الأرض زخرفها ويبلغ في الناس الوهم أنهم أسيادها المتحكمون فيها تكون نهايتها {إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ

---

[١٦٥] – كوثر المعاني الدراري في كشف خبايا صحيح البخاري (١١/ ٣١٤)

[١٦٦] – السنن الكبرى للبيهقي (٥/ ٤٠٢)(١٠٢٧١) صحيح

[١٦٧] – كوثر المعاني الدراري في كشف خبايا صحيح البخاري (١١/ ٣٨٢)

[١٦٨] – صحيح البخاري (٨/ ١٠٥)(٦٥٠١)

نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [يونس: ٢٤] وها هو رسول الله ﷺ قد كمل له النصر وتم له الفتح فقال الله له: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا(٣) } [النصر: ١ - ٣] فكان في ذلك نعيه ﷺ، وهكذا ليس بعد القمم إلا الأفول، وهذه السنة خير ورحمة لأهل الدين، فإن كان بهم البلاء واشتد عليهم فلا يكون بعده إلا الفرج، فإن الكريم يعقوب عليه السلام لما اشتد به الشوق إلى حبيبه يوسف وبكاه طويلاً شاكياً بثه وحزنه إلى الله تعالى، فلما بلغ الأمر كماله فابيضت عينه الطاهرة من البكاء الحزين كان بعد ذلك الفرج، وقال: {إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [يوسف: ٩٦] {إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ } [يوسف: ٨٧]، وهؤلاء الثلاثة الذين خلّف الله توبتهم فلما ضاقت عليهم الدنيا وضاقت عليهم أنفسهم جاءتهم التوبة، وإن كان بهم نعيم مع الإيمان فإن الإيمان يمنعهم من العلو الذي يتم عنه القصم، كما دخل الحبيب المصطفى مكة على ناقته مطأطئ الرأس، إذ المناجل تصيب العوالي، كما السيل حرب للمكان العالي، فلا علو مع الإيمان، لأن البذاذة من الإيمان، وأما لأعداء الله فتلك سنة قاصمة، خاصة حين تجتمع هذه السنة مع أمرين هما من سنة الله تعالى مع أعدائه، سنة المكر وسنة البغتة، فلحوادث الزمان مكر في إلهاء الغافلين عن العواقب، إذ لا تفكر عندهم ولا اعتبار، والعجب أن كل الكفار على مدار التاريخ زعموا أنهم خارج هذه السنة، وأن لهم خصوصية الاستثناء من العواقب، لكن هيهات، وهاهم اليوم قالوا: "بنهاية التاريخ" بتحريض الغرور وإغواء الاستعلاء، ومكر الله بهم محيط، وبالبغتة حتى يتم الألم، فإن الانتقال من حال إلى حال بلا تدرج مؤلم على النفس إن كان من نعيم كامل إلى جحيم وعذاب، فاللهم رحمتك.

إن هذه السنة هي مقتضى صفة ربنا -المتكبر-، فإن الله تعالى يأبى أن ينازع فيها، وهي قرينة العزة، فالرب يذيق العباد البلاء من التجوع والخوف ليعلموا أنه العزيز المتكبر.

وللمؤمن مع هذه السنة التي لو علمها الخلق على حقيقتها -لضحكوا قليلاً ولبكوا كثيراً- حال وعمل، ذلك بأن المؤمن العامل لدين الله تعالى لا يغره بهرج الكفار ولا علوهم ولا استطالتهم ولا غلبتهم، وحين يتساقط الضعفاء كالفراش في نار فتنتهم ودنياهم، ويسيرون في ركابهم ظانين أن الأمر قد انتهى، وأن الأمة زالت ولم يعد فيها قوة المجابهة والاعتراض يقوم الواثق بربه والعالم بسنته في التداول إلى الصدام والمدافعة لعلمه أن علوهم إلى زوال، وأن لكل شيء إذا ما تمّ نقصان، سنة تجري في الأمم والأشخاص والجماعات، فإن اجتمع مع هذه السنة قوله تعالى: {وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ

مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا} [الإسراء: ٥٨][١٦٩] ازدادت بصيرته أن مكر الله تعالى يعمل عمله.

ومما يرعاه المؤمن مع هذه السنة أن لا يأمن العثار مهما بلغ علمه وحكمته وقوته إذ العثار متحقق ولا شك فلا رهان على شخص لا يكبو وعلم لا يخطئ وحكمة لا تطيش لأن كل ذلك كائن ولا شك.

وإن من حال المؤمن مع هذه السنة أن لا يحسد الكافرين على غناهم وعلوهم، فإن هذا فعل الجهلة الأغبياء كما كان حال البعض مع قارون، {فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ } [القصص: ٧٩] والعجب أن هؤلاء لم يطلبوا معصيته ولكن طلبوا أن يكون لهم (مثل ما أوتي) لكن قاعدة أمنية الباطل إذ قالوا: (إنّه لذوا حظّ عظيم) فرد عليهم أهل البصيرة: {وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ} [القصص: ٨٠] ووقع المكر {فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ} [القصص: ٨١]، وها هو عمر بن الخطاب يبكي حين تأتيه كنوز الأرض لما يعلم ما وراء ذلك من الحوادث.

إنها البصيرة لما عليه يد الله تعالى في الخفاء من السنة والتدبير، بصيرة تضحك سعيد بن جبير في موطن الألم حين يقول للحجاج -لعنه الله-: إني لأعجب من جرأتك على الله وصبر الله عليك[١٧٠]. وبصيرة تبكي في موطن الفرح كما أبكت عمر الفاروق رضي الله عنه حين هطول الغنائم. إنها بصيرة النفاذ إلى العواقب، تلك البصيرة التي تحقق الرسوخ على المبادئ والخوف من العواقب {أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ} [الأعراف: ٩٩][١٧١].

وهذا الحديث الذي بين يدينا أن ناقة النبي ﷺ لم تكن تسبق، فجاء أعرابي على بعير له فسبقها فشق ذلك على الصحابة أن تُسْبق ناقة النبي ﷺ فحين ذلك قال النبي ﷺ هذه السنَة الربانية النافذة في الخلق قدراً لا انفكاك لهم عنه، وهذا دليل على أن هذه السنة ليست في البشر أفراداً وتجمعات فقط بل هي في الخلق عموماً، فما من قوة إلا وستخضع لما هو أقوى منها، وما من جميل إلا وسيتضاءل أمام جمال أرفع منه، وما من ثمين إلا وسيكون مقوماً لما هو أغلى منه، وهكذا تمضي هذه السنة في اتجاه التحذير بعدم الغرور بما أنت عليه فتطمئن أن لا نهاية لها، ولها اتجاه آخر أن القمم لا تتناهى فلا

---

[١٦٩] - وَمَا مِنْ قَرْيَةٍ مِنَ القُرَى التِي ظَلَمَ أَهْلُهَا أَنْفُسَهُمْ بِالكُفْرِ وَالمَعَاصِي، إِلاَّ وَيُهْلِكُهَا اللهُ، وَيُهْلِكُ أَهْلَها، وَيُبِيدَهُمْ بِالاسْتِئْصَالِ قَبْلَ يَوْمِ القِيَامَةِ، أَوْ يُعَذِّبُهُمْ بِابْتِلاَئِهِمْ بِأَصْنَافٍ مِنَ العَذَابِ، بِسَبَبِ ذُنُوبِهِمْ، وَخَطَايَاهُمْ، وَكَانَ ذَلِكَ مُثْبَتاً فِي عِلْمِ اللهِ، أَوْ فِي اللَّوْحِ المَحْفُوظِ.أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٢٠٨٨، بترقيم الشاملة آليا)

[١٧٠] - لا يصح هذا الخبر

[١٧١] - أَوَ أَمِنَ أَهْلُ القُرى الكَافِرَةِ مَكْرَ اللهِ بِهِمْ، وَبَأْسَهُ وَنَقْمَتَهُ وَاسْتِدْرَاجَهُ إِيَّاهُمْ وَقُدْرَتَهُ عَلَى أَخْذِهِمْ، وَتَدْمِيرِهِمْ فِي حَالِ مَنْ سَهْوِهِمْ وَغَفْلَتِهِمْ؟ وَلا يَأْمَنُ مَكَرَ اللهِ إِلاَّ القَوْمَ الضَّالُّونَ الذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ لِعَدَمِ إِدْرَاكِهِمْ مَا فِيهِ صَلاَحُهُمْ وَخَيْرُهُمْ.أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٠٥٤، بترقيم الشاملة آليا)

ثبات، بل لابدّ من البحث دائماً عن قمة أخرى حتى يصل المرء إلى اليقين وإلى جنة الرحمن، فليحذر المرء من اليأس والقنوط كما يحذر من الغرور وكلاهما تفحم لمرض واحد لكن باتجاهين مختلفين.

ما يرشد إليه الحديث :

إن الحث على التواضع والتحذير من الكبر من أهم موضوعات الدعوة ، فهو دعوة للأمة للتحلي بالتواضع ، والابتعاد عن الكبر ، فإن العادة غالبا جرت أن اللّه لا يرفع شيئا من أمر الدنيا إلا حطَّه ؛ ولهذا قال النبي ﷺ في هذا الحديث : « إن حقا على اللّه أن لا يرفع شيئا من الدنيا إلا وضعه » ، وقد دعا ﷺ أمته إلى ترك المباهاة والفخر بمتاع الدنيا ، فإذا كان ذلك كذلك كان حقا على كل عاقل أن يحث الناس على التواضع ويحذرهم من الكبر والفخر ، واللّه المستعان .

دل هذا الحديث على أن الزهد من الصفات العظيمة التي ينبغي للمسلم أن يتصف بها ؛ لأنه لا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه اللّه ، فإذا كان ذلك كذلك كان حقا على كل عاقل أن يزهد في الدنيا ومتاعها ؛ لأنها ناقصة غير كاملة ؛ ولهوانها على اللّه عز وجل ، وهذا فيه تنبيه على ترك المباهاة والمفاخرة ، وأن كل شيء هان على اللّه فهو محل الضعة ، فحق على كل ذي عقل أن يزهد فيه ، ويقل المنافسة في طلبه .

التواضع صفة عظيمة من صفات الدعاة إلى اللّه تعالى ؛ لأن التواضع : هو تذلل وتخاشع للّه تعالى ؛ وقد مدح اللّه تعالى الدعاة المتواضعين فقال : { وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا } (سورة الفرقان ، الآية : ٦٣ .) والمعنى أنهم يمشون في سكينة ووقار متواضعين غير أشرين ، ولا متكبرين ، ولا مرحين ، فهم دعاة علماء ، حلماء ؛ وأصحاب وقار وعفة ، والتواضع فيه مصلحة الدين والدنيا ؛ فإن الناس لو استعملوه في الدنيا لزالت بينهم الشحناء ؛ ولاستراحوا من تعب المباهاة والمفاخرة .

دل الحديث على أن حسن الخلق من أعظم الصفات التي ينبغي أن يتصف بها الداعية إلى اللّه عز وجل،ومعلوم عند العقلاء أن الخلق الحسن يحبب الداعية إلى الناس جميعا ، فكل من جالسه أو خالطه أحبه ؛ ولهذا يسهل على الداعية جذب قلوب الناس إلى دعوته ؛ لأن من لم يتخلّق بالخلق الحسن ينفر الناس من دعوته ، ولا يستفيدون من علمه وخبرته ؛ لأن من طبائع الناس أنهم لا يقبلون ممن يستطيل عليهم، أو يبدو منه احتقارهم واستصغارهم ولو كان ما يقوله حقّا ،والخلق الحسن للداعية يشمل : التواضع وغيره من الأخلاق الجميلة الحميدة ؛ كالحلم، والأناة، والجود والكرم، والعفو والصفح، والرفق واللين، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة التي يتأكد على كل داعية صادق أن يتصف بها.

إن المدعو ينبغي له أن يلتزم الأدب مع العلماء والدعاة، ولا يشق عليهم، والذي ظهر من هذا الحديث أن الأعرابي لم يراع الأدب في طلب مسابقة النبي ﷺ على قعوده، ولكن لتواضع النبي ﷺ وافقه على ذلك . فينبغي للمدعو أن يلتزم الأدب مع العلماء والدعاة وطلاب العلم .

دل الحديث على أن الترهيب أسلوب من أساليب الدعوة إلى اللّه تعالى ؛ لأن الترهيب يكون بما يخيف المدعو، ويحذره من عدم الاستجابة أو رفض الحق، أو عدم الثبات عليه بعد قبوله .

فقد دل هذا الحديث على الترهيب من الكبر وأن عاقبته وخيمة ؛ لأنه كان حقّا على الله أن يضع المتكبر ولو بعد حين

في هذا الحديث تواضع النبي ﷺ وموافقته أن يسابق الأعرابي، ثم عندما شق ذلك على أصحابه بيَّن لهم أن حقّا على اللّه أن لا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه، فكان عليه الصلاة والسلام بهذا الفعل وهذا القول قدوة بالقول والعمل للدعاة إلى الله تعالى، فإن من وسائل التبليغ المهمة وجذب الناس إلى الإسلام التبليغ بالسيرة الطيبة للداعية إلى اللّه تعالى، وأفعاله الحميدة، وصفاته العالية، وأخلاقه الكريمة، والتزامه بالإِسلام ظاهرا وباطنا مما يجعله قدوة طيبة ؛ لأن التأثير بالأفعال والسلوك أبلغ من التأثير بالكلام وحده، ويجمع ذلك كله : حسن الخلق، وموافقة العمل للقول.

ظهر في هذا الحديث محبة الصحابة لرسول الله ﷺ ؛ ولهذا شق عليهم ما حصل من سبق قعود الأعرابي لناقة النبي ﷺ ؛ قال أنس رضي الله عنه : " فشق ذلك على المسلمين " .

فينبغي للداعية أن يحب الله ورسوله حبا كاملا ؛ قال ﷺ : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإِيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار » (البخاري ومسلم) .[١٧٢]

الحديث السابع عشر: الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، الأجر والمغنم

عَنْ عَامِرٍ، حَدَّثَنَا عُرْوَةُ البَارِقِيُّ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:" الخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الخَيْرُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ: الأَجْرُ وَالمَغْنَمُ "[١٧٣].

للأمم شعارات ترشح من عمق أعمالها، ترسمها عقيدة نافذة وأعمال دائمة، وكما أنه للأشخاص سمات من الخُلُق، وألقاب وكنى فكذلك للأمم، شعارات ترسمها المشاريع الدائمة التي تستغرق الحياة، وهذه الأمة لها مشروع حياة يمتد معها عملاً إذا امتدت بها الأنفاس بقاءً، هذا المشروع هو "الجهاد"، مشروع يحقق لها الدوام والقوامة ويحقق لها الآخرة والشهادة على الخلق فيها.

لقد جعل الله في بعض ما خلق ميزات لها الخصوصية، كما جعل في الذهب والفضة خصوصية النقد والعيارية، فمهما غلت قيمة بعض المعادن وزاد ثمنها يبقى هذان النقدان لهما المعيارية دون غيرهما، وهذا الحديث يبين خصوصية هذا المخلوق الحبيب إلى نفوس هذه الأمة، إنه الخيل، لأنه عنوان الجهاد

---

[١٧٢] – فقه الدعوة في صحيح الإمام البخاري (٢/ ٥٤)

[١٧٣] – الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ٣٧٣)٢٨٥٢ – ١٠٥٤ –[ش أخرجه مسلم في الإمارة باب الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة رقم ١٨٧٣. (الأجر) الثواب في الآخرة. (المغنم) الغنيمة في الدنيا]

والغزو، وصار هذا المخلوق كذلك عنواناً لقيم إنسانية استحقت لقب "الفروسية "، هذه القيم تعبر عن قيم الفطرة السليمة من كرم وشجاعة وعلماؤنا إن تحدثوا كثيراً عن أثر الألبسة والأطعمة على نفوس أهلها فإن الأمر يحتاج كذلك إلى حديث عن أثر عشرة الإنسان لهذا المخلوق الحبيب، مع علمي أن بعضهم سيقابل هذا الكلام ببسمة إستهزاء واستهجان لكنها على كل حال خير من عشرة أبنائنا للكلاب والفئران وأمثالها مما يبدأ يغزو أمتنا تأثراً من سنن أتباع الشيطان.

هذا الحديث الجليل يبين مشروع الأمة الدائم، ذلك المشروع الذي يجمع لها خيري الدنيا والآخرة، أما خير الدنيا ففي المغنم، ذلك لأن المال قوام الحياة كما قال تعالى: {وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاء أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ قِيَاماً وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً} [النساء : ٥]

فسمى المال قواماً للإنسان، وأما خير الآخرة ففي الأجر الذي تتحصله الأمة في هذا العمل، ولعله من الأمور البارزة هنا أن النبي ﷺ لم يعلم قط أنه دعا إلى تملك شيء من أشياء الدنيا، فلم يرغب باقتناء الذهب ولا الفضة ولا الدور ولا الضياع ولكنه هنا حض على اقتناء هذا الخير من دنيا الناس وجاء في الحديث الحض على حبس هذا الملك والاعتناء فيه فعن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قالَ: قَالَ النَّبِيُّ – ﷺ –: " مَنِ احْتَبَسَ فَرَسًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِيمَانًا بِاللَّهِ وَتَصْدِيقًا بِوَعْدِهِ، فَإِنَّ شِبَعَهُ وَرِيَّهُ وَرَوْثَهُ وَبَوْلَهُ فِي مِيزَانِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ "[١٧٤]

ولذلك لأثر هذا المخلوق على حياة صاحبه وحياة الأمة التي ترعاه وتعتني به، ولست متبعداً إلى ما يحمل الحديث من معاني تتعدى إلى ما عرفه الناس من صناعات تقوم من مقام الخيل، أن من دلالات الحديث على أن الجهاد ماض فيجب إعداد عتاده ولوازمه قبل أن أنبه إلى "الخيل"هي عينها فيها فوائد عظيمة للأمة التي تعتني بها وترعاها، ولقد رأى الناس ممن خبروا الدول التي تقدمت في الصناعات وخاصة العسكرية أن عنايتهم بالخيل ما زالت قائمة، و لم يزيلوها كما تفعل الأمم الجاهلة، هذا مع علمي أن مثل هذه الأمور لا تقوم إلا بعناية الأمة بمجموعها بهذا الأمر، فإن لم يكن كذلك لم يقو على هذا الحديث إلا أصحاب اليسار لما تحتاجه الخيول من رعاية مكلفة لا يطيقها أكثر الناس.

ما يرشد إليه الحديث :

دلت هذه الأحاديث الثلاثة على الحض على الإعداد للجهاد في سبيل اللّه تعالى ؛ لإعلاء كلمة اللّه عز وجل ؛ لأن في قوله ﷺ : « " الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة » وفي قوله ﷺ : « " البركة في نواصي الخيل » حث على الإعداد للجهاد ؛ قال الإمام ابن عبد البر رحمه الله : في هذا الحديث الحض على اكتساب الخيل ، وفيه تفضيلها على سائر الدواب ، لأنّه ﷺ لم يأت عنه في

---

[١٧٤] – صحيح البخاري (٤/ ٢٨) (٢٨٥٣) [ش (احتبس) هيأ وأعد. (في سبيل الله) بنية الجهاد. (إيمانا بالله) امتثالا لأمره. (تصديقا بوعده) الذي وعد به من الثواب على ذلك. (ريه) ما يرويه من الماء. (روثه) فضلاته. (في ميزانه) أي يوضع ثواب هذه الأشياء في كفة حسناته]

غيرها مثل هذا القول ، وذلك تعظيم منه ؛ لشأنها ، وحض على اكتسابها ، ونَـدْب لارتباطهـا في سبيل اللّه ، عدَّة للقاء العدوِّ ، إذ هي من أقوى الآلات في الجهاد ، فالخيل المعدة للجهاد هي الـتي في نواصيها الخير ، وما كان معدّا منها للفتن وسلب المسلمين فتلك كما قال ابن عمر " خيل الشيطان " وهذا يوضح العناية بالإعداد للجهاد في سبيل اللّه عز وجل بكل ما يستطيعه المسلمون مـن قـوة، وذلك باتخاذ الأسباب وآلات الحرب لإرهاب أعداء اللّه ، ولكل زمان ما يناسبه : مـن خيـل ، أو مدافع ، أو مدرعات ، أو مصفحات ، أو طائرات جوية ، أو سفن بحرية ؛ لقوله عـز وجـل : { وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ } (سورة الأنفال ، الآية : ٦٠)

قال القاضي عياض رحمه الله : " في هذا الحديث مع وجيز لفظه من البلاغة والعذوبة ما لا مزيـد عليه في الحسن مع الجناس السهل الذي بين الخيل والخير "

وهذا يبين للداعية أهمية الفصاحة والبلاغة وحسن الكلام ، وبيان الحق للناس . والبيان نوعان : الأول ما يبيَّن به المراد ، والثاني تحسين اللفظ حتى يستميل به قلوب السامعين ، وهذا النوع الذي يشبَّه بـه السحر ، والمذموم منه ما يقْصد به الباطل ، أما مَا يبيَّن به الحق للناس بعذوبـة الكـلام وفصـاحته وبلاغته واقتصاده فهو المطلوب في الدعوة إلى اللّه عز وجل .

دلت هذه الأحاديث – كغيرها – على أن الإسلام باقٍ إلى يوم القيامة ؛ لبيانه ﷺ أن الخير معقود في نواصي الخيل إلى يوم القيامة قال الإمام ابن عبد البر رحمه الله : " وقد استدل جماعة من العلماء بـأن الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة تحت راية كلِّ برٍّ وفاجر من الأئمة بهذا الحديث ، وذلك أن رسول اللّـه ﷺ قال فيه : « إلى يوم القيامة » والمجاهدون تحت راياتهم يغزون " وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله : " وفيه بشرى ببقاء الإسلام وأهله إلى يوم القيامة ؛ لأن من لازم بقاء الجهاد بقاء المجاهدين وهـم المسلمون "

دلت هذه الأحاديث الثلاثة على الترغيب في الإعداد للجهاد ، واستحباب رباط الخيل واقتنائها للغزو ، وقتال أعداء اللّه ، وأن فضلها وخيرها باق إلى يوم القيامة .

وهذا يبين أهمية الترغيب في الإعداد للجهاد في سبيل اللّه عز وجل ، وأن المراد بالخيل المرغب فيها : ما يتخذ للغزو في سبيل اللّه سبحانه وتعالى ويقاتل عليها ، أو يرتبط من أجل ذلك، وهذا الترغيب في الخيل فكيف بمن أعد العدة للجهاد بأعظم وأقوى من الخيل ابتغاء وجه اللّه عز وجل كالطـائرات ، والدبابات ، والسفن وغيرها مما يستطيعه المسلمون ؟[١٧٥]

الحديث الثامن عشر: أنفقي ولا تحصي فيحصي الله عليك

---

[١٧٥] – فقه الدعوة في صحيح الإمام البخاري (١/ ٤٧٨)

عَنْ أَسْمَاءَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَنْفِقِي، وَلاَ تُحْصِي، فَيُحْصِيَ اللَّهُ عَلَيْكِ، وَلاَ تُوعِي، فَيُوعِيَ اللَّهُ عَلَيْكِ»[١٧٦].

حركة الغيب مع عالم الشهادة ظلّ له، تسير حيث سار وتقف حيث تقف، وعالم الشهادة مستور بستار السنن الكونية، يقف عندها بعض الخلق دون بصيرة النظر إلى أثر حركاتهم على هذا الكون، ومن أجل خرق هذا الستار نظراً وبصيرة أمرنا رسول الله ﷺ أن ننظر دائماً إلى (فمن أعدي الأول؟!) فحين قال لهم: (لا عدوى) سألوا مستبصرين كما يروه من سنن جارية هي خلق الله فيهم فقالوا: فما بال الإبل تكون في الرمل كأنها الظباء فيخلطها البعير الأجرب فيجربها، فقال رسول الله ﷺ: (فمن أعدى الأول؟!)، ذلك لأن الواقف على السنن دون النظر إلى يد الله تعالى وسنته في إجراء الأقدار وتعلق ذلك بما يحبه لله تعالى من أفعال الخلق وما يبغضه إنما هو قارئ للكتاب من منتصفه أو بادئ بالعد من غير الأول، والمؤمن هو الذي يعلم أن الله هو الأول سبحانه وتعالى فكل شيء منه جلّ في علاه والذين يقفهون على سنن الحوادث الظاهرة دون النظر إلى يد الله وعالم الغيب هؤلاء لا يعلمون إلا { يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ} [الروم: ٧] ، وقد قال سبحانه وتعالى بعد هذه الآية ما ينبه إلى يد الله وحكمته في خلقه فقال: {أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (٨) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩)} [الروم: ٨، ٩]

فهي يد الله سبحانه وهو الآخر، وكل شيء له تعلق بما يحبه ويبغضه وستبقى سنن التقلب والنهايات قائمة. وحديث العدوى ليس إنكاراً لسنة سريان المرض في الخلق بفعل المخالطة فهذا القول وإن قال به بعض السابقين إلا أنه لو قال به واحد اليوم لقيل له: هل تقبل أن تتزوج امرأة مريضة بالسيدا (مرض الإيدز: نقص المناعة)؟ أو هل تقبل أن تزوج عرضك لواحد مصاب به، حينها ستعرف جواب قلبه وعقله لا مناكفة لسانه.

والقصد أن يعلم الخلق أن المرء يستطيع أن يعلم حركة الغيب لما يجري على الأرض من أعمال وأخلاق، فإن كان في الأرض هداية فإن حركة الغيب هي إمداد هذه الهداية كما قال تعالى:

---

[١٧٦] – صحيح البخاري (٣/ ١٥٨)(٢٥٩١) وتهذيب صحيح مسلم- علي بن نايف الشحود (ص: ٣٣٦)(١٠٢٩)

[ش (ولا توعي فيوعي الله عليك) الإيعاء جعل الشيء في الوعاء وأصله الحفظ والمراد به هنا منع الفضل عمن افتقر إليه ومعنى فيحصي الله عليك ويوعي عليك أي يمنعك فضله ويقتر عليك كما منعت وقترت وهي من مجاز المقابلة وتجنيس الكلام كقوله تعالى ومكروا ومكر الله وقيل معني لا تحصي أي لا تعديه فتستكثريه فيكون سببا لانقطاع إنفاقك قال الأمام النووي معناه الحث على النفقة في الطاعة والنهي عن الإمساك والبخل وعن ادخار المال في الوعاء]

{وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ} [محمد: ١٧] والله قال: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (١٩) كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠) انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا (٢١)} [الإسراء: ١٨ - ٢١][١٧٧].

وفي الغيب حركة يرصدها أهل الإيمان وهي محط نظرهم، وأعظمها ما يقع في نفس الرحمن من فرح وحب ورضا أو غضب وسخط وبغض، وإذا أردت أن تعرف نفس الله تجاهك فانظر إلى ما في نفسك وقلبك عن الله، هل تحبه؟ هل أصبحت تطلب رضاه؟ هل أنت راض عنه؟ هل ظنك فيه حسن؟ هل تراعي أمره وتنفي معصيته؟ فالله يحب من يحبه ويرضى عمن رضي عنه، وهو عند حسن ظن عبده به وهكذا هي هذه القضية العظيمة، فالعطاء يقابل بمثله وكذلك المنع، والإحصاء يقابل بمثله وكذلك البسط، وما من فعل في هذه الدنيا إلا ويقابله حركة في عالم الغيب تكون آثارها في الدنيا والآخرة، وفي قوله تعالى عن بيعة الصحابة رضي الله عنهم للنبي ﷺ: {إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ } [الفتح: ١٠]، وعن الصدقة أنها تقع في يد الله تعالى قبل يد

---

[١٧٧] - من أراد أن يعيش لهذه الدنيا وحدها، فلا يتطلع إلى أعلى من الأرض التي يعيش فيها، فإن الله يعجل له حظه في الدنيا حين يشاء، ثم تنتظره في الآخرة جهنم عن استحقاق. فالذين لا يتطلعون إلى أبعد من هذه الأرض يتلطخون بوحلها ودنسها ورجسها، ويستمتعون فيها كالأنعام، ويستسلمون فيها للشهوات والنزعات. ويرتكبون في سبيل تحصيل اللذة الأرضية ما يؤدي بهم إلى جهنم: «مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعاجِلَةَ عَجَّلْنا لَهُ فِيها ما نَشاءُ لِمَنْ نُرِيدُ، ثُمَّ جَعَلْنا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاها مَذْمُوماً مَدْحُوراً». مذموما بما ارتكب، مدحورا بما انتهى إليه من عذاب.

«وَمَنْ أَرادَ الْآخِرَةَ وَسَعى لَها سَعْيَها وَهُوَ مُؤْمِنٌ، فَأُولئِكَ كانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً». والذي يريد الآخرة لا بد أن يسعى لها سعيها، فيؤدي تكاليفها، وينهض بتبعاتها، ويقيم سعيه لها على الإيمان. وليس الإيمان بالتمني، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل. والسعي للآخرة لا يحرم المرء من لذائذ الدنيا الطيبة، إنما يمد بالبصر إلى آفاق أعلى فلا يكون المتاع في الأرض هو الهدف والغاية. ولا ضير بعد ذلك من المتاع حين يملك الإنسان نفسه، فلا يكون عبدا لهذا المتاع. وإذا كان الذي يريد العاجلة ينتهي إلى جهنم مذموما مدحورا، فالذي يريد الآخرة ويسعى لها سعيها ينتهي إليها مشكورا يتلقى التكريم في الملأ الأعلى جزاء السعي الكريم لهدف كريم، وجزاء التطلع إلى الأفق البعيد الوضيء.

إن الحياة للأرض حياة تليق بالديدان والزواحف والحشرات والهوام والوحوش والأنعام. فأما الحياة للآخرة فهي الحياة اللائقة بالإنسان الكريم على الله، الذي خلقه فسواه، وأودع روحه ذلك السر الذي يترع به إلى السماء وإن استقرت على الأرض قدماه. على أن هؤلاء وهؤلاء إنما ينالون من عطاء الله. سواء منهم من يطلب الدنيا فيعطاها ومن يطلب الآخرة فيلقاها. وعطاء الله لا يحظره أحد ولا يمنعه، فهو مطلق تتوجه به المشيئة حيث تشاء: «كُلًّا نُمِدُّ هؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ. وَما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً».

والتفاوت في الأرض ملحوظ بين الناس بحسب وسائلهم وأسبابهم واتجاهاتهم وأعمالهم، وبحال الأرض ضيق ورقعة الأرض محدودة. فكيف بهم في المجال الواسع وفي المدى المتطاول. كيف بهم في الآخرة التي لا تزن فيها الدنيا كلها جناح بعوضة؟

«انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا». فمن شاء التفاوت الحق، ومن شاء التفاضل الضخم، فهو هناك في الآخرة. هنالك في الرقعة الفسيحة، والآماد المتطاولة التي لا يعلم حدودها إلا الله. وفي ذلك فليتنافس المتنافسون لا في متاع الدنيا القليل الهزيل ...في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص: ٢٨٩٥)

الفقير[178]، وعن نهيق الحمار أنه رأى شيطاناً وعن صياح الديكة أنها رأت ملكاً[179]، وهكذا يموج عالم الغيب بحركة الملائكة – {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ} [غافر : ٧] – ويحضرون حلقات الذكر[180]، و({إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ} [الأنفال: ١٢]) والله ينادي (إنّي أحبّ فلانا فأحبّوه)[181] وتموج الأرض بهذه الحركة نمواً (فينفخ فيه الملك) وإيجاداً لشيء لم يكن وبركة لموجود ضعيف ومَحْقاً لمغرور متكبر، فتهتز الأرض زلازل وبراكين عذاباً وابتلاءً، وها هو رسولنا ﷺ يستأذنه ملك الجبال أن يطبق على أهل مكة جبليها (الأخشبين)[182] ويقف هذا الغيب منتظراً إشارة من رسول الله ﷺ، فلو قال "نعم" لتحركت

---

[178] – عَنْ عَائِشَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ : «إِنَّ الصَّدَقَةَ تَقَعُ فِي يَدِ اللَّهِ قَبْلَ أَنْ تَقَعَ فِي يَدِ الْمُصَدَّقِ عَلَيْهِ»الإبانة الكبرى لابن بطة (٧/ ٢٩٤)(٢٢٣)والمعجم الكبير للطبراني (٩/ ١٠٩)(٨٥٧١) صحيح لغيره

[179] – عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ، قَالَ: «إِذَا سَمِعْتُمْ صِيَاحَ الدِّيَكَةِ فَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ، فَإِنَّهَا رَأَتْ مَلَكًا، وَإِذَا سَمِعْتُمْ نَهِيقَ الحِمَارِ فَتَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَإِنَّهُ رَأَى شَيْطَانًا» الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ٤١٨)٣٣٠٣ – ١١٧١ –[ش أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة باب استحباب الدعاء عند صياح الديك رقم ٢٧٢٩. (نهيق الحمار) صوته المنكر]

[180] – عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :" إِنَّ لِلَّهِ مَلاَئِكَةً يَطُوفُونَ فِي الطُّرُقِ يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَنَادَوْا: هَلُمُّوا إِلَى حَاجَتِكُمْ " قَالَ: «فَيَحُفُّونَهُمْ بِأَجْنِحَتِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا» قَالَ:" فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ، وَهُوَ أَعْلَمُ مِنْهُمْ، مَا يَقُولُ عِبَادِي؟ قَالُوا: يَقُولُونَ: يُسَبِّحُونَكَ وَيُكَبِّرُونَكَ وَيَحْمَدُونَكَ وَيُمَجِّدُونَكَ " قَالَ:" فَيَقُولُ: هَلْ رَأَوْنِي؟ " قَالَ:" فَيَقُولُونَ: لاَ وَاللَّهِ مَا رَأَوْكَ؟ " قَالَ:" فَيَقُولُ: وَكَيْفَ لَوْ رَأَوْنِي؟ " قَالَ:" يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْكَ كَانُوا أَشَدَّ لَكَ عِبَادَةً، وَأَشَدَّ لَكَ تَمْجِيدًا وَتَحْمِيدًا، وَأَكْثَرَ لَكَ تَسْبِيحًا " قَالَ:" يَقُولُ: فَمَا يَسْأَلُونِي؟ " قَالَ: «يَسْأَلُونَكَ الجَنَّةَ» قَالَ:" يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟ " قَالَ:" يَقُولُونَ: لاَ وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا " قَالَ:" يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا؟ " قَالَ:" يَقُولُونَ: لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ عَلَيْهَا حِرْصًا، وَأَشَدَّ لَهَا طَلَبًا، وَأَعْظَمَ فِيهَا رَغْبَةً، قَالَ: فَمِمَّ يَتَعَوَّذُونَ؟ " قَالَ:" يَقُولُونَ: مِنَ النَّارِ " قَالَ:" يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟ " قَالَ:" يَقُولُونَ: لاَ وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا " قَالَ:" يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا؟ " قَالَ:" يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ مِنْهَا فِرَارًا، وَأَشَدَّ لَهَا مَخَافَةً " قَالَ:" فَيَقُولُ: فَأُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ " قَالَ:" يَقُولُ مَلَكٌ مِنَ المَلاَئِكَةِ: فِيهِمْ فُلاَنٌ لَيْسَ مِنْهُمْ، إِنَّمَا جَاءَ لِحَاجَةٍ. قَالَ: هُمُ الجُلَسَاءُ لاَ يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ "

الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ٦٥٠)٦٤٠٨ – ١٨٠٥ –[ش أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة باب فضل مجالس الذكر رقم ٢٦٨٩ (يطوفون) يمشون ويدورون حول الناس. (يلتمسون) يطلبون. (فيحفونهم) يطوقونهم ويحيطون بهم بأجنحتهم. (فيسألهم) الحكمة من السؤال إظهار فضل بني آدم وأن فيهم المسبحين والمقدسين كالملائكة على ما هم عليه من الجبلة الشهوانية والفطرة الحيوانية. (يمجدونك) يعظمونك. (لحاجة) دنيوية (لا يشقى بهم جليسهم) ينتفي الشقاء عمن جالسهم]

[181] – عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، قَالَ:" إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ العَبْدَ نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحْبِبْهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ القَبُولُ فِي الأَرْضِ "

الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ٤٠٨) ٣٢٠٩ – ١١٣٨ –[ش أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب باب إذا أحب الله عبدا حببه إلى عباده رقم ٢٦٣٧. (القبول في الأرض) المحبة في قلوب من يعرفه من المؤمنين ويبقى له ذكر صالح وثناء حسن]

[182] – عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي عُرْوَةُ، أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ ، حَدَّثَتْهُ أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ : هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ، قَالَ:" لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ العَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلاَلٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ فَرَفَعْتُ رَاسِي،

الأرض وزلزلت زلزالها، وحينها سيقول العميان "سحاب مركوم" ويشبهه من الوقوف على السنن الظاهرة وهي حق ولا شك، دون النظر إلى بكاء مظلوم أو دعوة مستجابة أو معصية واقعة، وأما أهل البصيرة فترتجف قلوبهم خوفاً من غضب الله ويفزعون للتوبة والصلاة كما هي سنته مع الآيات الكونية كالكسوف والخسوف وشدة الرياح وغيرها.

هكذا هي الحقيقة الكونية، فحين يتحدث الناس عن الأمطار وسنن نزولها وإصابتها للخلق، هم يصيبون في تفسير جريان السنة ولكن يقفون عن بلوغ الحقيقة، وهي السؤال عن الأولوية، وحين يفسرون حركة زلازل الأرض وينسون السؤال: فمن فعل أول الأمر؟، ولا يعني السؤال عن الأولية أي أولية السنن بالتكوين الأول للخلق فقط بل أولية كل خلق، فمن نفخ الروح في الحيوان المنوي؟ ومن أنشأ كل خلية فيها روح الحياة؟، وهكذا فكل ذرة في الأرض هو خلق جديد لابد له من أولية تنشؤه من العدم تدل على يد الله تعالى ثم تجري فيه السنن التي خلقها الله تعالى.

هذه الحقيقة الكونية الباهرة العظيمة لها التطابق التام مع حب الله تعالى وبغضه، حب ينشؤه طاعة من عبيده، وبغض ينشؤه معصية من أعدائه، حب ينشئ الحب والعطاء والإحسان، ومعه الابتلاء ليزداد القرب ويحصل الطهر والغفران، ومعصية تنشئ العداء والمقت والمَحْق، ومعها الابتلاء ليزداد الغرور والعلو ليتحقق الإيلام والمكر.

إن أردت صلة الله فَصِلْ من أمرك بصلته، وإن أردت حبه فأحب من أمرك بحبه، إن أعطيت الفقير ستجد أنك أعطيت حسنة في يد الله تعالى (لوجدت ذلك عندي)، وإن زرت مريضاً تجد أنك وضعت قدمك على عتبة الرب (لوجدت ذلك عندي)[١٨٣]، وهكذا بصائر المؤمنين يعيشون سنن

فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ، لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا "

الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ٤١٠)٣٢٣١ - ١١٤٦ -[ش أخرجه مسلم في الجهاد والسير باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين رقم ١٧٩٥. (ما لقيت) أي لقيت الكثير من الأذى. (يوم العقبة) أي كان ما لاقاه عندها وقيل المراد بالعقبة جمرة العقبة التي بمنى وقيل مكان مخصوص في الطائف ولعل هذا أولى. (على وجهي) باتجاه الجهة المواجهة لي. (بقرن الثعالب) اسم موضع بقرب مكة وأصل القرن كل جبل صغير منقطع من جبل كبير والثعالب جمع ثعلب وهو الحيوان المشهور ولعله سمي الموضع بذلك لكثرة الثعالب فيه. (ذلك) أي ذلك كما قال جبريل وكما سمعت منه. (الأخشبين) جبلي مكة أبي قبيس ومقابله قعيقعان سميا بذلك لصلابتهما وغلظ حجارتهما يقال رجل أخشب إذا كان صلب العظام قليل اللحم. (أصلابهم) جمع صلب وهو كل ظهر له فقار]

[١٨٣] - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ -: " إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ؟ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟ يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ؟ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلَانٌ، فَلَمْ تُطْعِمْهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي، يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَسْقَيْتُكَ، فَلَمْ تَسْقِنِي، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَسْقِيكَ؟ وَأَنْتَ رَبُّ

الخلق والتكوين، ويعملون بقيم الحق وشرائعه، والغيب عندهم حاضر ويرجعون كل أمر إليه {أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِ اللّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللّهِ فَمَا لِهَـؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً }[النساء : ٧٨].

(أنفقي ولا تحصي) بل مادام أن يد الله تتلقاها فسترعاه فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، وَلاَ يَصْعَدُ إِلَى اللَّهِ إِلَّا الطَّيِّبُ، فَإِنَّ اللَّهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ، كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فُلُوَّهُ، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الجَبَلِ»[١٨٤] حتى تأتي الحبّة كجبل أحد، فما إحصاء العبد إلا تضييقاً عليه لا على يد الله تعالى، وهذا قانون لعمر الحق هو سعادة البشرية في الدنيا والآخرة لو فعلوه، فالخير (لا تحصيه)[١٨٥] بل افتح وكاءه ودعه يفيض { وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ} [البقرة: ٢١٩] والعفو ما زاد عن حاجتك، وما قتل الناس وأفسدهم إلا الحرص والمنع، فبه

الْعَالَمِينَ، قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تَسْقِهِ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي " صحيح مسلم (٤/ ١٩٩٠) ٤٣ - (٢٥٦٩)

وَفِي اسْتِفْسَارِ هَذَا الْعَبْدِ مَا أَشْكَلَ عَلَيْهِ دَلِيلٌ عَلَى إِبَاحَةِ سُؤَالِ مَنْ لَا يَعْلَمُ مَنْ يَعْلَمُ حَتَّى يَقِفَ عَلَى الْمُشْكِلِ مِنَ الْأَلْفَاظِ إِذَا أَمْكَنَ الْوُصُولُ إِلَى مَعْرِفَتِهِ ، وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ اللَّفْظَ قَدْ يَرِدُ مُطْلَقًا ، وَالْمُرَادُ بِهِ غَيْرُ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ ظَاهِرُهُ ، فَإِنَّهُ أَطْلَقَ الْمَرَضَ وَالِاسْتِسْقَاءَ وَالِاسْتِطْعَامَ عَلَى نَفْسِهِ وَالْمُرَادُ بِهِ وَلِيٌّ مِنْ أَوْلِيَائِهِ وَهُوَ كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} [المائدة: ٣٣] وَقَوْلُهُ: {إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} [الأحزاب: ٥٧] ، وَقَوْلُهُ: {إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ} [محمد: ٧] ، وَالْمُرَادُ بِجَمِيعِ ذَلِكَ أَوْلِيَاؤُهُ وَقَوْلُهُ: «لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ» أَيْ وَجَدْتَ رَحْمَتِي وَثَوَابِي عِنْدَهُ ، وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: {وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ} [النور: ٣٩] أَيْ وَجَدَ حِسَابَهُ وَعِقَابَهُ "الأسماء والصفات للبيهقي (١/ ٥٤٧)

في هذا الحديث من الفقه: أن الله تعالى لطيف بعباده، وألان لهم القول ألانة تجاوزت حد مقاديرهم لطفا منه، فلطف سبحانه بالمريض والعائد بأن جعل العيادة له جل جلاله، من حيث إنها من أجله، وفيه، وفي سبيله.

وقوله: (أما لو عدته لوجدتني عنده) فاشعر كل عائد لمريض أنه جل جلاله عند ذلك المريض، فهو سبحانه أول عواده لئلا يستنكف بعد سماع هذا الحديث مسلم عن عيادة مسلم، فهو جل جلاله يعود عبده بعوائده الجميلة الحسنة. وكذلك إذا استطعم مسلم مسلما فلم يطعمه، وهو قادر على إطعامه من غير إخلال بواجب؛ فإن الله تعالى هو المستطعم له، إرادة منه سبحانه وتعالى أن يعرفه أنه يستطعمه، بلسان أجوف يقبل الإطعام، فإذا لم يطعمه كان الرد منه لربه فيما خلقه.* وكذلك المستسقي إذا استسقى أخاه، فلم يسقه، فإن الله سبحانه وتعالى هو الذي استسقاه على لسان عبده.

وقوله: (لو سقيته وجدت ذلك عندي) أي وجدت ثواب ذلك عندي والجزاء عليه.الإفصاح عن معاني الصحاح (٨/ ١٤٣)

[١٨٤] - الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ٧١١)٧٤٣٠ - ١٩٦٢ -معلقا [ش أخرجه مسلم في الزكاة باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها رقم ١٠١٤ (بعدل تمرة) ما يعادلها وزنا أو قيمة. (كسب طيب) حلال ومن طريق مشروع. (يصعد) يقبل. (يتقبلها بيمينه) الله سبحانه وتعالى منزه عن مشابهة مخلوقاته في صورهم وأشكالهم فيمينه جل وعلا يمين تليق به وليست جارحة كجوارحنا وهو تعالى أعلم بها وإنما ندرك نحن من هذا أن الله تعالى يتقبل هذه الصدقة قبولا حسنا ويجزل العطاء لصاحبها لأن اليمين تصان عادة عن مس الأشياء الدنية وهو عنوان الرضا وحسن القبول والله تعالى أعلم. (يربيها) ينميها ويزيد في أجرها (فلوه) المهر إذا فطم. (مثل الجبل) كما لو كان تصدق بمقدار الجبل]

[١٨٥] - عَنِ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ، أَنَّ عَائِشَةَ، أَحْصَتْ عِدَّةَ طَعَامِ مَسَاكِينَ، فَذَكَرَتْ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «يَا عَائِشَةُ لَا تُحْصِي فَيُحْصَى عَلَيْكِ»البر والصلة للحسين بن حرب (ص: ١٥٩)(٣٠٩) صحيح

يقتل الناس بعضهم بعضاً، ويتباغضون ويتقاطعون، وبالعطاء ومنه التضحية يتم النماء والبركة لأن الحركة هي التي تصنع الحياة، وبالركود يقع المرض والموت والكساد.

نكتة: الكلاب تلد في البطن الواحد الكثيرَ، والخراف لا تحمل أكثر من اثنين، ولكن أين أعداد الكلاب في الأرض من الخراف، هل تعرف السبب؟

الجواب: "الناس لا يضحون بالكلاب".

ما يرشد إليه الحديث :

أَيْ: لَا تَمْنَعِي فَضْلَ الْمَالِ عَنِ الْفَقِيرِ فَيَمْنَعَ اللَّهُ عَنْكِ فَضْلَهُ وَيَسُدَّ عَلَيْكِ بَابَ الْمَزِيدِ، (مَا اسْتَطَعْتِ) أَيْ: مَا قَدَرْتِ عَلَيْهِ وَإِنْ كَانَ قَلِيلًا وَأَنْفِقِي شَيْئًا وَإِنْ كَانَ يَسِيرًا وَلَا تَحْقِرِي عَلَيْهِ حَقِيرًا، فَإِنَّهُ رُبَّمَا يَكُونُ عِنْدَ اللَّهِ كَثِيرًا وَفِي مِيزَانِ الْقَبُولِ كَبِيرًا، قَالَ - تَعَالَى {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ} [الزلزلة: ٧] ، قَالَ - عَزَّ وَجَلَّ - {وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ} [الأنبياء: ٤٧] وَقَالَ - جَلَّ عَظَمَتُهُ - {وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا} [النساء: ٤٠] وَقَالَ ابْنُ الْمَلَكِ: وَإِنَّمَا أَمَرَهَا - ﷺ - بِالرَّضْخِ لِمَا عَرَفَ مِنْ حَالِهَا أَنَّهَا لَا تَقْدِرُ تَتَصَرَّفُ فِي مَالِهَا وَلَا فِي مَالِ زَوْجِهَا بِغَيْرِ إِذْنِهِ إِلَّا فِي الشَّيْءِ الْيَسِيرِ الَّذِي جَرَتِ الْعَادَةُ فِيهِ بِالتَّسَامُحِ مِنْ قِبَلِ الزَّوْجِ كَالْكِسْرَةِ وَالتَّمْرَةِ، وَبِالطَّعَامِ الَّذِي يَفْضُلُ فِي الْبَيْتِ وَلَا يَصْلُحُ لِلِادِّخَارِ لِتَسَارُعِ الْفَسَادِ إِلَيْهِ.[١٨٦]

في هذا الحديث: أن الجزاء من جنس العمل، وأن من منع ما عنده من المال قطع الله عنه مادة الرزق، وهذا مفهوم قوله تعالى: {وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} [سبأ (٣٩)] .

وفيه: الحث على الإنفاق في وجوهه ثقة بالله تعالى.[١٨٧]

وإسناد الوعي إلى الله تعالى مجاز عن الإمساك والإحصاء معرفة قدر الشيء وزنًا أو عددًا. وهو من باب المقابلة، والمعنى النهي عن منع الصدقة خشية النفاد، فإن ذلك أعظم الأسباب لقطع مادة البركة؛ لأن الله يثيب على الإعطاء بغيرحساب، ومن لا يحاسب على الجزاء لا يحسب عليه عند العطاء، ومن علم أن الله يرزقه من حيث لا يحتسب، فحقه أن يعطي ولا يحسب. وقيل: المراد بالإحصاء عد الشيء؛ لأن يدخر ولا ينفق منه، وإحصاء الله قطع البركة عنه، أو حبس مادة الرزق أو المحاسبة عليه في الآخرة.[١٨٨]

الحديث التاسع عشر: إنّما النّاس كالإبل المائة لا تكاد تجد فيها راحلة

---

[١٨٦] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٤/ ١٣١٩)

[١٨٧] - تطريز رياض الصالحين (ص: ٣٦٨)

[١٨٨] - كوثر المعاني الدراري في كشف خبايا صحيح البخاري (١٢/ ٣٠٣)

عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّمَا النَّاسُ كَالإِبِلِ المِائَةِ، لاَ تَكَادُ تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً»[١٨٩].

الرغاء كثير والفعل قليل، وحين يزمع الناس على الركوب تكون للرواحل الصبورة الكلمة الفصل، فالبهرج لا يجدي في الأسفار والمشقات بل هو نافع لأهل الخمول والكسل ومحبّي الإقامات على الذل والعفونة، وشتان بين ما يوضع في القواعد والأساسات وبين ما يعلق في العوالي للزينة والمنظر، فللقواعد الحملة متون قوة وصبر وجلد، مع أنها للحمل وللزينة البهرج واللمعان والصوت العالي الجميل، مع أن العيون بها معلقة، ولكن العبرة بالنافع لا باللامع.

قوام الإبداع "بالتخصص"، هذه الكلمة المعاصرة الدالة على مقدرات خاصة وخبرات مميزة في باب من أبواب الحياة المعرفية والعملية، هذه القدرات والخبرات يصنعها الانقطاع لهذا الباب المعرفي والعملي، انقطاع الإخلاص والتفرغ والبذل والتضحية ليصل إلى الإبداع وتحقيق المنافع اللازمة للأمة والجماعة، وإذا كان الأقدمون قالوا عن العلم: إن أعطيته بعضك لم يعطك شيئاً، وإن أعطيته كلك أعطاك بعضه، وأنت مع هذا البعض على خطر عظيم، فهذه قاعدة حق في كل العلوم المعرفية والعملية إذ يموت المرء وفي قلبه شيء من (حتى).

المشاركة في العلوم، أي الإصابة فيها بنصيب لا يصل لحد " التخصص " خير للمرء لكنه لا ينفع الأمة إلا بمقدار وضْعه في تحقيق الإبداع الذي ينتجه التخصص، إذ تحقيق المنافع الباهرة للأمة المتقدمة التي لها حق القوامة والشهادة لا إبداع من دون تخصص، لأن الإبداع هضم للسابق وبناء جديد يتم به السفر الطويل لتحقيق المهمات اللازمة.

المشاركون كثر، والأمة لا تتحقق إلا بمجموعها دون عزل لأحد مهما كان صغيرا أو ضعيفاً، لكن النفع الذي يتحقق به الإبداع ورحلة الشهادة والقوامة لا يكونان إلا للمميزين والمبرزين، وهؤلاء قلة ونُدرة بما يملكون من فطرة مميزة وإرادة حية قوية وجلد مثابر، وهؤلاء على الأمة أن ترعاهم وتوفر لهم سبل الحياة وما يحتاجون من أجل تفرغهم لما هم فيه وإلا ضيّعت الأمة نفسها بتضييعهم، كما أن عليها أن توفر المناخ الملائم لظهورهم، إذ الحقائق لا تظهر إلا في ميادينها، وجماعات الجهاد والعلم والدعوة والفكر في رحلتها الطويلة لتحقيق الشهادة مدعوة لرعاية هؤلاء واكتشافهم ووضعهم في بيئتهم الملائمة.

---

[١٨٩] – الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ٦٥٧)٦٤٩٨ – ١٨٢٥ – [ش أخرجه مسلم في فضائل الصحابة باب قوله – الناس كالإبل مائة رقم ٢٥٤٧ (راحلة) الجمل النجيب الذي يصلح لسير الأسفار ولحمل الأثقال. ومعنى الحديث يأتي زمان يكون الناس فيه كثيرين ولكن المرضي منهم والذي يلتزم شرع الله عز وجل قليل شأن الإبل الكثيرة التي تبلغ المائة ولا تكاد توجد منها واحدة تصلح للركوب والانتفاع بها. أو المراد أن الناس دائما شأنهم هكذا الصالح فيهم قليل

في الأمم والمجتمعات ليس مطلوباً تميز الكل ولا أن يكون الكل عالماً وقائداً وذكياً فلا يوجد أمة حققت أهدافها بمثل هذا الشرط، لكن شرط في القيادة ورعايتها، ونحن نلحظ أن مهمات الأمم تحققها الإرادة المميزة التي لها الفرادة عن بقية القوم والأمة، ومن خلال هذه القيادة -الراحلة- يسير القطيع وراءها، وبالتالي يحكم على الأمة من خلال هذه القيادة والرأس لا من خلال أفرادها الذين هم في عرض الناس، إذ الناس هم الناس، لا تكاد تجد فيها راحلة، ومن طلب غير هذا الأمر إنما هو طالب النار من الماء وهو من باب تعليق أمر على العدم لا غير، ورسولنا الذي يقول هذا الحديث هو الذي حمل أمته التكاليف، والقائد الفريد هو الذي يحقق الإمكان من الموجود لا أن يذهب في وديان التقريع ليسقط التكاليف، فشتان بين من يعلم هذا الحديث ويعمل به ويفهمه حق فهمه على وجهه الصحيح وبين من يستخدم عجز الكثير أو جهلهم ليرفع التكاليف عن الأمة ويعلق مشروع الأمة في السعي إلى أهدافها على غير شرط صحيح وذلك بأن يصبح الكل عالماً قادراً فيصبح الكل " رواحل ".

في رحلة الجماعات لتحقيق الشهادة بالجهاد والعلم والدعوة سيعاني المميزون كثيراً من عدم مستوى الكثير من القواعد فالخاسر هو الذي يهرب من التكاليف ويبتعد ساباً الجهل والتخلف أو العجز وعدم الاستجابة، وأما الذي تتحقق له مهماته فهو الذي يتعامل بواقعية وإدارة حكيمة مع هذه القواعد، والذين يتصورون مجتمعاً أو جسماً كاملاً من الوعي والبصيرة مرَّ يوماً على ظهر الأرض هم واهمون.

هكذا الناس كثير والرواحل قليلة لكن لابدّ من الرحلة والحال قد يكون كحال الرجل مع المرأة حين يقول رسول الله ﷺ: «المَرْأَةُ كَالضِّلَعِ، إِنْ أَقَمْتَهَا كَسَرْتَهَا، وَإِنِ اسْتَمْتَعْتَ بِهَا اسْتَمْتَعْتَ بِهَا وَفِيهَا عِوَجٌ»[١٩٠].

ما يرشد إليه الحديث :

هذا الحديث مشتمل على خبر صادق، وإرشاد نافع.

أما الخبر، فإنه ﷺ أخبر أن النص شامل لأكثر الناس، وأن الكامل – أو مقارب الكمال – فيهم قليل، كالإبل المائة، تستكثرها، فإذا أردت منها راحلة تصلح للحمل والركوب، والذهاب والإياب، لم تكد تجدها، وهكذا الناس كثير، فإذا أردت أن تنتخب منهم من يصلح للتعليم أو الفتوى أو الإمامة، أو الولايات الكبار أو الصغار، أو الوظائف المهمة، لم تكد تجد من يقوم بتلك الوظيفة قياما صالحا، وهذا هو الواقع، فإن الإنسان ظلوم جهول، والظلم والجهل سبب للنقائص، وهي مانعة من الكمال والتكميل.

---

[١٩٠] – الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ٥٧٥)٥١٨٤ – ١٥٦٧ – ش أخرجه مسلم في الرضاع باب الوصية بالنساء رقم ١٤٦٨ (إن استمتعت بها) إن احببت أن تتمتع بها وتنتفع من خيرها عليك أن تغض الطرف عما فيها من نقص]

وأما الإرشاد، فإن مضمون هذا الخبر إرشاد منه ﷺ إلى أنه ينبغي لمجموع الأمة أن يسعوا، ويجتهدوا في تأهيل الرجال الذين يصلحون للقيام بالمهمات، والأمور الكلية العامة النفع.

وقد أرشد الله إلى هذا المعنى في قوله: {فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ} [التوبة: ١٢٢] فأمر بالجهاد، وأن يقوم به طائفة كافية، وأن يتصدى للعلم طائفة أخرى، ليعين هؤلاء هؤلاء، وهؤلاء هؤلاء، وأمره تعالى بالولايات والتولية أمر بها، وبما لا تتم إلا به من الشروط والمكملات.

فالوظائف الدينية والدنيوية، والأعمال الكلية، لا بد للناس منها ولا تتم مصلحتهم إلا بها، وهي لا تتم إلا بأن يتولاها الأكفاء والأمناء، وذلك يستدعي السعي في تحصيل هذه الأوصاف بحسب الاستطاعة. قال الله تعالى: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} [التغابن: ١٦] والله أعلم.[١٩١]

الحديث العشرون: إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظر السّاعة

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ» قَالَ: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «إِذَا أُسْنِدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ»[١٩٢]

دوام أي أمر في تدبيره وإدارته، ونسق الوجود وجماله في نصب كل شيء في مكانه، والشيء اليسير ينمو على يد أهله العالمين به وبرعايته، وباليد الجاهلة تسقط الأمم العظيمة والجماعات الشاهقة القوية، فهذا هو مفتاح النجاح: القيادة.

ماذا عسى آلاف الأسود أن تفعل إن قادها أخرق أو جبان، إن قادها أخرق كان سعيها فساداً عليها وعلى الآخرين، وإن قادها جبان كانت قوتها كأن لا شيء، لأن قيمة الشيء لا بمجرد وجوده، إذ وجود الشيء بلا إثارة له كعدمه، ولا في وضْعِه في الفساد لأن ضرره حينئذ هو المحقق لا نفعه، والحياة قائمة على التنوع والتعدد ولا يصلحها إلا الاجتماع والتكامل ولذا لابدّ من قيادة تدير هذا الاجتماع وتوحد قواه، تستمد هذه القيادة قوتها من أفرادها واجتماعهم كما أن هذه القوى تتلاءم وتؤدي دورها تحت هذه القيادة وإدارتها، ومن غير هذه القيادة تتشتت القوى أو تتضارب، وحين تولى هذه القيادة ليد أخرق جاهل بما في يده فهذا يدل على جهالة القوى وفسادها، إذ تسلط الجهلة على رقاب الخلق يدل على أمور منها: أن هذه الجماعة هي صورة عن قيادتها كما أن هذه القيادة

---

[١٩١] – بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار ط الوزارة (ص: ١٩٩)

[١٩٢] – صحيح البخاري (٨/ ١٠٤) (٦٤٩٦)

مَعنَى"أُسنِدَ الأَمرُ إِلَى غَير أَهله" أَنَّ الأَئِمَّةَ قَد ائتَمَنَهُم اللَّهُ عَلَى عِبادِه وفَرَضَ عَلَيهِم النَّصِيحَةَ لَهُم، فَيَنبَغِي لَهُم تَولِيَةَ أَهلِ الدِّينِ، فَإِذا قَلَّدُوا غَيرَ أَهلِ الدِّينِ فَقَد ضَيَّعُوا الأَمانَةَ الَّتِي قَلَّدَهُم اللَّهُ تَعالَى إِيّاها. " فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (١١/ ٣٣٤)

صورة عن الجماعة{وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [الأنعام: ١٢٩][١٩٣] ،

---

[١٩٣] – عَنِ الْحَسَنِ: أَنَّ بَنِيَ إِسْرَائِيلَ، سَأَلُوا مُوسَى فَقَالُوا: لَسْتَ كُلَّ سَاعَةٍ مَعَنَا، تَحْدُثُ أَشْيَاءُ وَلَا نَقْدِرُ نَسْأَلُكَ، وَإِنَّهَا تَكُونُ أُمُورٌ وَأَشْيَاءُ، فَسَلْ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا عَلَمَ رِضَاهُ عَنَّا، وَعَلَمَ سَخَطِهِ عَلَيْنَا فَقَالَ: اتَّقُوا اللَّهَ، يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَأَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِ: يَا مُوسَى، عَمَّا سَأَلَكَ بَنُو إِسْرَائِيلَ؟ قَالَ: يَا رَبِّ، سَأَلُوا عَمَّا سَمِعْتَ، قَالَ: «إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِتُبَلِّغَهُمْ عَنِّي وَتُبَلِّغَنِي عَنْهُمْ، فَأَنْبِئْهُمْ أَنَّ عَلَمَ رِضَايَ عَنْهُمْ أَنْ أَسْتَعْمِلَ عَلَيْهِمْ خِيَارَهُمْ، وَأَنَّ عَلَمَ سَخَطِي عَلَيْهِمْ أَنْ أَسْتَعْمِلَ عَلَيْهِمْ شِرَارَهُمْ» تهذيب الآثار مسند عمر (٢/ ٩٣٠)(١٣٢٦) صحيح مقطوع

قَالَ مَنْصُورُ بْنُ أَبِي الْأَسْوَدِ: سَأَلْتُ الْأَعْمَشَ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [الأنعام: ١٢٩] مَا سَمِعْتَهُمْ يَقُولُونَ فِيهِ؟ قَالَ: سَمِعْتُهُمْ يَقُولُونَ: «إِذَا فَسَدَ النَّاسُ أُمِّرَ عَلَيْهِمْ شِرَارُهُمْ» حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٥/ ٥١) صحيح

أي نسلّط بعض الظالمين على بعض، ونجمع بعضهم إلى بعض، كما تسلّط الجنّ على أشباههم من الإنس، وصاروا جميعا إلى هذا المصير المشئوم.. وهكذا يجتمع الشر إلى الشر، وينجذب الأشرار إلى الأشرار، فيكونون جميعا جبهة واحدة.. بعضهم أولياء بعض. التفسير القرآني للقرآن (٤/ ٣١١)

ذلك أن الملوك يتصرفون فى الأمم الجاهلة الضالة تصرف الرعاة فى الأنعام السائمة، فهم يتخذون الوزراء والحاشية من أمثالهم فيقلدهم جمهور الأمة فى سيىء أعمالهم، فيغلب الفساد على الصلاح، ويفسقون عن أمر الله فيهلكون، أو يسلط عليهم الأمم القوية التي تستبيح حماهم وتثلّ عروشهم ويصبحون مستعبدين أذلاء بعد أن كانوا سادة أعزاء كما قال سبحانه: «وَإِذا أَرَدْنا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنا مُتْرَفِيها فَفَسَقُوا فِيها فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْناها تَدْمِيراً»

اما الأمم العالمة بسنن الاجتماع التي أمرها شورى بين زعمائها وأهل الرأى فيها، فلا يستطيع الملوك أن يتصرفوا فيها كما يشاءون، بل يكونون تحت مراقبة أولى الأمر فيها.

وقد وضع الإسلام هذا الدستور فجعل أمر الأمة بين أهل الحل والعقد، وأمر الرسول بالمشاورة، فسار على هذا النهج. وجعلت الولاية العامة– الخلافة– بالانتخاب.

واقتفى الخلفاء الراشدون خطواته وجروا على سننه، فقال الخليفة الأول أبو بكر رضي الله عنه فى أول خطبة له: أما بعد فإنى قد ولّيت عليكم ولست بخيركم، فإذا استقمت فأعينونى، وإذا زغت فقوّمونى.

وقال الخليفة الثاني على المنبر: من رأى منكم فىّ اعوجاجا فليقوّمه.. وقال الخليفة الثالث على المنبر أيام الفتنة: أمرى لأمركم تبع.

وقوله (الظَّالِمِينَ) يشمل الظالمين لأنفسهم والظالمين للناس من الحكام وغيرهم، إذ كل من هؤلاء وأولئك يتولى من يشا كله فى أخلاقه وأعماله وينصره على من يخالفه.تفسير المراغي (٨/ ٣٢)

إن الظالمين – وهم الذين يشركون بالله في صورة من الصور – يتجمع بعضهم إلى بعض في مواجهة الحق والهدى ويعين بعضهم بعضا في عداء كل نبي والمؤمنين به. إنهم فضلا على أنهم من طينة واحدة – مهما اختلفت الأشكال – هم كذلك أصحاب مصلحة واحدة، تقوم على اغتصاب حق الربوبية على الناس، كما تقوم على الانطلاق مع الهوى بلا قيد من حاكمية الله .. ونحن نراهم في كل زمان كتلة واحدة يساند بعضهم بعضا – على ما بينهم من خلافات وصراع على المصالح – إذا كانت المعركة مع دين الله ومع أولياء الله .. فبحكم ما بينهم من اتفاق في الطينة، واتفاق في الهدف يقوم ذلك الولاء .. وبحكم ما يكسبون من الشر والإثم تتفق مصائرهم في الآخرة على نحو ما رأينا في المشهد المعروض! وإننا لنشهد في هذه الفترة – ومنذ قرون كثيرة – تجمعا ضخما لشياطين الإنس من الصليبيين والصهيونيين والوثنيين والشيوعيين – على اختلاف هذه المعسكرات فيما بينها – ولكنه تجمع موجه إلى الإسلام، وإلى سحق طلائع حركات البعث الإسلامي في الأرض كلها.

وهو تجمع رهيب فعلا، تجتمع له خبرة عشرات القرون في حرب الإسلام، مع القوى المادية والثقافية، مع الأجهزة المسخرة في المنطقة ذاتها للعمل وفق أهداف ذلك التجمع وخططه الشيطانية الماكرة .. وهو تجمع يتجلى فيه قول الله سبحانه: «وَكَذلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ» .. كما ينطبق عليه تطمين الله لنبيه – ﷺ –: «ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون» ..

وهذه الآية يدل ما قبلها عليها حين قال سبحانه: {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَامَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} [الأنعام: ١٢٨] فإن الله تعالى عاب على الجن استخدامهم لحمير الإنسان مطايا وجنوداً، فصار الجن كثرة باستخدامهم هؤلاء الحمير، ولكن المصيبة كانت في هؤلاء الحمير حين رضوا هذا الذل والاستبعاد وجعلوا في ذلك متعتهم ورغباتهم وهكذا هي حقيقة الحياة بين المستكبر والذليل، فإنه لا يقبل أحد الذل إلا من هو مستمتع به ملائم لنفسه الخانعة الجاهلة، فالجماعة الجاهلة الخانعة هي التي تقبل هذا النوع من القيادة، ومن الأمور التي تدل على تسلط القيادة الجاهلة على الجماعة هو عجز هذه الجماعة وجبنها، فإن الساعي الجاهل يصل لمقصوده الذي يريده، أما العاجز العاقل فهو منكوس على رأسه لا ينفعه عقله ولا علمه، ونعوذ بالله من عجز العاقل كما نعوذ بالله من جلد المنافق، وحين يُسند الأمر إلى غير أهله فحينئذ تكون النهاية، فلا علم وعقل ولا قدرة ينفع هذه الأمة أو الجماعة، إذ العبرة بالإدارة لا غير، والذين يطلبون من هذه الأمة أن تنهض وقد تسلط عليها الفاسدون العملاء والجهلة فهؤلاء يريدون الحياة من رميم العظام، ويطلبون الجمر من الرماد، والأمم والجماعات لم تتحول إلى قوى فاعلة وحاضرة في عين التاريخ إلا من خلال القيادة العالمة العاملة القوية، وإنه من عجائب الأمر أن يرتب الإنسان حياته المالية والأسرية (فيما يظن) ويترك أعظم ما يحتاجه من إحسان وتدبير ويتركة فاسداً، وإن أعظم ما يحتاجه هو قيادة مجتمعة التي يتعلق بها الأحكام العامة، فالأحكام العامة هي التي تضبط كل الأمور وتحدد قيم المجتمع والجماعات، فهل يستطيع المرء أن يأكل الحلال خاصاً في مجتمع قيمه العامة تسير وفق الجاهلية؟! أم هل يستطيع أن يضبط قيم أسرته وتربيتها في مجتمع محكوم بقيم الجاهلية؟! هذا ما ينبغي على الأمة أن تفهمه، وفي هذا الحديث سمى النبي ﷺ الأمر والأمانة فقال: (إذا ضيّعت الأمانة) ولما سئل عن الأمانة قال ﷺ: (إذا أسند الأمر إلى غير أهله) فدل على أن هذا الأمر هو الأمانة، فهو أمانة الله للعالم كما أنه أمانة الله لهذه الأمة، وحين نجمع هذا الحديث مع ما جاء عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ – ﷺ – قَالَ:" لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لَا يُقَالَ فِي الْأَرْضِ: اللهُ، اللهُ "[١٩٤] نعلم أن نمو التوحيد في

ولكن هذا التطمين يقتضي أن تكون هناك العصبة المؤمنة التي تسير على قدم رسول الله – ﷺ – وتعلم أنها تقوم مقامه في هذه المعركة المشبوبة على هذا الدين، وعلى المؤمنين ..في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص: ١٦٤٨)

[١٩٤] – صحيح مسلم (١/ ١٣١) ٢٣٤ – (١٤٨)

قال ابن كثير رحمه الله تعالى في "النهاية":" وَفِي مَعْنَى قَوْله – ﷺ –: " «حَتَّى لَا يُقَالَ فِي الْأَرْضِ: اللَّهُ اللَّهُ» ". قَوْلَان: أَحَدُهُمَا أَنَّ مَعْنَاهُ أَنَّ أَحَدًا لَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا وَلَا يَزْجُرُ أَحَدٌ أَحَدًا إذَا رَآهُ قَدْ تَعَاطَى مُنْكَرًا، وَعَبَّرَ عَنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: " حَتَّى لَا يُقَالَ: اللَّهُ اللَّهُ ". كَمَا تَقَدَّمَ فِي حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو: " «فَيَبْقَى فِيهَا عَجَاجَةٌ لَا يَعْرِفُونَ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُونَ مُنْكَرًا» ".

العالم إنما هو بقيادة أهل التوحيد للعالم، وانتشار الشرك وغلبته في العالم إنما هو بقيادة الشرك لهذا العالم، فإن جمعنا هذا مع قوله تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ }[الذاريات : ٥٦] ومع قوله: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً }[الأحزاب : ٧٢] علمنا أن العبودية لله تعالى لا يستقر لها قرار إلا بقيادة العابدين لأمور هذه الحياة، { أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ **فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا**} [النساء: ٧٨].

إن مصادمة المجاهدين لفراعنة العالم من أجل إزالتهم وتوسيد هذه القيادة لأهلها إنما هو من أعظم العبادات ذاتاً وسبباً، ذاتاً لعظيم أمر الله الجهاد ومافيه من إيمان واحتساب، وسبباً لما في إزالة هؤلاء المفسدين من الخير على التوحيد وأهله، بل وعلى العالم أجمع مؤمنهم وكافرهم.

(في هذا الحديث العلاقة بين الأرض كوناً مع السماوات وبين هذا الإنسان وعمله، فهل من مدّكر؟).

إن الجماعة المسلمة المجاهدة في سعيها لإقامة الشهادة على الخلق مدعوة لتوسيد الأمر في داخلها لأهله، ولا يجوز التفريط في هذا القانون تحت أي دعوى، لا المال هو ركن الإمامة ولا العشيرة ولا السابقة ولا مراعاة الخواطر، كل ذلك دعاوى فارغة أمام الأهلية، وإن أول مطلب إلهي للجماعة إن تحركت أن تولي الأمر لأهله، فإن الملأ من بني إسرائيل من بعد نبي الله موسى عليه السلام عندما طلبوا الإذن بالجهاد واستجاب الله لطلبهم، طلب الله منهم تولية طالوت، وقد احتجوا بحجج الباطل، فلا مال له ولا تقدمة في عشيرته، وبالتالي لا محبة له سابقة في القلوب ومع ذلك لم يراع الحق لهم هذه الحجج {أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ

وَالْقَوْلُ الثَّانِي: حَتَّى لَا يُذْكَرَ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ، وَلَا يُعْرَفَ اسْمُهُ فِيهَا، وَذَلِكَ عِنْدَ فَسَادِ الزَّمَانِ، وَدَمَارِ نَوْعِ الْإِنْسَانِ، وَكَثْرَةِ الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ يَتَوَاكَلُونَ الْخَيْرَ بَيْنَهُمْ، حَتَّى لَا يَقُولَ أَحَدٌ لِأَحَدٍ: اتَّقِ اللَّهَ خَفِ اللَّهَ، وَهَذَا كَمَا فِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: " «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لَا يُقَالَ فِي الْأَرْضِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ".» وَكَمَا تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ أَنَّ الشَّيْخَ الْكَبِيرَ وَالْعَجُوزَ الْكَبِيرَةَ يَقُولَانِ: " أَدْرَكْنَا النَّاسَ وَهُمْ يَقُولُونَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ". ثُمَّ يَتَفَاقَمُ الْأَمْرُ، وَيَتَزَايَدُ الْحَالُ، حَتَّى يُتْرَكَ ذِكْرُ اللَّهِ جُمْلَةً فِي الْأَرْضِ، وَيُنْسَى بِالْكُلِّيَّةِ، فَلَا يُعْرَفَ فِيهَا، وَأُولَئِكَ هُمْ شِرَارُ النَّاسِ، وَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ: " «وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا عَلَى شِرَارِ النَّاسِ» ". وَفِي لَفْظٍ: " «شِرَارُ النَّاسِ الَّذِينَ تُدْرِكُهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ» ".

وَفِي حَدِيثِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ صُهَيْبٍ، عَنْ أَنَسٍ، عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ -: " «لَا يَزْدَادُ النَّاسُ إِلَّا شُحًّا، وَلَا يَزْدَادُ الزَّمَانُ إِلَّا شِدَّةً، وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا عَلَى شِرَارِ النَّاسِ» ". البداية والنهاية ط هجر (١٩/ ٢٨٤)

أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧)} [البقرة: ٢٤٦، ٢٤٧][١٩٥]

والعجيب أن نبينا محمد ﷺ لم يقبل مطلب صحابته في تولية غير أسامة رضي الله عنه تحت دعوى صغر السن أو غير ذلك بل نظر إلى أهليته فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ،بَعْثًا، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ فَطَعَنَ بَعْضُ النَّاسِ فِي إِمَارَتِه، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَنْ تَطْعُنُوا فِي إِمَارَتِهِ، فَقَدْ كُنْتُمْ تَطْعُنُونَ فِي إِمَارَةِ أَبِيهِ مِنْ قَبْلُ، وَايْمُ اللَّهِ إِنْ كَانَ لَخَلِيقًا لِلْإِمَارَةِ، وَإِنْ كَانَ لَمِنْ

---

[١٩٥] – لقد اعترضوا على اختيار طالوت بأنه ليس خيرًا منهم سلالة ومحتدًا، وأنه ليس ذا مال وفير؛ فرد نبيهم قولهم:

أولا: بأن الله اصطفاه أى اختاره من الصفوة وأهل الهمة والنبل، وقال (اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ)، ولم يقل منكم مع أنه منهم، للإشارة إلى فضله عليهم واستعلائه بما منحه الله من خواص وصفات، وإنه كان يكفي اصطفاء الله له ليسكتوا ولا يعترضوا؛ لأنه ليس فوق إرادة الله إرادة، وليس لهم الخيرة فيما اختاره الله؛ ولأنهم فوضوا أمر اختيار الملك إلى النبي، وقد اختاره الله ربهم ورب النبي.

ثانيا: وردَّ نبيهم اعتراضهم ببيان المقياس الصحيح لعظم الرجال واستعدادهم لقيادة الشعوب إلى مواطن العزة والشرف، لقد حسبوا النسب والمال مقياس العظمة، فبين لهم مقياسها، فقال: (وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ) أي أنه أعظم منكم جميعًا، لأن الله سبحانه زاده عليكم في الأمرين اللذين هما سبب للقيادة الحكيمة، وهما:

أولاً: قوة العقل وسعة العلم وكثرة التجارب، وثانيا: قوة الجسم وعظم الْمُنَّة . وفي ذلك فوق التنبيه إلى مقاييس العظمة الحقيقية، إشارة إلى الأهلية للمنصب في الدولة، فالأهلية للمنصب ليس الحسب والنسب والمال، ولكن الأهلية للمنصب بالكفاية فيه، فإذا كان الملك أعلى المناصب، وإذا كانت الرياسة الكبرى أعظم الاعمال تبعات، فليس الذي يؤهل للمناصب السعة والمال، بل الكفاية لها والقدرة عليها؛ ففي الآية الكريمة إشارة إلى مقياس العظمة، وإلى مقياس الاختيار للأعمال والمناصب.

والبسطة في العلم معناها الاتساع في الأفق والتجارب، وقوة العقل والتدبير والإحكام في التفكير، فالبسطة معناها الاتساع، وإذا أضيفت إلى العلم فمعناها الاتساع والإحاطة بكل ما يوجه العقل إلى التفكير المستقيم مع سلامة العقل نفسه.

وبسطة الجسم اتساعه، لَا بمعنى كثرة اللحم والشحم، بل بأن يكون سبط العظام مديد القامة بعيد ما بين المنكبين، وقد يراد ببسطة الجسم تلك الحقيقة، وهو بذلك فوق قوة المنة، يلقي بالرعب منظره في قلوب الأعداء، وبالهيبة في قلوب الأولياء؛ أو يراد ببسطة الجسم مطلق القوة؛ لأن طويل العظام عريض ما بين المنكبين يكون في غالب الأحوال قوي الجسم، فأطلق ذلك وأريد مطلق القوة.

ويلاحظ أنه قدمت بسطة العلم على بسطة الجسم للإشارة إلى أنها في الرياسة أقوى تأثيرًا، وأنها الأصل وغيرها التابع، وأنه ليست الحاجة إلى قوة الجسم بمقدار الحاجة إلى قوة الرأي والتدبير وسعة العلم وكثرة التجارب.

(وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) ذَيَّلَ الله سبحانه وتعالى هذه الآية الكريمة بهذه الجملة السامية، للدلالة على أمرين:

أولهما: أن الأمور كلها بيده سبحانه وتعالى، وأنه فعال لما يريد، وأن ما يشاء في هذا الكون يقع، وما لَا يشاء لَا يقع، وأنه سبحانه يؤتي الملك في الدنيا لمن يشاء، وأنه إذ يعطيه هو المسيطر عليه، ولذلك أضيف الملك إليه إذ قال (مُلْكَهُ) فهو إذ يعطيه لمن يعطيه هو الغالب على أمره يستطيع أن يسلبه في أي وقت شاء، فهو مالك الملك، يؤتي الملك من يشاء، ويترع الملك ممن يشاء، وهو القاهر فوق عباده.

ثانيهما: أن كل شيء في الوجود تحت سلطان الله تعالى، وهذا معنى أن الله واسع، أي محيط بكل شيء، قد وسع كل شيء برحمته وقدرته، وأنه يدبر الأمور على مقتضى العلم الواسع الشامل؛ فهو يربط الأسباب والمسببات، وهو يعطي لحكمة يعلمها، ويمنع لحكمة يعلمها، يبتلى الأمم بالقوة والضعف والعزة والذلة، والهزيمة والانتصار، والبأساء والضراء، ثم النعماء والسراء، كما قال تعالى: (وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً. . .)، وعلى الأمم المغلوبة أن تتخذ الأسباب بجمع الكلمة، وتأليف القلوب، وتحرير النفوس من ربقة الأهواء والشهوات، ولا تستسلم للضعف، ولا تستخذي للقوى، وتناضل وتكافح وتصابر، وتتوكل على الله، وإلى الله مصير الأمور.زهرة التفاسير (٢/ ٨٩١)

أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَإِنَّ هَذَا لَمِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ بَعْدَهُ»[١٩٦] هذا مع أن النبي ﷺ كثيراً ما راعى نفوس أصحابه رضي الله عنهم في أمور كثيرة لكن هذا الباب لخطورته لا مراعاة للنفوس به.

إن شئت المال فخذ، وإن شئت الثياب فخذ، وإن شئت الجلوس في صدور المجالس فخذ أما إذا شئت الإمارة فلا لأنها: أمانة ولا تعطى إلا لأهلها. عَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَا تَسْتَعْمِلُنِي؟ قَالَ: فَضَرَبَ بِيَدِه عَلَى مَنْكِبِي، ثُمَّ قَالَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّكَ ضَعِيفٌ، وَإِنَّهَا أَمَانَةُ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ، إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا، وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا»[١٩٧]

ما يرشد إليه الحديث:

في هذا الحديث من الفقه: أن أمارة الساعة تضييع الأمانة، ومن الأمانة، بل من أكبر الأمانة: إسناد الأمر إلى أهله، وتضييع ذلك تضييع للأمانة.[١٩٨]

قال شيخ الإسلام في السياسة الشرعية: الولاة نواب الله تعالى على عباده، وهم وكلاء العباد على أنفسهم، والمقصود بالولاية: إصلاح دين الخلق الَّذي متى فاتهم، خسروا خسرانًا بينًا، و لم ينفعهم ما نعموا به في الدنيا، وإصلاح ما لا يقوم الدِّين إلاَّ به من أمر دنياهم.وهو نوعان:

– قَسْم المال بين مستحقيه.– وعقوبات المعتدين.فإذا اجتهد الرَّاعي في إصلاح دينهم ودنياهم بحسب الإمكان، فإنَّه أفضل أهل زمانه، وكان من المجاهدين في سبيل الله.[١٩٩]

وإِذَا صَارَ الْحُفَاةُ الْعُرَاةُ رِعَاءُ الشَّاءِ – وَهُمْ أَهْلُ الْجَهْلِ وَالْجَفَاءِ – رُؤُوسَ النَّاسِ، وَأَصْحَابَ الثَّرْوَةِ وَالْأَمْوَالِ، حَتَّى يَتَطَاوَلُوا فِي الْبُنْيَانِ، فَإِنَّهُ يَفْسَدُ بِذَلِكَ نِظَامُ الدِّينِ وَالدُّنْيَا، فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ رَأْسُ النَّاسِ مَنْ كَانَ فَقِيرًا عَائِلًا، فَصَارَ مَلِكًا عَلَى النَّاسِ، سَوَاءً كَانَ مُلْكُهُ عَامًّا أَوْ خَاصًّا فِي بَعْضِ الْأَشْيَاءِ، فَإِنَّهُ لَا يَكَادُ يُعْطِي النَّاسَ حُقُوقَهُمْ، بَلْ يَسْتَأْثِرُ عَلَيْهِمْ بِمَا اسْتَوْلَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَالِ، فَقَدْ قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: لِأَنْ تَمُدَّ يَدَكَ إِلَى فَمِ التِّنِّينِ، فَيَقْضِمُهَا،خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَمُدَّهَا إِلَى يَدِ غَنِيٍّ قَدْ عَالَجَ الْفَقْرَ. وَإِذَا كَانَ مَعَ هَذَا جَاهِلًا جَافِيًا، فَسَدَ بِذَلِكَ الدِّينُ، لِأَنَّهُ لَا يَكُونُ لَهُ هِمَّةٌ فِي إِصْلَاحِ دِينِ النَّاسِ وَلَا تَعْلِيمِهِمْ، بَلْ

---

[١٩٦] – الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم ط١ (ص: ٣٣١)٣٧٣٠ –[ش أخرجه مسلم في فضائل الصحابة باب فضائل زيد بن حارثة وأسامة ابن زيد رضي الله عنهما رقم ٢٤٢٦. (بعثا) سرية وهي القطعة من الجيش. (فطعن) قدح وتكلم فيها. (بعض الناس) وكان أشدهم في هذا عياش ابن أبي ربيعة المخزومي رضي الله عنه. (إمارة أبيه) زيد بن حارثة رضي الله عنه في غزوة مؤتة. (وايم الله) يمين الله. (لخليقا) جديرا لائقا بها]

[١٩٧] – تهذيب صحيح مسلم– علي بن نايف الشحود (ص: ٦٧٩)(١٨٢٥)

[ش (إنك ضعيف وإنها أمانة) هذا الحديث أصل عظيم في اجتناب الولايات لا سيما لمن كان فيه ضعف عن القيام بوظائف تلك الولاية وأما الخزي والندامة فهو في حق من لم يكن أهلا لها أو كان أهلا و لم يعدل فيها فيخزيه الله تعالى يوم القيامة ويقضحه ويندم على ما فرط وأما من كان أهلا للولاية وعدل فيها فله فضل عظيم تظاهرت به الأحاديث الصحيحة]

[١٩٨] – الإفصاح عن معاني الصحاح (٧/ ٣٠٩)

[١٩٩] – توضيح الأحكام من بلوغ المرام (٧/ ٤١٧)

هِمَّتُهُ فِي جِبَايَةِ الْمَالِ وَاكْتِنَازِهِ، وَلَا يُبَالِي بِمَا فَسَدَ مِنْ دِينِ النَّاسِ، وَلَا بِمَنْ ضَاعَ مِنْ أَهْلِ حَاجَاتِهِمْ.[٢٠٠]

وحاصل ما في هذا الحديث التنبيهُ على أدب العالِم والمتعلّم. أما العالم فَلِما تضمنه من ترك زجر السائل، بل أدَّبه بالإعراض عنه أولًا، حتى استوفى ما كان فيه، ثمّ رجع إلى جوابه، فرفق به لأنه من الأعراب، وهم جُفاة. وفيه العناية بجواب سؤال السائل، ولو لم يكن السؤال متعينا، ولا الجواب. وأما المتعلم، فلِما تضمنه من أدب السائل، أنْ لا يسأل العالم وهو مشتغل بغيره، لأن حق الأول مقدم. ويؤخذ منه أخذ الدروس على السَّبْق، وكذلك الفتاوى والحكومات ونحوها. وفيه مراجعة العالم إذا لم يفهم ما يجيب به، حتى يتضح لقوله: "كيف إضاعتها" وبوّب عليه ابن حِبان.

وفيه إشارة إلى أن العلم سؤال وجواب. ومِنْ ثَمّ قيل: حُسن السؤال نصف العلم. وقد أَخَذ بظاهر هذه القصة مالك وأحمد وغيرهما في الخطبة، فقالوا: لا نقطع الخطبة لسؤال سائل، بل إذا فرغ يجيبه. وفصل الجمهور بين أن يقع ذلك في أثناء واجباتها، فيؤخر الجواب، أو في غير الواجبات، فيجيب. والأولى حينئذ التفصيل، فإن كان مما يهتم به في أمر الدين، ولاسيما إن اختص بالسائل، فتُستحب إجابته، ثم يتم الخطبة وكذا بين الخطبة والصلاة. وإن كان بخلاف ذلك. فيؤخَّر وكذا قد يقع في أثناء الواجب ما يقتضي تقديم الجواب، لكنْ إذا أجاب استأنف على الأصح، فإن كان السؤال من الأمور التي ليست معرفتها على الفور مهمة، فيؤخر كما في هذا الحديث، ولاسيما ان كان ترك السؤال عن ذلك أوْلى.

وفيه أن الساعة لا تقوم حتى يؤتمن الخائن، وهذا إنما يكون إذا غلب الجهّال، وضعف أهل الحق عن القيام به ونصرته.[٢٠١]

وفيه وجوب العناية بالسائل وطالب العلم، والاهتمام به، وإجابته على سؤاله، كما فعل النبي – ﷺ – حيث قال،" أين السائل " فسأل عنه، واهتم به، وتوجه إليه، وهذا هو واجب العالم، فإن كان السؤال مما يمكن الإجابة عليه أجابه، وإلا أقنعه بكل لطف عن عدم إمكانية الإجابة عن سؤاله، فإن النبي – ﷺ – قد أمر العلماء أن يرحّبوا بطلاب العلم، لأنهم وصية رسول الله – ﷺ – كما جاء في الحديث عن النبي – ﷺ –.

وفيه من الأدب أن لا تسأل العالم ما دام مشغولاً بالحديث مع غيرك، فإذا سئل العالم أثناء حديثه مع الغير أخر الإجابة حتى ينتهي من حديثه لئلا تضيع الفائدة، هذا مع الرفق بالسائل إذا أخطأ في سؤاله، لأن الأعرابي قد أخطأ في سؤاله عن الساعة ولكنه – ﷺ – لم يؤاخذه أو يعاتبه على سؤاله هذا، بل أجابه بما يمكن الإجابة عليه، وهو بيان العلامات الدالة عليها، أو الدالة على الساعة الخاصة. ولم

---

[٢٠٠] – جامع العلوم والحكم ت الأرنؤوط (١/ ١٣٩)

[٢٠١] – كوثر المعاني الدراري في كشف خبايا صحيح البخاري (٣/ ١٣)

يعاتبه أيضاً على سؤاله أثناء حديثه، وإنما اكتفى بتأخير إجابته. ثالثاً: أنه لا حياء في السؤال عن العلم، والإلحاح فيه وتكراره، لزيادة العلم، لأن السائل كرر السؤال بقوله: وكيف إضاعتها.
وفيه أن الولايات كلها من قضاء أو إمارة أو شرطة أو غيرها أمانة ومسؤولية يجب إسنادها إلى مستحقيها من ذوي الدين والأمانة والاختصاص، وإلا فسدت البلاد والعباد، وكان ذلك إيذاناً بانهيار الأمة، والقضاء عليها. خامساً: قال الحافظ: فيه إشارة إلى أن العلم سؤال وجواب، ومن ثَمَّ قيل: السؤال نصف العلم.[٢٠٢]

الحديث الحادي والعشرون: العفو من أخلاق النّاس

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، {خُذِ العَفْوَ} [الأعراف: ١٩٩] وَأْمُرْ بِالعُرْفِ قَالَ: «مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَّا فِي أَخْلاَقِ النَّاسِ»،وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، قَالَ: «أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يَأْخُذَ العَفْوَ مِنْ أَخْلاَقِ النَّاسِ، أَوْ كَمَا قَالَ»[٢٠٣].

لا يَسَعُ الناس إلا السَّعة، إذ أرواح الخلق ضيقة تذهب بقليل المعاناة، والتفريق بين الجماعة المجاهدة والتكاليف التي تَحَمّلها لنفسها استعداداً منها لا تحمّل للمجتمع الذي تعيش في وسطه، فإن فعلت لابد أن ينقلب عليها المجتمع لا محالة، والله هو رب الخلق وله حق العبودية على هذه المجتمعات قال في كتابه: {إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (٣٦) إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (٣٧)} [محمد: ٣٦، ٣٧][٢٠٤]
ولذلك لم يطلب الله شيئاً من عبيده إلا العفو، وهو ما زاد عن حاجتهم، سواءً كان من أموالهم أو أوقاتهم أو قواهم، ولا يمكن لجماعة مهما كانت على الحق في نفسها أن تحقق النصر في مجتمع من المجتمعات إلا إن كسبت قلب وروح هذا المجتمع، ولا يمكن أن يتحقق هذا إلا بأن يتيقن هذا المجتمع أن هذه الجماعة لا تصادم حياة الناس وكسبهم ودنياهم، فإنهم إن رأوا أن سبيل هذه الجماعة هو

---

[٢٠٢] – منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (١/ ١٥٦)

[٢٠٣] – صحيح البخاري (٦/ ٦٠)(٤٦٤٣) [ش (في أخلاق الناس) أي تحث على العفو والتسامح فيما يظهر من أخلاق الناس]

[٢٠٤] – يَحُضُّ اللهُ المُؤْمِنينَ عَلَى الجِهَادِ، وَعَلَى بَذْلِ الأَرْوَاحِ وَالأَمْوَالِ في سَبِيلِ اللهِ، وَفي سَبِيلِ نَصْرِ دِينِه. وَيُصَغِّرُ لَهُمْ شَأنَ الدُّنيا، فَيَقُولُ لَهُمْ: إنَّ الحَيَاةَ الدُّنيا لهوٌ وَلعبٌ لا يَلْبَثُ أنْ يَضْمَحِلَّ حِينَ لا يكُونَ وَرَاءَها غايَةٌ أكْرَمُ وأبقَى، فَلا يَنْبَغي لِعَاقِلٍ أنْ تَصْرِفَهُ لَذَائِذُ هذهِ الحيَاةِ الفَانِيةِ عَنِ العَمَلِ فيما يُرْضِي اللهَ تَعالى، وَيُوصِلُهُ إلى الفَوزِ بنعيمِ الآخرةِ. وإنْ تُؤْمِنُوا باللهِ وبِكُتُبِه وَرُسُلِه، وَتَتَّقُوهُ حَقَّ تُقَاتِه فَتَقُومُوا بِما أمَرَكُم بِه، وَتَنْتَهُوا عَمَّا نَهاكُمْ عَنْهُ فإنَّهُ يُثِيبُكُمْ عَلَى أعمالِكُم، وَلا يبخسُكُمْ مِنْها شيئاً.
وإذا كَانَ اللهُ تَعَالى قَدْ أمَرَكُم بإخْرَاجِ الزَّكَاة، وبالإِنفَاقِ في وُجُوهِ الطَّاعَاتِ فَما ذَلكَ إلاّ لمُواسَاةِ إخوانكم الفُقَرَاءِ، وَهُوَ تَعالى غَنيٌّ عَنْكُم وعَنْ أمْوالكم، ثُمّ إنَّهُ لا يَأمُرُكُم بإنفاقِ أموالكم جَميعها، وَإنما يأمُرُكُم بإخْرَاجِ القَلِيلِ منها، وَهُو تَعَالى لا يُريدُ أن يشُقَّ عَلَى العبادِ في فَرَائِضه وَتَكاليفه لأنَّهُ يَعْلَمُ مَا فُطِرَت عَليه النُّفُوسُ مِنْ شُحٍ وَحِرْصٍ.
فَإِنَهُ تَعالى إذا أمرَ المُؤْمنينَ بإخراجِ أمْوالِهم كُلِّها، وَألَحَّ عَلَيْهِمْ في طَلَبِ ذَلِكَ مِنْهُمْ فَإِنَّهُ يحْرِجُهُمْ بذَلِكَ، وَيُظْهِرُ شُحَّ نُفُوسِهِمْ، وَتَعَلُّقَهُمُ الشَّديدَ بالمالِ، فَتَخْرُجُ أحْقَادُهُمْ. أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٤٤٦٠، بترقيم الشاملة آليا)

سبيل الخراب والفقر والخوف انفضوا عنها ولا شك، ولذلك كان من حجج قريش في عدم اتباعهم لرسول الله ﷺ أن قالوا: {إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا } [القصص: ٥٧] والله أكذَبَهم في هذه الدعوى وقال: {أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} [القصص: ٥٧][٢٠٥]، ولم يصدقهم فيها فدلّ على أن الدين هو الذي يحقق للناس سعادة دنياهم ولا يدمرها كما قال تعالى: {فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ(٤)} [قريش: ٣، ٤].

هذه الحقيقة تخالف ما يطرحه البعض من تقديم دين الله تعالى على صورة توافق أهواء الناس وشهواتهم، إذ دين الله لا يقدم للناس إلا مع حقيقة الإيمان بالغيب وتحمل الأوامر الشرعية على حقيقتها حتى لو خالفت ما عليه والناس من رغبة في الشهوات والأهواء، ولكن لا يقدم دين الله للناس وهم يرون أصحابه يتوعدونهم بالذبح ويضيقون عليهم سبل الحياة، وكأن المجتمع لا يكفيه ما يفعله بهم طواغيت الأرض من استبعاد وإفساد وجعل المال {كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ} [الحشر: ٧] حتى يأتيهم آخرون يريدون أن يقضوا على البقية الباقية عندهم وفيهم، وهذا الأمر يستدعي بيان مسألة مهمة وهو أن **الجهاد لا يكون إلا ضد الملأ والطواغيت** فهم الذين يوجه لهم سلاح القتل والقتال، وأما المستضعفون فلهم الحسبة، وهذا العمل الجليل (الحسبة) لا ينبغي أن تقوم به هذه الجماعات أصالة إلا بما يحقق رفع الظلم الذي تفعله الطواغيت ضد المستضعفين، وأما انشغال جماعات الجهاد بعمل الحسبة فإن الحاكم العادل سيبغضه نصف شعبه إن عدل فكيف لو لم يكن حاكما بل كان متطوعاً، مع ما في عمل الحسبة من أمور هي أشبه بعمل القاضي وأحكامه وهذا قلما يتحقق من غير تمكن[٢٠٦].

---

[٢٠٥] – يُخْبِرُ اللهُ تَعَالَى عَمَّا اعتَذَرَ به بَعْضُ المُشْرِكِينَ إلى النَّبِيِّ ﷺ عَنْ سَبَبِ عَدَمِ إيمانِهِمْ بِرِسَالَتِه، وَكَانَ مِنْ هؤلاء المُعتَذِرِينَ الحَارِثُ بنُ عُثْمَانَ بْنِ نَوْفَل بْنِ عَبْدِ مُنَافٍ فَقَدْ جَاءَ النَّبِيَّ ﷺ ، وَقَالَ لَهُ: نَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّكَ عَلى الحقِّ، ولكنَّنا نَخَافُ إنْ اتَّبَعْنَاكَ، وَخَالَفْنا العَرَبَ، أَنْ يُخرِجُونامِنْ أَرضِنا، ويَغْلِبُونا عَلَى سُلْطَانِنا ونَحنُ قِلَّةٌ. وَيَردُّ اللهُ تَعالى عَلَى هؤلاء بقَولِه: إنّ الذي اعْتَذَرُوا به بَاطِلٌ، لأنَّ اللهَ جَعَلَهُمْ في بَلَدٍ آمِن، وَحَرَمٍ مُعَظَّمٍ آمِنٍ مُنْذُ وُضِعَ. فَكَيفَ يَكُونَ هذا الحَرَمُ آمناً لَهُمْ وَهُمْ كُفّارٌ، مُشْرِكُونَ، وَلا يَكُونُ آمنا لَهُمْ إذا أَسْلَمُوا واتَّبَعُوا الحَقَّ؟ ثُمَّ يَقُولُ تَعَالى: إنَّهُ يَسَّرَ وصُولَ الثَّمَرَاتِ والأَمتِعَةِ والأَرْزَاقِ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ إلى أهلِ الحَرَمِ، وهذا كُلُّهُ بِفَضْلِ اللهِ، وَمَنْ عِنَايَتِه، ولكِنَّ أَكثَرَ هؤلاءِ جَهَلَةٌ لاَ يَعْلَمُونَ مَا فِيهِ خَيرُهُم وَسَعَادَتُهُمْ، وَلِذَلِكَ قَالُوا مَا قَالُوا. أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٣١٩١، بترقيم الشاملة آليا)

[٢٠٦] – قلت : وهذا ما تفعله أكثر الجماعات الجهادية فهم يتركون الدعوة إلى الله وهداية الناس ، ويشتغلون بالحسبة والقضاء بالرغم أنهم غير ممكنين ، وهم ينقصهم العلم الشرعي الحقيقي ومعرفة الواقع بشكل صحيح للمواءمة بينهما ، وقد وقعوا بأخطاء فاحشة عندما تركوا الجهاد في سبيل الله واشتغلوا بغير ما خلقوا له ... ومقتهم معظم الناس ... لأنهم لم يعطوا الصورة الصحيحة للإسلام الذي أنزله الله تعالى ... بل حكموا على من يخالفهم أو يرد عليهم بالكفر والردة والمروق من الدين واستحلوا دمه وماله دون وجه حق ... والأمثلة كثيرة جدا في الجهاد في الشام ....

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ - ﷺ - لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ حِينَ بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ: «إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَإِنْ هُمْ طَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ طَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً، تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ طَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ **فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ**، وَاتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ»[٢٠٧] هذه وصية رسول الله ﷺ لأمرائه ذلك لأن الرحلة طويلة والتضييق إن طال انقلب إلى سخط وغَضَب وبغضاء، بل الأمر ضربة وضربة، فواحدة تضحكهم وتفرحهم، وأخرى مما يتحملون يرون فيها أثر الجد والنشاط ليفزعوا لأخرى إن دعوناهم إليها مرة ثانية، " أَحَبُّ الأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ"[٢٠٨]، وأما الذين يشقون على الناس فسيشق الله عليهم، وكفى بمشقة الله عليهم أن يعاديهم أهلهم وأمتهم.

الحياة الدعوية والجهادية ليست قصة هرمية تسير إلى نهاية مغلقة، بل هي بناء متوازن في أبعاده لأنه لا ينتهي إلى عقدة حاسمة، ولو كان الأمر كذلك لصح أن نرمي ثقلنا وثقل الناس في هذه العقدة الحاسمة لنرتاح بعدها، لكن الأمر ليس كذلك، بل هي عقد متتالية، وحلقة وراء حلقة، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ، فَأَوْغِلُوا فِيهِ بِرِفْقٍ، وَلَا تُبَغِّضْ إِلَى نَفْسِكَ عِبَادَةَ اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ، فَإِنَّ الْمُنْبَتَّ لَا أَرْضًا قَطَعَ، وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى»[٢٠٩]، وأصحاب الأرواح السريعة يذهبون بسرعة، يأتون يرددون الكثير ويملؤون الوديان صراخاً ثم ينفضون سراعاً كذلك.

---

[٢٠٧] - صحيح البخاري (٥/ ١٦٢) (٤٣٤٧) وصحيح مسلم (١/ ٥٠) ٢٩ - (١٩) والمفصل في شرح السنن النبوية في الأحكام السياسية (ص: ٩)

[ش (وكرائم أموالهم) الكرائم جمع كريمة قال صاحب المطالع هي جامعة الكمال الممكن في حقها من غزارة لبن وجمال صورة أو كثرة لحم أو صوف (فإنه ليس بينها وبين الله حجاب) أي أنها مسموعة لا ترد]

وفيه أنه لا يحل للساعي أن يأخذ من الجيد العالي، بل يأخذ الوسط إلا إذا سمح بذلك رب المال، بلا حياء ولا إكراه، فالحق له وقد بذله.

وفيه أن يخشى الساعي من ظلم الناس، فإن ظلمهم سبب في دعائهم عليه الذي لا يرده الله تعالى، لأنه طلب العدل والحكم، والله أعدل العادلين، وأحكم الحاكمين. وفي الحديث دليل على فداحة الظلم.تيسير العلام شرح عمدة الأحكام (ص: ٢٩٧)

[٢٠٨] - الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ٦٥٤)٦٤٦٤ - ١٨١٦ - [ش أخرجه مسلم في صفات المنافقين وأحكامهم باب لن يدخل أحد الجنة بعمله رقم ٢٨١٨ (أحب الأعمال) أكثرها قبولا (أدومها) ما استمر منها وواظب عليه فاعله]

[٢٠٩] - أمالي ابن بشران - الجزء الأول (ص: ٣٧٠)(٨٤٧) والسنن الكبرى للبيهقي (٣/ ٢٧)(٤٧٤٣) حسن لغيره

فَقَدْ كَرِهَ التَّعَمُّقَ، وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ لَمَّا عَلِمَ مِنْ جِبِلَّةِ الْخَلْقِ عَلَى الضَّعْفِ، وَمَا فِي طِبَاعِهِمْ مِنَ الْمَلَلِ، وَالسَّأَمَةِ، خَوْفًا عَلَيْهِمْ أَنْ يُبْغِضُوا عِبَادَةَ اللَّهِ، وَيَسْتَثْقِلُوا طَاعَتَهُ، وَتَمَلُّوا خِدْمَتَهُ، فَأَمَرَهُمْ بِالاسْتِجْمَامِ وَالاسْتِرَاحَةِ؛ لِاسْتِرْجَاعِ الْقُوَى، وَزَوَالِ الضَّجَرِ، وَلِيَكُونَ ذَلِكَ أَدْعَى لَهُمْ إِلَى حُسْنِ الطَّاعَةِ لِلَّهِ تَعَالَى، وَمَحَبَّةِ لِلْخِدْمَةِ لَهُ، وَأُلْفَةِ عِبَادَتِه، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «لَكِنِّي أَصُومُ، وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي، وَأَرْقُدُ، وَآتِي النِّسَاءَ، أَلَا فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي» أَلَا وَكُلُّ قَلِيلٍ فِي سُنَّةٍ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ فِي بِدْعَةٍ، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو: «إِنَّ لِلَّهِ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِبَدَنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا» وَكَتَبَ سُلَيْمَانُ إِلَى أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إِنِّي أَنَامُ، وَأَقُومُ، وَأَحْسِبُ

الرحمة على الخلق وتكليفهم ما يستطيعون وفتح أبواب الراحة والنـــزهة لهم تحبب فيك الخلق وتحبب فيك الخالق فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ"[٢١٠]، والأمر مع الجماعة هو أمر الرحمة والسعة نمشي مشـــي أضعفهم كما هو شأن المرء مع الصلاة[٢١١]، فإنه يخفف ما يستطيع في الجماعة وأما إن فرغ إلى خاصة نفسه وصلاته فليطل كما يحب، ثم ليت الناس في زماننا يقومون فقط بعُشر ما كان عليه الناس قديماً، إذاً لنجوا.

ما يرشد إليه الحديث:

دل هذا الحديث على تفسير قوله تعالى: (خُذِ الْعَفْوَ) وأن المراد به أن الله أمر نبيه – ﷺ – بالتســـامح مع الناس ومعاشرتهم بالحسنى، وقبول ما أتى من أفعالهم بسهولة ويسر دون إحراجهم، أو التكليـــف عليهم، بما يشق على نفوسهم، كما دلت الآية الكريمة على وجوب التناصح والتواصي بالحق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الإعراض عن الجهلاء، والحمقى والسفهاء، وعدم مجاراتهم أو مجازاتهم، والصفح عنهم، والتغاضى عن زلاتهم، وهو معنى قوله: (وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ) ولا شـــك أن هـــذه الأمور الثلاثة هي دعائم الخلق الكامل الذي تكتسب به محبة الناس، وتجمع بـــه القلـــوب المتنـــافرة، وتتوثق به الروابط الاجتماعية.[٢١٢]

الحديث الثاني والعشرون: المتشبّع بما لم يعط فهو كلابس ثوبي زور

نَوْمَتِي كَمَا أَحْسِبُ قَوْمَتِي، وَأَحْسِبُ نَوْمَتِي طَاعَةً للَّه تَعَالَى، هَذَا الْحَقُّ، فَإِيفَاؤُهُ إِيَّاهُ طَاعَةٌ للَّه، وَلأَنَّ فِي نَوْمَته اسْتِجْلَابَ الْقُوَّة لقَوْمَته، وَتَشْحِيذَ الطَّبْعِ، وَحَثًّا منْهُ لنَفْسه عَلَى طَاعَة رَبِّه عَزَّ وَجَلَّ، وَحَبَّبَ عبَادَةَ اللَّه إِلَى نَفْسه؛ لأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَحَبَّ منْ عبَاده أَنْ يُحبُّـــوهُ، وَيُؤْثرُوهُ، وَيُقْبلُوا بهَا عَلَيْه، وَلذَلكَ كَلَّفَهُمُ الْأَعْمَالَ لتَشْتَغلُوا بهَا عَمَّا دُونَهُ، وَتُقْبلُوا بهَا عَلَيْه، وَتَتَوَجَّهُوا بأَدَائهَا إِلَيْه، فَإِذَا تَحَمَّلُوا منْهَـــا فَوْقَ طَاقَتهمْ مَلُّوا، فَتَرَكُوهَا، وَفِي تَرْكهَا تَرْكُ الْإِقْبَال عَلَيْه، وَالتَّوَجُّه إِلَيْه، وَهُوَ غَنيٌّ عَنْ أَفْعَال عبَاده، وَلَا يَزيدُهُ طَاعَتُهُمْ، وَلَـــا يُنْقصُـــهُ مَعْصيَتُهُمْ، وَإِنَّمَا أَرَادَ منْهُمْ إِظْهَارَ فَقْرهمْ إِلَيْه، وَرُؤْيَةَ اضْطرَارهمْ إِلَيْه، وَعَجْزهُمْ ليُغْنيَهُمْ، وَيُقَوِّيَهُمْ، وَيَجْعَلَهُمْ مُلُوكًا خَالدينَ، وَأَغْنيَاءَ لَا يَفْتَقرُونَ، وَأَقْوِيَاءَ لَا يَضْعُفُونَ، سُبْحَانَ اللَّطيف بعبَاده، وَالرَّءُوف بهمْ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى قَوْله ﷺ : «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَمَلُّ، حَتَّى تَمَلُّوا» ، أَيْ: لَا يَتْرُكُ ثَوَابَكُمْ، وَالْإِقْبَالَ عَلَيْكُمْ قَبُولًا لأَعْمَالكُمُ الْمَدْخُول فيهَا مَا لَمْ تَمَلُّوا طَاعَتَهُ، وَتَسْتَثْقلُوا خدْمَتَهُ، وَتُبْغضُوا عبَادَتَهُ، كَأَنَّهُ يَقُولُ: إِنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يُقْبلُ عَلَيْكُمْ، وَإِنْ قَصَّرْتُمْ في عبَادَته، وَيَقْبَلُ يَسيرَ أَعْمَالكُمْ، وَيُثيبُكُمْ عَلَيْهَا الْجَزيلَ مَا دُمْتُمْ فيهَا رَاغبينَ، وَلَهَا مُريدينَ، وَبنيَّاتكُمْ إِلَيْهَا قَاصدينَ، وَإِنْ لَمْ تَبْلُغُوا إرَادَتَكُمْ فيهَا، وَمَقَاصدَكُمْ منْهَا، وَإِنَّمَا يَتْرُكُ ثَوَابَكُمْ، وَالْإِقْبَالَ لَكُمْ، إِذَا أَعْرَضْتُمْ عَنْهَا، وَمَلَلْتُمُوهَا "بحر الفوائد المسمى بمعاني الأخبار للكلاباذي (ص: ٢٠٠)

[٢١٠] – المسند الموضوعي الجامع للكتب العشرة (٤/ ٣٩٧) ، (ت) ١٩٢٤ صحيح

[٢١١] – عَنْ عُثْمَانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ، قَالَ: كَانَ آخِرُ مَا «عَهِدَ إِلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ صَلِّ بِأَصْحَابِكَ صَلَاةَ أَضْعَفِهِمْ، فَإِنَّ فِيهِمُ الْكَـــبِيرَ وَالضَّعِيفَ وَذَا الْحَاجَةِ»المعجم الكبير للطبراني (٩/ ٥٦)(٨٣٧٧) صحيح لغيره

[٢١٢] – منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٥/ ٥٦)

عَنْ أَسْمَاءَ، أَنَّ امْرَأَةً قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ لِي ضَرَّةً، فَهَلْ عَلَيَّ جُنَاحٌ إِنْ تَشَبَّعْتُ مِنْ زَوْجِي غَيْرَ الَّذِي يُعْطِينِي؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلاَبِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ»[٢١٣]

أجمل الكلمات ما دلت على الحقائق، وروعة البيان في كونه إبانة عن صدق الحال وإلا فهو لغو وباطل، وإن آلاف الكلمات لا تشبع جائعاً ولا تستر عارياً ولا تنصر مقاتلاً، والفساد ليس في وجود الشيء لكن قد يكون في العبارة المعبرة عنه، حينها يكون الوهم والكذب، ورحلة العاملين لدين الله تعالى هي رحلة إكمال أي رحلة الصدق والحقائق.

الشعارات والعناوين لا تحقق النصر ولا تدخل الجنان، فلو أن المشرك سمى نفسه موحداً وانتسب إلى إمام الموحدين إبراهيم ما كان ليدخل الجنة إلا بالحقيقة التي معه {وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ }[العاديات : ١٠]، وإذا كان أمر الآخرة هو أمر الرحمة التي هي أوسع وأرحب من العدل فإن الدنيا هي دار السنن التي قوامها العدل، وهي لا تحابي أحداً {فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً } [فاطر : ٤٣] فإن ميزانها هو ميزان الحقائق، أي الوجود، فمن غير صخر لا تبنى البيوت،

---

[٢١٣] – الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ٥٨٠)٥٢١٩ – ١٥٧٦ –[ش (أخرجه مسلم في الباس والزينة باب النهي عن التزوير في اللباس وغيره ... رقم ٢١٣٠ (ضرة) هي الزوجة الأخرى لزوج المرأة سميت بذلك لما توقع بالأخرى من ضرر لمشاركتها لها بزوجها وما يكون له من نفع واسم هذه الضرة هنا أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط رضي الله عنها. (تشبعت) ادعيت أنه يعطيني من الحظوة عنده أكثر ما هو واقع تريد بذلك غيظ ضرتها وإزعاجها. (المتشبع) المتزين والمتظاهر شبه بالشبعان. (كلابس ثوبي زور) كمن يلبس ثوبين مستعارين أو مودوعين عنده يتظاهر أنها ملكه. وقيل هو من يلبس لباس أهل الزهد والتقوى والصلاح وهو ليس كذلك وقيل يلبس ثوب ويصل بكميه كمين آخرين ليوهم أنهما ثوبان رياء ومفاخرة]

«وَالْمُتَشَبِّعُ» : هُوَ الَّذِي يُظْهِرُ الشَّبَعَ وَلَيْسَ بِشَبْعَانَ. ومعناهُ هُنَا: أَنْ يُظْهِرَ أَنَّهُ حَصَلَ لَهُ فَضِيلَةٌ وَلَيْسَتْ حَاصِلَةً. «وَلابِسُ ثَوْبَي زُورٍ» أَيْ: ذِي زُورٍ، وَهُوَ الَّذِي يُزَوِّرُ عَلَى النَّاسِ، بِأَنْ يَتَزَيَّى بِزِيِّ أَهْلِ الزُّهْدِ أَو العِلْمِ أَو الثَّرْوَةِ، لِيَغْتَرَّ بِهِ النَّاسُ وَلَيْسَ هُوَ بِتِلْكَ الصِّفَةِ. وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ واللهُ أَعْلَمُ.

قال البخاري: باب المتشبع بما لم ينل، وما ينهى من افتخار الضرة. وذكر الحديث.

قال الحافظ: أشار بهذا إلى ما ذكر أبو عبيد في تفسير الخبر: قال: قوله: «المتشبّع» ، أي: المتزين بما ليس عنده يتكثر بذلك، ويتزين بالباطل،كالمرأة تكون عند الرجل ولها ضرة، فتدَّعي من الحظوة عند زوجها أكثر مما عنده، تريد بذلك غيظ ضرتها. وكذلك هذا في الرجال.

قال: وأما قوله: «كلابس ثوبيَ زور» ، فإنه الرجل يلبس الثياب المشبهة لثياب الزهاد، يوهم أنه منهم ويُظهر من التخشع والتقشف أكثر مما في قلبه منه.

قال: وفيه وجه آخر: أن يكون المراد بالثياب الأنفس. كقولهم: فلان نقي الثوب، إذا كان بريئًا من الدنس. وفلان دنس الثوب، إذا كان مغموصًا عليه في دينه.

وقال الخطابي: الثوب مثل، ومعناه، أنه صاحب زور وكذب، كما يقال لمن وصف بالبراءة من الأدناس: طاهر الثوب. والمراد به نفس الرجل.

وقال أبو سعيد الضرير: المراد به أن شاهد الزور قد يستعير ثوبين يتجمل بهما ليوهم أنه مقبول الشهادة.

قال الحافظ: وهذا نقله الخطابي عن نعيم بن حماد قال: كان يكون في الحي الرجل له هيئة وشارة، فإذا احتيج إلى شهادة زور لبس ثوبيه، وأقبل فشهد، فقبل لنبل هيئته، وحسن ثوبيه، فيقال: أمضاها بثوبيه.تطريز رياض الصالحين (ص: ٨٦٣)

ومن غير رشد لا تدوم الجماعات، والذين يبحثون عن شعار جميل أو إعلام مبـــهرج دون اهتمـــام بالحقائق سرعان ما ينكشف الغبار ويظهر المستور.

(ثوب الزور) وثوب آخر هو أخوه، واحد يكذب به على الناس ويوهمهم بالحيلة اللفظية، وآخر يرتد على نفسه لأنه "متشبّع" فيتجشّأ من غير طعام إنما هو الهواء ولا شيء بعده، فهذان الثوبان المصنوعان من الكلمات، ومن الكلمات فقط ماذا عساهما أن يحققان مـــن ســـتر العـــورات أو دفـــع الـــبرد والمهلكات؟! وماذا لو صار عتاد المجتمع وقوامه هو الكلمات، يقتاتون بها ويتحاربون بهـــا وعليهـــا، وينامون على أنغامها ووسائدها، فهل لهذا المجتمع دوام أو تقدم؟!

جماعات الحق عمادها الصدق الذي به تحقق صدق انتمائها لدين الله، وبه تحقق احترامهـــا لنفســـها واحترام الآخرين لها، حينها يصبح لكلماتها قوة الحقائق، فالصدق لا مساومة فيه، فلا يجوز الكـــذب بحال على الأمة ولا على الإخوان وهذا ركن الحياة والشهادة على الخلق.

(ثوب الزور) يصنع الوهم الخادع في المرء فيجلس على جذع شجرة حطمة ويظن نفسه أنه يمتطـــي جواداً سابقاً، فيطلق صرخات المقاتل والتهديد، ويضع الخطط والمقررات دون وجود عمد المقدمات لها، وهو لا يقوى على نفخة هواء من خصم يتعامل مع سنن الحياة وحقائقها، ولذلك من واجبـــات أي جماعة وحركة أن تعي واقعها، وأن تعرف حلقتها التاريخية، إذ الوعي على موطن رجلك في دورة التاريخ شرط تحقيق النصر الملائم للمرحلة، فالتاريخ حلقات، حلقة من حلقات الصعود أو الثبات أو الهبوط، ففي الصعود تحافظ على الاندفاع، وفي الثبات تحافظ على التوازن، وفي الهبوط تمنع الانهيار، فمن الجهل الفاضح أن يتكلم أحد عن الفتوح -الجهاد الهجومي- وهو في حلقـــة إيقـــاف الهبـــوط والانهيار، وتحقيق المطلوب من أي مرحلة هو النصر، فخالد بن الوليد رضي الله عنه في مؤتـــة حـــين انحاز بأصحابه محافظاً عليهم من الفناء إنما حقق النصر الملائم لواقعه، ولم يحققه إلا لوعيه على حلقته التاريخية حينئذ، وهذه هي لغة الحقائق لا "لغة الزور"، وهي التي تنفع حتى لو كانت مؤلمـــة وصـــعبة على النفوس وآمالها.

مع رحلة الجهاد والدعوة لنحذر من الشعارات الكبيرة فهي "أعلام زور" لا تثبـــت أمـــام الريـــاح والعواصف وتصبح أحمالاً ثقيلة على كاهل الجماعة والأمة، تعاني منها أكثر من معاناتها لأعـــدائها، لأن مطالبها كبيرة لأقوام يقابلها ويعادلها.

ومع هذه الرحلة لنحذر من الانتفاخ الكاذب، إذ حاله حال "الحمل الكاذب" وهو عين "التشـــبع"، وهو انتفاخ ورمي عماده المرض والرهق لا الصحة والقوة.

مع هذه الرحلة حجر صغير خير من صراخ عال، وخيط عنكبوت خير من "ثوب زور".

ليأتي الناس إلينا وقد عرفوا ما لهم وما عليهم، وقد وعوا ما سيلاقونه وما سيقدمونه، فلا مخبآت مكتومة، ولا مفاجآت في طريق العمل والشهادة على الخلق، لأنه طريق معبّد مرسوم قوامه الصدق والأمانة.

في الحديث (حديث الباب) روعة البيان سامقة بجمال مثمر، وجذر قوي عميق، فأي جمال عظيم هذه في قوله: (متشبع) و(لابس ثوبي زور)، إذ الناس لا يعرفون سرك الكامن في بطنك، فادعاء المرء الشبع لا دليل للخصم يكذبه، ولكن هيهات إنما هو "لابس" وهذا أمره للعيان لا يخفى، فمهما ادعيت باطناً فإنما هو للعين مكشوف، إذ لا تقل "عندي" لأن الميدان سيكذبه، شئت أم أبيت.

ثم تأمل (ثوبي) لا واحد، وقد تقدم سره. والله أعلم.

ما يرشد إليه الحديث :

قال البخاري: باب المتشبع بما لم ينل، وما ينهى من افتخار الضرة. وذكر الحديث.

قال الحافظ: أشار بهذا إلى ما ذكر أبو عبيد في تفسير الخبر: قال: قوله: «المتشبّع» ، أي: المتزين بما ليس عنده يتكثر بذلك، ويتزين بالباطل،كالمرأة تكون عند الرجل ولها ضرة، فتدَّعي من الحظوة عند زوجها أكثر مما عنده، تريد بذلك غيظ ضرتها. وكذلك هذا في الرجال.

قال: وأما قوله: «كلابس ثوبيَ زور» ، فإنه الرجل يلبس الثياب المشبهة لثياب الزهاد، يوهم أنه منهم ويُظهر من التخشع والتقشف أكثر مما في قلبه منه.

قال: وفيه وجه آخر: أن يكون المراد بالثياب الأنفس. كقولهم: فلان نقي الثوب، إذا كان بريئًا من الدنس. وفلان دنس الثوب، إذا كان مغموصًا عليه في دينه.

وقال الخطابي: الثوب مثل، ومعناه، أنه صاحب زور وكذب، كما يقال لمن وصف بالبراءة من الأدناس: طاهر الثوب. والمراد به نفس الرجل.وقال أبو سعيد الضرير: المراد به أن شاهد الزور قد يستعير ثوبين يتجمل بهما ليوهم أنه مقبول الشهادة.قال الحافظ: وهذا نقله الخطابي عن نعيم بن حماد قال: كان يكون في الحي الرجل له هيئة وشارة، فإذا احتيج إلى شهادة زور لبس ثوبيه، وأقبل فشهد، فقبل لنبل هيئته، وحسن ثوبيه، فيقال: أمضاها بثوبيه[٢١٤].

إن تشبع المرأة على ضرَّتها بما لم يعطها زوجها محرَّم ؛ لأنَّه شُبه بمحرَّم ، وإنما كان ذلك محرَّمًا ؛ لأنَّه تصرف في ملك الغير بغير إذنه ، ورياءً ، وأذًا للضرة من نسبة الزوج إلى أنَّه آثرها عليها ، وهو لم يفعل ، وكل ذلك محرَّم .[٢١٥]

الحديث الثالث والعشرون: سدّدوا وقاربوا واغدوا وروحوا

---

[٢١٤] – تطريز رياض الصالحين (ص: ٨٦٣)

[٢١٥] – المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (١٧/ ١٢٤)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَنْ يُنَجِّيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ» قَالُوا: وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «وَلاَ أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ، سَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَاغْدُوا وَرُوحُوا، وَشَيْءٌ مِنَ الدُّلْجَةِ، وَالقَصْدَ القَصْدَ تَبْلُغُوا»[٢١٦].

في الدوام مع القلة النجاح محقق، والحمل الكبير لا تعجز عنه قرية النمل، والجدُّ بنى سلاسل عظيمة من حجارة صغيرة لأرضه، يجمعها بجد يومياً من بعد صلاة الفجر وفي نفس طويل وأما الحفيد فعجز أن يبني بيت دجاج لأنه ينتظر أن يجمع مليون دينار ليبني قصراً عالياً في لحظة واحدة.

على أرجل ملفوفة بقماش مخرق مرقع، ودواب هزيلة، وصلوا إلى الصّين، وبسرج ليلية تعبة وأقلام لا يكاد يكمل الكلمة حتى يغمس في حبره، وعلى ورق مرة من جريد النخل وأخرى على حيوان كانت كنوز العلم تسير في حمائل الأطفال والعرائس، كل ذلك صنع على قاعدة: (القصد القصد تبلغوا)، وفي زمن "الكمبيوتر" والطائرات النفّاثة والسيارات السريعة ما زال الناس يرتكسون في مقاعدهم لأنهم يجلسون ينتظرون "اللحظة المناسبة" التي يتمنونها من "الفراغ" و"القوة" ليتحقق لهم كل شيء، فكانت النتيجة: لا شيء.

لعلك لا تملك قدرة توصلك وعلماً كافياً، لكن يكفيك: (سدّدوا وقاربوا) إذ الكمال وهمٌ في العقول لا وجود له في الأعيان، والذين ينتظرون الكمال إنما يقتاتون الوهم.

يقولون غداً، ففي غد يكون الفراغ الواسع الذي يمكن به أن تبدأ الرحلة، لأن اليوم ضيّق، وينسون أن غداً ليس فيه لحظة زائدة عما عليه اليوم، ولذلك إن كنت مشغولاً في الصباح فجدّ في المساء، (اغدوا وروحوا) إذ يكفيك ما عندك الآن مع قلته.

نم حتى يتعبك جنبك، واضطجع في ليلك ما استطعت وأحببت، لكنّك ستجد في نهاية الليل لحظة قبل الفجر تعطيها لعمل تبنيه فتجده أمامك كبيرا بعد ذلك.

كل شيء يمكن المساومة عليه، إن لم يعجبك العمل صباحا فاعمله مساءاً، وإن لم تستطع اليقين فيكفيك غلبة الظن، لكن إياك والتفريط في الدوام، بل (القصد القصد) فهذا إن فرطت فيه لم تبلغ ولن تبلغ مهما ملكت من القدرات. الدين عميق، وكذا الكون، والرحلة طويلة لأنه لا نهاية لها إلا بالموت فالعلاج الوحيد لهذه المعضلة هو أن تحمل الخفيف وتداوم المسير.

هذه قاعدة الإنجاز، وقاعدة النجاح، بل هي إكسير الثبات والوجود، وحين يتبارز الناس يكون للدؤوب الكلمة الفصل.

---

[٢١٦] – الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ٦٥٤)٦٤٦٣ – ١٨١٥ –[ش أخرجه مسلم في صفات المنافقين وأحكامهم باب لن يدخل أحد الجنة بعمله رقم ٢٨١٦ (اغدوا) من الغدو وهو السير أول النهار. (روحوا) من الرواح وهو السير في النصف الثاني من النهار. (الدلجة) السير آخر الليل. (القصد) الزموا الوسط المعتدل في الأمور. (تبلغوا) مقصدكم وبغيتكم]

(شيئاً من الدلُجة) إذ النفس حال إقبالها، والجسم في لحظة نشاطه، والأرزاق لم توزع، و لم ترحل الطيور بعدُ بأرزاقها وحينها يكون القطاف من رأس الثمر، وهو أغلاه وأجمله وأغناه، ولذلك يكون "الشيء" مع قلته أفضل من حمل بعير من "البقايا" والمخلفات، لأن روحها ذابلة وعطاءها ضعيف.

لا فرق بين الغدو والرواح لكن لا بد من "شيء من الدلجة" حينها تكون "بيعتان في بيعة" وللقط ثمن غالٍ للحقوق بالبعير إذ هو المقصود.

في العمل: سدّد وقارب.

في الوقت: غدو ورواح وشيء من الدلجة.

في الإدارة: القصد القصد.

حينها يقيناً ستصل بإذن الله تعالى.

رحلة العاملين مع العلم والجهاد ليست مرحلة تقطع ثم تحط الرحال بل هي رحلة وراء رحلة، في العمل ومع المحبرة إلى المقبرة، وفي الجهاد {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ } [البقرة: ١٩٣]، ورحلة العابدين { وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ} [الحجر: ٩٩] فما أطولها من رحلة لابدّ من قطعها، وما أرحم قائدها وراعيها: إنه محمد بن عبد المطلب ﷺ.

بناء الجماعات غير بناء الأفراد، فالأفراد يبنون على قاعدة «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ»[٢١٧] فهو يعيش مقتنصاً اللحظة كالطير يمر على الماء فيأخذ حسوات ويسير، لكن مع الجماعات تبنى الكتائب كما تبنى الكتب، تبنى لتدوم، وترصّ بمتانة الثبات والدوام، وإلا فهي نسمة ذاهبة لا تقوى على مهمات الحياة وتكاليف الدين مع الأمم الأخرى، فالإتقان أساس ذلك، والتأمل العميق -(سدّدوا وقاربوا)- فهو بذل المستطاع مع العلم، وليس رمياً في الهواء ولا من وراء الغيب، بل بقياس الدقة التي هي أقصى قدراتك، وإلا فما تبنيه مجرد ركام حجارة لا تكن مغروراً، فالعلم يسبق العمل "سدّد وقارب ثم اغد ورح "، وأما الغادي والرائح في كل اتجاه لا يدري أين مذهبه ولا مقصده فهو راجع بخفّي حنين ولا شك.

---

[٢١٧] -عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - بِمَنْكِبِي، فَقَالَ: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ» وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ، يَقُولُ: «إِذَا أَمْسَيْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ المَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ». صحيح البخاري (٨/ ٨٩) (٦٤١٦)

[ش (كأنك غريب) بعيد عن موطنه لا يتخذ الدار التي هو فيها موطنا ولا يحدث نفسه بالبقاء قال العيني هذه كلمة جامعة لأنواع النصائح إذ الغريب لقلة معرفته بالناس قليل الحسد والعداوة والحقد والنفاق والتراع وسائر الرذائل منشؤها الاختلاط بالخلائق ولقلة إقامته قليل الدار والبستان والمزرعة والأهل والعيال وسائر العلائق التي هي منشأ الاشتغال عن الخالق. (عابر سبيل) مار بطريق وتعلقاته أقل من تعلقات الغريب (خذ من صحتك لمرضك) اشتغل حال الصحة بالطاعات بقدر يسد الخلل والنقص الحاصل بسبب المرض الذي قد يقعد عنها. (من حياتك لموتك) اغتنم أيام حياتك بالأعمال التي تنفعك عند الله تعالى بعد موتك]

حدّد وجهتك، اجمع الأدوات، ثم ابدأ المسيرة، وكلما كلَّت رواحلك أرِحها قليلاً مع عين تَرصُد، وروح تتطلع إلى هناك فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: قَالَ اللَّهُ «أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ»[٢١٨]، فهناك تستريح.

نكتة: إن أعظم المعلومات والقدرات التي يجنيها الإنسان في حياته هي خلال الفترة الأولى من حياته، فهو يتعلم اللغة وروحها، ويتعلم أسماء الأشياء الكثيرة، كما يتعلم العجائب من حقائق الأشياء وماهيتها، ويتعلم الآداب والأخلاق، والكثير الكثير، ولو تفكرنا لوجدنا أن هذه الكمية الهائلة من العلوم إنما تلقاها بروية وهدوء وعلى قاعدة (القصد القصد) في تتابع يومي وفي كل لحظة، وبالصبر وعدم التواني، فهلا تعلمنا من هذه الحقيقة في تحصيلنا وحياتنا وجهادنا وسعينا؟!

ما يرشد إليه الحديث :

اليسر ضد العسر، ومعنى ذلك أن التيسير عند التعليم، وعند الإخبار، وحمل على اليسر على أسر محامله، وأحسن وجوهه، وهو الدين؛ إذ ذلك تأنيس للخلق، وتسهيل على العباد، فيكون قدر التأليف ولقاحاً لتكثير سواد المسلمين، وعلى ضده التعسير لما فيه من التنفير.

*وقوله: {ولن يشاد هذا الدين}، أي يغلبه، يعني به من يتعمق متشدداً على نفسه وشارعاً بذلك للناس ما لم يشرعه الله؛ كالذين يواصلون الصيام المنهي عنه، ويتجوعون الجوع الذي يضعفون به قواهم، ويهجرون اللحم والنساء وغير ذلك مما أباحه الله لعباده من طيبات الرزق، فعني بقوله: لن يشاد الدين، أن الذي يشاد الدين يعود كالخصم له، فهو يريد أن يغلبه بنعمه، فأخبر أن الدين هو الغالب، وأن العاقبة له والمرجع إليه.

*وقوله: {فسددوا}:التسديد: التصويب، مأخوذ من تسديد السهام إلى الأغراض، أي كونوا حراصًا على إصابة الحق ومتابعة الرسول، فإن لم تقدروا على ذلك فقاربوا ذلك، لأنه بدأ بالتسديد ثم أتبعه بالمقاربة، ثم أتبع ذلك بالبشرى لمن سدد وقارب.

*وقوله: {واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة}، فقد جعل – ﷺ – الآخرة غاية، والأعمار طرقًا تسلك إلى الغاية، فكأنه قال: استعينوا على قطع هذا الطريق بالغدوة والروحة، إذ كل مسافر على المعهود إنما يقطع سفره بغدوة وروحة، فأراد ﷺ كونوا في سيركم إلى الآخرة بقطع الأعمار على المعهود من سير جماهير المسافرين، ثم قال – ﷺ –: (وشيء من الدلجة) وشيء نكرة، فأراد: ليكن في سيركم هذا شيء من الدلجة أحيانًا والدلجة: سير الليل، وذلك غير مؤقت بتوقيت الفرائض.

---

[٢١٨] – الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ٤١٢)٣٢٤٤ – ١١٥٣ –[ش أخرجه مسلم في أوائل كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها رقم ٢٨٢٤. (قرة أعين) قرة العين هدوؤها وهو كناية عن السرور./ السجدة ١٧ /]

*وقوله: (القصد القصد):أي: عليكم بالقصد تبلغوا، محذوف النون في جواب الأمر.[٢١٩]

واعْلَمْ أَنَّ مَذْهَبَ أهل السنة أنه لايثبت بالعقل ثواب ولاعقاب ولا أيجاب ولاتحريم ولاغيرها من أنواع التكليف ولاتثبت هذه كلها ولا غيرها الابالشرع وَمَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّة أَيْضًا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَجِبُ عَلَيْهِ شَيْءٌ تَعَالَى اللَّهُ بَلِ الْعَالَمُ مُلْكُهُ وَالدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ فِي سُلْطَانِه يَفْعَلُ فيهما ما يشاء فلوا عَذَّبَ الْمُطِيعِينَ وَالصَّالِحِينَ أَجْمَعِينَ وَأَدْخَلَهُمُ النَّارَ كَانَ عَدْلًا مِنْهُ وَإِذَا أَكْرَمَهُمْ وَنَعَّمَهُمْ وَأَدْخَلَهُمُ الْجَنَّةَ فَهُوَ فَضْلٌ مِنْهُ وَلَوْ نَعَّمَ الْكَافِرِينَ وَأَدْخَلَهُمُ الْجَنَّةَ كَانَ لَهُ ذَلِكَ وَلَكِنَّهُ أَخْبَرَ وَخَبَرُهُ صِدْقٌ أَنَّهُ لَا يَفْعَلُ هَذَا بَلْ يَغْفِرُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِه وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَيُخَلِّدُهُمْ فى النار عدلامنه وَأَمَّا الْمُعْتَزِلَةُ فَيُثْبِتُونَ الْأَحْكَامَ بِالْعَقْلِ وَيُوجِبُونَ ثَوَابَ الْأَعْمَالِ وَيُوجِبُونَ الْأَصْلَحَ وَيَمْنَعُونَ خِلَافَ هَذَا فِي خَبْطٍ طَوِيلٍ لَهُمْ تَعَالَى اللَّهُ عَنِ اخْتِرَاعَاتِهِمُ الْبَاطِلَةِ الْمُنَابِذَةِ لِنُصُوصِ الشَّرْعِ وَفِي ظَاهِرِ هَذِه الأحاديث دلالة لأهل الحق أنه لايستحق أَحَدٌ الثَّوَابَ وَالْجَنَّةَ بِطَاعَتِه وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى اُدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كنتم تعملون وَنَحْوُهُمَا مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّ الْأَعْمَالَ يُدْخَلُ بِهَا الْجَنَّةُ فَلَا يُعَارِضُ هَذِه الْأَحَادِيثَ بَلْ مَعْنَى الْآيَاتِ أَنَّ دُخُولَ الْجَنَّة بِسَبَبِ الْأَعْمَالِ ثُمَّ التَّوْفِيقِ لِلْأَعْمَالِ وَالْهِدَايَةِ لِلْإِخْلَاصِ فِيهَا وَقَبُولِهَا بِرَحْمَةِ اللَّه تَعَالَى وَفَضْلِه فَيَصِحُّ أَنَّهُ لَمْ يَدْخُلْ بِمُجَرَّدِ الْعَمَلِ وَهُوَ مُرَادُ الْأَحَادِيثِ وَيَصِحُّ أَنَّهُ دَخَلَ بِالْأَعْمَالِ أَيْ بِسَبَبِهَا وَهِيَ مِنَ الرَّحْمَةِ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ وَمَعْنَى يَتَغَمَّدُنِي بِرَحْمَتِه يُلْبِسُنِيهَا وَيُغَمِّدُنِي بِهَا وَمِنْهُ أَغْمَدْتُ السَّيْفَ وَغَمَدْتُهُ اذا جعلته فِي غِمْدِه وَسَتَرْتُهُ به[٢٢٠]

وَحَاصِلُ الْحَدِيثِ أَنَّ الْعَمَلَ الْمُجَرَّدَ لَا يَنْفَعُ وَإِنَّمَا يُفِيدُ إِذَا كَانَ مَقْرُونًا بِالْفَضْلِ وَالرَّحْمَةِ، وَقَالَ الطِّيبِيُّ: أَيِ النَّجَاةُ مِنَ الْعَذَابِ وَالْفَوْزُ بِالثَّوَابِ لِفَضْلِ اللَّه وَرَحْمَتِه، وَالْعَمَلُ غَيْرُ مُؤَثِّرٍ فِيهِمَا عَلَى سَبِيلِ الْإِيجَابِ بَلْ غَايَتُهُ أَنَّهُ يُعِدُّ الْعَامِلَ لِأَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْهِ وَيُقَرِّبَ الرَّحْمَةَ إِلَيْهِ، وَلِذَا قَالَ: (فَسَدِّدُوا) أَيْ: بَالِغُوا فِي التَّسْدِيدِ وَإِصَابَةِ الصَّوَابِ، وَفِعْلِ السَّدَادِ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا لِقَوْلِه تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا} [الأحزاب: ٧٠] أَيْ: صَوَابًا وَعَدْلًا (وَقَارِبُوا) أَيْ: حَافِظُوا الْقَصْدَ فِي الْأُمُورِ بِلَا غُلُوٍّ وَلَا تَقْصِيرٍ، أَوْ تَقَرَّبُوا إِلَى اللَّه بِكَثْرَةِ الْقُرُبَاتِ ؛ لَكِنْ بِحَيْثُ لَا يَحْصُلُ لَكُمُ الْمَلَالَةُ فِي الطَّاعَاتِ وَالْعِبَادَاتِ (وَاغْدُوا وَرُوحُوا) أَيِ: اعْبُدُوا اللَّهَ وَاذْكُرُوهُ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ كَقَوْلِه تَعَالَى: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ} [هود: ١١٤][٢٢١]

---

[٢١٩] – الإفصاح عن معاني الصحاح (٧/ ٣٢٥)

[٢٢٠] – شرح النووي على مسلم (١٧/ ١٥٩)

[٢٢١] – مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٤/ ١٦٤٤)

قالَ ابن بَطّال فِي الجَمع بَين هَذا الحَديث وقَوله تَعالَى : {وتلكَ الجَنَّة الَّتي أُورِثتُمُوهــا بِمــا كُنــتُم تَعمَلُونَ " ما مُحَصَّله أَن تُحمَل الآيَة عَلَى أَنَّ الجَنَّة تُنال المَنازِل فيها بالأَعمال ، فَإِنَّ دَرَجــات الجَنَّــة مُتَفاوِتَة بِحَسَبِ تَفاوُت الأَعمال ، وأَن يُحمَل الحَديث عَلَى دُخُول الجَنَّة والخُلُود فيها.

ثُمَّ أَورَدَ عَلَى هَذا الجَواب قَوله تَعالَى : {سَلام عَلَيكُم اُدخُلُوا الجَنَّة بِما كُنتُم تَعمَلُونَ " فَصَرَّحَ بِــأَنَّ دُخُول الجَنَّة أَيضًا بِالأَعمال ، وأَجابَ بِأَنَّهُ لَفظ مُجمَل بَيَّنَهُ الحَديث ، والتَّقدِير اُدخُلُوا مَنازِل الجَنَّــة وقُصُورها بِما كُنتُم تَعمَلُونَ ، ولَيسَ المُراد بِذَلِكَ أَصل الدُّخُول.

ثُمَّ قالَ : ويَجُوز أَن يَكُون الحَديث مُفَسِّرًا لِلآيَةِ ، والتَّقدِير اُدخُلُوها بِما كُنتُم تَعمَلُونَ مَعَ رَحمَــة الله لَكُم وتَفَضُّله عَلَيكُم ، لأَنَّ اقتِسام مَنازِل الجَنَّة بِرَحمَتِهِ.

وكَذا أَصل دُخُول الجَنَّة هُو بِرَحمَتِهِ حَيثُ أَلهَمَ العامِلِينَ ما نالُوا بِهِ ذَلِكَ ، ولا يَخلُو شَيء مِن مُجازاته لِعِبادِهِ مِن رَحمَته وفَضله ، وقَد تَفَضَّلَ عَلَيهِم اِبتِداء بِإِيجادِهِم ثُمَّ بِرِزقِهِم ثُمَّ بِتَعلِيمِهِم.

وقالَ عِياض طَرِيق الجَمع أَنَّ الحَديث فَسَّرَ ما أُجمِلَ فِي الآيَة ، فَذَكَرَ نَحوًا مِن كَلام ابن بَطّال الأَخِير وأَنَّ مِن رَحمَة الله تَوفِيقه لِلعَمَلِ وهِدايَته لِلطّاعَةِ كُلّ ذَلِكَ لَم يَستَحِقّهُ العامِل بِعَمَلِهِ . وإِنَّما هُو بِفَضلِ الله وبِرَحمَته.

وقالَ ابن الجَوزِيّ : يَتَحَصَّل عَن ذَلِكَ أَربَعَة أَجوِبَة :

الأَوَّل أَنَّ التَّوفِيق لِلعَمَلِ مِن رَحمَة الله ، ولَولا رَحمَة الله السّابِقَة ما حَصَلَ الإِيمان ولا الطّاعَــة الَّتِــي يَحصُل بِها النَّجاة.

الثّانِي أَنَّ مَنافِع العَبد لِسَيِّدِهِ فَعَمَله مُستَحَقّ لِمَولاهُ ، فَمَهما أَنعَمَ عَلَيهِ مِنَ الجَزاء فَهُو مِن فَضله.

الثّالِث جاءَ فِي بَعض الأَحادِيث أَنَّ نَفس دُخُول الجَنَّة بِرَحمَةِ الله ، واقتِسام الدَّرَجات بِالأَعمال.

الرّابِع أَنَّ أَعمال الطّاعات كانَت فِي زَمَن يَسِير والثَّواب لا يَنفَد فالإِنعام الَّذِي لا يَنفَد فِي جَزاء مــا يَنفَد بِالفَضلِ لا بِمُقابَلَة الأَعمال.

ويَظهَر لِي فِي الجَمع بَين الآيَة والحَديث جَواب آخَر وهُو أَن يُحمَل الحَديث عَلَى أَنَّ العَمَل مِن حَيثُ هُو عَمَل لا يَستَفِيد بِهِ العامِل دُخُول الجَنَّة ما لَم يَكُن مَقبُولاً . وإِذا كانَ كَذَلِكَ فَأَمر القَبُول إِلَــى الله تَعالَى ، وإِنَّما يَحصُل بِرَحمَةِ الله لِمَن يَقبَل مِنهُ ، وعَلَى هَذا فَمَعنَى قَولُه : "اُدخُلُوا الجَنَّة بِمــا كُنــتُم تَعمَلُونَ" أَي تَعمَلُونَهُ مِنَ العَمَل المَقبُول

وقالَ المازِرِيّ : ذَهَبَ أَهل السُّنَّة إِلَى أَنَّ إِثابَة الله تَعالَى مَن أَطاعَهُ بِفَضلٍ مِنهُ ، وكَذَلِكَ اِنتِقامه مِمَّــن عَصاهُ بِعَدلٍ مِنهُ ، ولا يَثبُت واحِد مِنهُما إِلاَّ بِالسَّمعِ ، ولَهُ سُبحانه وتَعالَى أَن يُعَذِّب الطّائِع ويُــنَعِّم العاصِيَ ، ولَكِنَّهُ أَخبَرَ أَنَّهُ لا يَفعَل ذَلِكَ وخَبَره صِدق لا خُلف فِيهِ . وهَذا الحَديث يُقَوِّي مَقالَتَــهم ويَرُدّ عَلَى المُعتَزِلَة حَيثُ أَثبَتُوا بِعُقُولِهِم أَعواض الأَعمال ، ولَهُم فِي ذَلِكَ خَبط كَثِير وتَفصِيل طَوِيل.

قالَ الرّافِعِيّ : فِي الحَدِيث أَنَّ العامِل لا يَنبَغِي أَن يَتَّكِل عَلَى عَمَله فِي طَلَب النَّجاة ونَيل الـدَّرَجات لأَنَّهُ إِنَّما عَمِلَ بتَوفِيقِ الله ، وإِنَّما تَرَكَ المَعصِيَة بِعِصمَةِ الله ، فَكُلّ ذَلِكَ بِفَضلِه ورَحمَته.
قَوله : "سَدِّدُوا" ؛ فِي رِوايَة بِشر بن سَعِيد ، عَن أَبِي هُرَيرَة عِند مُسلِم " ولَكِن سَـدِّدُوا " ومَعنـاهُ اقصِدُوا السَّداد أَي الصَّواب ، ومَعنَى هَذا الاستِدراك أَنَّهُ قَد يُفهَم مِنَ النَّفي المَذكُور نَفيُ فائِدَة العَمَل ، فَكَأَنَّهُ قِيلَ بَل لَهُ فائِدَة وهُو أَنَّ العَمَل عَلامَة عَلَى وُجُود الرَّحمَة الَّتِي تُدخِل العامِل الجَنَّـة فـاعمَلُوا واقصِدُوا بِعَمَلِكُم الصَّواب أَي اتِّباع السُّنَّة مِنَ الإِخلاص وغَيره لِيَقبَـل عَمَلكُـم فَـيُترِل عَلَـيكُم الرَّحمَة.[٢٢٢]

الحديث الرابع والعشرون: كن في الدّنيا كأنّك غريب أو عابر سبيل

عَنْ عَبْدِ اللَّه بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللَّه ﷺ بِمَنْكِبِي، فَقَالَ: «كُنْ فِـي الـدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ» وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ، يَقُولُ: «إِذَا أَمْسَيْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْـبَحْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ المَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ»[٢٢٣]

محنة القلب مع الحنين لما فات وانقطع يدفعه الحنين للآتي، وحال الدعاة والعابدين والمجاهـدين مـع مملكة الدنيا وأشيائها إنما هو «لاَ يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ العَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ»[٢٢٤]، وإن صاح بك صـائح "الصلاة" فقل له: "الصلاة أمامك" وعلى دابتك سر "العَنَق" فإذا وجدت فجوة فـنُصّ ، ولا تقـف على الأطلال باكياً ولا على ما حصلت مغتراً، فما في هذه الدنيا إلا "فانٍ وابن فانٍ"، والـذكريات مكانها القلوب فإن نزلت إلى الأرجل صارت ثقال سفن معوقة.

---

[٢٢٢] – فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (١١/ ٢٩٥)

[٢٢٣] – صحيح البخاري (٨/ ٨٩)(٦٤١٦)

[ش (كأنك غريب) بعيد عن موطنه لا يتخذ الدار التي هو فيها موطنا ولا يحدث نفسه بالبقاء قال العيني هذه كلمة جامعة لأنواع النصائح إذ الغريب لقلة معرفته بالناس قليل الحسد والعداوة والحقد والنفاق والنزاع وسائر الرذائل منشؤها الاختلاط بالخلائق ولقلـة إقامته قليل الدار والبستان والمزرعة والأهل والعيال وسائر العلائق التي هي منشأ الاشتغال عن الخالق. (عابر سبيل) مار بطريق وتعلقاته أقل من تعلقات الغريب (خذ من صحتك لمرضك) اشتغل حال الصحة بالطاعات بقدر يسد الخلل والنقص الحاصل بسـبب المـرض الذي قد يقعد عنها. (من حياتك لموتك) اغتنم أيام حياتك بالأعمال التي تنفعك عند الله تعالى بعد موتك]

[٢٢٤] – عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لَنَا لَمَّا رَجَعَ مِنَ الأَحْزَابِ: «لاَ يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ العَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ» فَأَدْرَكَ بَعْضَهُمُ العَصْرُ فِي الطَّرِيقِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لاَ نُصَلِّي حَتَّى نَاتِيَهَا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ نُصَلِّي، لَمْ يُرَدْ مِنَّا ذَلِكَ، فَذُكِرَ لِلنَّبِيِّ ﷺ ،فَلَمْ يُعَنِّفْ وَاحِدًا مِنْهُمْ " الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ١٧٠)٩٤٦ – ٤٣٤ –[ش أخرجه مسلم في الجهاد والسير باب المبادرة بـالغزو .. رقم ١٧٧٠ (الأحزاب) غزوة الخندق في شوال سنة خمس من الهجرة سميت بذلك لتحزيب القبائل العربية وتجمعها ضـد المسـلمين ونزلت فيها سورة سميت بهذا الاسم. (لم يرد منا ذلك) ما أراد بقوله ظاهره وعدم الصلاة في الطريق وإنما أراد الحث على الإسـراع. (يعنف) يلم]

ما تعطلت الإرادات إلا بالخوف على فوات ما في اليد شغفاً به، مع نسيان أن ما هو آت هو أجمل وأفضل، فالعناء محتمل إن كان في النهاية غنيمة وراحة، وشعثاء السفر غبار زائل تذهبه غسلة ماء واضطجاع جنْب الحبيب المنتظر ثم يعود مجرد ذكرى.

الباكون الحريصون على "منجزات" دعوتهم وجهادهم وأعمالهم وقد اطمأنوا إليها وتلاءموا معها {فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ} [الحديد: ١٦] في ظلها فبردت جنوبهم إليها واهمون، فما هي إلا دنيا ذابلة، مع أن الطريق طويل والواجبات أمامهم، لكنه جهل "الإقامة" في ظل شجر بارد موقوت.

الهجرة حال دائم، واتخاذ الضيعة مرغب بالإقامة فكيف يلتقيان؟! فالمهاجر متخفف، حامل لمتاعه دوماً، أينما سمع هدفه طار إليها، أو واحة علم طارت نفسه لها شعاعاً، فكيف لعالم أو مجاهد أن يقيم والهيعات كثيرة والواحات دونها بيد.

"الاغتراب" همُّ المميزين في أزمانهم، في رحلتهم مع المعالي، وبخطأ يقترفونه دوماً هو محاولة الاقتراب من هذه الأزمان واجتناب دنياهم، فتزداد الآلام ويحصل الافتراق، وحينها يكون المرض، ومع العابدين تكون "الغربة" علاجاً، فبينهم وبين أزمانهم علاقة يعرفون أنها "عابرة" لا تقيم، وأنها "غريبة" لا تتأقلم، يربطها الحنين إلى ما هو آت من الجنان ولقاء الرحمن، وإلا فحدثوني عن أئمة الزمان من الرسل وأتباعهم كيف قدروا أن يحتملوا جهالات عصرهم، وظلم قومهم، وضعف همم الخلق عموماً؟

اجعل بينك وبين كل شيء في هذه الدنيا مسافة في عقلك وقلبك ونفسك، لأن الأروح لها إن فارقته، وأنت لابدّ مفارقه أو مفارقك، فالتعلق في الدنيا رأس الخطايا، وإن أول معصية في الأرض بين أبناء آدم عليه السلام إنما كانت بسببها والتنافس عليها، إذ يتصور الإنسان واهماً أنه لا يمكن أن يعيش بدون هذا الشيء من أشياء الدنيا، فيغلبه الهاجس المرضي كمجنون ليلى، ويسيطر هذا الشيء على روحه حتى تشربه كما أشرب بنو إسرائيل العجل، مع أنه لو تفكر قليلاً لعلم أن الكثير من الناس يعيشون بدونه، وهم في استغناء عنه، وهذا الذي قاله رسول الله ﷺ في الغنى فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ الغِنَى عَنْ كَثْرَةِ العَرَضِ، وَلَكِنَّ الغِنَى غِنَى النَّفْسِ»[٢٢٥].

"الاغتراب" للعابد العالم والمجاهد ليس مرضاً ولا رهقاً يحمله، بل هو اختيار عقلي وقلبي، فهو ليس مقهوراً بزمن، ولا بوطن، ولا بعرض فيها، بل الزمن بالنسبة إليه رحلة عمل، فلا تشغله اللحظة إلا بمقدار ما ينجز فيها من عبادة فهو يسبح ربه ويسجد له ويجاهد فيه ويزداد فيه علماً وبصيرة، حينها يصبح الزمن هارباً وهو يلاحقه، لا حملاً ثقيلاً يرهقه وهو يهرب منه، وأما "الوطن" حيث حلت فيه

---

[٢٢٥] – الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ٦٥٣)٦٤٤٦ – ١٨١١ – [ش أخرجه مسلم في الزكاة باب ليس الغنى عن كثرة العرض رقم ١٠٥١ (الغنى) الحقيقي الذي يملأ نفس الإنسان ويكفه عن حاجة غيره. (كثرة العرض) حطام الدنيا من الأمتعة ونحوها أو ما يصيبه الإنسان من حظوظ الدنيا]

أول تعاويذه فبالنسبة إليه رحلة ذكرى لوطن قادم فينتظره، له فيه أهلون هم ينتظرونه كذلك، فهو عابر سبيل ينظر ولا يحمل، ويتأمل ولا يثقل، ويلمس لكن رجله في الغرز سائرة لا تقيم.

غريب أو عابر سبيل: غريب حاضرك مع الدنيا، عابر سبيل مستقبلك إلى الآخرة.

غريب في ما أنجزت مع الدنيا، عابر سبيل إلى واجبك الذي هو آت.

وهكذا تتواصل الرحلة، لا ترهق بماض، ولا يثقلك حاضر، ولا تنقطع الآمال. إياك أن تندم أنك ضيعت وقتاً أو جهاداً في مكان ما، فتقول: عملت هنا فلم أقطف، وبنيت هناك و لم أُقِم، فهذه الدنيا مسارح عجيبة، فقد زرع رسول الله ﷺ ثلاثة عشر عاماً في مكة وكانت الثمار في المدينة، ورمى علماء كثر البذر في أرض فحملتها رياح البركة إلى أرض أخرى وزمن آخر، فها هو ابن تيمية ينبت بذره الآن شجراً مثمراً عالياً، وها هو سيد قطب تجنى غراسه بعد موته، وتفكر في إبراهيم عليه السلام وهو ينادي {وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ} [الحج: ٢٧] في أرض قفرة، صحراء لا زرع ولا ماء، فأسمع الله الخلق أذانه واستجابت له أمم لا يعلمها إلا الله بعده، وها هي العيون تشرئب إلى ذرية إسحق والأسباط، والعين تكاد تميل عن هذا الرضيع وأمه في البيداء، إسماعيل وأمه هاجر، ولكن كان لكلمة الغيب فصل آخر، فالخير لا يضيع – { أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ} [المجادلة: ٦] –، فلا عليك أن لا تحصيه وهو في يد الله تعالى التي تنميه رحمة وقبولاً.

اهتم بنفسك أن تكون غريبا أو عابر سبيل، وأما شأن الأرض فهو فعل الرب: {وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ } [الرعد: ١٧]، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهِ عُمَرُ، وَهُوَ عَلَى حَصِيرٍ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ، فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، لَوِ اتَّخَذْتَ فِرَاشًا أَوْثَرَ مِنْ هَذَا؟ فَقَالَ: "مَا لِي وَلِلدُّنْيَا؟ مَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا، إِلا كَرَاكِبٍ سَارَ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ، فَاسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا"[٢٢٦] والله يقول: {وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ} [الشرح: ٤])، و {إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ} [الكوثر: ٣]. فالله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

ما يرشد إليه الحديث :

قالَ ابن بَطّال : لَمّا كانَ الغَرِيب قَلِيل الانبساط إِلَى النّاس بَل هُو مُستَوحِش مِنهُم إِذ لا يَكاد يَمُرّ بِمَن يَعرِفهُ مُستَأنِس بِهِ فَهُو ذَلِيل فِي نَفسه خائف ، وكَذَلِكَ عابِر السَّبِيل لا يَنفُذ فِي سَفَره إِلاَّ بِقُوَّتِه عَلَيه وتَخفيفه مِنَ الأَثقال غَير مُتَثَبِّت بِما يَمنَعهُ مِن قَطع سَفَره مَعَهُ زاده وراحِلَته يُبَلِّغانه إِلَى بُغيَته مِن قَصده شَبَّهَهُ بِهِما ، وفِي ذَلِكَ إِشارَة إِلَى إِيثار الزُّهد فِي الدُّنيا وأَخذ البُلغَة مِنها والكَفاف ، فَكَما لا

[٢٢٦] – المسند الموضوعي الجامع للكتب العشرة (١٨/ ٣٣٢) (حم) ٢٧٤٤ صحيح

يَحتاج المُسافِر إِلَى أَكثَر مِمّا يُبَلِّغهُ إِلَى غايَة سَفَره فَكَذَلِكَ لا يَحتاج المُؤمِن فِي الدُّنيا إِلَى أَكثَر مِمّا يُبَلِّغهُ المَحَلّ.

وقالَ غَيره : هَذا الحَديث أَصل فِي الحَثّ عَلَى الفَراغ عَن الدُّنيا والزُّهد فِيها والاحتِقار لَها والقَناعَة فِيها بِالبُلغَة.

وقالَ النَّوويّ : مَعنَى الحَديث لا تَركَن إِلَى الدُّنيا ولا تَتَّخِذها وطَنًا ولا تُحَدِّث نَفسك بِالبَقاءِ فِيها ولا تَتَعَلَّق مِنها بِما لا يَتَعَلَّق بِهِ الغَرِيب فِي غَير وطَنه.

وقالَ غَيره : عابِر السَّبِيل هُو المارّ عَلَى الطَّرِيق طالِبًا وطَنه ، فالمَرء فِي الدُّنيا كَعَبدٍ أَرسَلَهُ سَيِّده فِي حاجَة إِلَى غَير بَلَده ، فَشَأنه أَن يُبادِر بِفِعلِ ما أُرسِلَ فِيهِ ثُمَّ يَعُود إِلَى وطَنه ولا يَتَعَلَّق بِشَيءٍ غَير ما هُو فِيهِ

وقالَ غَيره : المُراد أَن يُنَزِّل المُؤمِن نَفسه فِي الدُّنيا مَنزِلَة الغَرِيب فَلا يَعلَق قَلبه بِشَيءٍ مِن بَلَد الغُربَة ، بَل قَلبه مُتَعَلِّق بِوطَنِهِ الَّذِي يَرجِع إِلَيه ، ويَجعَل إِقامَته فِي الدُّنيا لِيَقضِيَ حاجَته وجِهازه لِلرُّجُوعِ إِلَى وطَنه ، وهَذا شَأن الغَرِيب . أَو يَكُون كالمُسافِر لا يَستَقِرّ فِي مَكان بِعَينه بَل هُو دائِم السَّير إِلَى بَلَد الإِقامَة . واستَشكَلَ عَطف عابِر السَّبِيل عَلَى الغَرِيب وقَد تَقَدَّمَ جَواب الطِّيبِيِّ ، وأَجابَ الكَرمانِيُّ بِأَنَّهُ مِن عَطف العامّ عَلَى الخاصّ ، وفِيهِ نَوع مِنَ التَّرَقِّي لأَنَّ تَعَلُّقاته أَقَلّ مِن تَعَلُّقات الغَرِيب المُقِيم.

وقَوله : "خُذ مِن صِحَّتك إِلَخ" أَي اعمَل ما تَلقَى نَفعه بَعد مَوتك ، وبادِر أَيّام صِحَّتك بِالعَمَلِ الصّالِح فَإِنَّ المَرَض قَد يَطرَأ فَيَمتَنِع مِنَ العَمَل فَيُخشَى عَلَى مَن فَرَّطَ فِي ذَلِكَ أَن يَصِل إِلَى المَعاد بِغَيرِ زاد . ولا يُعارِض ذَلِكَ الحَديث الماضِي فِي الصَّحِيح " إِذا مَرِضَ العَبد أَو سافَرَ كَتَبَ اللهُ لَهُ ما كانَ يَعمَل صَحِيحًا مُقِيمًا " لأَنَّهُ وَرَدَ فِي حَقّ مَن يَعمَل ، والتَّحذِير الَّذِي فِي حَدِيث ابن عُمَر فِي حَقّ مَن لَم يَعمَل شَيئًا ، فَإِنَّهُ إِذا مَرِضَ نَدِمَ عَلَى تَركه العَمَل ، وعَجَزَ لِمَرَضِهِ عَن العَمَل فَلا يُفِيدهُ النَّدَم.

وفِي الحَدِيث مَسّ المُعَلِّم أَعضاء المُتَعَلِّم عِند التَّعلِيم والمَوعُوظ عِند المَوعِظَة وذَلِكَ لِلتَّأنِيسِ والتَّنبِيه ، ولا يُفعَل ذَلِكَ غالِبًا إِلاَّ بِمَن يَمِيل إِلَيه ، وفِيهِ مُخاطَبَة الواحِد وإِرادَة الجَمع ، وحِرص النَّبِيّ ﷺ عَلَى إِيصال الخَير لأُمَّتِه ، والحَضّ عَلَى تَرك الدُّنيا والاقتِصار عَلَى ما لا بُدّ مِنهُ[٢٢٧]

في هذا الحديث ما يدل على أن رسول الله – ﷺ – حض على التشبه بالغريب؛ لأن الغريب إذا دخل بلدة لم ينافس أهلها في مجالسهم و لم يخرج من أن يروه على خلاف عادته في الملبوس، ولا يكون متدبرا معهم، وكذلك عابر السبيل فإنه لا يتدبر ولا يلج في الخصومات مع الناس ولا يشاحهم ناظرا إلى أن لبثه معهم أياما يسيرة.

[٢٢٧] – فتح الباري شرح صحيح البخاري– ط دار المعرفة (١١/ ٢٣٤)

فكل أحوال الغريب وعابر السبيل في الدنيا مستحبة أن يكون للمؤمن، لأن الدنيا ليست وطنا لـــه، لأنها تحبسه عن داره، وهي الحائلة بينه وبين قراره.

* وقول ابن عمر: (وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح) أي لا ينتظر بأعمال الليل الصـــباح بـــل بـــادر بالعمل؛ وكذلك (إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء) أي لا تؤخر أعمال الصـــباح إلى الليـــل، (وخذ من صحتك) أي اغتنم زمن القوة فاستسلف منك لك، واعلم أنه سيأتي عليك زمان طويـــل وأنت تحت الأرض لا يمكنك أن تذكر الله عز وجل فبادر في زمن سلامتك[٢٢٨]

وفيه :

(١) الابتداء بالنصيحة والإرشاد لمن لم يطلب ذلك.

(٣) مخاطبة الواحد وإرادة الجمع، فإن هذا لا يخص ابن عمر، بل يعم جميع الأمة ..

(٣) الحض على ترك الدنيا والزهد فيها، وألا يأخذ منها الإنسان إلا مقدار الضرورة المعينـــة علـــى الآخرة ..

(٤) الاستعداد للموت والخوف من وقوعه آناء الليل والنهار.

(٥) المسارعة إلى الأعمال الصالحة قبل أن لا يقدر عليها، ويحول مرض أو موت، أو بعض الآيـــات التي لا يقبل معها عمل ..

(٦) مس المعلم أعضاء المتعلم عند التعليم للتأنيس والتنبيه.

(٧) التحذير من الرذائل، إذ الغريب لقلة معرفته بالناس قليل الحسد والعـــداوة، والحقـــد والنفـــاق، والتزاع وجميع الرذائل التي تنشأ بالاختلاط بالخلائق ولقلة إقامته قليل الدار والبستان والمزرعة، وسائر الأشياء التي تشغل عن الخالق من لم يوفقه الله.

(٨) تقصير الأمل، والاستعداد للموت.

(٩) الحديث أصل في قصر الأمل في الدنيا.

(١٠) حديث الباب يضبط تعامل المؤمن مع الدنيا، فينظر لها على أ؟ا ممر لا مقر.

(١١) يبين مترلة الدنيا عند المؤمن وأ؟ا أقل شأناً من أن يتعلق ؟ا أو يصرف لها همه وهمته بل يسخرها في طاعة الله.

(١٢) لا يدل الحديث على ترك الرزق وتحريم ملذات الدنيا، بدليل فعل النبي - ﷺ - الذي قال هذه الوصية وصحابته الكرام الذين طبقوها فقد تاجروا وعملوا وتلذذوا بالحلال مما يدل علـــى أن المـــراد بالحديث عدم التعلق بحيث تصده عن طاعة ربه.

---

[٢٢٨] - الإفصاح عن معاني الصحاح (٤/ ٢٤٧)

(١٣) يدل الحديث على أن النصيحة تبذل أحياناً بدون سؤال وطلب، فقد أسدى النبي - ﷺ - هذه النصيحة لابن عمر رضي الله عنهما بدون سؤال وطلب منه، وهذا هو شأن المؤمن.

(١٤) يربي الحديث المسلم على أن يزول من ذهنه الخلود في هذه الدنيا كما هو حال الرجل الغريب الذي يمر ببلد فإنه جعل في قرارة ذهنه أنه لن يستقر فيها.

(١٥) قوله " غريب " إشارة إلى أننا في هذه الدنيا على سفر للدار الآخرة.

(١٦) من لوازم الغربة للرجل الغريب ما يلي:-

أ- عدم الاستقرار في البلد الذي يمر عليه، وكذلك المؤمن لا يستقر في الدنيا.

ب- رضاؤه بالقليل من المتاع، وهذا هو حال المؤمن التقي مع متاع الدنيا فيرضى بالقليل منه.

ج - الغريب لا ينافس أهل البلد في دنياهم وبنائهم وأموالهم وشؤون؟م لأن همته متعلقة بما أمامه من طريق، وكذلك المؤمن لا ينافس الناس في دنياهم بل همه معلق بالآخرة والاستعداد لما أمامه.

د - استعداده للسفر في أي لحظة أو ساعة، وكذلك أيضاً المؤمن مستعد للقاء ربه متى شاء الله سبحانه.

هـ الغريب لا يأسف ويحزن لفوات شيء من دنيا الناس في ذلك البلد لأ؟ا لا تعنيه وكذلك المؤمن لا يأسف ويحزن لفوات شيء من أمور الدنيا حزناً يقطعه عن عمله وآخرته. والغريب لا يطمئن ويرتاح حتى تنقطع غربته بالوصول لما يريد، والمؤمن لا يرتاح ولا يطمئن حتى يوصله الله بفضله لدار كرامته.

ز - الغريب يجعل إقامته في ذلك البلد عوناً له على قطع سفره، فيتزود فيه من الماء والطعام والراحة ليواصل سيره، وكذلك المؤمن يجعل الدنيا عوناً له على سفره للدار الآخرة فيتزود بالأعمال الصالحة لتعينه على سفره.

(١٧) قوله " غريب أو عابر سبيل " يشتركان في عدم الاستقرار والاستيطان والاستعداد للرحيل.

(١٨) الحديث يربي المؤمن على التطلع للآخرة والنظر والاستعداد لها.

(١٩) يبين الحديث مدة الدنيا بالنسبة للآخرة وأ؟ا كإقامة غريب في غربته مقارنة باستيطانه في بلده أو استراحة عابر سبيل مقارنة بمدة إقامته عند أهله.

(٢٠) يدل الحديث بمفهومه على خسارة من باع دنياه بدينه، لأنه باع فانٍ زائل بباقٍ دائم.

(٢١) قول ابن عمر رضي الله عنهما " إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء " تفسير لحديث الباب، وتطبيق عملي للحديث.

(٢٢) الحديث لا ينفي طلب الرزق والتزود من الدنيا كما أن الغريب في حال غربته لا يقطعه ذلك عن التزود والأكل والرزق.

(٢٣) وصف الغربة في الحديث يدل على أمرين:-

الأول: ينفي العجب والكبر والبطر والفخر لأن الغريب كذلك.
الثاني: يوحي اللفظ بالمسكنة والذلة الجزئية.
وكلا الأمرين يجب أن يتحلى ؟ما المؤمن، فينفي الكبر والبطر والفخر، ويلبس لباس العبودية والفقر والذلة لله سبحانه وتعالى.[٢٢٩]

الحديث الخامس والعشرون: الأرواح جنود مجنّدة:

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ، يَقُولُ: «الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ»[٢٣٠] .

ملاك الوصول بين الركائب باتفاق الحِمْل، فإذا اتفق الهم سميت على وجه الوحدة وإلا فهي غبار ريح، والجنود لا تنبت من الأرض بل تجنّد بالحمل، فحمل من معدنه وحمل من صانعيه ويد صاحبه، وبناء الجماعات يتم ببناء أرواحها، وهي الهموم والغايات، فالعلم رحم بين أهله وكذا التقوى والجهاد، يتواصلون بينهم بالهدية والسلام والدعاء والحب، وبناء في أبدانها، فالميدان يجمع أهله حين تنصب الأقدام على طريق الهجرة التي لا تنقطع إلى يوم القيامة، وعلى طريق الإعداد الذي هو دين الله رغم أنف المخنثين.

{لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [الأنفال: ٦٣] والتأليف هو الجمع على وجه الجمال وروعة المعنى، فحين تتفق الحروف في اجتماعها على معنى يكون تأليفاً، وكذا الناس حين يجتمعون على هم واحد ومقصد متفق يكونون على ألفة ومحبة، وبذلك تقع مقاصدهم ويبلغون أهدافهم، ومخطئ من ظن أن هذا الحديث يتحدث فقط عن أمر قد قضي وانتهى والناس يعيشون على وضع لابد لهم فيه بل الحق أن هذا الحديث مع حديثه عن ذلك إنما يتحدث عن أثر ما يجنّد المرء فيه من تربية أهله له ومن تربيته لنفسه، فهي "مجنّدة" والتجنيد كالعلم الذي هو بالتعلم والصبر الذي هو بالتصبر، فما جند المرء نفسه له فهو جندي له، وبهذا يحدث اللقاء على وحدة الطريق والهدف، وقد حصّل الصحابة رضي الله عنهم أهدافهم لوعيهم العميق لما يحمل القائد من هدف ومقصد، وبالتالي صمدوا أمام محن الطريق لحبهم لقائدهم وحبهم المتبادل بينهم، وهذا عمر رضي الله عنه يقول: «فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ قَدْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ

---

[٢٢٩] – الخلاصة في شرح الأربعين النووية– علي بن نايف الشحود (ص: ١٣٤)

[٢٣٠] – صحيح البخاري (٤/ ١٣٤)(٣٣٣٦) وتهذيب صحيح مسلم– علي بن نايف الشحود (ص: ٩٣٣)(٢٦٣٨)

[ش (الأرواح) جمع روح وهو الذي يقوم به الجسد وتكون به الحياة. (جنود مجندة) جموع مجتمعة وأنواع مختلفة. (تعارف) توافقت صفاتها وتناسبت في أخلاقها. (ائتلف) من الألفة وهي المحبة والمودة. (تناكر) تنافرت في طبائعها. (اختلف) تباعد وتباغض. انظر مسلم البر والصلة الأرواح جنود مجندة

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الحَقُّ»[٢٣١] وذلك في قتال الصحابة للمرتدين، وهذا مرجع يتعلق بأمر القلوب والأرواح لا كما يعلم المحجوبون بالألفاظ والشعارات الجوفاء.

الجماعة المسلمة جماعة محنة وابتلاء، ومكر أعدائها بها شديد {وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ } [إبراهيم: ٤٦]، وتصفيتها من الدرن خلوصاً بها إلى الطهر هي سنة الله تعالى بها، فحالها كأنها على نار وشدة، ومن كان هذا حاله فلا يصمد إلا بحمل ثقيل من الإيمان والتقوى، وتدريب شاق على المهمات وخاصة ما يتعلق في داخل الجماعة نفسها، فالمرء حين يرى وجوهاً يعرفها ويألف بها ويأنس معها فإن نفسه تثبت وتؤوب إن أصابها الفزع، أما إن نظر فرأى وجوها منكرة لا يعرفها، ومختلفة متدابرة فإن الغربة تشتد عليه والمحن تتضاعف وحينها يقع المحذور من الفرقة التي هي رأس الشقاء والهزيمة، وقد وقع في زمن النبي ﷺ من المحن العلمية والعملية الشيء الكثير، لكن حبهم لرسول الله ﷺ وألفة قلوبهم الطاهرة لقلبه الطاهر، وأنس أرواحهم الخالصة بذكرى الدار الآخرة مع روحه التي هي كذلك بل هي أعلاها وأسماها في ذلك، كانت هذه المحن تمر عليهم فتزيدهم صلابة وقوة، ففي أُحد تجد الصحابة يشتدون بالالتصاق من حول رسول الله ﷺ في حال لو كان مع غيرهم لوجدتهم مجرد أشباح ذاهبة، وفي صلح الحديبية حيث الفتنة العلمية، فرسول الله ﷺ بشرهم بالفتح، وفهموا من ذلك أنهم سيدخلون مكة هذا العام، فما أن عقد الصلح على صورة لم تخطر على بالهم، ورأوا فيها تنازلاً عن تولي المؤمن لأخيه، وتنازلاً عما عقدوا العزم عليه من الإحرام للعمرة، فثارت نفوسهم، واشتد الأمر عليهم حتى أن النبي ﷺ أمرهم بالإحلال فلم تقو أبدانهم ونفوسهم على ذلك، وصار رسول الله ﷺ غضباناً خوف هلاكهم من هذه المعصية، ثم لما خرج إليهم وحلق أمامهم وأحل من إحرامه، قاموا يحلون ويحلقون حتى يكاد الرجل يدمي صاحبه من الغضب، فمثل هذه المحنة الشديدة لم يكن ليثبت لها جند إلا إن أحبوا صاحبهم وتعلقت أرواحهم به لاتفاق الحال وأنس السمات مع السمات.

لابدّ من بناء خفي للأرواح، من تسبيح واستغفار وقيام ليل ودعاء بالغيب، ولابد من بناء عملي لها بالعلم والإعداد وبالهجرة، حتى تأتلف القلوب وتتعارف وتصبح " جنوداً " لا " غبار طريق "، وحتى يعرف الناس بعضهم بعضاً تعارفاً كمعرفة الإبن بأمه والأخ بأخيه والابن بأبيه، وبمثل هذه العلاقة لا تزيد المحن الجند إلا اتحاداً وقوة، فإن الأم لا تدع ابنها حتى لو أخطأ أو مرض أو ضعف، وكذا الأب والأخ، وهذه هي " صبغة الله "، وهي لا تذوب ولا تزول مهما تقادم عليها الزمن، فها نحن نرى على مدار التاريخ حب المحدثين لإمامهم أبي هريرة حباً خاصًّا ومثله لأمنا عائشة رضي الله عنها وأنس بن مالك، حيث تجتمع الصبغة ويتوارث أهل هذه " الصبغة " الحب جيلاً بعد جيل كما

[٢٣١] – الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ٢١٩)١٣٩٩و١٤٠٠ – ٥٧٩ –

يتوارث الناس الأنساب، بل أشد، وكذا نرى حب العلماء لعمر وابن مسعود ومن سار على دربهم حباً خاصاً لاتفاق " الصبغة " التي يتوارثونها، صبغة تسري في الأرواح، وما من مجاهد يذكر أمامه خالد بن الوليد أو أبا عبيدة عامر بن الجراح وأمثالهما إلا ونراه قد انشرحت نفسه وعرف ذلك من قسمات وجهه وذلك لاتفاق "الصبغة" التي تلاءمت معها النفوس واشتركت بها.

إنها مهمة "التجنيد" وهي مهمة الأنبياء وأتباعهم من أجل صناعة "صبغة الله" في أرواح الخلق فاللهم اجعلنا من أهلها.

في هذا الحديث العظيم تنبيه أن المؤمن لا يحبه إلا مثله وكذا الكافر، فالذين يطلبون رضا الكافرين عنهم، وأن يقولوا فيهم كلمة إنصاف هم واهمون، إذ هذا لن يكون حتى تتعارف الأرواح بما تؤمن به، وكم من حديث قال فيه الرجل لنبينا ﷺ كلمة بغض وكراهية، فهو أبغض الخلق إليه، فما أن يؤمن الرجل حتى يكون رسول الله ﷺ أحب إليه من نفسه وأهله والناس أجمعين، لأنها الأرواح وما تحمل، ولذلك الزاني يحب مثله وكذا المرابي والمشرك والفاسق، والمؤمن يحب مثله، فالذاكر يحب الذاكرين وكذا المصلي والمجاهد والعالم وذلك لاتحاد الصبغة وتلاؤم الأرواح.

ما يرشد إليه الحديث

أما قوله: (الأرواح جنود مجندة) فالمعنى أنها جنود الله عز وجل مجندة في أرضه فتعين الروح منها بالروح، (فما تعارف منها) يعني بتلك المعرفة أن تكون المعرفة متقابلة من روحين لأن تعارف في معنى تفاعل، والغالب في هذا أن يكون بين اثنين، ويعني – ﷺ – بتعارف الروحين أنه يقع التعارف بشيء من الأشياء أو قسم من أقسام المعرفة، فذلك التعارف داعية للتآلف؛ لأنه يكون ذلك الشيء المعروف جامعا لما بين الروحين فيأتلفان فيه، كما أنه لو عرف هذا الروح شيئا فأنكره هذه الروح فإنهما يفترقان في ذلك، فمن كان عارفا بالله وقع له الائتلاف مع كل عارف بالله، ومن كان منكرا للحق وقع بينه الافتراق وبين كل عالم بالحق، ووقع بينه الاتفاق وبين كل منكر للحق، فعلى هذا يكون تآلف غير المؤمنين بالسبب الجامع بينهم في الكفر، وتناكر هؤلاء وهؤلاء مع هؤلاء لما ذكرناه.[٢٣٢]

قالَ الخَطّابِيُّ : يُحتَمَل أَن يَكُون إِشارَة إِلَى مَعنَى التَّشاكُل فِي الخَير والشَّرّ والصَّلاح والفَساد ، وأَنَّ الخَيِّرَ مِنَ النّاس يَحِنّ إِلَى شَكله والشِّرِّير نَظير ذَلكَ يَميل إِلَى نَظيره فَتَعارُف الأَرواح يَقَع بِحَسَب الطِّباع الَّتِي جُبِلَت عَلَيها مِن خَير وشَرّ ، فَإِذا اتَّفَقَت تَعارَفَت ، وإِذا اختَلَفَت تَناكَرَت.

ويُحتَمَل أَن يُراد الإِخبار عَن بَدء الخَلق فِي حال الغَيب عَلَى ما جاءَ أَنَّ الأَرواح خُلِقَت قَبل الأَجسام ، وكانَت تَلتَقِي فَتَتَشاءَم ، فَلَمّا حَلَّت بِالأَجسامِ تَعارَفَت بِالأَمرِ الأَوَّل فَصارَ تَعارُفها وتَناكُرها عَلَى ما سَبَقَ مِنَ العَهد المُتَقَدِّم.

---

[٢٣٢] – الإفصاح عن معاني الصحاح (٨/ ١٠٦)

وقالَ غَيره : المُراد أَنَّ الأَرواح أَوَّل ما خُلقَت خُلقَت عَلَى قِسمَين ، ومَعنَى تَقابُلها أَنَّ الأَجساد الَّتي فيها الأَرواح إِذا التَقَت فِي الدُّنيا ائتَلَفَت أَو اختَلَفَت عَلَى حَسَب ما خُلِقَت عَلَيهِ الأَرواح فِي الدُّنيا إِلَى غَير ذَلكَ بالتَّعارُف.

قُلت : ولا يُعَكِّر عَلَيهِ أَنَّ بَعض المُتَنافِرينَ رُبَّما ائتَلَفا ، لأَنَّهُ مَحمُول عَلَى مَبدَأ التَّلاقِي ، فَإِنَّهُ يَتَعَلَّق بأَصلِ الخِلقَة بغَيرِ سَبَب.

وأَمّا فِي ثانِي الحال فَيَكُون مُكتَسَبًا لتَجَدُّدِ وصف يَقتَضِي الأُلفَة بَعد النُّفرَة كَإِيمانِ الكافِر وإِحسان المُسيء ..

وقَوله : "جُنُود مُجَنَّدَة" أَي أَجناس مُجَنَّسَة أَو جُمُوع مُجَمَّعَة.

قالَ ابن الجَوزِيّ : ويُستَفاد مِن هَذا الحَدِيث أَنَّ الإِنسان إِذا وجَدَ مِن نَفسه نُفرَة مِمَّن لَهُ فَضِيلَة أَو صَلاح فَيَنبَغِي أَن يَبحَث عَن المُقتَضِي لِذَلِكَ لِيَسعَى فِي إِزالَته حَتَّى يَتَخَلَّص مِنَ الوصف المَذمُوم ، وكَذَلِكَ القَول فِي عَكسه.

وقالَ القُرطُبِيّ : الأَرواح وإِن اتَّفَقَت فِي كَونها أَرواحًا لَكِنَّها تَتَمايَز بِأُمُورٍ مُختَلِفَة تَتَنَوَّع بِها ، فَتَتَشاكَل أَشخاص النَّوع الواحِد وتَتَناسَب بِسَبَبِ ما اجتَمَعَت فِيهِ مِنَ المَعنَى الخاصّ لِذَلِكَ النَّوع لِلمُناسَبَةِ ، ولِذَلِكَ نُشاهِد أَشخاص كُلّ نَوع تَألَف نَوعها وتَنفِر مِن مُخالِفها . ثُمَّ إِنّا نَجِد بَعض أَشخاص النَّوع الواحِد يَتَآلَف وبَعضها يَتَنافَر ، وذَلِكَ بِحَسَبِ الأُمُور الَّتِي يَحصُل الاتِّفاق والانفِراد بِسَبَبِها.[٢٣٣]

وَفِي شَرْحِ السُّنَّةِ: فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْأَرْوَاحَ لَيْسَتْ بِأَعْرَاضٍ وَعَلَى أَنَّهَا كَانَتْ مَوْجُودَةً قَبْلَ الْأَجْسَادِ فِي الْخِلْقَةِ.[٢٣٤]

الحديث السادس والعشرين: لا يُلدَغ المؤمنُ من جحرٍ واحد مرتين

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لاَ يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ وَاحِدٍ مَرَّتَيْنِ»[٢٣٥] .

اليد الأولى للاكتشاف والثانية لماذا يا مغتر؟! أهو أمن الجاهل من حيّات الطريق وعقاربها؟! أم أنه ظن السوء أنه يمكن أن تنقلب الضواري حملاً وديعاً؟! فيا لجهالات المغترين بالبريق الزائف عن ماضي أجدادهم وتاريخهم وما أصابهم!!

---

[٢٣٣] - فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (٦/ ٣٦٩)

[٢٣٤] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٣١٣٢)

[٢٣٥] - الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ٦٣٣)٦١٣٣ - ١٧٤٤ -[ش أخرجه مسلم في الزهد والرقائق باب لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين رقم ٢٩٩٨ (لا يلدغ ..) اللدغ هو العض والإصابة من ذوات السموم كالعقرب والحية والجحر الثقب والمعنى أن المؤمن ينبغي أن يكون حذرا بحيث لا يخدع من جهة واحدة مرتين]

ثم يا أيها المغتر تفكر: هذا " جحر " مخفي داخله ولذلك أذن لك أن تمد يدك الأولى مكتشفاً، فمالك قد نمت آمناً في وكر سباع وجماع أفاع لها ضباع تحت الشمس مكشوف؟!

في حيرة تحقيق الشهادة على الخلق تندفع الحيات والعقارب والسعالي تؤزها شياطينها بحرارة الخبث وسم الكراهية للحق لتقتنص الركب وأهله –ولا يزالون– سعياً وراء سعي، ومكراً وراء مكر – { بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ} [سبأ: ٣٣] – حتى إذا أصابوا غرة من غافل أو ضعيف لدغوا نشراً للسم فيه وفي الجماعة، وحينها يتعطل الركب أو يضعف، هؤلاء هم " جحور "الباطل التي يجب على الجماعة أن تردمها، ثم يطين عليها فلا يكون لها روح ولا بقاء، وهذا الذي أمر الله به نبيه ﷺ بقوله: {لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا (٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا (٦١)} [الأحزاب: ٦٠، ٦١][٢٣٦] وبهذا قمعت الجحور وردمت في الصدر الأول.

لحكمة عظيمة جرت أحداث السماء بين أبينا آدم عليه السلام وعدوه إبليس لتقع العبرة أن العداء هو العداء {نَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ } [فاطر: ٦] وقد ذكر الله أمر الشيطان وعداءه فلم يذكر طريقاً للتعامل معه سوى الاستعاذة منه وتوقي طرقه ومكره، فهو عدو لا يأتي منه إلا الشر، فهذا هو طريق الحكمة مع "الشياطين" الذين يتقون في "الجحور"، فإن للظلمة والرطوبة التي يعيشون في أجوائها ميزة علمتهم المكر الذي يستدعي "الكمون" القائم على الصبر الطويل في انتظار اللحظة الملائمة لبث سمومها والإيقاع بضحاياها.

من أعظم هؤلاء شراً وسمّاً هم أهل "التقية"، فهي جحر الأفاعي الرطب المظلم الخبيث، ربوا على الحقد وقيح الحكايا الباطلة، وأشربت قلوبهم "النواح الحقود" يبيتون على طوى الذل والخنوع حتى إذا سنحت لهم فرصة "اللدغ" نشطوا لها لا يردعهم دين ولا خلق، يتحالفون مع الكفر الصريح ليشفوا نار غليلهم من المسلمين، هذا دأبهم وسيرهم مع كل حلقات التاريخ، فيا لتعاسة الذين لا يقرؤون التاريخ ويعتبرون به، بل يمرون عليه مرور الجهل قائلين: هذا زمان يختلف، وقد تغير الناس، ولكل

٢٣٦ – لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ الذينَ يُظْهِرُونَ الإِيمَانَ، وَيُبْطِنُونَ الكُفْرَ، وَأَهْلُ الرِّيَبِ والشُّكُوك والفُسُوق (الذينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ) الذينَ يُؤْذُونَ المُؤْمِنِينَ باتِّباعِ نِسَائِهِمْ، والإِسَاءَةِ إِلَيهِنَّ، وَلئِنْ لَمْ يَنْتَهِ المُرْجِفُون الذينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَالمُؤْمِنِينَ بِنَشْرِ الشَّائعَات الكَاذِبَة المُثَبِّطَة لِهِمَمِ المُؤْمِنِينَ وَعَزَائِمِهِمْ (كَقَوْلِهِمْ مُحَمَّدٌ غُلِبَ، وَجَاءَتْ جُيُوشٌ مُشْرِكَةٌ لِحَرْبِ المُسلمينَ لا قبلَ لَهُمْ بِهَا. . .) لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ هؤلاء جَميعاً، فَإِنَّ اللهَ سَيُسَلِّطُ رَسُولَهُ عَلَيهِمْ، وَيُغْرِيه بِقِتَالِهِمْ وَإِجلائِهِمْ عَنْ المَدِينة فَلا يَسْكُنُونَ مَعَهُ فيها، وَلا يَمْضِي وَقْتٌ قَصِيرٌ حَتَّى تَخْلُوَ المَدِينَةُ مِنْهُمْ. وَسَيَكُونُونَ خِلالَ هذل الوَقْتِ القَصِيرِ الذي يَبْقونَ فيه في المَدِينة مَلْعُونِينَ، مَطْرُودِينَ مِنْ رَحْمَة اللهِ، وَإِذا خَرَجُوا تَبْقَى الذِّلَّةُ مُلازِمَةً لَهُمْ، وَلا يَجِدُونَ مَلْجأً يَعْصِمُهُمْ مِنْ بَأْسِ المُؤْمِنِينَ، فَأَيْنَما وُجِدُوا كَانُوا فِي ذِلَّةٍ مُعَرَّضِينَ للأَخْذِ وَالقَتْلِ فِي كُلِّ حِينٍ.أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٣٤٧٤، بترقيم الشاملة آليا)

زمن ظروفه، وما علموا أن القيم والعقائد هي هي لم تتغير وإن تزينت بزي جديد وبلباس خادع متطور[٢٣٧].

إن المؤمن شرطه " الاعتبار " فمن لم يعتبر بما يصيبه لن يعتبر بما قُصّ عليه عن غيره، فإن كانت الندوب التي في جسمه لا يلتفت إليها فكيف له أن يرى ما يقع مع الآخرين؟! هذا "الاعتبار " هو الذي يجعله يراكم المعارف والتجارب ويضعها نصب عينه في مسيرته ورحلته مع العبودية لرب العالمين، أما أولئك الذين يظنون أن شرط الإيمان " الغفلة " فهؤلاء حقيق بهم الزوال وغلبة الأعداء عليهم، بل اتخاذهم مطايا لتنفيذ مخططات الأعداء بهم، وإن من أخطر الذنوب التي يقع فيها المؤمن هو أن يكون يدَ شرٍّ لأعداء الله تعالى وهو يحسب أنه يحسن صنعاً، وحال هؤلاء كحال المبتدع إذ لا توبة له، لأنه يظن أنه على حق وصواب، بل يموت في سبيل هذا، وهو في الحقيقة يخدم أعداء الله، وهذه " البدعة " الكبرى وهي التي تتعلق بالعمل لدين الله هي التي يجب أن نتكلم عنها أكثر من غيرها من البدع " الشخصية " والفردية، إذ البدع الفردية مردها على صاحبها، أما البدع التي تتعلق بالعمل الإسلامي فهذه ضلالاتها تعود على الأمة بمجموعها، وهذا الذي يقع، فإن كثيراً من العاملين لدين الله تعالى إنما يخدمون الشيطان وجنده، بل هم من " دوابهم " ومطاياهم وهم لا يشعرون، وسبب ذلك " الغفلة " وعدم الاعتبار والنظر.

العمل لدين الله تعالى لا يتفاعل ولا يقدم ثماره دون نظر للتاريخ وأحداثه، ولا بالغفلة عن الواقع وظروفه، وليس هناك من حدث معاصر منبت عن تاريخ له، بل كل عامل يحمل موروثه الذي يهتدي به ويتفاعل معه ويسترشد به، وما وقع للأجداد يجب أن يكون حاضراً للأحفاد وكما قال ابن مسعود: " إِنَّ السَّعِيدَ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ "[٢٣٨] ولذلك "فالحية لا تلد إلا حية" وتربية الذئاب وسط الحملان لا تقبلها وديعة بل كما قالت الأعرابية: "ومن أدراك يا ابن الذئب أن أباك ذيب" وهذه طوائف جحور "التقية" الخبيثة عاشوا مئات السنين وسط المسلمين فهل انتفعوا بذلك أم إن الحفيد لم يزدد إلا حقداً عما كان عليه جده؟! وها هم اليهود الذين عاشوا بين آبائنا وأجدادنا هم شر يهود على المسلمين وأكثرهم عقراً لإخواننا في فلسطين، فالتاريخ حمل على الكواهل رغم أنف أهل "الغفلة" من مدعي السياسة والكياسة، ومن عجائب الواقع أنه ما من "علماني-لا ديني" خرج من طوائف "جحور التقية" إلا ويبقى وفياً لطائفته، ينقلب عليها بالمنفعة والنصح والانتصار، إلا هؤلاء الخبثاء "الدواب والمطايا" الذين خرجوا من أهل السنة إلى ردة العلمانية واللادينية فإن شرهم على المسلمين أعظم من شر اليهود والنصارى والمشركين، فسبحان الله كم هو ضرر "الدواب" هؤلاء وكم هي غفلتهم وجهالتهم؟!

---

[٢٣٧] – انظر كتابي "من مخازي الرافضة عبر التاريخ"

[٢٣٨] – الاعتقاد للبيهقي (ص: ٢٣٢) صحيح

ثم ليعلم أن الجهاد لا ينفع مع "الغفلة" ولا "العماية" بل يكون الجهاد شراً وفساداً في الأرض من غير بصيرة وهداية وتذكرة، و"الجهاد" خاصة ليس بالأمر الهين الذي يجوز فيه مثل هذه الأغلاط من "النوم على العقارب والأفاعي"، فإن "المجاهد" في صدره حمية وفي يده بندقية وأقل غلط في ذلك هو الفساد والدماء وإهلاك الحرث والنسل - { وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ } [البقرة: ٢٠٥].

ما يرشد إليه الحديث

ليكن المؤمن حازمًا حذرًا لا يؤتى من ناحية الغفلة في الدين والدنيا، ومبتغيات الأمر أن العبد المؤمن ينظر ما يجري له من حركاته وسكناته أن كلها من الله سبحانه وتعالى، فإذا أيقظه مرة لشأن ما، فينبغي له أن يكون فطنًا ولا يتعرض لإيقاظ في العذر له مرة أخرى.[٢٣٩]

ومال أَبُو عُبَيد : مَعناهُ ولا يَنبَغِي لِلمُؤمِنِ إذا نُكِبَ مِن وجه أَن يَعُود إِلَيه.

قالَ ابن بَطّال : وفِيهِ أَدَب شَرِيف أَدَّبَ بِهِ النَّبِيّ ﷺ أُمَّته ونَبَّهَهُم كَيف يَحذَرُونَ مِمّا يَخافُونَ سُوء عاقِبَته

يَعنِي لَيسَ مِن شِيمَة المُؤمِن الحازِم الَّذي يَغضَب لِلَّه أَن يَنخَدِع مِنَ الغادِر المُتَمَرِّد فَلا يَستَعمِل الحِلم فِي حَقّه ، بَل يَنتَقِم مِنهُ . ومِن هَذا قَول عائشَة " ما انتَقَمَ لِنَفسِه إلاَّ أَن تُنتَهَك حُرمَة الله فَيَنتَقِم لِلَّه بِها" قالَ فَيُستَفاد مِن هَذا أَنَّ الحِلم لَيسَ مَحمُودًا مُطلَقًا ، كَما أَنَّ الجُود لَيسَ مَحمُودًا مُطلَقًا ، وقَد قالَ تَعالَى فِي وصف الصَّحابَة " أَشِدّاء عَلَى الكُفّار رُحَماء بَينَهم"[٢٤٠]

وفي هذا الحديث: الحث على الحزم والكَيْس في جميع الأمور. ومن لوازم ذلك: تعرف الأسباب النافعة ليقوم بها، والأسباب الضارة ليتجنبها.

ويدل على الحثّ على تجنب أسباب الرِّيب التي يخشى من مقاربتها الوقوع في الشر.

وعلى أن الذرائع معتبرة. وقد حذر الله المؤمنين من العود إلى ما زينه الشيطان من الوقوع في المعاصي، فقال {يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [النور:١٧] ولهذا فإن من ذاق الشر من التائبين تكون كراهته له أعظم، وتحذيره وحذره عنه أبلغ؛ لأنه عرف بالتجربة آثاره القبيحة. وفي الحديث: "الأناة من الله،والعجلة من الشيطان، ولا حليم إلا ذو عثرة، ولا حكيم إلا ذو تجربة". والله أعلم.[٢٤١]

الحديث السابع والعشرون: من جهّز غازياً في سبيل الله فقد غزا

---

[٢٣٩] - الإفصاح عن معاني الصحاح (٦/ ٦٩)

[٢٤٠] - فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (١٠/ ٥٣٠)

[٢٤١] - بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار ط الرشد (ص: ١٥٨)

عن زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غَـزَا، وَمَنْ خَلَفَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِخَيْرٍ فَقَدْ غَزَا»[٢٤٢]

ليس في الركب إلا مجاهد، لا فرق بين حمل السلاح أو أعان حامله أو سدّد المسار، فإن كانت تلـك تهمة فهي تهمة حق، وإن كانت منافسة على الأجور والدرجات فالقسمة سواء، فالركائب لا تـدوم ولا يطمئن أهلوها إلا بالمدد وحماية الظهور واطمئنان على الأهل والمال والولد، فهذه طريق لا طـرد فيها لأحد، ولا تفضيل فيها لأحد باعتبار الصنعة إنما التفضيل بإتقان الصنعة، والإخلاص لها، ومـداد التقوى الساري في القلوب، فعجيب لمن يتكلم عن الشجاعة وهو لا يعرف أفنانها ولا همومها، فهـل الخائض قتالاً في أعداء الله مقتحماً بفرسه في غمراتهم أشد شجاعة ممن بات على ثغر الحرائـر لـيس هناك سواه، ملق بسامعته لتلتقط أدنى حس أو خبر، يخاف أن تؤتى الذمام من قبله؟! لا والله، وهـذا هو أبو بكر رضي الله عنه أفضل أصحاب رسول الله ﷺ لم يذكر عنه كثير قتال في بدر مثلاً كمـا ذكر من شأن حمزة رضي الله عنه، وكان موقعه على غرز رسول الله ﷺ وخيمته، كما كان موقعـه في الهجرة يحميه ويحوطه بنفسه، وبذلك عرف له الفضل، وها نحن نرى اليوم أن من قـدّم مالـه في سبيل الله معرض للابتلاء أشد ممن هو آمن مع سلاحه مقاتلاً، والمواطن لها رجال، فمن جهالة البعض اختزال مواطن الجهاد في موطن واحد، بل العدل والعقل هو النظر إلى الحياة وما فيهـا مـن سـبل وفجاج، وإكبار الناس الواقفين على ثغور هذه السبل والفجاج، فالمجاهد المقاتل ما كان له أن يقـوم لولا إمام المسجد، وما كان له أن يقوم لولا من يعلّم طفله سورة الفاتحة والإخلاص، وما كان له أن يقوم لولا من يحميه في ظهره بالدفاع عنه وعن عرضه بالبيان وسحر المقال، وها هي دول الشـيطان تنفق الملايين لصرف الناس عن دينهم لا بالحرب فقط ولا بالسلاح فحسب ولكن بـإغواء الكلمـة والصورة. فالقائم لهم أشد في نحورهم من رامي النبل كما قال الحبيب المصطفى ﷺ لحسان بن ثابت رضي الله عنه،[٢٤٣] وكما ينـزل الله الملائكة لنصر المجاهدين المقاتلين فهو ينـزلها كذلك لتلك المعاني فعَنِ البَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِحَسَّانَ: «اهْجُهُمْ - أَوْ هَاجِهِمْ وَجِبْرِيلُ مَعَـكَ»[٢٤٤]،

---

[٢٤٢] - الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ٣٧٢)٢٨٤٣ - ١٠٥٠ -[ش أخرجه مسلم في الإمارة باب فضـل إعانـة الغازي في سبيل الله .. رقم ١٨٩٥. (جهز غازيا) هيأ له ما يحتاجه في سفره وغزوه والغزو الجهاد. (فقد غزا) كتب له أجر الغزو وإن لم يغز لأنه ساعد عليه. (خلف غازيا) قام مقامه في قضاء حاجات أهله حال غيبته. (بخير) بإحسان وأمانة وإخلاص]

[٢٤٣] - عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ ، عَنْ أَبِيهِ ، أَنَّهُ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ : إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَنْزَلَ فِي الشِّعْرِ مَا أَنْزَلَ ، قَـالَ: " إِنَّ الْمُؤْمِنَ يُجَاهِدُ بِسَيْفِهِ وَلِسَانِهِ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَكَأَنَّمَا تَرْمُونَهُمْ بِهِ نَضْحُ النَّبْلِ " السنن الكبرى للبيهقي (١٠/ ٤٠٤)(٢١١٠٨) صحيح

[٢٤٤] - الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ٤٠٩)٣٢١٣ - ١١٤٠ -[ش أخرجه مسلم في فضائل الصحابة باب فضائل حسان بن ثابت رضي الله عنه رقم ٢٤٨٦. (اهجهم) أمر من هجا يهجو هجوا وهو نقيض المدح. (هاجهم) من المهاجاة أي جازهم بهجوهم. (معك) يؤيدك وينصرك]

والركب المجاهد في مسيرته مطلوب أن يعرف مقامات الناس وفضلهم في أماكنهم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «السَّاعِي عَلَى الأَرْمَلَةِ وَالمِسْكِينِ، كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوِ القَائِمِ اللَّيْلَ الصَّائِمِ النَّهَارَ»[٢٤٥]، وغرور الناس في صنعتهم مفسدة للركب وهي أشبه بدعوى الجاهلية وحقيق أن يقال لمن تطاول على إخوانه بنسب الصنعة أن يقال له كما يقال للمفتخر بنسب الآباء، ثم قد علم من فنون الحروب أن الجبهات المقاتلة لا تسع كل الناس، بل إن زاد أهلها عن الحد صاروا عبئاً على الناس، فبهذا يعلم أن الحكمة هي وضع الشيء في موضعه. ألا فليعلم أن مكشوف الظهر لا يدوم، ومهموم البال لا يصمد، والجائع لا يقوم، ومن غير وقود يستحيل ما في النار رماداً لا يشتعل، فلابد للركب من كلمة حانية تنافح عنها، وحادٍ يدفع العيس حتى يقال له: «وَيْحَكَ يَا أَنْجَشَةُ، رُوَيْدَكَ سَوْقًا بِالقَوَارِيرِ»[٢٤٦] وتاجر يؤمن جيش العسرة عثماني القلب والنفس، وصاروخ في الجيش خير من ألف فارس، وحكيمة كأم سلمة تقول لحبيبها لما دَخَلَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ، فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِنَ النَّاسِ، فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: يَا نَبِيَّ اللَّه، أَتُحِبُّ ذَلِكَ، اخْرُجْ ثُمَّ لاَ تُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً، حَتَّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ، وَتَدْعُوَ حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ، فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ نَحَرَ بُدْنَهُ، وَدَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ، فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَامُوا، فَنَحَرُوا وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا غَمًّا [٢٤٧]

وهكذا تتوزع المهمات بحسب القدرات وما قدر الله فيها للخلق، كل يعلم أن ما هو فيه خير وأن غيره في خير كذلك، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

ثم إن فضل الأعمال لا تعرف من قبل الأطفال، فهؤلاء صغار تبهرهم البهارج والألوان، وتفزعهم الأصوات العالية، يظنون أن الماء إنما هو من هذا المقبض الحديدي الذي يديرونه فينزل ماءً، ولا يرون أنابيب المياه الخفية التي هي ناقلة له، ولا يرون منابع المياه وراء الجبال، فهذه نظرة الأطفال وتلك أحكامهم الجاهلة، ومثل هؤلاء إن صارت الأحكام إليهم وأكثروا الصراخ وقادوا المسيرة فعلى الركب السلام، إذ لا تصلح المسيرة إلا بقيادة هادية رشيدة ولو تأملنا ما كان يقوله رسول الله ﷺ لأصحابه وحثه أن يلزموا أماكنهم وصنعتهم لرأينا عجباً، فقد كان يثير الفضائل المكبوتة، ولا يفتخر

---

[٢٤٥] – الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ٥٩٠)٥٣٥٣ – ١٥٩٧ –[ش أخرجه مسلم في الزهد والرقاق باب الإحسان على الأرملة والمسكين واليتيم رقم ٢٩٨٢ (الساعي) الذي يسعى ليحصل ما ينفقه على من ذكر. (الأرملة) التي مات عنها زوجها غنية كانت أم فقيرة. (المسكين) الذي ليس له من المال ما يسد حاجته. (كالمجاهد) له أجر كأجر المجاهد أو القائم الصائم]

[٢٤٦] – الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ٦٣٤)٦١٤٩ – ١٧٤٧ –[ش أخرجه مسلم في الفضائل باب رحمة النبي ﷺ للنساء وأمر السواق مطاياهن بالرفق بهن رقم ٢٣٢٣ (ويحك) كلمة ترحم وتوجع تقال لمن يقع في أمر لا يستحقه. (أنجشة) غلام أسود حبشي كان مملوكا للنبي – يكنى أبا مارية (رويدك) اسم فعل بمعنى أمهل وارفق وقيل معناها كفاك. (بالقوارير) جمع قارورة سميت بذلك لاستقرار الشراب فيها وكني بذلك عن النساء لضعف بنيتهن ورقتهن ولطافتهن فشبهن بالقوارير من الزجاج. (لعبتموها عليه) أي على الذي تكلم بها لأن فيها ملاطفة وتوددا إلى النساء. وقيل سبب العيب لأن وجه الشبه غير ظاهر وجلي والله تعالى أعلم]

[٢٤٧] – المسند الموضوعي الجامع للكتب العشرة (٨/ ٣٩٩)، (خ) ٢٧٣١

الناس بشيء علموه وانتشر أمره إلا وأشار إلى غيره من الفضائل مما تخطئه العين ولا تنتبه له، ذلك لأنه البصير بما هي عليه الحياة، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: أَرَادَ بَنُو سَلِمَةَ أَنْ يَتَحَوَّلُوا إِلَى قُرْبِ الْمَسْجِدِ، قَالَ: وَالْبِقَاعُ خَالِيَةٌ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ ، فَقَالَ: «يَا بَنِي سَلِمَةَ دِيَارَكُمْ تُكْتَبْ آثَارُكُمْ»،فَقَالُوا: مَا كَانَ يَسُرُّنَا أَنَّا كُنَّا تَحَوَّلْنَا "[٢٤٨] و(**اعمل من وراء البحر**).

أما أنها تهمة حق وأن الركب كله مجاهد، فعجيب لأولئك القوم الذين ملؤوا نفوس الشباب بحب الجهاد والشهادة، وصاغوا أمرها بأحلى كلام وألقوا فيها الخطب والدروس ثم لما كان الجهاد ونار وفتنته انقلبوا ذامين شاتمين متبرئين، ألستم أنتم ممن بغّض في نفوس الشباب الكفر وأهله؟! ألستم أنتم ممن عددتم قبائح الكفار وظلمهم؟! ألستم أنتم الذين قلتم إن أهل الإسلام هم قدر الله في عذاب المشركين؟! ثم ألستم أنتم من علّم الناس الولاء والبراء؟! أبعد هذا كله ماذا كنتم تنتظرون من هؤلاء الشباب سوى الانغماس في غمرات الموت ونكاية الأعداء؟!

نعم: "يداك أوكتا وفوك نفخ" فإن نكثت، فتلك سنة الله في البعض: يقل الصالحون حتى لا يبقى إلا كما يبقى في الإناء بعد الشرب، وإن صبرتم فتلك سنة الله في آخرين: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٥) } [آل عمران:]، فاختر أي السبيلين يا مسكين.

ما يرشد إليه الحديث

دل الحديث على أن تجهيز الدعاة والمجاهدين من موضوعات الدعوة التي ينبغي أن يعتنى بها ؛ لأن النبي ﷺ حث على ذلك بقوله : « من جهز غازيا فقد غزا » وهذا فيه الحث على إعداد الدعاة والمجاهدين ، ومساعدتهم بالمال ، والكتب العلمية ، وإمداد المجاهدين بالسلاح ، والعتاد ، وجميع ما يحتاجون إليه ؛ لقوله سبحانه وتعالى : { يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ } (سورة النساء ، الآية : ٧١ .) وقوله عز وجل : { وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ } (سورة الأنفال ، الآية : ٦٠) .

فينبغي العناية وحث المسلمين على إعداد الدعاة بالتعليم ، والكتب والمال ، ووسائل النقل المناسبة ثم إرسالهم للدعوة إلى اللّه عز وجل ، وإعداد المجاهدين بالتعليم ، والزاد ، ووسائل النقل المناسبة ، والسلاح ، وغير ذلك من لوازم إعداد وتجهيز الدعاة والمجاهدين في سبيل اللّه عز وجل .

---

[٢٤٨] – تهذيب صحيح مسلم– علي بن نايف الشحود (ص: ٢٢٠) (٦٦٥)

[ش (دياركم تكتب آثاركم) معناه الزموا دياركم فإنكم إذا لزمتموها كتبت آثاركم وخطاكم الكثيرة إلى المسجد]

وظهر في هذا الحديث أهمية إعانة الدعاة إلى اللّه عز وجل ، والمجاهدين في سبيل اللّه سبحانه وتعالى ؛ لقوله ﷺ : « ومن خلف غازيا في سبيل اللّه فقد غزا » وهذا فيه بيان لأهمية إعانة الدعاة والمجاهدين ، بإصلاح حال أهلهم ، والقيام على ما يحتاجون إليه ، والنيابة عنهم بالرعاية ، والنفقة ، وتفقد أحوالهم ، وحمايتهم مما يضرهم ، والدفاع عنهم ، وإصلاح حال الأولاد ، ومراقبة استقامتهم على طاعة اللّه ، وإرشادهم وتوجيههم إلى ما ينفعهم في الدنيا والآخرة، قال الإمام النووي رحمه الله : " وفي هذا الحديث الحث على الإحسان إلى من فعل مصلحة للمسلمين أو قام بأمر من مهماتهم "

وفي هذا الحديث الحث على أسلوب الترغيب في تجهيز الدعاة والمجاهدين والعناية بما يحتاجون إليه في دعوتهم وجهادهم ، وفي القيام بمصالح أهلهم وحمايتهم من بعدهم ؛ ولهذا قال ﷺ : « من جهز غازيا فقد غزا ، ومن خلف غازيا في سبيل اللّه بخير فقد غزا » . وهذا يبين فضل من جهز داعيا إلى اللّه أو غازيا في سبيل اللّه كما يبين فضل من قام برعاية مصالح الدعاة والغزاة في أهلهم وأموالهم قال الإمام النووي رحمه الله في شرحه لقوله ﷺ : " فقد غزا " " أي حصل له أجر بسبب الغزو ، وهذا الأجر يحصل بكل جهاد ، وسواء قليله وكثيره ، ولكل خالف له في أهله بخير : من قضاء حاجة لهم وإنفاقٍ عليهم ، أو مساعدتهم في أمرهم ، ويختلف قدر الثواب بقلة ذلك وكثرته " وهذا من فضل اللّه عز وجل على عباده أن جعل من جهز غازيا في سبيل اللّه عز وجل أو خلفه في أهله ، كالغازي في المرتبة ؛ لأنه إذا جهزه بماله يجاهد ، وإذا خلفه في أهله بخير فكأن المجاهد لم يخرج من بيته ؛ لقيام أموره فيه وإصلاح حال أهله ، وحمايتهم ، ونصرتهم .

وقد دلت الأحاديث الصحيحة على أن النفقة في سبيل اللّه عز وجل تضاعف إلى سبعمائة ضعف ، وهذا يدخل فيه من جاهد بنفسه ومن لم يجاهد وهذا كما قال تعالى : { مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } (سورة البقرة ، الآية : ٢٦١) .

ومن فضل اللّه عز وجل أن من رَغَّبَ في الدعوة أو الجهاد أو غير ذلك من أنواع الطاعات فله مثل أجر من دعا وجاهد وعمل وإن لم يدع ، ولم يعمل ، ولم يجاهد[٢٤٩]

الحديث الثامن والعشرون: ليس الشّديد بالصُّرعة

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ»[٢٥٠].

---

[٢٤٩] – فقه الدعوة في صحيح الإمام البخاري (١/ ٤٤٥)

كل فعل لا يقع بإرادة يقظة محكوم بفساده، إذ ضبط القوة في مواطن الطيش حكمة العقلاء، فالصلاح لا يقع لجماعات الحق إلا باجتماع القوة والحكمة، فإذا انفرد أحدهما عن الآخر لم يقع، فقوة في يد سفيه مهلكة ومفسدة، وحكمة في رأس ضعيف كرأس بلا بدن، وفي رحلة الشهادة على الخلق لا يوجد إلا العلم، ولا خصومة إلا في الله كما دعا المصطفى ﷺ فعَنْ طَاوُسٍ، سَمِعَ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يَتَهَجَّدُ قَالَ:" اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ لَكَ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ الحَقُّ وَوَعْدُكَ الحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَقَوْلُكَ حَقٌّ، وَالجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ، وَمُحَمَّدٌ – حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ المُقَدِّمُ، وَأَنْتَ المُؤَخِّرُ، لاَ إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ – أَوْ: لاَ إِلَهَ غَيْرُكَ – "[٢٥١]

وهذه الكلمات هي جماع فعل المؤمن لا يشذ عنها عمل ولا حركة ولا قول ولا سكنة، والانفعالات النفسية الطارئة السريعة لا يسلم من باطلها إلا القليل من الحق، لأنها فالتة عن زمام الحكمة والتدبر والدراسة، فإذا اجتمع معها نسيان المرء للتاريخ وغفلة عن الحاضر وتجهل بالعواقب ازداد شرها، فإن كانت مع القدرة فحينئذ هو الفساد بعينه، ومن هنا فردّات الأفعال ليست بشيء إن اتسمت بسمة السرعة والفجأة، بل لابد من التأني لحصول الوعي والقراءة الصحيحة.

« الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ» فهذا إنسان قدر على الفعل لكن هل أمن الردع والعاقبة، فليس العبرة بأن تقدر على الفعل، لكن من العبرة أن يكون عندك القدرة على تلقي نتائج الفعل وهو الذي يسمى بالردع، فهذا هو العقل والحكمة، ففي حالة الغضب يكون الاندفاع الذي يؤمن حصول الضرر للخصم، اندفاع مع البغتة، لكن بعد ذلك وبعد أن تؤوب القُوَى إلى ميزانها الصحيح دون مرجح آخر فكيف سيكون الحال، أو حين يجمع الخصم سلاحه وعتاده، ويؤمن لنفسه أسباب هلكتك فماذا سيبقى لك حينئذ سوى الهزيمة؟

---

[٢٥٠] – الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ٦٣٢)٦١١٤ – ١٧٤١ –[ش أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب باب فضل من يملك نفسه عند الغضب .. رقم ٢٦٠٩ (الشديد) القوي الحقيقي. (بالصرعة) الذي يغلب الرجال ويصرعهم. (يملك نفسه) يكظم غيظه ويتحلم ولا يعمل بمقتضى غضبه]

[٢٥١] – الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ١٨٦)١١٢٠ – ٤٨٦ –[ش أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه رقم ٧٦٩. (قيم) دائم القيام بتدبير الخلق تعطيهم ما به قوام أمرهم. (وبك خاصمت) من أجلك خاصمت المعاند والكافر وقمعته بما أعطتني من القوة بالسيف والبرهان. (إليك حاكمت) جعلت شرعك هو الحاكم بيني وبين من جحد الحق أوحصلت خصومة بيني وبينه]

الغضب تركز النفس حول نقطة عابرة، وحدث سريع، فتشتعل مع ذهول عن ماض يجب أن يعتبر، وقد تقدم أن الاعتبار شرط الإيمان وهو بحث كذلك، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أُرِيتُ النَّارَ فَإِذَا أَكْثَرُ أَهْلِهَا النِّسَاءُ، يَكْفُرْنَ» قِيلَ: أَيَكْفُرْنَ بِاللَّهِ؟ قَالَ:" يَكْفُرْنَ العَشِيرَ، وَيَكْفُرْنَ الإِحْسَانَ، لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ، ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا، قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ "[٢٥٢]، وهذا من قلة الإيمان والعقل، وكذلك الغضب.

ثم ليعلم أنه ليس كل اندفاع نحو الخصم صواب وحق، فهذا رسولنا ﷺ يقول لمسلمة بن الأكوع رضي الله عنه " يَا ابْنَ الأَكْوَعِ: مَلَكْتَ، فَأَسْجِحْ إِنَّ القَوْمَ يُقْرَوْنَ فِي قَوْمِهِمْ "[٢٥٣]

إذ في ذلك عبرة أن حركة الهجوم هي حركة واعية حتى في النصر وهزيمة الخصم، إذ العقل والحكمة لا يتيهان في ظرف من الظروف، ولا يغيبان، لا بفعل غضب ولا هزيمة ولانصر، إذ لكل واحد من هذه الحالات سكرته وجهالته.

(**الشديد الذي يملك نفسه**) فيحكم قيادتها، يدفعها حين يكون الاندفاع حكيماً، ويلجمها حين يكون الانكفاء حكيماً، فهي بيده، يقيدها بقيد الحكمة والعقل، فلا تنفلت منه كانفلات الكلب العقور وأوابر الدواب.

في رحلة الجهاد وأنت تملك بعض "الشدة" تُستفَزّ لفعل لا قوام له سوى الغضب، ولا يحقق سوى المنفعة للخصم كما يستفز الثور الأحمق في لعبة الموت، فيحرك الخصم له بعض القماش وقد وضع أسياف الموت في جنبه، ففي هياجه الغبي وحركته هلكتُه وموته، والداعي والمجاهد بصير بما عليه من قوة، وبصير بما عليه الخصم من قوة، ولذلك هو يحكم قيادة أفعاله لا لتتفجر كالقنبلة لا تحقق وراءها سوى الخراب، بل هو يبني وحين يهدم يكون في سبيل البناء، وكل فعل لا يقدم الإسلام إلى الأمام فتركه واجب، وإني أخاف أشد الخوف من تلك العقلية التي تعجز عن البناء فتهرب إلى الموت، وهذه عقلية صبيانية يحكمها الغضب الجاهلي وسعار الانتقام تحت دعوى محبة الجنة والرغبة في الدار الآخرة، وهذه إن كانت محتملة من الصغار فإنها جريمة كبرى من القادة والأئمة ورعاة المسيرة لأن هؤلاء لا تحكمهم اللحظة الزمانية الراهنة بل يحكمهم منطق التاريخ بعمقه الطويل، والمستقبل الذي

---

[٢٥٢] – الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ٣٩)٢٩ – ٢٣ –[ش أخرجه مسلم في أول كتاب العيدين رقم ٨٨٤ (أريت) من الرؤية وهي الإبصار والمعنى أراني الله تعالى. (يكفرن العشير) من الكفر وهو الستر والتغطية أي ينكرن إحسانه. والعشير الزوج مأخوذ من المعاشرة وهي المخالطة والملازمة. (الدهر) مدة عمرك. (شيئا) لا يوافق مزاجها ولا يعجبها مهما كان قليلا. (قط) أي فيما مضى من الأزمنة]

[٢٥٣] – الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ٣٩٠) ٣٠٤١ – ١١٠٠ – [ش أخرجه مسلم في الجهاد والسير باب غزوة ذي قرد وغيرها رقم ١٨٠٦.

(ملكت) قدرت عليهم. (فأسجح) فارفق من الإسجاح وهو حسن العفو. (يقرون) يضافون والمعنى أنهم وصلوا إلى قومهم وهم يضيفونهم ويساعدونهم فلا فائدة في البعث في أثرهم]

قوام التعامل معه ما جاء عن عَبْد اللَّه بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ: «إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ فَأَوْغِلُوا فِيهِ بِرِفْقٍ، وَلَا تُبَغِّضُوا إِلَى أَنْفُسِكُمْ عِبَادَةَ اللَّهِ، فَإِنَّ الْمُنْبَتَّ لَا بَلَغَ بُعْدًا، وَلَا أَبْقَى ظَهْرًا، وَاعْمَلْ عَمَلَ امْرِئٍ يَظُنُّ أَنْ لَا يَمُوتَ إِلَّا هَرِمًا، وَاحْذَرْ حَذَرَ امْرِئٍ يَخْشَى أَنْ يَمُوتَ غَدًا»[٢٥٤]

السير نحو الموت خيار جائز في حالتين فقط: أولاهما: حين لا يكون سوى الموت خياراً، فإما أن تموت ذليلاً وإما أن تموت شهيداً فحينها تتحقق المقولة الأخدودية الخالدة: " يَا أُمَّتَاهُ اثْبُتِي فَإِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ"[٢٥٥] وحينها يقتحم الأخدود، وهذه لا فرق فيها بين القادة والقاعدة بل هي خيار للجميع والمختلف عنها ناقص، والثانية: للقواعد المجاهدة ممن رصدوا للنكاية من منظور شرعي ومصلحة راجحة، ثم إن هذا الفعل ليس إلا استثناء لا قاعدة.

الغضب يولد حركات انتقام، وهي حركات لا قيمة لها في حركة الشهادة على الخلق إلا ما كان لله تعالى، وهي حركات مكشوفة للناس أن أبعادها شخصية ودوافعها الهوى وبالتالي تفقد الدعوة نورها الساري فيها أن القوم إنما ينتصرون لدين الله الذي يحملون همومه وقضاياه، وحركات الغضب حركات فيها الطيش والانفلات عن قيود الشرع والدين وغلبة الصغار الذين هم أشد صراخاً وفيهم قلة عقل من غيرهم، وهذه بمجرد وقوعها فإنها كالشرر الذي لا يعرف العقلاء مواطنه ولا آثاره ونتائجه، وكل ذلك شر وبيل في رحلة الشهادة على الخلق.

الغضب يعني غياب الإدارة العالمة ويعني غياب الوعي عن النتائج، ويعني غلبة الهوى، ولا يُمدح إلا إن كان لله تعالى فهو حينئذ محكوم بقيم الشرع والعقل، ولكن كثيراً ما يتقنع الغضب الشهواني بقناع الشريعة وتلك بدعة عظيمة من بدع الأمم والجماعات.

ما يرشد إليه الحديث

وفي هذا الحديث من الفقه نفي رسول الله – ﷺ – الشدة عن قوة أعضاء الإنسان وإثباتها في عقله الذي يصرع هواه عند الغضب.

والذي أرى أن رسول الله – ﷺ – ذكر الغضب من أجل أن النفس إذا غضبت فإنما يكون ذلك منها لأذى اتصل بها فيفور إلى الانتقام، ولا يكون ذلك في الأكثر إلا على مقدور عليه، فذكر رسول الله – ﷺ – هذا العارض منبهًا لها أنه إن كان عن خوف أو عن طمع أو عن هوى كان في كل ذلك مكابدًا بها منها مالا يلحق درجة الغضب لأنها لا تغضب إلا في مقام تظل فيه متسلطة، والمؤمن يذكرها عن استشاطتها بالغضب ما في عاقبة الكظم واطلاع الله عز وجل عليه مع كونه قد أتى من

---

[٢٥٤] – الزهد والرقائق لابن المبارك والزهد لنعيم بن حماد (١/ ٤٦٩)(١٣٣٤) فيه مبهم

[٢٥٥] – صحيح ابن حبان – مخرجا (٧/ ١٦٤) (٢٩٠٣) صحيح

مساخط الله تعالى أضعاف ما إليه أتاه المسخوط عليه، فأمهل سبحانه وسامح فليمثل في نفسه عفـــوًا لعفو وانتقامًا بانتقام.[٢٥٦]

في هذا الحديث: مَدْح من يملك نفسه عند الغضب. قال الله تعالى: {وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَـــنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [آل عمران (١٣٤)] .

والغضب: جماع الشر، والتحرز منه جماع الخير، وقال رجل للـــنبي - ﷺ -: أوصـــني. قـــال: «لا تغضب» ، فردَّد مرارًا. قال: «لا تغضب» .[٢٥٧]

والحديث يدل على أنَّ القوَّة الحقيقية ليست هي قوَّة العضلات، والقوَّة البدنية، وإنَّما القوَّة الحقيقيـــة هي القوَّة المعنوية؛ فليس الشديد القوي هو الَّذي يصرع دائمًا غيره من الأشداء.

وإنَّمَا الشديد هو الَّذي جاهد نفسه، وقهرها حينمَا يشتد به الغضب؛ فيملك زمامها، فلا يقدِّم على فعل محرَّم، من اعتداء، ويمسك لسانه، فلا يتفوه بكلامٍ محرَّمٍ، من شتمٍ، أو لعنٍ، أو قـــذْفٍ، أو غـــير ذلك.

والغضب غريزةٌ في الإنسان، فإذا جاء ما يبعثها، تحرَّكت نفسه من داخلها إلى خارج الجسد؛ لإرادة الانتقام؛ فالقوي الشديد هو الَّذي يجاهد هذه الحركة، ويقوى عليها، فيصدها عمَّا تريده من الانتقام.

أمَّا ما جاء من الحديث الَّذي رواه البخاري من حديث أبي هريرة:"أنَّ رجلًـــا قـــال للـــنَّبيِّ -ﷺ-: أوصني، فقال: لا تغضب" فالمراد أمران:

الأوَّل: يوصيه بأنْ يعمل الأسباب التي توجب له حسن الخلق، مـــن الحلـــم، والأنـــاة، والحيـــاء، والاحتمال، وكف الأذى، والصفح، والعفو، وكظم الغيظ، ونحو ذلك؛ فإنَّ النَّفس إذا تخلَّقت بهـــذه الأخلاق، وصارت لها عادة، أوجب لها ذلك دفع الغضب عند حصول أسبابه.

الثاني: أنَّه يوصيه أنْ: لا تعملْ بمقتضى الغضب إذا حصل لك، بل جاهد نفسك على ترك تنفيـــذه، والعمل بما يأمرك به، فإنَّ الغضب إذا ملك من بني آدم، كان هو الآمر النَّاهي له؛ ولهذا قال تعـــالى: {وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ} [الأعراف: ١٥٤].

وفيه فضيلة الحلم: قال تعالى: {وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ} [آل عمران: ١٣٤].

وقال: {وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧)} [الشورى].[٢٥٨]

الحديث التاسع والعشرون: النهي عن الخذف

---

[٢٥٦] - الإفصاح عن معاني الصحاح (٦/ ٨٩)

[٢٥٧] - تطريز رياض الصالحين (ص: ٤٩)

[٢٥٨] - توضيح الأحكام من بلوغ المرام (٧/ ٣٩٤)

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُغَفَّلٍ: أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا يَخْذِفُ، فَقَالَ لَهُ: لاَ تَخْذِفْ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَى عَنِ الخَذْفِ، أَوْ كَانَ يَكْرَهُ الخَذْفَ وَقَالَ: «إِنَّهُ لاَ يُصَادُ بِهِ صَيْدٌ وَلاَ يُنْكَى بِهِ عَدُوٌّ، وَلَكِنَّهَا قَدْ تَكْسِرُ السِّنَّ، وَتَفْقَأُ العَيْنَ» ثُمَّ رَآهُ بَعْدَ ذَلِكَ يَخْذِفُ، فَقَالَ لَهُ: أُحَدِّثُكَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ نَهَى عَنِ الخَذْفِ أَوْ كَرِهَ الخَذْفَ، وَأَنْتَ تَخْذِفُ لاَ أُكَلِّمُكَ كَذَا وَكَذَا[٢٥٩].

من استمرأ الهوان ذهبت إلى غيره العوالي، جاء رجل إلى الإمام أحمد فقال: جئتك "بحويجة"، فقال له: ابحث لها عن رجيل، فحين يقع الصراع على أساس القيم والدين فليس إلا النهايات مطلب صحيح، وإلا فالهلكة، والذين يشرعون في الصدام ولا يتوقعون السحق هم جهلة بسنن الحياة ومسيرة التاريخ، فالذين يفقؤون العين ويكسرون السن ويُبْقون على قوة خصمهم بعين يتركونها وأسنان قاطعة أخرى سيرتد عليهم جهلهم وتنقلب غفلتهم دماراً سيندمون عليه.

حين ترمي حجراً على خصمك لتقيس قوته وتقول: أريد أن أؤلمه لأرى ردة فعله، وأنت تتعامل بمنطق الجهاد والقتال فأنت بحق سفيه حقيق بك الدمار والهلكة، فمثل هذه الأمور لا تحتمل هذه اللعبة السخيفة ولا هذه الاحتمالات العقلية التي هي أحق بالكلمات والحروف لا بالأرواح والدماء وموازين القوى.

حين تقرأ تجارب بعض العاملين لدين الله تعالى ترى جهالتهم العجيبة في سنن المواجهة والصراع، فهم يرمون "حجارة" يؤلمون بها الخصم من خلال استعراض صور وكلمات وأعداد لا عدة لها، فما هي إلا أن يصاب الخصم بـ"السعار" وتلك طبيعته، فيبطش بطشته المؤلمة التي لا تبقي ولا تذر، ولا يدري هذا المسكين "المستعرض" برمي الحجارة أن هذه طبيعة الحياة وقانون الوجود[٢٦٠].

إياك أن تؤلم خصمك استعراضاً بلا نكاية، فالحياة لا تحتمل هذا اللعب، فإما الفعل السنني الملائم وإلا فالترك هو الواجب، فالذين يرمون النمر ويجرحونه دون الإجهاز عليه سيبكون على هذه الإثارة الغبية في العاقبة.

---

[٢٥٩] – الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ٥٩٧)٥٤٧٩ – ١٦٦٢ –[ش أخرجه مسلم في الصيد والذبائح. باب إباحة ما يستعان به على الاصطياد والعدو رقم ١٩٥٤ (لا يصاد به) لا يجوز الصيد به لأنه يقتل بضغطه وقوة الرمي لا بحده. (ينكأ) ويروى (ينكي) بكسر الكاف من النكاية وهي المبالغة في الأذى والمراد لا تقتل العدو ولا تجرحه]

[٢٦٠] – قلت : كثير من الحركات الجهادية في الشام اليوم تضخم عملها ، وتجعل من الشعرة قبة ، وتعلن الحرب على كل خصومها ، وهي تعلم عجزها في القضاء على خصم واحد إلا بشق الأنفس وتقديم الغالي والنفيس ، فمن أخطائها الفاحشة أنها تقوم بعمل جهادي معين ثم تضخمه وتعلن تحديها لكل أعداء الإسلام صراحة ، دون النظر لواقها وواقع غيرها ... فيتألب عليها الجميع ويجهزون عليها بسرعة ... بل هناك حركات جهادية .... تقوم بعمليات قتل بشعة جدا وتنشرها بوسائل الإعلام لظنها أنها سوف ترعب خصومها... على حد زعمها فتكون الكارثة ..... ونسيت أن العمل بالسر وبالهدوء والتفكير الطويل والتأني فيه دون صخب ولا ضجيج ولا مخالفة لشرع الله تعالى... هو الذي يستمر ويدوم .... فمن خالف شرع الله وخالف سننه الكونية والشرعية أنى له النصر ولو كان من خيار الصالحين .

(الخَذْف) لعبة الصغار، صغار العقول، فيها متعة الاستعراض والتمثيل في باب من أبواب الحياة لا ينفع فيه إلا الجد، ولا قيمة فيه إلا للقتل والنكاية، والأسلحة إن شرعت من أغمادها يعني أنك سمحت لخصمك أن يأخذك بأشد ما يملك، فلا تقولن حينها لم أتوقع ذلك، أو أن ردة فعله فوق اللازم، فهذه تخمينات الجهال الصغار الذي لا مكان لهم في الحروب إنما هم لاعبون بل لاعبون صغار جهلة، ومن عجائب البعض أنهم يلقون الكلمات الكبار استعراضاً وتهديداً وليسوا من أهلها وإنما جلّ فعلهم أن يثيروا الخصوم إثارة التدمير والهلكة.

(الخَذْف) منهج عقلي فاسد، يتعامل مع الاحتمالات القريبة كفقء العين وكسر السن، مع أن المطلوب هو النكاية وقتل الصيد، ومنهج يتعامل مع الجد الذي لا جد بعده بلعب صبياني جاهل، وهو "تشيئ" أي جمع بين أشياء متعارضة، فـ(الخَذْف) قد تريد منه اللعب والاستعراض والمتعة، لكن بأدوات مؤذية لا تتناسب مع روح اللعب والمتعة والاستعراض، فتفقأ عين أخيك وتكسر سنه، وقد تريد منه (الخَذْف) القتال لكن بأدوات لا تصل إلى مستوى جد القتال لأنه لا يقتل الصيد ولا يكسر السن، فإما أن تريد اللعب فتلعب بأدوات اللعب، وإما أن تريد الجهاد والقتال، وللقتال أدواته وآلاته، أما هذا "التشيء" فهو لا يتناسب مع سنن الحياة وضروراتها، ولكن كثيراً ما يرى هذا "التشيئ – الخذف" في حركة الجماعات والأمم، فيؤذون أنفسهم وإخوانهم، فبالله عليكم ماذا تقولون فيمن يستعرض الصدور العارية صراخاً وتهديداً أمام الجيوش المدججة بالسلاح والحقد؟ فهل هؤلاء إلا لاعبون لعبة الدماء والأرواح في غير طريقها؟ وهل أرواح المسلمين تهون لهذه الدرجة؟ وهل الدماء رخيصة لتكون سبيلاً لإثارة شفقة العالم الذي لا يعرف إلا لغة القوة والخوف؟!

يا أهل الإسلام إياكم و(الخَذْف)، وأعرضوا قدر الاستطاعة عن الاستعراض الرخيص والمناورات الخاوية في أبواب الحياة وخاصة باب الجهاد والقتال والدعوة إلى الله تعالى فإن الأمر جد كله لا لغو فيه وباطل.

ما يرشد إليه الحديث:

قالَ المُهَلَّب : أَباحَ الله الصَّيد عَلَى صِفَة فَقالَ " تَنالهُ أَيديكُم ورِماحكُم " ولَيسَ الرَّمي بِالبُندُقَة ونَحوها مِن ذَلكَ وإِنَّما هُو وقِيذ ، وأَطلَقَ الشّارِع أَنَّ الخَذف لا يُصاد بِه لأَنَّهُ لَيسَ مِنَ المُجهِزات ، وقَد اتَّفَقَ العُلَماء ، إِلاَّ مَن شَذَّ مِنهُم ، عَلَى تَحرِيم أَكل ما قَتَلَتهُ البُندُقَة والحَجَر انتَهَى.

وفِي الحَدِيث جَواز هِجران مَن خالَفَ السُّنَّة وتَرك كَلامه ، ولا يَدخُل ذَلكَ فِي النَّهي عَن الهَجر فَوق ثَلاث فَإِنَّهُ يَتَعَلَّق بِمَن هَجَرَ لِحَظِّ نَفسه.

وفِيهِ تَغيِير المُنكَر ومَنع الرَّمي بِالبُندُقَة لأَنَّهُ إِذا نَفَى الشّارِع أَنَّهُ لا يَصِيد فَلا مَعنَى لِلرَّمي بِهِ بَل فِيهِ تَعرِيض لِلحَيَوان بِالتَّلَف لِغَيرِ مالِكه وقَد ورَدَ النَّهي عَن ذَلكَ ، نَعَم قَد يُدرِك ذَكاة ما رُمِيَ بِالبُندُقَة فَيَحِلّ أَكله ، ومِن ثَمَّ اُختُلِفَ فِي جَوازه فَصَرَّحَ مُجَلِّي فِي "الذَّخائِر " بِمَنعِهِ وبِهِ أَفتَى ابن عَبد السَّلام

، وجَزَمَ النَّوويّ لَهُ لأَنَّهُ طَرِيق إِلَى الاصطِياد ، والتَّحقِيق التَّفصِيل : فَإِن كانَ الأَغلَب من حال الرَّمي ما ذُكِرَ فِي الحَدِيث امتَنَعَ ، وإِن كانَ عَكسه جازَ ولا سِيَّما إِن كانَ المُرمَى مِمّا لا يَصِلُ إِلَيه الرَّمي إِلاَّ بِذَلكَ ثُمَّ لا يَقتُلهُ غالبًا ، وقَد تَقَدَّمَ قَبل بابَين من هَذا الباب قَول الحَسَن فِي كَراهِيَة رَمي البُندُقَة فِي القُرَى والأَمصار ، ومَفهُومه أَنَّهُ لا يُكرَه فِي الفَلاة ، فَجَعَلَ مَدار النَّهي عَلَى خَشيَة إِدخال الضَّرَر عَلَى أَحَد مِنَ النّاس واللَّهُ أَعلَم.[٢٦١]

والخذف: هو رمي الإنسان بحصاة، أو نواة، أو نحوهما، يجعلهما بين إصبعيه: السبابتين، أو السبابة والإبهام.

وقد نهى النَّبي -ﷺ- عن ذلك، والنَّهي يقتضي التحريم؛ فدلَّ على أنَّ هذا الفعل محرَّم.

وذلك أنَّه مفسدة محضة، لا مصلحة فيه؛ فإنَّه يكسر السن، ويفقأ العين، ويشج الوجه، ولا يحصل به فائدة؛ فإنَّ القتل به إذا قتل لا يحل؛ لأنَّه يقتل بثقله، لا بحدِّه وموره وجمهور العلماء لا يحلون قتل الصيد بالثقل؛ لأنَّه من الوقيذة؛ قال تعالى: {وَالْمَوْقُوذَةُ}، وقتل الحيوان بغير حقٍّ؛ ولا انتفاع حرامٌ؛ فقد جاء في مسند الإمام أحمد (٦٥١٥) وسنن النسائي (٤٤٤٥) من حديث عبد الله بن عمرو أنَّ النَّبي -ﷺ- قال: "من قتل عصفورًا بغير حقِّه، سأله الله عنه يوم القيامة، قيل: يا رسول الله، وما حقه؟ قال: أنْ تذبحه، ولا تأخذ بعنقه فتقطعه".

ويلحق بهذا "النبيلاء" التي يرمي الصبيان بها صغار الطير كالعصافير، فكم حصل فيها من أذيةٍ للنَّاس في منازلهم، حينما يرمي بها الصبيان الطير التي على أسوار البيوت، وما ينتج عن ذلك من تساقط الأحجار، وترويع الصغار.

وإِذَا قتلت الطير الصغير فإنَّه لا يحل أكله؛ لأنَّها ماتت بثقل الحجر الذي رميت به، لا بحدِّه.

فعلى ولاة أمورهم كفهم عن هذا، وعلى رجال الأمن تأديبهم عن ذلك، فهي محرَّمةٌ؛ لإلحاقها بما نهى النَّبي -ﷺ- عنه في هذا الحديث.[٢٦٢]

الحديث الثلاثون: نهينا عن التكلّف:

عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ عُمَرَ فَقَالَ: «نُهِينَا عَنِ التَّكَلُّفِ»[٢٦٣].

---

[٢٦١] - فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (٩/ ٦٠٧)

[٢٦٢] - توضيح الأحكام من بلوغ المرام (٧/ ٥٠)

[٢٦٣] - صحيح البخاري (٩/ ٩٥)(٧٢٩٣)

[ش (نهينا) أي نهانا رسول الله ﷺ . (التكلف) قال في النهاية أراد كثرة السؤال والبحث عن الأشياء الغامضة التي لا يجب البحث عنها]

الوعود الإلهية جليلة عظيمة، وهي تكاليف شرعية على الأمة، يجب أن تسعى إليها لتبلغها، ولكن هيهات أن تكون تكاليف النهايات هي حمل البدايات، فظالم لنفسه من لم يعرف قدره ووسعه، إذ في ذلك هلكته، فمن حكمة العقلاء وهي سنن الأنبياء معرفة ظروف الحلقة التاريخية التي يعيشونها، وما هي متطلباتها ووسعهم فيها، وتجاوز ذلك ما لم يكلفه الله تعالى، وفي المعصية الزلل والهزيمة، فلا يصلح للخلق إلا ما كلفهم الله به، ولم يكلف الله تكليفاً إلا وشرطه القدرة، وتكليف ما لا يستطيعه المرء خارج عن حكمة الشرع والعقل.

السيرة النبوية هي النموذج الحي في إمكانية بلوغ الغايات العظيمة والنهائية من البداية، ودون التخلي في كل مراحل المسيرة عن قيم الحق ومبادئه، وكان الشرط المصاحب لكل النجاحات في كل مراحل السيرة هو تجنب الهلكة وذلك في ترك التكلف، إذ وضع النفس في الموضع الغلط هو الذي يحقق السحق والهزيمة والتعوق، فحين جاء السيل هادراً في الأحزاب لم يواجهوه بشواخص بارزة، ولم يخوضوا حرب مواجهة كبرى مع الجميع في موقعة واحدة، بل هو بناء صبور بحسب الوسع والقدرة، وحين يدعون إلى مرحمة بلا خيانة لم يترددوا في اغتنامها، وحين يحضر موطن الحرب فلا هذر ولا مخاتلة، وحين يكون الحوار فلا وجود إلا للكلمة الحسنة والموعظة الرقيقة، فلا يذهبون بعيداً والماء تحت أقدامهم، فلم تستفزهم الوعود العظيمة بفتح فارس والروم[٢٦٤] أن يرموا أنفسهم في قضايا أعظم من وسعهم في كل مرحلة، بل كان التعامل مع كل مرحلة ضمن ظروفها لا من خلال الوعود الإلهية بأخذ المشرق والمغرب، ولعل في حادثة صلح الحديبية عبرة وعظة في التوفيق بين الوعود وبين القدرات الظرفية، إذ كان الوعد بالفتح حاضراً، فظن الصحابة أن حضور الوعد يعني الذهاب إليه مباشرة مع تجاوز الظرف التاريخي، وفي ذلك مصادمة للسنن التي أوجب الله على البشر العيش من خلالها، والهدي النبوي هو هدي السنن، والهدي معناه عمل البشر الملائم للتكوين، وبذلك يقع النجاح، هذه قضية يجب على العاملين لدين الله تعالى أن يفقهوها، وهو أن الشرع ليس فيه قط ما يسمح بتجاوز سنن الخلق والتكوين في النفس والمجتمع والطبائع، إذ يظن البعض أن الشرع يعطي صاحبه والعامل به قوة خاصة تجعله يتجاوز السنن التكوينية، وكأن الحياة مع المسلمين هي الكرامة المتواصلة الخارقة للعادة، ولعمر الله هذا هو أبطل الباطل، ومما يؤسف له أن الحديث الدائر حول الوعود الإلهية وبركات الشرع كله يدور حول هذا الإطار، وهو أن السنن التكوينية تكسر وتتغير للعامل بالشرع والعابد لربه والذاكر له، فيا ويح هذا التصور كم أفسد من عقول وكم أوقع المسلمين في الهزيمة والهلكة، ويسبغ البعض على هذه التصورات الباطلة آيات قرآنية يضعونها في غير موضعها

---

[٢٦٤] – عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «إِذَا هَلَكَ كِسْرَى فَلاَ كِسْرَى بَعْدَهُ، وَإِذَا هَلَكَ قَيْصَرُ فَلاَ قَيْصَرَ بَعْدَهُ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتُنْفَقَنَّ كُنُوزُهُمَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ» الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ٣٩٧)٣١٢١ – ١١١٣ – [ش أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل رقم ٢٩١٩]

كقوله تعالى: {كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} [البقرة: ٢٤٩] وكقوله: {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ } [غافر: ٥١] ويتجاوزون معنى الغلبة والنصر الملائم للظرف، فإن الله سمى نجاة نبيه محمد ﷺ من القتل في حادثة الهجرة نصراً فقال: {إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [التوبة: ٤٠] وسمى خروج إبراهيم عليه السلام من النار سالماً نصراً فقال: {وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ} [الأنبياء: ٧٠] وسمى نجاة نوح عليه السلام وهلكة قومه نصراً فقال: { قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ } [العنكبوت: ٣٠]

وقد فعل سبحانه، وهكذا النصر والهزيمة أمران اعتباريان بحسب الحلقة التاريخية وليس لهما مفهوم مطلق في الوجود، والمقصود هو التنبيه على أن العامل لدين الله تعالى لا يجوز له أن يحمل حملاً أثقل مما آتاه الله من الوسع والقدرة اتكالاً على الوعود النهائية العظيمة، فإن السنن التكوينية لا تحابي أحداً وعبادة الله لا تعطي المرء حالة خاصة ولا قدرة خاصة يقفز بها عن هذه السنن التي من عدل الله أن تجري على الكل بلا محاباة، والحق معناه موافقة التشريع للتكوين، فالخبر موافق للحدث، والأمر موافق للغايات، وبهذا عرف العقلاء صدق النبوة المحمدية وما أتت به.

التكلف هو الذهاب أبعد من القدرات، وأبعد من المطلوب، والمطلوب في الشرع موافق للقدرات، والذاهب بعيداً وإن سار قليلاً فمآله الانقطاع والهزيمة، ومن سيئات هذا التكلف عند الطوائف العاملة لدين الله تعالى أنه أدى إلى شر سلبي عند طائفة بأن جعلها تتنازل عن بعض المبادئ والقيم، إذ من تحمَّل فوق الطاقة فعَنْ عَائِشَةَ، زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ، أَخْبَرَتْهُ:" أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَدْعُو فِي الصَّلاَةِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ المَسِيحِ الدَّجَّالِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ المَحْيَا، وَفِتْنَةِ المَمَاتِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ المَأْثَمِ وَالمَغْرَمِ " فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ: مَا أَكْثَرَ مَا تَسْتَعِيذُ مِنَ المَغْرَمِ، فَقَالَ: «إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا غَرِمَ، حَدَّثَ فَكَذَبَ، وَوَعَدَ فَأَخْلَفَ»[٢٦٥] وهكذا هؤلاء الناس حملوا أنفسهم فوق طاقتهم فتحالفوا مع الكفر وتنازلوا له عن الكثير من الدين والحق، ففي سبيل الوصول للوعود من النصر والتمكين فعلوا الكثير من الشر وضاعت قيم الحق التي قاموا من أجلها تحت وطأة الهدف من التمكين، حتى صارت صورتهم في أذهان الناس على صورة غيرهم من أهل الجاهلية لسلوكهم

---

[٢٦٥] – الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ١٥٨)٨٣٢ – ٣٩٧ – تهذيب صحيح مسلم- علي بن نايف الشحود (ص: ١٩٧) (٥٨٩

[ش (المأثم والمغرم) معناه من الإثم والغرم وهو الدين أي من الأمر الذي يوجب الإثم (إذا غرم) أي لزمه دين والمراد استدان واتخذ ذلك دأبه وعادته]

سبيلهم، وهذا التكلف عند طائفة أخرى ذهبوا دون تحقيق الوعود، وإنّما غرّهم ثقتهم بأنفسهم المبنية على الوهم لا الحقائق، وعجيب من هؤلاء أن يوجبوا على الله أن يحقق عليهم الوعود في المكان والوقت الذي يريدونه دون احترام للسنن أو عمل كافٍ لموجباتها. فاللهم رحماك.

التكلف معصية في الشرع ومعصية في القدر، فلهم في الدنيا الهلكة والفساد، وفي الآخرة حالهم حال المبتدع {وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا} [الكهف: ١٠٤].

ما يرشد إليه الحديث:

في هذا الحديث من الفقه أنه إنما كره عمر التكلف؛ وهو التتبع لكتاب الله بمشقة لا ترجع إلى التماس فائدة على سبيل التعنت والاعتراض، ولذلك ضرب ضبيعا إذ كان يتتبع من القرآن ما يظنه إشكالا، وإلا فلا خلاف بين المسلمين أن السؤال عن غريب القرآن من الأب وغيره طلبًا للفائدة وعلم ما يعرفه العرب منه أن ذلك قربة إلى الله عز وجل، وإنما المكروه التكلف والتتبع لما لا فائدة ولا نفع فيه، وقد قال الله تعالى: {وما أنا من المتكلفين}.[٢٦٦]

الحديث الحادي والثلاثون: يرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ، قَالَ:" نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ: {رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي} [البقرة:٢٦٠] وَيَرْحَمُ اللَّهُ لُوطًا، لَقَدْ كَانَ يَاوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ، وَلَوْ لَبِثْتُ فِي السِّجْنِ طُولَ مَا لَبِثَ يُوسُفُ، لَأَجَبْتُ الدَّاعِيَ".[٢٦٧]

إنّي لأُشهِد الله وملائكته ومن قرأ كلامي هذا أنني ما قلبت حديثاً للنبي ﷺ إلا وتأخذني قشعريرة النور، فأتخيل نفسي وكأن بين يدي جوهرة تخرج منها أنوار جميلة من كل جهاتها لا أدري من أين آتيها، فتصيبني الحيرة للحظات بل ومرات لأيام فأقول لنفسي دعك من الكتابة، وقف عند التأمل فحسب، فإن ما ستكتبه ظلمة تجلل بها هذا النور، وماذا ستبلغ في كتابتك من هذه المعاني مع هذه

---

[٢٦٦] – الإفصاح عن معاني الصحاح (١/ ١٧٨)

[٢٦٧] – الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ٤٢٦)٣٣٧٢ – ١١٩٠ –[ش أخرجه مسلم في الإيمان باب زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة. وفي الفضائل باب من فضائل إبراهيم الخليل – رقم ١٥١. (أحق) أولى بالسؤال عن كيفية الإحياء أو الشك فيه لو كان سؤاله شكا ولكنه طلب المزيد من اليقين والاطمئنان. (ليطمئن) ليسكن ويصير علم اليقين عندي عين اليقين بالمشاهدة / البقرة ٢٦٠ /. (يأوي) يستند ويعتمد. (ركن شديد) قوي وعزيز يمتنع به ويستنصر بذلك – إلى قوله تعالى {لو كان أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد} / هود ٨٠ /.قال العيني رحمه الله تعالى وكأنه – استغرب ذلك القول وعده نادرا منه إذ لا ركن أشد من الركن الذي كان يأوي إليه. وقال النووي رحمه الله تعالى يجوز أنه نسي الالتجاء إلى الله في حمايته الأضياف أو أنه التجأ إلى الله فيما بينه وبين الله وأظهر للأضياف العذر وضيق الصدر. (الداعي) الذي دعاه إلى الخروج من السجن ولأسرعت في الخروج يشير بذلك – إلى قوله تعالى {فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن} / يوسف ٥٠ /.وقوله – ذلك تواضع منه حيث إنه وصف يوسف عليه السلام بشدة الصبر ولا يعني ذلك قلة صبره – أو أنه – يشير إلى الأخذ بالأسهل فيما ليس فيه معصية]

الحِزم الرائعة البديعة، لأني حين أترك القلم مع الحديث أعود على نفسي بالتحقير والتأنيب: ماذا فعلت؟ أين في كلامك ما أحسست به من المعاني، فأجد كلاماً فارغاً مُحبَطاً لا روح فيه، ليس أمام الحديث، بل أمام ما أحسست به فقط من المعاني التي غشيتني من نوره فاللهم يا رحيم اجز عني وعن أمة محمد ﷺ وعن العالم أجمع نبينا محمداً ﷺ خير ما جزيت نبياً عن أمته خيراً، وبرحمتك يا خير الراحمين وخير الغافرين احشرني تحت لوائه يوم القيامة. آمين.

ماذا أقول في هذا الحديث النوراني العظيم؟، هل أقول لكم أني مع هذا الحديث تخيلت رسول الله ﷺ بقامة مديدة من عظمة وإمامة، على ربوة من قيادة وحكمة وعلم، يستعرض من مسيرة العظماء من إخوانه، فيسدد، ويقدم ويؤخر في المسيرة، قاطفاً لأمته خير الخيرين وأعظم الهدايتين، مرشداً ومعلماً ورحيماً ورؤوفاً؟!

ماذا أقول لكم: تأملوا معي غوص هذا الكلام في ثنايا النفوس، لا النفوس التي تعيش على هامش الحياة بل الغوص في النفوس التي تمتلئ بجواهر المعاني ودرر الحكم وتجارب السنين وأنوار الإيمان.

هل أقول لكم: قفوا صحبي على مطيكم وانظروا طويلاً:

(يرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد): في لحظة عصيبة، تفجر فيها الأمل من نفس طاهرة وهي ترى وحوشاً بهيمية تتدافع نحو النجاسات لتلغ فيها، وتعرض عليها الطاهرات فتتأفّف منها، وتجادل بألفاظ الحق {قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ} [هود: ٧٩] فيلتفت الرجل الطاهر بغيظ مرهق، وأيد تلوح في الهواء، وبدن يهتز كجمرة، يريد أن يصرخ مستنجداً بوادي رجال فلا يرى إلا يديه الفارغتين، فيتأوه مع صرخة مؤلمة، وجارحة لجوفه وفؤاده، مع دمعة حزن وقهر وغيظ، فتخرج منه كلمات تعبة مهدودة: {قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ } [هود: ٨٠]، لقد قصها القرآن و لم يعاتب صاحبها، وكيف يُعاتَب المذهول بالقهر، قهر النجس المتمكن للطاهر الضعيف؟

توقف أيها المراقب: هذا حديث مراتب، إنه حديث المعاني، حديث الأرواح الصاعدة المتسابقة في صعد النور العلوية الرفيعة، فإياك أن تتعامل معها حديث الحدود فتذهب عنك روعتها وبهاء قسماتها.

نعم لم يكن يملك لوط عليه السلام قوة، لكنه كان يأوي إلى ركن شديد وهو الله القوي العزيز.

إنه الإرشاد النبوي اللطيف، إرشاد لك أيها السائر على درب الأنبياء في الدعوة إلى الله والجهاد في سبيل الله تعالى، إنه إذا ضاقت بك السبل، وأطبقت عليك الحوادث من كل أقطارها، وغشيتك الغمرات العاتية، حينها تذكر ركنك الشديد فتأوي إليه وتلتجئ إليه: اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ،

وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَاتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لاَ مَلْجَأَ وَلاَ مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ[٢٦٨] باكياً شاكياً منيباً أواهاً ضعيفاً.

أخي: لا تثريب على النفوس إن ضاقت وأغلقت عليها الأمور، فالفرِح يقول غالطاً: " اللـهُمَّ أَنْـتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ "[٢٦٩]، والحزين ينسى كما نسيت أم موسى عليه السلام ما أوحى الله لها: {إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ} [القصص: ٧] لكن الشوق إلى فلذة كبدها وحشاشة نفسها {وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠) وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١١)} [القصص: ١٠، ١١] ما عوقبت ولا قيل لها: أنسيت وعد الله أن يرده إليك حتى أرسلت أخته وراءه، لا يا عبد الله هذه مواطن لا تثريب فيها على السالكين وقد علم الله من أهلها حبهم لدين الله تعالى وانتصارهم للحق، وإيثارهم للدين على ما سواه، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالصَّدَقَةِ، فَقِيلَ مَنَعَ ابْنُ جَمِيلٍ، وَخَالِدُ بْنُ الوَلِيدِ، وَعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:" مَا يَنْقِمُ ابْنُ جَمِيلٍ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ فَقِيرًا، فَأَغْنَاهُ اللَّـهُ وَرَسُولُهُ، وَأَمَّا خَالِدٌ: فَإِنَّكُمْ تَظْلِمُونَ خَالِدًا، قَدِ احْتَبَسَ أَدْرَاعَهُ وَأَعْتُدَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَأَمَّا العَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ، فَعَمُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَهِيَ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ وَمِثْلُهَا مَعَهَا "[٢٧٠]

فانظر أخي الفقيه كيف ردّ رسول الله ﷺ الفعل الواحد إلى مراتب متعددة بحسب الناس ومنازلهم، فأما ابن جميل فعوتب، وفي المعاتبة تقريع وتأنيب، وأما خالد بن الوليد ففي ربوة أخرى إذ كيف يمنع الرجل زكاة ماله وهو الذي حبس كل ماله للجهاد!! إذا دعوا الأمر فإن من أتى العوالي لا يسأل عن أدنى منها، وأما العباس فهو العم الذي لا يعاتب وفي الوسع تحمّل ما يأتي، فدعوه وأنا أدفع لكم ما وجب عليه بل ومثلها معها، وهكذا هي حكمة النبوة ونورها وهديها، لا يفقهها الصغار الجهلة الذين يقفون عند الظواهر فحسب.

(ولو لبثت في السّجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي): يوسف عليه السلام هو أكرم الناس فهو الكريم بن الكريم بن الكريم، لبث في السجن بضع سنين ظلماً وعدواناً، ليس له من ذنب إلا أنه بهيّ

---

[٢٦٨] – الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ٧٦)٢٤٧ – ١٣٣ – أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع رقم ٢٧١٠ (مضجعك) فراشك ومكان نومك. (ألجأت) أسندت. (رغبة) طمعا في ثوابك. (رهبة) خوفا من عقابك. (منجى) مخلص.

[٢٦٩] – عن إِسْحَاقَ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ، حَدَّثَنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ وَهُوَ عَمُّهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ :"لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ، مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً، فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا، قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا، قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ "تهذيب صحيح مسلم- علي بن نايف الشحود (ص: ٩٦٤)(٢٧٤٧)

[٢٧٠] – الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ٢٢٩) ١٤٦٨ – ٦١١ –[ش أخرجه مسلم في الزكاة باب في تقديم الزكاة ومنعها رقم ٩٨٣ (ما ينقم ابن جميل) ما يكره وينكر. (فهي عليه صدقة) ثابتة مستحقة سيتصدق بها. (ومثلها معها) ويتصدق بمثلها معها كرما منه. وانظر الباب (٣٢) من كتاب الزكاة]

الطلعة، حاز على نصف الحسن الذي كان في أبيه آدم عليه السلام، لم يوافق عصبة المكر من النساء على الفاحشة، فكان الحل الشيطاني لهذه المعضلة هو سجنه، ولائحة الادعاء: أنت رجل جميل وطاهر، وكأنهم يقولون: نحن نعلم ما عليه القوم في بلدنا مصر من الفاحشة لكن طهرك يفضح هذه القذارات، إذاً لنسجنن حسنك وطهرك وهكذا كان.

ومرت عليه السنون صابراً محتسباً، ومن لم يذق القيد ووحدة السجن ظلماً ما كان له أن يتكلم أو يقول في هذا الباب، فالسجين يمضي أيامه خلف الباب ينتظر حساً ليشعر أنه حي:

إذا جاءنا السّجان يوماً لحاجة عجبنا وقلنا جاء هذا من الدّنيا

نعم: يقف خلف الباب لعل شيئاً من الحياة تدخل عليه في وحدته، فكيف إذا جاءه من يقول له: إن الملك يريد أن يراك ويسمع منك؟!

أي ثبات جبلي في نفس هذا الكريم بن الكريم بن الكريم؟!

أي اطمئنان حازه هذا الصدر فلا يتحرك له قدم لهذه الدعوة الملكية، بل يقول وهو في مجلسه، و لم يفك حبوته: (ارجع إلى ربّك) فإن سألك أين المفتي فقل له:(ما بال النّسوة اللاتي قطّعن أيديهنّ)

هذه قضية، قضية تاريخ يجب أن يعاد فتحه من أوله، فأنا لا أنتظر عفواً مغموساً بالكذب يثبت الجرم الشائع على الألسن مع إقرار القلوب بكذبه.

أيها الملك: لقد مرّ الكثير من الماء من تحت قدميك وأنت لا تشعر، فإن أردت كتاباً جديداً فأعد كتابة التاريخ بلا تزوير ومن بدايته.

يوسف عليه السلام لم يكن واقفاً خلف الباب، بل كان واقفاً في النور.

هنا يأتي الحبيب المصطفى ﷺ ليقول: (لو دعيت لأجبت)، إنه خيار آخر، خيار التشريع والإمامة والاقتداء، إذ الحبيب يعلم أن ما سيفعله سيكون تشريعاً لأمته، وهو الرحيم بها، لا يحملها إلا ما يحمل الضعيف فيها.

خيار يوسف عليه السلام خيار لنفسه، ومن كان كذلك فليضع نفسه حيث قدر، وأما خيار محمد ﷺ فهو خيار لأمته، ومن كان كذلك فإنه لا يختار إلا اليسر[٢٧١]، فحين تكون لوحدك كن أبا بصير إن شئت، أشعل حروباً كما تريد، واقطع على الكافرين كل سبلهم، واجمع حولك أمثالك من أهل الصعلكة الإيمانية فالتحف السماء نهاراً والنجوم ليلاً، وافترش رمال الصحراء لجنبك، لكن ليس هذا

---

[٢٧١] – عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّهَا قَالَتْ: «مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا، مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ، وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِنَفْسِهِ إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللَّهِ، فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ بِهَا»الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ٤٥٣)٣٥٦٠ – ١٢٧١ – [ش أخرجه مسلم في الفضائل باب مباعدته – للآثام .. رقم ٢٣٢٧. (أمرين) من أمور الدنيا ويمكن حمله على أمور الدنيا والدين. (إثما) أي ما يؤد الأيسر إلى معصية الله تعالى. (تنتهك حرمة الله) تتجاوز حدوده ويخالف أمره أو نهيه. (فينتقم لله بها) ينتصر لله تعالى بؤاخذة من ارتكبها بعقوبتها]

خيار دولة، ولا خيار القائد لأمة، بل خياره أن يعطي الكافرين ما يحبون من مطالب ليس فيها معصية، ويضع معهم العقود والصلح، ويغضب السابقون ويصرخون: مالكم... هيا الحقوا بنا، ولكن ما كان لقائد أمة ولا حاكم دولة أن يجري هذا الجري ويسبق هذا السبق في قرارات أمته كاملة، بل يتمهل ليلحق الجميع، ويكون الخيار واسعاً للكل.

يوسف الكريم لم يجب، ومن حقه أن ينبش كل القضايا، وأن تكشف كل الأمور، وأن يجلس في السجن مختاراً، لكن خيار الحبيب وهو يكتب صلح الحديبية فينازعه سهيل بن عمرو على حق له وأنه محمد رسول الله فيقول سهيل: وَاللّه لَوْ كُنّا نَعْلَمُ أَنّكَ رَسُولُ اللّه مَا صَدَدْنَاكَ عَنِ الْبَيْتِ وَلا قَاتَلْنَاكَ، وَلَكِنِ اكْتُبْ: مُحَمّدُ بْنُ عَبْدِ اللّه، فَقَالَ النّبِيّ - ﷺ -: «وَاللّه إِنّي لَرَسُولُ اللّه وَإِنْ كَذّبْتُمُونِي، اكْتُبْ مُحَمّدُ بْنُ عَبْدِ اللّه» قَالَ الراوي: وَذَلِكَ لِقَوْلِه: «لا يَسْأَلُونِي خُطّةً يُعَظّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللّه إِلّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيّاهَا». فَقَالَ لَهُ النّبِيّ - ﷺ -: «عَلَى أَنْ تُخَلّوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْبَيْتِ فَنَطُوفَ بِه».[٢٧٢].

إنه خيار الإمامة والقيادة لا خيار المنفرد المتحلل من التبعات.

ثم تأمل الأدب النبوي الرفيع، فحين ذكر ما قال لوط عليه السلام لم يذكر نفسه، إذ في ذكر نفسه تزكية لها وتفضيلاً لها على أخ من إخوانه، وهو كذلك ﷺ، أما حين ذكر اليسر قال: (لو لبثت... لأجبت) فقد ذكر ههنا نفسه إذ ليس في ذلك تقدمة ولا تفضيلاً، فصلى الله على الحبيب عدد خلق الله وعدد رزق الله ومداد كلمات الله وزنة عرش الله.

(ونحن أحقّ بالشكّ من إبراهيم: إذ قال له: (أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي))

أخي الفطن: انظر ما جاء عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - عَنِ النّبِيّ - ﷺ - قَالَ: «بَيْنَا أَيّوبُ يَغْتَسِلُ عُرْيَانًا فَخَرّ عَلَيْه جَرَادٌ مِنْ ذَهَبٍ فَجَعَلَ أَيّوبُ يَحْتَثِي فِي ثَوْبِه، فَنَادَاهُ رَبّهُ: يَا أَيّوبُ، أَلَمْ أَكُنْ أَغْنَيْتُكَ عَمّا تَرَى؟ قَالَ: بَلَى وَعِزّتِكَ، وَلَكِنْ لا غِنَى بِي عَنْ بَرَكَتِكَ».[٢٧٣]

هل رأيت أيوب عليه السلام وهو يغتسل عارياً فتنزل عليه أسراب الجراد ذهباً، فقفز عليه السلام إلى ثوبه يبسطه ليجمع فيه الذهب الآتي من السماء، فيناديه ربه: يا أيوب، ألم أكن أغنيتك عما ترى؟! إذ قد حزت ما هو أفضل من الذهب هذا، وإنه لسؤال من ربنا، سؤال الحب والوداد وهو الودود، وحوار المحبين ليكشف الحبيب عن كنون صدر حبيبه، مناجاة تمت والعبد عار في موطن الحياء، فيرد العبد الحبيب بجواب الحب والالتفاتة التي تحمل كل الدلّ والطمع الحميد: " بلى وعزتك، ولكن لا غنى لي عن بركتك "، فلن يخطر على بالي قط أني سأشبع مما يأتيني منك؟ فليس الباب معك باب الحقوق بل باب البركة، إذ كل ما يأتي منك فيه معنى لا أجده في غيره، لأنها البركة الربانية.

إنه حديث المحبين وحديث البسمات والغوص بعيداً عن الحدود والظواهر.

---

[٢٧٢] - التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح (ص: ٣٤٦)(بخاري: ٢٧٣١ - ٢٧٣٢)

[٢٧٣] - التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح (ص: ٧١)١٩٩ - (بخاري: ٢٧٩)

تأمل الفرق بين القلوب الصدئة التي تقول: {وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ } [البقرة: ٥٥] وبين القلب الذي قيل له: { أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي} [البقرة: ٢٦٠].

تأمل الفرق بين من قال: {إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١١٢) قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣) } [المائدة: ١١٢، ١١٣]

فالأكل أولاً ثم... وماذا؟: (ونعلم أن قد صدقتنا) وبين قول عيسى عليه السلام: {قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (١١٥)} [المائدة: ١١٤، ١١٥]

فانظر مراتب الطالبين للزيادة مع ثبات الأصل، وبين من علق الإيمان على شرط باطل، أو اضطراب في تصديقه حتى يرى.

إبراهيم عليه السلام آمن وسار في درب الإيمان ولكن لا غنى له عن البركة، وكذا من كان على درب الإيمان والجهاد والدعوة.

لا يعمل ليغفر له فقط ولكن يعمل شاكراً.

لا يحمد شاكراً لنعمة أتته، ولكن يحمد ربه لجلال وجهه وعظيم سلطانه.

قف عند قوله ﷺ: «اللهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»[٢٧٤]، هل ترى هذا الصعود في درجات النور والبركة؟

---

[٢٧٤] – تهذيب صحيح مسلم- علي بن نايف الشحود (ص: ١٧١)(٤٨٦)

[ش (المسجد) أي في السجود فهو مصدر ميمى أو في الموضع الذي كان يصلي فيه في حجرته وفي نسخة بكسر الجيم (أعوذ برضاك من سخطك) قال النووي قال الإمام أبو سليمان الخطابي رحمه الله تعالى في هذا معنى لطيف وذلك أنه استعاذ بالله تعالى وسأله أن يجيره برضاك من سخطه وبمعافاته من عقوبته والرضاء والسخط ضدان متقابلان وكذلك المعافاة والعقوبة فلما صار إلى ذكر مالا ضد له وهو الله سبحانه وتعالى استعاذ به منه لا غير ومعناه الاستغفار من التقصير في بلوغ الواجب من حق عبادته والثناء عليه (لا أحصي ثناء عليك) أي لا أطيقه ولا آتي عليه وقيل لا أحيط به وقال مالك رحمه الله تعالى معناه لا أحصى نعمتك وإحسانك والثناء بها عليك وإن اجتهدت في الثناء عليك (أنت كما أثنيت على نفسك) اعتراف بالعجز عن تفضيل الثناء وأنه لا يقدر على بلوغ حقيقته ورد للثناء إلى الجملة دون التفصيل والإحصاء والتعيين فوكل ذلك إلى الله سبحانه وتعالى المحيط بكل شيء جملة وتفصيلا وكما أنه لا نهاية لصفاته لا نهاية للثناء عليه لأن الثناء تابع للمثني عليه وكل ثناء أثني به عليه وإن كثر وطال وبولغ فيه فقدر الله أعظم مع أنه متعال عن القدر وسلطانه أعز وصفاته أكبر وأكثر وفضله وإحسانه أوسع وأسبغ]

فيا أيها العامل لدين الله عبادة لله: شمّر عن الساعد وجدّ في العمل وأخبت القلب وإيــاك أن تقــول وصلت، واسبح ما قدرت في درجات النور والبركة، فأنت مع الله وبالله وفي الله، { وَاللَّهُ عَلَى كُــلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [البقرة: ٢٨٤].

كن على يقين أنّك على الحق ولكن بحبٍّ أن يريك إيّاه.

كن على يقين أنّك على الحق ولكن اسأله أن يريك ما يثبّتُ قلبك ويطمئنه.

كن على يقين أنّه لن يصيبك إلا ما كتب الله ولكن اسأله العفو والعافية.

كن على يقين أنّ عين الله تراك وترعاك ولكن اسأله أن يكشف لك حبّ المؤمنين وخبث المنافقين.

وفي كل حال إيّاك أن تنسى ذكر الله والدّار الآخرة.

ما يرشد إليه الحديث

اختَلَفَ السَّلَف فِي الْمُراد بِالشَّكِّ هُنا ، فَحَمَلَهُ بَعضهم عَلَى ظاهِره وقالَ : كانَ ذَلِكَ قَبل النُّبُوَّة.

وحَمَلَهُ أَيضًا الطَّبَرِيُّ عَلَى ظاهِره وجَعَلَ سَبَبه حُصُول وسوسَة الشَّيطان ، لَكِنَّها لَم تَستَقِرّ ولا زَلزَلَت الإِيمان الثّابِت.

وقالَ ابن الحِصار : إِنَّما سَأَلَ أَن يُحيِي الله المَوتَى عَلَى يَدَيهِ فَلِهَذا قِيلَ لَهُ فِي الجَواب " فَصُرهُنَّ إِلَيك" . وحَكَى ابن التِّين عَن بَعض مَن لا تَحصِيل عِنده أَنَّهُ أَرادَ بِقَولِهِ : "قَلبِي " رَجُــلاً صــالِحًا كــانَ يَصحَبهُ سَأَلَهُ عَن ذَلِكَ.

وقِيلَ مَعناهُ إِذا لَم نَشُكّ نَحنُ فَإِبراهِيم أَولَى أَن لا يَشُكّ ، أَي لَو كانَ الشَّكّ مُتَطَرِّقًا إِلَــى الأَنبِيــاء لَكُنت أَنا أَحَقّ بِهِ مِنهُم ، وقَد عَلِمتُم أَنِّي لَم أَشُكّ فاعلَمُوا أَنَّهُ لَم يَشُكّ . وإِنَّما قالَ ذَلِكَ تَواضُعًا مِنهُ ، أَو مِن قَبل أَن يُعلِمهُ الله بِأَنَّهُ أَفضَل مِن إِبراهِيم.

وقالَ ابن الجَوزِيّ : إِنَّما صارَ أَحَقّ مِن إِبراهِيم لِما عانَى مِن تَكذِيب قَومه ورَدّهم عَلَيهِ وتَعَجُّبهم مِن أَمر البَعث فَقالَ : أَنا أَحَقّ أَن أَسأَل ما سَأَلَ إِبراهِيم ، لِعَظِيمِ ما جَرَى لِي مَعَ قَومِي المُنكِرِينَ لإِحيــاءِ المَوتَى ولِمَعرِفَتِي بِتَفضِيلِ الله لِي ، ولَكِن لا أَسأَل فِي ذَلِكَ.

وقالَ عِياض : لَم يَشُكّ إِبراهِيم بِأَنَّ الله يُحيِي المَوتَى ، ولَكِن أَرادَ طُمَأنِينَة القَلــب وتَــرك المُنازَعَــة لِمُشاهَدَة الإِحياء فَحَصَلَ لَهُ العِلم الأَوَّل بِوُقُوعِهِ ، وأَرادَ العِلم الثّانِي بِكَيفِيَّتِهِ ومُشاهَدَته.

ويُحتَمَل أَنَّهُ سَأَلَ زِيادَة اليَقِين وإِن لَم يَكُن فِي الأَوَّل شَكّ لأَنَّ العُلُوم قَد تَتَفاوت فِي قُوَّتها فَــأَرادَ التَّرَقِّي مِن عِلم اليَقِين إِلَى عَين اليَقِين واللَّهُ أَعلَمُ.[٢٧٥]

ليس في هذا إثبات شك نبينا - ﷺ - ولا لإبراهيم عليه السلام، بل هو متضمن نفي الشك عنهما؛ لأن المعنى: إذا لم أشك بما في قدرة الله تعالى عليه إحياء الموتى فإبراهيم أولى أن لا يشك؛ فكأنه نبــه

٢٧٥ - فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (٦/ ٤١١)

بهذا على أن إبراهيم ما سأل لأجل الشك نطق يفيده اليقين، ومشاهدة كيفية الإحياء، والدليل على ذلك أن الله تعالى قال له: {أو لم تؤمن قال بلى} فكيف يظن ظان أن إبراهيم يقول لربه: بلى، إلا جوابًا لقوله: {أو لم تؤمن}؟ وإبراهيم يعلم أن الله يعلم من إبراهيم صدقه في قوله: بلى.

وذكر يوسف بما ذكره به تفضيل له وثناء عليه من جهة أن يوسف أراد أن يخرج خروج من قد ثبتت له الحجة لا خروج من عفي عنه. وأما لوط وقول النبي - ﷺ -: (لقد كان يأوي إلى ركن شديد) فالذي أراه فيه أن لوطًا لم يعن بذلك إلا أنه لم يكن يأوي إلى غيره، فكأن الذي انتقده رسول الله - ﷺ - واعتبره في النطق أن رسول الله - ﷺ - أحب للوط أن يأتي بنطق لا يتناول هذا الاحتمال؛ لأنه كان يأوي إلى ركن شديد، وهو الله عز وجل.[٢٧٦]

قَالَ ابْنُ الْمَلَكِ: أَرَادَ - صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّ مَا صَدَرَ مِنْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمْ يَكُنْ شَكًّا، بَلْ كَانَ طَلَبًا لِمَزِيدِ الْعِلْمِ، وَأَنَا أَحَقُّ بِهِ، لِأَنَّهُ مَأْمُورٌ بِذَلِكَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا} [طه: ١١٤] وَأُطْلِقَ الشَّكُّ بِطَرِيقِ الْمُشَاكَلَةِ.

وَقَالَ الْإِمَامُ الْمِزِّيُّ: مَعْنَاهُ لَوْ كَانَ الشَّكُّ مُتَطَرِّقًا إِلَيْهِ، لَكُنْتُ أَحَقُّ بِهِ، وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي لَمْ أَشُكَّ، فَاعْلَمُوا أَنَّهُ كَذَلِكَ، وَإِنَّمَا رَجَّحَ إِبْرَاهِيمَ عَلَى نَفْسِهِ تَوَاضُعًا، أَوْ لِصُدُورِهِ قَبْلَ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ خَيْرُ وَلَدِ آدَمَ، وَأَمَّا سُؤَالُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلِلتَّرَقِّي مِنْ عِلْمِ الْيَقِينِ إِلَى عَيْنِ الْيَقِينِ، أَوْ لِأَنَّهُ لَمَّا احْتَجَّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ بِأَنَّ رَبَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ طَلَبَ ذَلِكَ لِيَظْهَرَ دَلِيلُهُ عِيَانًا، وَتَوْضِيحُهُ مَا قَالَ الْخَطَّابِيُّ: مَذْهَبُ هَذَا الْحَدِيثِ التَّوَاضُعُ وَالْهَضْمُ مِنَ النَّفْسِ، وَلَيْسَ فِي قَوْلِهِ هَذَا اعْتِرَافٌ بِالشَّكِّ عَلَى نَفْسِهِ، وَلَا عَلَى إِبْرَاهِيمَ، لَكِنَّ فِيهِ نَفْيُ الشَّكِّ عَنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَقُولُ: إِذَا لَمْ أَشُكَّ أَنَا وَلَمْ أَرْتَبْ فِي قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى إِحْيَاءِ الْمَوْتَى، فَإِبْرَاهِيمُ أَوْلَى بِأَنْ لَا يَشُكَّ فِيهِ وَلَا يَرْتَابَ بِهِ، وَفِيهِ الْإِعْلَامُ بِأَنَّ الْمَسْأَلَةَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ لَمْ تُعْرَضْ مِنْ جِهَةِ الشَّكِّ، لَكِنْ مِنْ قِبَلِ طَلَبِ زِيَادَةِ الْعِلْمِ، وَاسْتِفَادَةِ مَعْرِفَةِ كَيْفِيَّةِ الْإِحْيَاءِ، وَالنَّفْسُ تَجِدُ مِنَ الطُّمَأْنِينَةِ بِعِلْمِ الْكَيْفِيَّةِ مَا لَمْ تَجِدْهُ بِعِلْمِ الْأُمْنِيَّةِ، وَالْعِلْمُ فِي الْوَجْهَيْنِ حَاصِلٌ وَالثَّالِثُ مَرْفُوعٌ، وَقَدْ قِيلَ: إِنَّهُ إِنَّمَا طَلَبَ الْإِيمَانَ حِسًّا وَعِيَانًا، لِأَنَّهُ فَوْقَ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الِاسْتِدْلَالِ وَالْمُسْتَدِلُّ لَا تَزُولُ عَنْهُ الْوَسَاوِسُ وَالْخَوَاطِرُ، فَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَيْسَ الْخَبَرُ كَالْمُعَايَنَةِ» " انْتَهَى.

وَإِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ أَكْمَلِ الْأَنْبِيَاءِ فِي مَرْتَبَةِ التَّوْحِيدِ، وَمَقَامِ التَّفْرِيدِ حَتَّى أَمَرَنَا بِمُتَابَعَتِهِ عَلَى طَرِيقِهِ الْقَوِيمِ وَسَبِيلِهِ الْمُسْتَقِيمِ، فَكَيْفَ يُتَصَوَّرُ مِنْهُ الشَّكُّ؟ إِذْ لَوْ جَازَ عَلَيْهِ الشَّكُّ، وَهُوَ مِنَ الْمَعْصُومِينَ الْمَتْبُوعِينَ لَجَازَ لَنَا بِالْأَوْلَى، وَنَحْنُ مِنَ اللَّاحِقِينَ التَّابِعِينَ. وَالْحَالُ أَنَّهُ أَرَادَ بِالدَّلِيلِ الْبُرْهَانِيِّ نَفْيَ الشَّكِّ عَنِ الْخَلِيلِ الرَّحْمَانِيِّ، وَإِيصَالِهِ إِيَّاهُ إِلَى الْمَقَامِ الِاطْمِئْنَانِيِّ، وَالْحَالِ الْعَيَانِيِّ.

---

[٢٧٦] - الإفصاح عن معاني الصحاح (٦/ ١٣٣)

(وَيَرْحَمُ اللَّهُ لُوطًا) فَالْمَعْنَى، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ بِمُقْتَضَى الْجِبِلَّةِ الْبَشَرِيَّةِ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ الضَّرُورِيَّةِ يَمِيلُ إِلَى الِاسْتِعَانَةِ بِالْعَشِيرَةِ الْقَوِيَّةِ، فَيَجُوزُ لَنَا مِثْلُ ذَلِكَ الْمَحَالِ، فَإِنَّا مَأْمُورُونَ بِمُتَابَعَةِ أَرْبَابِ الْكَمَالِ فِي التَّعَلُّقِ بِالْأَسْبَابِ مَعَ الِاعْتِمَادِ عَلَى رَبِّ الْأَرْبَابِ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ.

وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ قَوْمِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: {وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ} [هود: ٩١] وَكَذَلِكَ نَبِيُّنَا - صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَانَ مُعَظَّمًا وَمَحْمِيًّا وَمُكَرَّمًا لِقُرْبِهِ مِنْ أَبِي طَالِبٍ وَغَيْرِهِ، وَإِلَيْهِ الْإِيمَاءُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى} [الضحى: ٦] وَلَوْ لَبِثْتُ فِي السِّجْنِ طُولَ مَا لَبِثَ يُوسُفُ أَيْ: مِقْدَارَ طُولِ زَمَنِ لُبْثِهِ وَجَاءَنِي دَاعٍ بِالطَّلَبِ أَوْ سَاعٍ إِلَى الْخُرُوجِ (لَأَجَبْتُ الدَّاعِيَ) . أَيْ وَلَبَادَرْتُ الْخُرُوجَ عَمَلًا بِالْجَوَازِ. لَكِنَّ يُوسُفَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ صَبَرَ لِحُكْمِ تَقَضِّيهِ ذَلِكَ، كَمَا عَبَّرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَنْهُ: {فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ} [يوسف: ٥٠] إِلَى آخِرِهِ وَرُبَّمَا وَجَّبَتْهُ عَلَيْهِ فِي مَرَامِ ذَلِكَ الْمَقَامِ مِمَّنْ قَصْدُهُ الْبَرَاءَةُ مِمَّا اشْتُهِرَ فِي حَقِّهِ مِنَ الْكَلَامِ عَلَى أَلْسِنَةِ الْعَوَامِّ، لِيُقَابِلَ صَاحِبَ الْأَمْرِ عَلَى جِهَةِ التَّعْظِيمِ وَالْإِكْرَامِ، أَلَا تَرَى «أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَانَ يُكَلِّمُ بَعْضَ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ فِي طَرِيقٍ، فَمَرَّ عَلَيْهِ صَحَابِيٌّ فَقَالَ لَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: " إِنَّ هَذِهِ فُلَانَةُ مِنَ الْأَزْوَاجِ الطَّاهِرَاتِ ". فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُظَنُّ فِيكَ ظَنُّ السُّوءِ؟ فَقَالَ: " إِنَّ الشَّيْطَانَ لَيَجْرِي مِنِ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ» ".

قَالَ التُّورِبِشْتِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ: هُوَ مَبْنِيٌّ عَلَى إِحْمَادِهِ صَبْرَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَتَرْكَهُ الِاسْتِعْجَالَ بِالْخُرُوجِ عَنِ السِّجْنِ مَعَ امْتِدَادِ مُدَّةِ الْحَبْسِ عَلَيْهِ، قَالَ: إِنَّ فِي ضِمْنِ هَذَا الْحَدِيثِ تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَإِنْ كَانُوا مِنَ اللَّهِ بِمَكَانٍ لَا يُنَازِلُهُمْ فِيهِ أَحَدٌ، فَإِنَّهُمْ بَشَرٌ يَطْرَأُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْأَحْوَالِ مَا يَطْرَأُ عَلَى الْبَشَرِ، فَلَا تَعُدُّوا ذَلِكَ مَنْقَصَةً، وَلَا تَحْسَبُوهُ سَيِّئَةً. قُلْتُ: هَذَا مَا قَرَّرْنَاهُ مِنْ قَضِيَّةِ سَيِّدِنَا لُوطٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وَقَالَ ابْنُ الْمَلَكِ: اعْلَمْ أَنَّ هَذَا لَيْسَ إِخْبَارًا عَنْ نَبِيِّنَا - صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِتَضَجُّرِهِ وَقِلَّةِ صَبْرِهِ، بَلْ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى مَدْحِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَتَرْكِهِ الِاسْتِعْجَالَ بِالْخُرُوجِ لِيَزُولَ عَنْ قَلْبِ الْمَلِكِ مَا اتُّهِمَ بِهِ مِنَ الْفَاحِشَةِ، وَلَا يَنْظُرَ إِلَيْهِ بِعَيْنِ مَشْكُوكٍ. انْتَهَى. وَهُوَ بِعَيْنِهِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ عَلَى مَا لَا يَخْفَى، وَقِيلَ: بَلْ فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى تَقْصِيرِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَذَلِكَ مِنْ جِهَةِ أَنَّهُ لَمْ يَتْرُكِ الْوَسَائِطَ، وَلَمْ يُفَوِّضْ كُلَّ مَا آتَاهُ إِلَيْهِ تَعَالَى.[٢٧٧]

الحديث الثاني والثلاثون: أو عليك يا رسول الله أغار

---

[٢٧٧] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٩/ ٣٦٤٠)

عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، قَالَ: أَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ، أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: بَيْنَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، إِذْ قَالَ:" بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُنِي فِي الجَنَّةِ، فَإِذَا امْرَأَةٌ تَتَوَضَّأُ إِلَى جَانِبِ قَصْرٍ فَقُلْتُ: لِمَنْ هَذَا القَصْرُ؟ فَقَالُوا: لِعُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ فَذَكَرْتُ غَيْرَتَهُ فَوَلَّيْتُ مُدْبِرًا، فَبَكَى عُمَرُ وَقَالَ: أَعَلَيْكَ أَغَارُ يَا رَسُولَ اللَّهِ "[٢٧٨]

مراعاة خواطر الأحبة خيل الوداد، ومعرفة نوازعهم حبل القياد، وبناء أمة الإسلام وجماعات الحق قائم على الاختيار {فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ} [الكهف: ٢٩] فلا سلامة لهذا البناء إلا بود عميق بين القادة والجموع، فلا ينظر القائد إلى حقه عليهم فقط بل ينظر إلى واجبهم عليه، فليحظ بدمعة العين وخفقة القلب وقشعريرة البدن منهم، فلا يزعج خواطرهم ولا يثقل عليهم بوطأة القيادة، حتى لو كان من أحب الناس إليهم، فإن النفوس تنفر من التهجم الكثيف الثقيل حتى لو كان مطراً من عسل، بل حاله معهم كنسمة الريح وعلى وجنة الطفلة البهية.

لا قيادة صائبة دون خبرة عميقة بالرجال، ومعرفة مستوياتهم وقدراتهم، ومراعاة هذه القدرات، فأبوا ذر خير من أقلت الغبراء وأظلت الخضراء في صدق اللهجة منه لكنه ضعيف على الإمارة في زمن الصحابة رضي الله عنه، ويعلم منه الحبيب المصطفى ﷺ قبول الحق وإن كان على خلاف ما يحب فيواجهه بذلك، ويعلم ضعف غيره عن الإمارة فيعرض عنه فعَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنَا وَرَجُلاَنِ مِنْ قَوْمِي، فَقَالَ أَحَدُ الرَّجُلَيْنِ: أَمِّرْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَقَالَ الآخَرُ مِثْلَهُ، فَقَالَ: «إِنَّا لاَ نُوَلِّي هَذَا مَنْ سَأَلَهُ، وَلاَ مَنْ حَرَصَ عَلَيْهِ»[٢٧٩].

هذا رسول الله ﷺ وهو حبيب القلوب، يفديه صحبه بأرواحهم، وهو أحب إليهم من أنفسهم وأهليهم وأموالهم، ومع ذلك يراعي خواطر أصحابه حتى ما يؤذيهم بشيء، بل يتودد لصغيرهم فعَنْ أَنَسٍ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا، وَكَانَ لِي أَخٌ يُقَالُ لَهُ أَبُو عُمَيْرٍ - قَالَ: أَحْسِبُهُ - فَطِيمًا، وَكَانَ إِذَا جَاءَ قَالَ: «يَا أَبَا عُمَيْرٍ، مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ» نُغَرٌ كَانَ يَلْعَبُ بِهِ، فَرُبَّمَا حَضَرَ الصَّلاَةَ وَهُوَ فِي بَيْتِنَا، فَيَأْمُرُ بِالْبِسَاطِ الَّذِي تَحْتَهُ فَيُكْنَسُ وَيُنْضَحُ، ثُمَّ يَقُومُ وَنَقُومُ خَلْفَهُ فَيُصَلِّي بِنَا "[٢٨٠]

رقة تذوب لها الجبال، ويتودد لكبيرهم حتى يعرفوا ذلك منه أنه رقيق رفيق ليس بجبار فعَنِ الْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ، أَنَّ أَبَاهُ مَخْرَمَةَ قَالَ لَهُ: يَا بُنَيِّ، إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدِمَتْ عَلَيْهِ أَقْبِيَةٌ فَهُوَ يَقْسِمُهَا،

---

[٢٧٨] - الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ٤١٢)٣٢٤٢ - ١١٥١ -[ش أخرجه مسلم في فضائل الصحابة باب من فضائل عمر رضي الله عنه رقم ٢٣٩٥. (تتوضأ) من الوضاءة وهي الحسن والنظافة أو من الوضوء وتفعل ذلك لتزداد وضاءة وحسنا. (غيرته) وهي الحمية الأنفة على أهله. (فوليت مدبرا) ذهبت معرضا عنها. (فبكى عمر) شكرا لله عز وجل على ما أولاه من نعمه وتأدبا مع رسول الله ﷺ]

[٢٧٩] - (خ) ٧١٤٩ و(م) ١٤ - (١٧٣٣)

[٢٨٠] - الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ٦٣٦)٦٢٠٣ - ١٧٥٨ - [ش أخرجه مسلم في الآداب باب استحباب تحنيك المولود عند ولادته .. رقم ٢١٥٠ (فطيم) مفطوم قد انتهى رضاعه. (ينضح) يرش بالماء]

فَاذْهَبْ بِنَا إِلَيْه، فَذَهَبْنَا فَوَجَدْنَا النَّبِيَّ ﷺ فِي مَنْزِلِه، فَقَالَ لِي: يَا بُنَيِّ ادْعُ لِيَ النَّبِيَّ ﷺ، فَأَعْظَمْتُ ذَلِكَ، فَقُلْتُ: أَدْعُو لَكَ رَسُولَ اللَّه ﷺ؟ فَقَالَ: يَا بُنَيِّ، إِنَّهُ لَيْسَ بِجَبَّارٍ، فَدَعَوْتُهُ، فَخَرَجَ وَعَلَيْهِ قَبَاءٌ مِنْ دِيبَاجٍ مُزَرَّرٌ بِالذَّهَبِ، فَقَالَ: «يَا مَخْرَمَةُ، هَذَا خَبَأْنَاهُ لَكَ» فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ "[٢٨١]

وكذا على المحبين أن يراعوا خواطر الكبار وحاجاتهم فلا يرهقوهم، فإن للناس حاجات مع أنفسهم وأهليهم، وقد عاتب الله أقواماً أكثروا على رسول الله ﷺ في إطالة الجلوس في بيته دون مراعاة حاجته لأهله وتفرغه لهم فقال سبحانه: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ } [الأحزاب: ٥٣]، وهكذا تستقيم المعادلة بين القيادة والجموع، مبادلة حب بحب ووداد بوداد.

هذه الرحلة رحلة طاعة لله، رحلة تسجل فيها مقادير الذر {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)} [الزلزلة: ٧، ٨] رحلة فيها الكلمة ترفع صاحبها إلى أعلى الجنان أو تحطه إلى قرار الجحيم[٢٨٢]، رحلة فيها حركة يد على رأس يتيم بعطف تكفر السيئات[٢٨٣]، وبسمة في وجه الصديق تكتب في الميزان[٢٨٤]، وجرعة ماء في فم كلب تدخل الجنة[٢٨٥]، ورفع حجر عن طريق المسلمين حسنة[٢٨٦]، وأمنية في القلب أن يصيب مسلم خيراً تحط سيئات، إنها رحلة لا تترك الشر حتى

---

[٢٨١] – المسند الموضوعي الجامع للكتب العشرة (١٩/ ٣٩٠)، (خ) ٥٨٦٢، (خ) ٦١٣٢، (م) ١٣٠ – (١٠٥٨)

[٢٨٢] – عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رضي الله عنه – عَنِ النَّبِيِّ – ﷺ – قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ لا يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ لا يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ». التحريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح (ص: ٦٠٣)٢١٢٩ – (بخاري: ٦٤٧٨)

[٢٨٣] – عَنْ أَبِي أُمَامَةَ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، قَالَ: «مَنْ مَسَحَ رَأْسَ يَتِيمٍ كَانَ لَهُ بِكُلِّ شَعْرَةٍ حَسَنَةٌ»المعجم الكبير للطبراني (٨/ ٢٣٨)(٧٩٢٩) حسن

[٢٨٤] – عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه – ﷺ –: «تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ، وَأَمْرُكَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيُكَ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَإِرْشَادُكَ الرَّجُلَ فِي أَرْضِ الضَّلَالِ لَكَ صَدَقَةٌ، وَبَصَرُكَ لِلرَّجُلِ الرَّدِيءِ الْبَصَرِ لَكَ صَدَقَةٌ، وَإِمَاطَتُكَ الْحَجَرَ وَالشَّوْكَةَ وَالْعَظْمَ عَنِ الطَّرِيقِ لَكَ صَدَقَةٌ، وَإِفْرَاغُكَ مِنْ دَلْوِكَ فِي دَلْوِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ»سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٣٣٩) (١٩٥٦) صحيح

[٢٨٥] – عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «بَيْنَمَا كَلْبٌ يُطِيفُ بِرَكِيَّةٍ، كَادَ يَقْتُلُهُ العَطَشُ، إِذْ رَأَتْهُ بَغِيٌّ مِنْ بَغَايَا بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَنَزَعَتْ مُوقَهَا فَسَقَتْهُ فَغُفِرَ لَهَا به»الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ٤٤٢)٣٤٦٧ – ١٢٣٠ –[ش أخرجه مسلم في السلام باب فضل ساقي البهائم المحترمة وإطعامها رقم ٢٢٤٥. (بغي) زانية. (موقها) ما يلبس فوق الخف. (فغفر لها) ما سبق منها من الزنا. (به) بسبب سقيها له]

[٢٨٦] – عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ : «كُلُّ سُلَامَى مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ، كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ، يَعْدِلُ بَيْنَ الاثْنَيْنِ صَدَقَةٌ، وَيُعِينُ الرَّجُلَ عَلَى دَابَّتِهِ فَيَحْمِلُ عَلَيْهَا، أَوْ يَرْفَعُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ، وَالكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ خُطْوَةٍ يَخْطُوهَا إِلَى الصَّلاَةِ صَدَقَةٌ، وَيُمِيطُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ» صحيح البخاري (٤/ ٥٦) (٢٩٨٩) وصحيح مسلم (٢/ ٦٩٩) ٥٦ – (١٠٠٩) [ش (يميط الأذى) يزيل ما يتأذى به الناس من حجر أو قمامة وغير ذلك]

يعظم ولا تحتقر الخير مهما صغر، بل هي رحلة فيها رقة تشف حتى لا يخفى منها شيء، ولا يستبعد منها شيء.

ونفوس الخلق دقيقة الميزان تبهجها كلمة مارة، أو خفقة حانية، أو وجه بشوش يلاقيه، وتزعجها كلمة جافة أو إعراض وجه مهموم أو التفاتة خد بعيداً عند اللقاء، فهكذا الإنسان لا يباع قلبه ولا يتأثر بالجبال ولا بالقيود ولا بالأسوار، لكنه يأنف القياد ويوطئ النجاح للكلمة الحسنة والبسمة المشرقة والهدية مهما كان شأنها، فلا تحقرن شيئاً من هذا، ولا تكن غلظاً فتَكْسِر وتُكْسَر بل كنسمة الهواء لا يحجبها شيء ولا يكرهها أحد إلا المريض.

وصفة نافعة:

عند السحر –فهو وقت التطبب الموصوف في الكتب– وأنت تغتسل بطهور الاستغفار، اخلط معه هذه الكلمات: "اللهم اغفر لي ولكل من أحسن إليّ من المسلمين، اللهم اغفر لي ولكل من آذيته من المسلمين وأنا ظالم له واجعل دعائي كفارة لذنبي وصلة بيني وبينه، اللهم اغفر لي ولكل من آذاني من المسلمين وهو ظالم لي".

كررها وأنت ساجداً ثلاثاً، ثم بسمة في الوجه عند لقاء الإخوان وكلمة حسنة تبيتها لهم وقد نقعتها بالفكرة، ستجد أن أموراً في حياتك قد صلحت، فإن زاد المرض فاشدد عليه بالهدية سيزول بإذن الله.

لكن إن لم ينفع كل هذا فتذكر: الأرواح جنود مجندة، وتذكر حب مغيث لبريرة وبغض بريرة لمغيث[٢٨٧]، وفي الجنة فقط تصلح القلوب من كل آفاتها.

ما يرشد إليه الحديث:

قوله فيه : "تَتَوضَّأ " يَحتَمِل أَن يَكُون عَلَى ظاهِره ولا يُنكَر كَونها تَتَوضَّأ حَقِيقَة لأَنَّ الرُّؤيا وقَعَت فِي زَمَن التَّكليف ، والجَنَّة وإن كانَ لا تَكليف فِيها فَذاكَ فِي زَمَن الاستقرار بَل ظاهِر قَولُه : "تَتَوضَّأ إِلَى جانب قَصر " أَنَّها تَتَوضَّأ خارِجَة مِنهُ ، أَو هُو عَلَى غَير الحَقِيقَة . ورُؤيا المَنام لا تُحمَل دائمًا عَلَى الحَقِيقَة بَل تَحتَمِل التَّأوِيل ، فَيَكُون مَعنَى كَونها تَتَوضَّأ أَنَّها تُحافِظ فِي الدُّنيا عَلَى العِبادَة ، أَو المُراد بِقَولِه تَتَوضَّأ أَي تَستَعمِل الماء لأَجلِ الوضاءَة عَلَى مَدلُوله اللُّغَوِيّ وفِيه بُعدٌ.

قالَ القُرطُبِيّ : والوُضُوء هُنا لِطَلَب زِيادَة الحُسن لا لِلنَّظافَة لأَنَّ الجَنَّة مُنَزَّهَةٌ عَن الأَوساخ والأَقذار[٢٨٨]

---

[٢٨٧] – عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ – رضي الله عنهما –: أَنّ زَوْجَ بَرِيرَةَ كَانَ عَبْدًا يُقَالُ لَهُ مُغِيثٌ، كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ يَطُوفُ خَلْفَهَا يَبْكِي وَدُمُوعُهُ تَسِيلُ عَلَى لِحْيَتِهِ. فَقَالَ النَّبِيُّ – ﷺ – لِعبَّاسٍ: «يَا عَبَّاسُ، أَلا تَعْجَبُ مِنْ حُبِّ مُغِيثٍ بَرِيرَةَ، وَمِنْ بُغْضِ بَرِيرَةَ مُغِيثًا»؟ فَقَالَ النَّبِيُّ – ﷺ –: «لَوْ رَاجَعْتِهِ». قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، تَأْمُرُنِي؟ قَالَ: «إِنَّمَا أَنَا أَشْفَعُ». قَالَتْ: لا حَاجَةَ لِي فِيهِ. التحريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح (ص: ٥٤١)١٨٩٣ – (بخاري: ٥٢٨٣)

[٢٨٨] – فتح الباري شرح صحيح البخاري– ط دار المعرفة (٧/ ٤٥)

في هذا الحديث من الفقه أن الجنة مخلوقة، وأن جواريها خلقن، فهن يتقلبن في النعيم انتظارا لقدوم المؤمنين عليهن.

* وفيه ما يدل على أن القصور معروفة الأصحاب، وأن أهل ذلك القصر يعرفون صاحب قصرهم، ألا ترى إلى قول رسول الله – ﷺ –: (فقلت لمن هذا القصر؟) يعني أن القصور معينة لأصحابها، (فقيل لي: لعمر).

* وقوله: (فأردت أن أدخله)، فأرى أنه كان مراده أن يدخله ليصفه لعمر رضي الله عنه عن مشاهدة، ثم ذكر أن في دخوله إياه يرى الحور على تبذلهن في مساكنهن فذكر غيرة عمر رضي الله عنه فرجع.

* وأما قول عمر رضي الله عنه: (أعليك أغار؟) أراد أن الغيرة إنما تكون على من يجوز عليه ما لا يجوز عليك، وأما أنت فلا يغار منك، فأتى عمر رضي الله عنه بحسن الأدب، وفعل رسول الله – ﷺ – ما فعل على طريق الاحتياط.[٢٨٩]

الحديث الثالث والثلاثون: لا يأتي ابن آدم النّذرُ بشيء لم أكن قدرته

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لاَ يَاتِ ابْنَ آدَمَ النَّذْرُ بِشَيْءٍ لَمْ يَكُنْ قَدْ قَدَّرْتُهُ، وَلَكِنْ يُلْقِيهِ القَدَرُ وَقَدْ قَدَّرْتُهُ لَهُ، أَسْتَخْرِجُ بِهِ مِنَ البَخِيلِ»[٢٩٠].

لا إثبات إلا بشرع صحيح أو قدر محسوس مضطرد، وخلاف ذلك أوهام وتخرص، وباب التديُّن البدعي فتح أبواب الأوهام على مدار التاريخ، وقضية ارتباط الغيب مع عالم الشهادة إن لم يضبط بضابط متين تحول إلى مرض يفسد العقول والحياة، والتوازن بين ما هو شرعي وما هو قدري تضبطه السنة النبوية وجريان السنن واضطرادها، فطغيان أحدهما على الآخر مزلة أوقعت الفرق العلمية والمتعبدة في ضلالات وانحرافات، فقوم أتقنوا الكونيات وراعوا سننها وضلوا في الشرعيات والإلهيات والغيبيات فحرموا التوفيق الإلهي، فساروا سعداء حيناً ثم وقع بهم المكر الإلهي، وقوم عظموا الإلهيات والشرعيات وضلوا في القدر والتكوين و لم يقيموا لسننها شأناً فحلت بهم عوامل التخلف والهزيمة والخرافة، وهذه الطائفة الثانية هي التي غلبت في تاريخنا زماناً فصرنا إلى ما صرنا إليه، ونحن نحسب أننا على شيء، إذ صار الحديث عن الطبائع الخَلقية والسنن الكونية باب مصادمة للدين وتعظيم الإله، والشيء إن فسد انقلب على نفسه بالهلكة، فبالتالي انقلب هذا التدين الجاهل حجة عند الزنادقة، إذ اعتبروا أن مصدر ما نحن فيه هو الدين وقيم الحق الإلهية، وعيّروا أهل الإسلام أن غيرهم يعيشون في

---

[٢٨٩] – الإفصاح عن معاني الصحاح (٨/ ٢٨٣)

[٢٩٠] – الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ٦٦٨)٦٦٠٩ – ١٨٦١ –[ش أخرجه مسلم في النذر باب النهي عن النذر وأنه لا يرد شيئا رقم ١٦٤٠ (يلقيه القدر) إلى ما نذر من أجله]

سعادة وبحبوحة، وذلك لجريان سنة التزيين لما أشرب القلب {كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ} [الأنعام: ١٠٨]، فالذين يعيشون على هامش الحياة ودائرة الهزيمة والخذلان يفتخرون أنهم يعلمون حقائق الكون وأسراره، ويسبحون في الأنوار الحقيقية لا الزائفة، والآخرون استغنوا عن غير هذه الدنيا، ورأوا الآخرة وهماً لا واقع له.

(المكر الإلهي) قضية يجب أن نعيها، وأن نكون على حذر منها، لأن عمادها الجهل والغفلة، ففي حديث الباب مثلاً يرى رجلاً اشترط على الله -نذر- إن فعل الله به أمراً أن يتصدق أو يقوم بعمل صالح، فوقع القدر على ما طلب، لا بسبب شرطه، ولكن لجريان القدر على أمر آخر لم ينتبه له، فذهب المسكين في وهمه أن شرطه -نذره- هو سبب الوقوع، فذهب يعمل صالحاً، فاستخرجت منه الصدقة على بخل منه.

(المكر الإلهي) في هذا الباب يقع على ثلاثة مستويات:

١. ترك العمل السنني الملائم.

٢. جريان السنن على الوجه المتوقع المحبوب.

٣. تحليل الحديث على وجه الهوى / الرغبة، فتحصل الفتنة.

فهذه كما نرى أساسها ترك العمل ووقوع الجهل، فهي لها تعلق بالعلم والإرادة.

ومن رحمة الله فيمن يرحمه الله أن يقع المقدور على وجه يعيد ترتيب العلم على الوجه المطلوب، ويصلح العمل ليوافق الحق، كما وقع مع الصحابة رضي الله عنهم في أحد، إذ هزموا هزيمة جعلتهم يتساءلون: (أنّى هذا؟) فكان الجواب الإلهي: {قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ} [آل عمران: ١٦٥]

حين ترى النعيم الدنيوي في يد عدو الله فلك أن تقول: " طيباتهم عجلت لهم " لكن أن تراهم هازمين لنا، مستعلين على ذلتنا فمن الافتراء على حكمة الله أن تقول هذه الكلمة، بل الكلمة الصحيحة: (من عند أنفسكم) لنحذر تديناً وخوفاً من الله تعالى أن نتكلم في حكمة الغيب على الأمور الحادثة، فالأعمال لا تثبت صحتها بالتوافق مع اللحظة الراهنة، فحين تنفق السلعة بالحلف لا يدل هذا على جواز الحلف في البيوع أو استحبابه، بل الحلف في البيع وإن كان للسلعة إلا أنه محق للبركة[٢٩١].

في موقعة أحد مثال حي على ما نحن فيه من أن جرّ (التحليل والتفسير) على وجه الهوى ضلال وفساد، فقد وقع في أحد أن أشار بعض الصحابة رضي الله عنهم على رسول الله ﷺ أن لا يخرج من المدينة لقتال قريش، وكان هذا رأي المنافقين كذلك، وبعد أن نزل رسول الله ﷺ على رأي الكثير

---

[٢٩١] - عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، يَقُولُ: «الحَلِفُ مُنَفِّقَةٌ لِلسِّلْعَةِ، مُمْحِقَةٌ لِلْبَرَكَةِ» الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ٢٩٣)٢٠٨٧ - ٨٢٩ -[ش أخرجه مسلم في المساقاة باب النهي عن الحلف في البيع رقم ١٦٠٦ (الحلف) اليمين والمراد بها هنا الكاذبة. (منفقة) مروجة. (ممحقة) مذهبة. (للبركة) الزيادة والنماء من الله تعالى]

من أصحابه وخرج إلى أحد مع رغبته عن هذا الرأي ﷺ، فكان أن انتصر المنافقون لرأيهم (وهو رأي صواب ولكن اختير غيره وهو أقل صواباً منه) ورجعوا من وسط الطريق وتخلوا عن إخوانهم في المحنة، ثم وقع ما وقع من القتل في الخارجين، فكان ماذا؟

وصف القرآن (تحليل وتفسير) المنافقين بقوله:

١. {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦) وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧)} [آل عمران: ١٥٦، ١٥٧].

٢. {وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧) الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٦٨)} [آل عمران: ١٦٦ - ١٦٨].

هذا تحليل باطل وإن توافق مع الحدث، وبطلانه مبني على الهوى والشهوة والخوف من الموت، والهزيمة في أحد لم تقع لأن رأي الخروج كان باطلاً بل لأن في الخروج حدثت معصيتان:

أولاهما: مخالفة أمر القائد في ترك الرماة مواقعهم حباً للدنيا من جمع الغنائم، وهذا سجله القرآن بقوله: {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢) إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٣)} [آل عمران: ١٥٢، ١٥٣]

ثانيها: ما حصل من التولي والهروب عن ميدان المعركة، وهذا سجله القرآن بقوله: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ} [آل عمران: ١٥٥].

وهاتان معصيتان قد غفرهما الله كما في الآيات العظيمة السابقة.

وسجل القرآن حال قوم صار في قلوبهم بعض رذاذ شبهة (تحليل) المنافقين فقال: {وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي

بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } [آل عمران: ١٥٤].

والمتأمل في الآيات التي نزلت بعد موقعة أحد يجد أن القرآن هوّن موضوع القتل وفسره على نحو يذهب ما في النفوس من ألم، ولكن شدّد على موضوع المعصية، وكأنه يقول: أنتم تبكون القتلى، وتصرخون من ألم الجراحات وذهاب الإخوان، ولكن هذا ليس بشيء، فكل هذا كان سيحدث سواء خرجتم إليهم أم لم تخرجوا لكن اذهبوا بعيونكم إلى هناك، إلى ما وقع من أعمال منكم { قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ} [آل عمران: ١٦٥].

إن (التحليل السياسي) قد ملأ في أيامنا هذه السهل والواد، وهو سهل على الأقلام والعقول الجاهلة، لكنه لا يحمل أي السمات العلمية المعروفة في قواعد العلوم، فهو مضطرب، يستطيع كل صاحب فكرة أو عقيدة أن يجره إلى مصلحته، ولكن كل ذلك لا قيمة له، إنما الأهمية النظر إلى تحقق الحكم الشرعي أم لا؟ من الكبائر المعاصرة والبدع الحادثة هو تعليق الحكم الشرعي على هذا (التحليل) المتوهم، وذهبت جهالات قوم بهم أن جعلوا هراءهم هذا (علة) للأحكام الشرعية افتراءً على الله وعلى الفقه الشرعي وأصوله، ولذلك كثر الخلاف وعم الجهل، وصار هؤلاء (المحللون) في عقول البعض هم الفقهاء الذين يحق لهم القول في مصير الأمة وقضاياهم، وهم قادة الفقه الجاهل المعاصر، وهؤلاء لو حضروا إبراهيم عليه السلام وقد كسر الأصنام لكتبوا فيه تقريعاً ولوماً، ولو حضروا أهل الأخدود لقالوا لهم من الرخص ما يحل لهم الكفر والخروج من الملة، ويضحكوا بملء أشداقهم استهزاءً بقول الرضيع لأمه: " يَا أُمَّهِ اصْبِرِي، فَإِنَّكِ عَلَى الْحَقِّ "[٢٩٢]، ولقالوا: لم يعد إلا أن تطيع الحركة أقوال الأطفال، ولو حضروا الخندق لكانوا مع القائلين: {إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [الأنفال: ٤٩].

في هذا الباب نرى فقه الشرع عند الخلاف حول آراء تتضارب: أنفعل أم لا نفعل؟ فبعد أن تطمئن قلوب الإخوان لعمل ما فمن النفاق التخلي عنهم، ومن النفاق تقريعهم إن حصل خلاف ما أشاروا به، والواجب النظر: هذا الذي اخترناه من الأقوال هل قمنا به على الوجه صحيح أم لا؟ فالبحث يكون عن إتقان العمل لا غير، وأما البكاء على المصيبة واستغلالها لتعظيم الذات وتقريع الإخوان، و(تحليلها) وتفسيرها على الوجه يبطل الحكم الشرعي من الجهاد وغيره فهو سمة المنافقين.

الحلال ما أحله الله، والحرام ما حرمه الله، وكذب الخراصون، وليس في الحكم الشرعي إلا الخير، لكن ما يقع عند تطبيق الحكم الشرعي من إخفاق في أحيان ما فسببه ترك الإتقان في تطبيق هذا الحكم أو التخلي عنه قبل اكتماله، وأما الخير فلا يأتي إلا بالخير.

---

[٢٩٢] – صحيح ابن حبان – (ج ٣ / ص ١٥٣) (٨٧٣) وصحيح مسلم (٧٧٠٣) والخصال الموجبة لدخول النار ط٢ (ص: ٢٠٢)

كذب الخراصون وإن وقع المقدور حيناً على وجه يوافق تحليلهم، فماشأنهم إلا شأن (العرافين)، فكلامهم كثير أغلبه باطل وقد يصدق في الكلمة الواحدة، فالشرع أن نجعل كلامهم باطلاً لا أن نسحب ما أصابوا به على كثير كلامهم الباطل.

تتمة:

بعد المصيبة في أحد، أمر سول الله ﷺ أصحابه أن يتابعوا قريشاً ففعلوا حتى "حمراء الأسد" وقد سجل القرآن هذه المكرمة للأولياء بقوله: {الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٥)} [آل عمران:].

الصورة كالتالي: خروج حدثت به مصيبة ومقتلة في الخارجين، وعلق (محللون) المصيبة بسبب الخروج، وقد كان رأيهم أن لا يخرجوا، فماذا سيقولون الآن وهم يرون القيادة ومن والاها وهي جريحة مصابة تتابع اللحاق بالأعداء فيا للعجب: خروج للقاء جرّ هزيمة، فماذا سيكون حال من لحق المنتصر المزهو وهو جريح ضعيف؟!

أنا أعرف أن (المحللين) لن يقولوا شيئاً من السوء عن أحداث السيرة النبوية، وذلك هيبة لصاحبها، لكن ليتهم يفقهون!!

ما يرشد إليه الحديث:

وقَد اختَلَفَ العُلَماء فِي هَذا النَّهي : فَمنهُم مَن حَمَلَهُ عَلَى ظاهِره ، ومِنهُم مَن تَأَوَّلَهُ . قالَ ابن الأَثير فِي النِّهايَة : تَكَرَّرَ النَّهي عَن النَّذر فِي الحَديث ، وهُو تَأكيد لأَمرِه وتَحذير عَن التَّهاوُن بِه بَعد إِيجابه ، ولَو كانَ مَعناهُ الزَّجر عَنهُ حَتَّى لا يَفعَل لَكانَ فِي ذَلكَ إِبطال حُكمه وإِسقاط لُزُوم الوفاء بِه إِذ كانَ بِالنَّهي يَصيرُ مَعصيَةً فَلا يَلزَم ، وإِنَّما وجهُ الحَديث أَنَّهُ قَد أَعلَمَهُم أَنَّ ذَلكَ أَمر لا يَجُرّ لَهُم فِي العاجِل نَفعًا ولا يَصرِف عَنهُم ضُرًّا ولا يُغَيِّر قَضاء فَقالَ : لا تَنذُرُوا عَلَى أَنَّكُم تُدرِكُونَ بِالنَّذر شَيئًا لَم يُقَدِّرهُ الله لَكُم أَو تَصرِفُوا بِه عَنكُم ما قَدَّرَهُ عَلَيكُم ، فَإِذا نَذَرتُم فاخرُجُوا بِالوفاءِ فَإِنَّ الَّذِي نَذَرتُمُوهُ لازِمٌ لَكُم ، انتَهَى كَلامه.

ويَحتَمِل عِندي أَن يَكُون وجه الحَديث أَنَّ النّاذِر يَأتي بِالقُربَة مُستَثقلاً لَها لَمّا صارَت عَلَيه ضَربَةَ لازِب ، وكُلّ مَلزُوم فَإِنَّهُ لا يَنشَطُ لِلفعلِ نَشاط مُطلَق الاختيار ، ويَحتَمِل أَن يَكُون سَبَبه أَنَّ النّاذِر لَمّا لَم يَنذُر القُربَة إِلاَّ بِشَرط أَن يَفعَل لَهُ ما يُرِيد صارَ كالمُعاوضَة الَّتِي تَقدَح فِي نِيَّة المُتَقَرِّب . قالَ : ويُشير إِلَى هَذا التَّأوِيل قَولُه : "إِنَّهُ لا يَأتي بِخَير".

وقَوله : "إِنَّهُ لا يُقَرِّبُ مِن ابن آدَم شَيئًا لَم يَكُن الله قَدَّرَهُ لَهُ " وهَذا كالنَّصِّ عَلَى هَذا التَّعلِيل. انتهى.

وزادَ القاضي عياض : ويُقال إنَّ الإخبار بذَلكَ وقَعَ عَلَى سَبيل الإعلام من أَنَّهُ لا يُغالبُ القَــدَرَ ولا يَأتي الخَير بسَبَبه ، والنَّهي عَن اعتقاد خلاف ذَلكَ خَشيَة أَن يَقَع ذَلكَ في ظَنِّ بَعض الجَهَلَة . قــالَ : ومُحَصَّل مَذهَب مالك أَنَّهُ مُباح إلاَّ إذا كانَ مُؤَبَّدًا لتَكَرُّره عَليه في أَوقات فَقَد يَثقُل عَليه فعله فَيَفعَلهُ بالتَّكَلُّف من غَير طيب نَفس وغَير خالص النِّيَّة فَحينَئذ يُكرَه . قالَ : وهَذا أَحَد مُحتَمَلات قَولُه : "لا يَأتي بخَير" أَي إنَّ عُقباهُ لا تُحمَدُ وقَد يَتَعَذَّرُ الوفاءُ به ، وقَد يَكُون مَعناهُ لا يَكُون سَبَبًا لخَــير لَــم يُقَدَّر كَما في الحَديث .

وجَزَمَ القُرطُبيّ في "المُفهم " بحَمل ما ورَدَ في الأَحاديث منَ النَّهي عَلَى نَذر المُجازاة فَقالَ : هَــذا النَّهي مَحَلّه أَن يَقُول مَثَلاً : إن شَفَى الله مَريضي فَعَلَيَّ صَدَقَة كَذا ، ووجه الكَراهَة أَنَّهُ لَمّا وقَفَ فعلَ القُربَة المَذكُور عَلَى حُصُول الغَرَض المَذكُور ظَهَرَ أَنَّهُ لَم يَتَمَحَّض لَهُ نيَّة التَّقَرُّب إلَى الله تَعــالَى لمــا صَدَرَ منهُ بَل سَلَكَ فيها مَسلَك المُعارَضَة ، ويُوضِّحهُ أَنَّهُ لَو لَم يَشف مَريضه لَم يَتَصَدَّق بمــا عَلَّقَــهُ عَلَى شفائه ، وهَذه حالَة البَخيل فَإنَّهُ لا يُخرج من ماله شَيئًا إلاَّ بعوضٍ عاجلٍ يَزيد عَلَى ما أَخــرَجَ غالبًا . وهَذا المَعنَى هُو المُشار إلَيه في الحَديث لقَوله : "إنَّما يُستَخرَج به منَ البَخيل مــا لَــم يَكُــن البَخيلُ يُخرجهُ".

قالَ : وقَد يَنضَمّ إلَى هَذا اعتقاد جاهل يَظُنّ أَنَّ النَّذر يُوجب حُصُول ذَلــكَ الغَــرَض ، أَو أَنَّ الله يَفعَل مَعَهُ ذَلكَ الغَرَض لأَجل ذَلكَ النَّذر ، وإلَيهما الإشارَة بقَوله في الحَديث أَيضًا " فَإنَّ النَّذر لا يَرُدّ من قَدَر الله شَيئًا " والحالَة الأُولَى تُقارب الكُفر والثّانيَة خَطَأ صَريح.

قُلت : بَل تَقرُب منَ الكُفر أَيضًا.

ثُمَّ نَقَلَ القُرطُبيّ عَن العُلَماء حَمل النَّهي الوارد في الخَبَر عَلَى الكَراهَة وقالَ : الَّذي يَظهَر لي أَنَّهُ عَلَى التَّحريم في حَقّ مَن يُخاف عَليه ذَلكَ الاعتقاد الفاسد فَيَكُون إقدامه عَلَى ذَلكَ مُحَرَّمًا ، والكَراهَة في حَقّ مَن لَم يَعتَقد ذَلكَ. انتهى. وهُو تَفصيلٌ حَسَنٌ ، ويُؤَيِّدهُ قصَّة ابن عُمَر راوي الحَديث في النَّهــي عَن النَّذر فَإنَّها في نَذر المُجازاة.

ثُمَّ نَقَلَ القُرطُبيّ الاتِّفاق عَلَى وُجُوب الوفاء بنَذر المُجازاة لقَوله ﷺ " مَن نَذَرَ أَن يُطيــع الله تَعــالَى فَليُطعهُ " ولَم يُفَرِّق بَين المُعَلَّق وغَيره انتَهَى

قالَ ابن العَرَبيّ : فيه حُجَّة عَلَى وُجُوب الوفاء بما التَزَمَهُ النّاذر ، لأَنَّ الحَديث نَصَّ عَلَى ذَلكَ بقَوله : "يُستَخرَج به " فَإنَّهُ لَو لَم يَلزَمهُ إخراجه لَما تَمَّ المُراد من وصفه بالبُخل من صُدُور النَّذر عَنهُ ؛ إذ لَو كانَ مُخَيَّرًا في الوفاء لاستَمَرَّ لبُخله عَلَى عَدَم الإخراج . وفي الحَديث الرَّدّ عَلَى القَدَريَّة كَما تَقَــدَّمَ تَقريره في الباب المُشار إلَيه ، وأَمّا ما أَخرَجَهُ التِّرمذيّ من حَديث أَنَس " إنَّ الصَّدَقَة تَدفَعُ ميتَةَ السُّوء " فَظاهرُهُ يُعارض قَولُه : "إنَّ النَّذر لا يَرُدُّ القَدَرَ " ويُجمَع بَينهما بأَنَّ الصَّدَقَة تَكُون سَبَبًا لدَفع ميتَــة السُّوء ، والأَسباب مُقَدَّرَة كالمُسَبَّبات ، وقَد قالَ ﷺ لمَن سَأَلَهُ عَن الرُّقَى هَل تَرُدّ من قَدَر الله شَيئًا ؟

قالَ : "هِيَ مِن قَدَر الله " أَخرَجَهُ أَبُو داوُدَ والحاكِم ، ونَحوه قَول عُمَر " نَفرّ مِن قَدَر الله إِلَى قَدَر الله " كَما تَقَدَّمَ تَقرِيره فِي كِتاب الطِّبّ ، ومِثل ذَلِكَ مَشرُوعِيَّةُ الطِّبّ والتَّداوِي.

وقالَ ابن العَرَبِيّ : النَّذر شَبِيه بِالدُّعاءِ فَإِنَّهُ لا يَرُدّ القَدَر ولَكِنَّهُ مِنَ القَدَر أَيضًا ، ومَعَ ذَلِكَ فَقَد نُهِيَ عَن النَّذر ونُدِبَ إِلَى الدُّعاء ، والسَّبَب فِيهِ أَنَّ الدُّعاء عِبادَةٌ عاجِلَةٌ ، ويَظهَر بِهِ التَّوجُّه إِلَى الله والتَّضَرُّع لَهُ والخُضُوع ، وهَذا بِخِلافِ النَّذر فَإِنَّ فِيهِ تَأخِيرَ العِبادَة إِلَى حِين الحُصُول وتَركَ العَمَلِ إِلَى حِين الضَّرُورَة والله أَعلَم.

وفِي الحَدِيث أَنَّ كُلّ شَيء يَبتَدِئُهُ المُكَلَّف مِن وُجُوه البِرّ أَفضَل مِمّا يَلتَزِمُهُ بِالنَّذرِ قالَهُ الماوردِيُّ ، وفِيهِ الحَثّ عَلَى الإِخلاص فِي عَمَل الخَير وذَمّ البُخل ، وأَنَّ مَن اتَّبَعَ المَأمُوراتِ واجتَنَبَ المَنهِيّاتِ لا يُعَدُّ بَخِيلاً.[٢٩٣]

الحديث الرابع والثلاثون: النّاس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «تَجِدُونَ النَّاسَ مَعَادِنَ، خِيَارُهُمْ فِي الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الإِسْلاَمِ، إِذَا فَقِهُوا، وَتَجِدُونَ خَيْرَ النَّاسِ فِي هَذَا الشَّأْنِ أَشَدَّهُمْ لَهُ كَرَاهِيَةً، وَتَجِدُونَ شَرَّ النَّاسِ ذَا الوَجْهَيْنِ الَّذِي يَأْتِي هَؤُلاَءِ بِوَجْهٍ، وَيَأْتِي هَؤُلاَءِ بِوَجْهٍ»[٢٩٤].

معنى الحديث: أن النبي – ﷺ – شبّه الناس في أنسابهم وأصولهم بالمعادن المختلفة المتفاوتة في قيمتها وجوهرها. قال الحافظ: وجه التشبيه أن المعدن لما كان إذا استخرج ظهر ما اختفى منه. ولا تتغير صفته، فكذلك صفة الشرف لا تتغير في ذاتها، بل من كان شريفاً في الجاهلية فهو بالنسبة إلى أهل الجاهلية رأس، فإن أسلم استمر شرفه، وكان أشرف ممن أسلم من المشروفين في الجاهلية. وهو قوله: " خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا " أي فمن جمع بين النسب والحسب والإسلام والفقه في الدين فهو أعلى المراتب، وأفضلها في نظر الإسلام. ثم قال – ﷺ –: " وتجدون خير الناس في هذا الشأن أشدهم له كراهية " ومعناه أن أصلح الناس وأكفأهم لولاية الأمور من إمارة أو قضاء أو شرطة أو حسبة، أو غيرها أزهدهم فيها، وأشدهم كراهية لها، لأن شدة كراهيته للولاية تدل على شدة ورعه، وقوة شعوره بالمسؤولية " وتجدون شر الناس ذا الوجهين " أي أبغضهم إلى الله تعالى

---

[٢٩٣] – فتح الباري شرح صحيح البخاري– ط دار المعرفة (١١/ ٥٧٧)

[٢٩٤] – الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ٤٤٧)٣٤٩٣ و٣٤٩٤ – ١٢٤٤ –[ش أخرجه مسلم في فضائل الصحابة باب خيار الناس رقم ٢٥٢٦. (معادن) جمع معدن وهو ما يستخرج من الجواهر ووجه التشبيه أن المعادن تشتمل على جواهر مختلفة من نفيس وخسيس وكذلك الناس مختلفون في الشرف وكرم النفس والسلوك. (خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام) من كان منهم ذا شرف في الجاهلية ازداد شرفا ورفعة بالإسلام. (فقهوا) فهموا أصول الدين وأحكامه. (هذا الشأن) أي الإمارة والخلافة. (أشدهم له كراهية) أي الذي يكرهه ولا يطمع فيه فإذا اختير له وأسند إليه أعانه الله تعالى عليه وسدد خطاه ووفقه. (ذا الوجهين) هو المنافق الذي يسعى بين الطائفتين ويأتي كلا بوجه يختلف عما يأتي به الآخر]

وأكثرهم ضرراً للمسلمين، وخطراً عليهم " المنافق " سواء كان منافقاً في العقيدة يظهر الإسلام ويبطن الكفر، أو منافقاً في سلوكه وأعماله يظهر المودة ويبطن الحقد والعداوة، كما قال تعالى في وصف هؤلاء المنافقين: (وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ).[٢٩٥]

لا دين نافع إلا بعقل راشد حكيم، ولا عقل صحيح إلا بفقه مكين، والخيرية لا تكون بنص معلق في أعناق أغبياء مغفلين، كما لا تكون من غير معرفة الحلال والحرام، وفي الجاهلية عقول سليمة في معدنها، صقلتها حكمة الحياة وتجارب السنين وعظة الأيام، هم خير هذه الأمة إن أسلموا وفقهوا أحكامه، فالدين الحق لا ينفع إلا إذا وضع في وعاء حكيم رشيد سوي، وهو العقل، وأما وعاء الغباء والسفاهة فالدين ينجيه لنفسه لكن لن ينفع غيره ولا يجوز أن يكون له الخيرية في أمة الإسلام ولا جماعات الحق، فكيف إذا اجتمع في المرء خصلتا الباطل، فلا فقه عميق بل هي الألفاظ وحفظ النصوص بلا علم بها، ولا حكمة أهل الجاهلية؟! حينها ولا شك الخراب والفساد.

ثم إن هذا الدين لا يقوم به إلا الذين يأخذون الأمور -كل أمور الحياة- بجدية وتفاعل حقيقي، أما الذين يريدون إرضاء كل الأطراف، ويداهنون كل المختلفين، فالقيم عندهم نسبية، والقرارت متلونة، فهؤلاء لا نفع فيهم لهذا الدين.

الدين هداية، لكن لا ينفع مع آلة هي فاسدة في تركيبها، كما أننا نعلم أن هذا الدين نور كنور الشمس لكن لا ينفع هذا النور مع الأعمى، فلابد من نور العين ونور الشمس ليقع الإبصار، وكذلك هداية الشرع لا تنفع بلا رشد العقل وحكمته، والعقل الرشيد الحكيم لا يضطرب في أي موضع كان فهو معدن نفيس إن كان قدره مع أهل الجاهلية كان خيرهم وأنفسهم، وإن كان مع أهل الإسلام كان خيرهم وأنفسهم، فهو عقل أصيل في معدنه لا يتلون بالزور ولا بالمخادعة، بل هو ثبت لثبات قيم الحكمة والرشد فيه.

هل هناك فقيه غبي؟ الجواب نعم، كما هناك حكيم كافر، فحصول الكمال ممنوع بموانع خاصة لكل حالة، فلا ينبغي أن نثبت الحكمة لكل فقيه، كما لا نثبت الحق مع كل حكيم، وخير الخيرين هو الفقيه الحكيم العاقل الرشيد، كما أن شر الشرين بعد الفقيه الغبي والحكيم الكافر هو ذو الوجهين، أي استخدام العقل في تبرير كل فعل وقول وحمله على وجه القبول والرضى، ويسمون هذه حكمة كذباً وزوراً عليها، إنما هي النفاق والثعلبة، فالحق واحد لا يتعدد، وقد قامت حكمة السماوات والأرض مع التفريق بين الخير والشر وبين العدل والظلم وبين الإسلام والكفر. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «تَجِدُونَ النَّاسَ مَعَادِنَ، خِيَارُهُمْ فِي الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الإِسْلاَمِ،

[٢٩٥] - منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٤/ ٢٢٥)

إِذَا فَقِهُوا، **وَتَجِدُونَ خَيْرَ النَّاسِ فِي هَذَا الشَّانِ أَشَدَّهُمْ لَهُ كَرَاهِيَةً**، وَتَجِدُونَ شَرَّ النَّاسِ ذَا الوَجْهَيْنِ الَّذِي يَاتِي هَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ، وَيَاتِي هَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ»[٢٩٦]

هؤلاء قوم لا يحبون المخاتلة، فهم يعطون ما يؤمنون به كل شيء، ويبغضون ما يكفرون به إلى النهاية، إرادتهم لا تقبل المناصفة بل يذهبون مع إيمانهم إلى النهاية، كما لهم أن يكونوا مع دين الله ومع جماعة الحق، فحينها يحملون هذا حق الحمل، ويعطونه كل أنفسهم ويحاربون أعداءه إلى آخر رمق {تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ} [الفتح: ١٦] فهم يبغضون أعداءه كل البغض كما يحبون أصحابه كل الحب، فهذه منطقة لا تقبل القسمة، فبئس أصحاب نسبية الحق في هذا الباب كم أفسدوا دين الله وحياة الناس.

لو راجع الناس تاريخ هذه الأمة فلن يجدوا أي مكرمة قدمها (المداهنون) ولا دعاة أنصاف الحلول، بل كل المكرمات سجلها أصحاب المواقف الواضحة الجلية، والآخذون بـ(الرخص) لهم سعة لأنفسهم لكن لن يقدموا للأمة شيئاً، ولا تنتفع الأمة بهم، ففي محنة خلق القرآن اتقى من اتقى خشية السيف أو السجن أو الضرب ووسعه الأمر، لكن حسم المعارك والقضايا كان بيد من أظهر وواجه وتحدى، نعم أصابه ما أصابه لكن هذا هو الطريق، إيذاء وابتلاء ثم نصر وتمكين، فإذا كانت (الرخص) لا تنتفع الأمة من أصحابها فإذاً سيكون شأن (المداهنين) ممن يريدون إرضاء كل الأطراف على حساب الحق وقيمه، وعلى حساب الدين والإسلام؟ إنها بلا شك جريمة تعود على دين الله وأمة الإسلام.

فهذه خصال الخيرية، فمن أراد الفضل فليسعى إليها:

١. عقل رشيد حكيم.
٢. فقه مكين عميق.
٣. صلابة في الحق ومواقف ثابتة.

وشر الناس المتلون، فإن اجتمع معه قوة البيان فهي الطامّة الكبرى، والفاقرة التي اجتمع فيها كل مقومات الفتنة للأمة.

وفي الحديث فقه رائع وهو قضية استخدام (الأرشيف)، فالتاريخ سلاح عظيم لكن وضعه في غير موضعه مفسدة وقلة دين، فهذا رجل كان شديد الكراهية للحق ثم لحق به فلا يجوز أن يُحَمّل وزر

---

[٢٩٦] – الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ٤٤٧)٣٤٩٣ و٣٤٩٤ – ١٢٤٤ –[ش أخرجه مسلم في فضائل الصحابة باب خيار الناس رقم ٢٥٢٦. (معادن) جمع معدن وهو ما يستخرج من الجواهر ووجه التشبيه أن المعادن تشتمل على جواهر مختلفة من نفيس وخسيس وكذلك الناس مختلفون في الشرف وكرم النفس والسلوك. (خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام) من كان منهم ذا شرف في الجاهلية ازداد شرفا ورفعة بالإسلام. (فقهوا) فهموا أصول الدين وأحكامه. (هذا الشأن) أي الإمارة والخلافة. (أشدهم له كراهية) أي الذي يكرهه ولا يطمع فيه فإذا اختير له وأسند إليه أعانه الله تعالى عليه وسدد خطاه ووفقه. (ذا الوجهين) هو المنافق الذي يسعى بين الطائفتين ويأتي كلا بوجه يختلف عما يأتي به الآخر]

أيام خلت، يُقرع بها كلما سنحت لخصومه بادرة خلاف، فقد عاب القرآن على مثل هؤلاء بقوله: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا} [النساء: ٩٤]، وقد عُلم من ديننا {إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ } [هود: ١١٤].

إضاءة:

تأمل يا عبد الله روعة الحديث في تسمية الناس (معادن)، وتسمية ما يعتري هذه المعادن من تزوير بقوله: (ذا الوجهين) ترى نور النبوة بادياً على مثل هذه الحكم العجيبة.

ما يرشد إليه الحديث:

فِيهِ إِشارَة إِلَى أَنَّ الشَّرَف الإِسلامِيّ لا يَتِمّ إِلاَّ بِالتَّفَقُّهِ فِي الدِّين ، وعَلَى هَذا فَتَنقَسِم النّاس أَربَعَة أَقسام مَعَ ما يُقابلها :

الأَوَّل شَرِيف فِي الجاهِلِيَّة أَسلَمَ وتَفَقَّهَ ، ويُقابِلهُ مَشرُوف فِي الجاهِلِيَّة لَم يُسلِم ولَم يَتَفَقَّه.

الثّانِي شَرِيف فِي الجاهِلِيَّة أَسلَمَ ولَم يَتَفَقَّه ، ويُقابِلهُ مَشرُوف فِي الجاهِلِيَّة لَم يُسلِم وتَفَقَّهَ.

الثّالِث شَرِيف فِي الجاهِلِيَّة لَم يُسلِم ولَم يَتَفَقَّه ، ويُقابِلهُ مَشرُوف فِي الجاهِلِيَّة أَسلَمَ ثُمَّ تَفَقَّهَ.

الرّابِع شَرِيف فِي الجاهِلِيَّة لَم يُسلِم وتَفَقَّهَ ويُقابِلهُ مَشرُوف فِي الجاهِلِيَّة أَسلَمَ ولَم يَتَفَقَّه.

فَأَرفَع الأَقسام مَن شَرُفَ فِي الجاهِلِيَّة ثُمَّ أَسلَمَ وتَفَقَّهَ ، ويَلِيه مَن كانَ مَشرُوفًا ثُمَّ أَسلَمَ وتَفَقَّهَ ، ويَلِيه مَن كانَ شَرِيفًا فِي الجاهِلِيَّة ثُمَّ أَسلَمَ ولَم يَتَفَقَّه ، ويَلِيه مَن كانَ مَشرُوفًا ثُمَّ أَسلَمَ ولَم يَتَفَقَّه.

وأَمّا مَن لَم يُسلِم فَلا اعتِبار بِه سَواء كانَ شَرِيفًا أَو مَشرُوفًا سَواء تَفَقَّهَ أَو لَم يَتَفَقَّه والله أَعلَم.

والمُراد بِالخِيارِ والشَّرَف وغَير ذَلِكَ مَن كانَ مُتَّصِفًا بِمَحاسِن الأَخلاق ، كالكَرَمِ والعِفَّة والحِلم وغَيرها ، مُتَوقِّيًا لِمَساوِيها كالبُخلِ والفُجُور والظُّلم وغَيرها.[٢٩٧]

وقوله: (تجدون من خير الناس أشدهم كراهية لهذا الشأن)؛ يعني الإمارة، وإنما يكرهها المؤمن من حيث الحذر على دينه؛ فإذا وقع فيها يشتهي العزل، ولذلك قال بعض الصحابة لعمر رضي الله عنه: ما سرتني الولاية؛ ولقد ساءني العزل.

وقال الخطابي: معنى الكلام: إذا وقعوا فيها لم يجز أن يكرهوها؛ لأنهم إذا كان قيامهم بها عن كره ضيعوا حقوقها، فليقبلوا عليها وليجتهدوا فيها.[٢٩٨]

دل هذا الحديث على ما يأتي: أولاً: فضل النسب إذا اقترن بالدين والصلاح والعلم في دين الله والفقه في شريعته، وهذا هو أعلى المقامات وأسماها بعد مقام النبوة والصحبة، فإن الناس في نظر الإسلام

---

[٢٩٧] – فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (٦/ ٥٢٩)

[٢٩٨] – الإفصاح عن معاني الصحاح (٦/ ٣١١)

تختلف مراتبهم ومقاماتهم على حسب الترتيب الآتي. المرتبة الأولى: من جمع بين النسب والدين والصلاح والفقه في الشريعة، وهذا هو أعلى المقامات. المرتبة الثانية: من جمع بين الدين والصلاح والفقه وكان خامل النسب. المرتبة الثالثة: من جمع بين النسب والدين والصلاح ولم يكن فقيهاً. المرتبة الرابعة: من جمع بين الدين والصلاح، ولم يكن شريفاً ولا فقيهاً. المرتبة الخامسة: من جمع بين الإسلام والنسب ولم يكن صالحاً ولا فقيهاً. المرتبة السادسة: من كان مسلماً فقط، ولا توجد فيه أي مزية من المزايا وهذا هو أدنى الدرجات. ثانياً: اعتبار الكفاءة في النسب بالنسبة إلى الزواج. لقوله - ﷺ -: " تجدون الناس معادن كمعادن الذهب والفضة " قال في " زهر الأدب في مفاخر العرب ": الكفاءة عندنا معاشر الحنابلة معتبرة، وكذا عند الشافعية، وفي إحدى الروايتين عن مالك، ثم قال: ومن الجهل أن يعتقد أحد عدم التفاضل، والتفاضل واقع في أنواع الموجودات، فضل الله السماء السابعة على سائر الموجودات، ومكة على باقي البلاد، وجبريل وميكائيل وإسرافيل على غيرهم من الملائكة. وقوله: " ليس لعربي فضل على عجمي " " والمؤمنون تتكافأ دماؤهم " إنما المعنى في هذا كما قال ابن قتيبة أن الناس من المؤمنين كلهم سواء في الأحكام والمنزلة والكفاءة إنما هي في الدين والخلق. ثالثاً: أن أصلح الناس للولاية أزهدهم فيها، لما يدل عليه ذلك من شدة أمانته وتقديره للمسؤولية.[٢٩٩]

الحديث الخامس والثلاثون: اللهم لا تجعلني مثله:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ:" لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي المَهْدِ إِلَّا ثَلاَثَةٌ: عِيسَى، وَكَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ جُرَيْجٌ، كَانَ يُصَلِّي، جَاءَتْهُ أُمُّهُ فَدَعَتْهُ، فَقَالَ: أُجِيبُهَا أَوْ أُصَلِّي، فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ لاَ تُمِتْهُ حَتَّى تُرِيَهُ وُجُوهَ المُومِسَاتِ، وَكَانَ جُرَيْجٌ فِي صَوْمَعَتِه، فَتَعَرَّضَتْ لَهُ امْرَأَةٌ وَكَلَّمَتْهُ فَأَبَى، فَأَتَتْ رَاعِيًا فَأَمْكَنَتْهُ مِنْ نَفْسِهَا، فَوَلَدَتْ غُلاَمًا، فَقَالَتْ: مِنْ جُرَيْجٍ فَأَتَوْهُ فَكَسَرُوا صَوْمَعَتَهُ وَأَنْزَلُوهُ وَسَبُّوهُ، فَتَوَضَّأَ وَصَلَّى ثُمَّ أَتَى الغُلاَمَ، فَقَالَ: مَنْ أَبُوكَ يَا غُلاَمُ؟:الرَّاعِي، قَالُوا: نَبْنِي صَوْمَعَتَكَ مِنْ ذَهَبٍ؟ قَالَ: لاَ، إِلَّا مِنْ طِينٍ. وَكَانَتِ امْرَأَةٌ تُرْضِعُ ابْنًا لَهَا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَمَرَّ بِهَا رَجُلٌ رَاكِبٌ ذُو شَارَةٍ فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ اجْعَلِ ابْنِي مِثْلَهُ، فَتَرَكَ ثَدْيَهَا وَأَقْبَلَ عَلَى الرَّاكِبِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى ثَدْيِهَا يَمَصُّهُ،- قَالَ: أَبُو هُرَيْرَةَ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَمَصُّ إِصْبَعَهُ - ثُمَّ مُرَّ بِأَمَةٍ، فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلِ ابْنِي مِثْلَ هَذِهِ، فَتَرَكَ ثَدْيَهَا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا، فَقَالَتْ: لِمَ ذَاكَ؟ فَقَالَ: الرَّاكِبُ جَبَّارٌ مِنَ الجَبَابِرَةِ، وَهَذِهِ الأَمَةُ يَقُولُونَ: سَرَقْتِ، زَنَيْتِ، وَلَمْ تَفْعَلْ "[٣٠٠].

---

[٢٩٩] - منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٤/ ٢٢٦)

[٣٠٠] - الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ٤٣٦)٣٤٣٦ - ١٢١٦ -[ش أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب باب تقديم بر الوالدين على التطوع بالصلاة رقم ٢٥٥٠. (المهد) الفراش الذي يهيأ للصبي ليضجع فيه وينام والمراد هنا حال الصغر قبل أوان

يقولون: لا دخان بلا نار، لأن صناعة الدخان بلا وجود أصله ليس من سنن الخلق، لكن صناعة الأكاذيب هيّن على الألسنة، فتشبيه الإشاعات بالدخان من كل وجه باطل، هي كالدخان تشيع وتزكم الأنوف، وهي كالدخان كذلك حين تطمس الحقائق وتخفيها لكنها تصنع من معدن الكذب والزور والأوهام، لكن الدخان لا يكون بلا نار، والعقلاء ليسوا قطيع بقر تجري عليهم نزعة القطيع، فما أسهل أن تشيع الكلمات على الألسن، وكثرة المرددين من الغوغاء لا يزيد الكذب إلا بطلاناً، والكثرة التي عمادها -زعموا- أو دليلها: "سمعت الناس يقولون فقلت" هم حطب الفتن وأثافي النيران التي تقوم عليها قدور الخبثاء، و"المغفلون النافعون" هم مطايا الشر في أمة الإسلام، يتخذهم الشيطان عوناً وهم يحسبون أنهم على خير تحت دعوى الطهر والتنقية وكشف الحقائق.

هذه الملايين من البشر يعتقدون أن عيسى هو ابن الله تعالى فهل لكل اعتقاداتهم وكتبهم وصلواتهم تأثير في تغيير الحقيقة وهو أن عيسى عليه السلام بشر يأكل ويشرب ويموت ويمرض؟ ثم هذه الملايين على مدار التاريخ، جموع وراء جميع يعتقدون أن البقرة روح مقدسة فهل زادت هذه الجموع شيئاً سوى أن البقرة حيوان لا غير؟ ولو سألت هؤلاء جميعاً ما دليلكم لكان جوابهم: الجموع، القطيع، لقد وجدنا الجموع تقول فقلنا، وهكذا يحيون ويموتون ويقاتلون على هذه الأكاذيب والإشاعات.

أمة الإسلام وجماعات الحق مستهدفة، يُكاد لها بالليل والنهار، ولأعدائها خبرة عميقة في الكيد وصناعة الفتن والأكاذيب والإشاعات، ولا يبطل كل هذا الكيد إلا بالأدلة التي أقامها الله نوراً كاشفاً للحقائق، فهذه فتنة (الإفك) الكبرى، فتنة ضربت بيت الطهر والعفاف، وتولى كبرها النفاق ورجاله، وسارت على ألسن البعض ممن استزلهم الشيطان، فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ، حِينَ قَالَ لَهَا: أَهْلُ الإِفْكِ مَا قَالُوا، وَكُلُّهُمْ حَدَّثَنِي طَائِفَةً مِنْ حَدِيثِهَا، وَبَعْضُهُمْ كَانَ أَوْعَى لِحَدِيثِهَا مِنْ بَعْضٍ، وَأَثْبَتَ لَهُ اقْتِصَاصًا، وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْ كُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمُ الحَدِيثَ الَّذِي حَدَّثَنِي عَنْ عَائِشَةَ، وَبَعْضُ حَدِيثِهِمْ يُصَدِّقُ بَعْضًا، وَإِنْ كَانَ بَعْضُهُمْ أَوْعَى لَهُ مِنْ بَعْضٍ، قَالُوا: قَالَتْ عَائِشَةُ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَرَادَ سَفَرًا أَقْرَعَ بَيْنَ أَزْوَاجِهِ، فَأَيُّهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَهُ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَأَقْرَعَ بَيْنَنَا فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا فَخَرَجَ فِيهَا سَهْمِي، فَخَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ مَا أُنْزِلَ الحِجَابُ، فَكُنْتُ أُحْمَلُ فِي هَوْدَجِي وَأُنْزَلُ فِيهِ، فَسِرْنَا حَتَّى إِذَا فَرَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ غَزْوَتِهِ تِلْكَ وَقَفَلَ، دَنَوْنَا مِنَ المَدِينَةِ قَافِلِينَ، آذَنَ لَيْلَةً بِالرَّحِيلِ، فَقُمْتُ حِينَ آذَنُوا بِالرَّحِيلِ، فَمَشَيْتُ حَتَّى جَاوَزْتُ الجَيْشَ، فَلَمَّا قَضَيْتُ شَانِي أَقْبَلْتُ إِلَى رَحْلِي، فَلَمَسْتُ صَدْرِي، فَإِذَا عِقْدٌ لِي مِنْ جَزْعِ ظَفَارِ قَدِ انْقَطَعَ، فَرَجَعْتُ فَالْتَمَسْتُ عِقْدِي فَحَبَسَنِي ابْتِغَاؤُهُ، قَالَتْ: وَأَقْبَلَ الرَّهْطُ الَّذِينَ كَانُوا

الكلام. (ذو شارة) ذو حسن وجمال وقيل صاحب هيئة وملبس حسن يتعجب منه ويشار إليه. (أمة) امرأة مملوكة. (لم ذلك) أي سألته عن سبب دعائه أن يكون مثل الأمة ولا يكون مثل الرجل. (ولم تفعل) والحال أنها بريئة لم تسرق ولم تزن وتلتجئ إلى الله تعالى أن يجيرها وأن يثيبها]

يُرَحِّلُونِي، فَاحْتَمَلُوا هَوْدَجِي فَرَحَلُوهُ عَلَى بَعِيرِي الَّذِي كُنْتُ أَرْكَبُ عَلَيْهِ، وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنِّي فِيهِ، وَكَانَ النِّسَاءُ إِذْ ذَاكَ خِفَافًا لَمْ يَهْبُلْنَ، وَلَمْ يَغْشَهُنَّ اللَّحْمُ، إِنَّمَا يَاكُلْنَ العُلْقَةَ مِنَ الطَّعَامِ، فَلَمْ يَسْتَنْكِرِ القَوْمُ خِفَّةَ الهَوْدَجِ حِينَ رَفَعُوهُ وَحَمَلُوهُ، وَكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ، فَبَعَثُوا الجَمَلَ فَسَارُوا، وَوَجَدْتُ عِقْدِي بَعْدَ مَا اسْتَمَرَّ الجَيْشُ، فَجِئْتُ مَنَازِلَهُمْ وَلَيْسَ بِهَا مِنْهُمْ دَاعٍ وَلاَ مُجِيبٌ، فَتَيَمَّمْتُ مَنْزِلِي الَّذِي كُنْتُ بِهِ، وَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ سَيَفْقِدُونِي فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسَةٌ فِي مَنْزِلِي، غَلَبَتْنِي عَيْنِي فَنِمْتُ، وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ المُعَطَّلِ السُّلَمِيُّ ثُمَّ الذَّكْوَانِيُّ مِنْ وَرَاءِ الجَيْشِ، فَأَصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِي، فَرَأَى سَوَادَ إِنْسَانٍ نَائِمٍ فَعَرَفَنِي حِينَ رَآنِي، وَكَانَ رَآنِي قَبْلَ الحِجَابِ، فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ حِينَ عَرَفَنِي، فَخَمَّرْتُ وَجْهِي بِجِلْبَابِي، وَوَاللَّهِ مَا تَكَلَّمْنَا بِكَلِمَةٍ، وَلاَ سَمِعْتُ مِنْهُ كَلِمَةً غَيْرَ اسْتِرْجَاعِهِ، وَهَوَى حَتَّى أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ، فَوَطِئَ عَلَى يَدِهَا، فَقُمْتُ إِلَيْهَا فَرَكِبْتُهَا، فَانْطَلَقَ يَقُودُ بِي الرَّاحِلَةَ حَتَّى أَتَيْنَا الجَيْشَ مُوغِرِينَ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ وَهُمْ نُزُولٌ، قَالَتْ: فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ، وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَ الإِفْكِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ، قَالَ عُرْوَةُ: أُخْبِرْتُ أَنَّهُ كَانَ يُشَاعُ وَيُتَحَدَّثُ بِهِ عِنْدَهُ، فَيُقِرُّهُ وَيَسْتَمِعُهُ وَيَسْتَوْشِيهِ، وَقَالَ عُرْوَةُ أَيْضًا: لَمْ يُسَمَّ مِنْ أَهْلِ الإِفْكِ أَيْضًا إِلَّا حَسَّانُ بْنُ ثَابِت، وَمِسْطَحُ بْنُ أُثَاثَةَ، وَحَمْنَةُ بِنْتُ جَحْشٍ، فِي نَاسٍ آخَرِينَ لاَ عِلْمَ لِي بِهِمْ، غَيْرَ أَنَّهُمْ عُصْبَةٌ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى، وَإِنَّ كِبْرَ ذَلِكَ يُقَالُ لَهُ: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ، قَالَ عُرْوَةُ: كَانَتْ عَائِشَةُ تَكْرَهُ أَنْ يُسَبَّ عِنْدَهَا حَسَّانُ، وَتَقُولُ: إِنَّهُ الَّذِي قَالَ: فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعِرْضِي لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وِقَاءُ قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقَدِمْنَا المَدِينَةَ، فَاشْتَكَيْتُ حِينَ قَدِمْتُ شَهْرًا، وَالنَّاسُ يُفِيضُونَ فِي قَوْلِ أَصْحَابِ الإِفْكِ، لاَ أَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ يَرِيبُنِي فِي وَجَعِي أَنِّي لاَ أَعْرِفُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ اللُّطْفَ الَّذِي كُنْتُ أَرَى مِنْهُ حِينَ أَشْتَكِي، إِنَّمَا يَدْخُلُ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَيُسَلِّمُ، ثُمَّ يَقُولُ: «كَيْفَ تِيكُمْ»،ثُمَّ يَنْصَرِفُ، فَذَلِكَ يَرِيبُنِي وَلاَ أَشْعُرُ بِالشَّرِّ، حَتَّى خَرَجْتُ حِينَ نَقَهْتُ، فَخَرَجْتُ مَعَ أُمِّ مِسْطَحٍ قِبَلَ المَنَاصِعِ، وَكَانَ مُتَبَرَّزَنَا، وَكُنَّا لاَ نَخْرُجُ إِلَّا لَيْلًا إِلَى لَيْلٍ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ نَتَّخِذَ الكُنُفَ قَرِيبًا مِنْ بُيُوتِنَا، قَالَتْ: وَأَمْرُنَا أَمْرُ العَرَبِ الأُوَلِ فِي البَرِّيَّةِ قِبَلَ الغَائِطِ، وَكُنَّا نَتَأَذَّى بِالكُنُفِ أَنْ نَتَّخِذَهَا عِنْدَ بُيُوتِنَا، قَالَتْ: فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ، وَهِيَ ابْنَةُ أَبِي رُهْمِ بْنِ المُطَّلِبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ، وَأُمُّهَا بِنْتُ صَخْرِ بْنِ عَامِرٍ، خَالَةُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، وَابْنُهَا مِسْطَحُ بْنُ أُثَاثَةَ بْنِ عَبَّادِ بْنِ المُطَّلِبِ، فَأَقْبَلْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ بَيْتِي حِينَ فَرَغْنَا مِنْ شَانِنَا، فَعَثَرَتْ أُمُّ مِسْطَحٍ فِي مِرْطِهَا فَقَالَتْ: تَعِسَ مِسْطَحٌ، فَقُلْتُ لَهَا: بِئْسَ مَا قُلْتِ، أَتَسُبِّينَ رَجُلًا شَهِدَ بَدْرًا؟ فَقَالَتْ: أَيْ هَنْتَاهْ وَلَمْ تَسْمَعِي مَا قَالَ؟ قَالَتْ: وَقُلْتُ: مَا قَالَ؟ فَأَخْبَرَتْنِي بِقَوْلِ أَهْلِ الإِفْكِ، قَالَتْ: فَازْدَدْتُ مَرَضًا عَلَى مَرَضِي، فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَسَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ: «كَيْفَ تِيكُمْ»،فَقُلْتُ لَهُ: أَتَاذَنُ لِي أَنْ آتِيَ أَبَوَيَّ؟ قَالَتْ: وَأُرِيدُ أَنْ أَسْتَيْقِنَ الخَبَرَ مِنْ قِبَلِهِمَا، قَالَتْ: فَأَذِنَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ لِأُمِّي: يَا أُمَّتَاهُ، مَاذَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ؟ قَالَتْ: يَا بُنَيَّةُ، هَوِّنِي عَلَيْكِ، فَوَاللَّهِ لَقَلَّمَا كَانَتِ امْرَأَةٌ قَطُّ وَضِيئَةً عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا، لَهَا ضَرَائِرُ، إِلَّا كَثَّرْنَ عَلَيْهَا، قَالَتْ: فَقُلْتُ: سُبْحَانَ اللَّهِ،

أَوَلَقَدْ تَحَدَّثَ النَّاسُ بِهَذَا؟ قَالَتْ: فَبَكَيْتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ حَتَّى أَصْبَحْتُ لاَ يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ وَلاَ أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، ثُمَّ أَصْبَحْتُ أَبْكِي، قَالَتْ: وَدَعَا رَسُولُ اللَّه ﷺ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَأُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ حِينَ اسْتَلْبَثَ الوَحْيُ، يَسْأَلُهُمَا وَيَسْتَشِيرُهُمَا فِي فِرَاقِ أَهْلِه، قَالَتْ: فَأَمَّا أُسَامَةُ فَأَشَارَ عَلَى رَسُولِ اللَّه ﷺ بِالَّذِي يَعْلَمُ مِنْ بَرَاءَةِ أَهْلِه، وَبِالَّذِي يَعْلَمُ لَهُمْ فِي نَفْسِه، فَقَالَ أُسَامَةُ: أَهْلَكَ، وَلاَ نَعْلَمُ إِلَّا خَيْرًا، وَأَمَّا عَلِيٌّ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّه، لَمْ يُضَيِّقِ اللَّهُ عَلَيْكَ، وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ، وَسَلِ الجَارِيَةَ تَصْدُقْكَ، قَالَتْ: فَدَعَا رَسُولُ اللَّه ﷺ بَرِيرَةَ، فَقَالَ: «أَيْ بَرِيرَةُ، هَلْ رَأَيْتِ مِنْ شَيْءٍ يَرِيبُكِ؟».قَالَتْ لَهُ بَرِيرَةُ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ، مَا رَأَيْتُ عَلَيْهَا أَمْرًا قَطُّ أَغْمِصُهُ غَيْرَ أَنَّهَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ، تَنَامُ عَنْ عَجِينِ أَهْلِهَا، فَتَاتِي الدَّاجِنُ فَتَاكُلُهُ، قَالَتْ: فَقَامَ رَسُولُ اللَّه ﷺ مِنْ يَوْمِه فَاسْتَعْذَرَ مِنْ عَبْدِ اللَّه بْنِ أُبَيٍّ، وَهُوَ عَلَى المِنْبَرِ، فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ، مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَنِي عَنْهُ أَذَاهُ فِي أَهْلِي، وَاللَّه مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا، وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، وَمَا يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِي».قَالَتْ: فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ أَخُو بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ، فَقَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّه أَعْذِرُكَ، فَإِنْ كَانَ مِنَ الأَوْسِ ضَرَبْتُ عُنُقَهُ، وَإِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا مِنَ الخَزْرَجِ أَمَرْتَنَا فَفَعَلْنَا أَمْرَكَ، قَالَتْ: فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الخَزْرَجِ، وَكَانَتْ أُمُّ حَسَّانَ بِنْتَ عَمِّه مِنْ فَخِذِه، وَهُوَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، وَهُوَ سَيِّدُ الخَزْرَجِ، قَالَتْ: وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ رَجُلًا صَالِحًا، وَلَكِنِ احْتَمَلَتْهُ الحَمِيَّةُ، فَقَالَ لِسَعْدٍ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللَّه لاَ تَقْتُلُهُ، وَلاَ تَقْدِرُ عَلَى قَتْلِه، وَلَوْ كَانَ مِنْ رَهْطِكَ مَا أَحْبَبْتَ أَنْ يُقْتَلَ. فَقَامَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ، وَهُوَ ابْنُ عَمِّ سَعْدٍ، فَقَالَ لِسَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللَّه لَنَقْتُلَنَّهُ، فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ تُجَادِلُ عَنِ المُنَافِقِينَ، قَالَتْ: فَثَارَ الحَيَّانِ الأَوْسُ، وَالخَزْرَجُ حَتَّى هَمُّوا أَنْ يَقْتَتِلُوا، وَرَسُولُ اللَّه ﷺ قَائِمٌ عَلَى المِنْبَرِ، قَالَتْ: فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّه ﷺ يُخَفِّضُهُمْ، حَتَّى سَكَتُوا وَسَكَتَ، قَالَتْ: فَبَكَيْتُ يَوْمِي ذَلِكَ كُلَّهُ لاَ يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ وَلاَ أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، قَالَتْ: وَأَصْبَحَ أَبَوَايَ عِنْدِي، وَقَدْ بَكَيْتُ لَيْلَتَيْنِ وَيَوْمًا، لاَ يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ وَلاَ أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، حَتَّى إِنِّي لَأَظُنُّ أَنَّ البُكَاءَ فَالِقٌ كَبِدِي، فَبَيْنَا أَبَوَايَ جَالِسَانِ عِنْدِي وَأَنَا أَبْكِي، فَاسْتَاذَنَتْ عَلَيَّ امْرَأَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ فَأَذِنْتُ لَهَا، فَجَلَسَتْ تَبْكِي مَعِي، قَالَتْ: فَبَيْنَا نَحْنُ عَلَى ذَلِكَ دَخَلَ رَسُولُ اللَّه ﷺ عَلَيْنَا فَسَلَّمَ ثُمَّ جَلَسَ، قَالَتْ: وَلَمْ يَجْلِسْ عِنْدِي مُنْذُ قِيلَ مَا قِيلَ قَبْلَهَا، وَقَدْ لَبِثَ شَهْرًا لاَ يُوحَى إِلَيْه فِي شَانِي بِشَيْءٍ، قَالَتْ: فَتَشَهَّدَ رَسُولُ اللَّه ﷺ حِينَ جَلَسَ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ، يَا عَائِشَةُ، إِنَّهُ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً، فَسَيُبَرِّئُكِ اللَّهُ، وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ، فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ وَتُوبِي إِلَيْه، فَإِنَّ العَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ ثُمَّ تَابَ، تَابَ اللَّهُ عَلَيْه»،قَالَتْ: فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّه ﷺ مَقَالَتَهُ قَلَصَ دَمْعِي حَتَّى مَا أُحِسُّ مِنْهُ قَطْرَةً، فَقُلْتُ لِأَبِي: أَجِبْ رَسُولَ اللَّه ﷺ عَنِّي فِيمَا قَالَ: فَقَالَ أَبِي: وَاللَّه مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّه ﷺ، فَقُلْتُ لِأُمِّي: أَجِيبِي رَسُولَ اللَّه ﷺ فِيمَا قَالَ: قَالَتْ أُمِّي: وَاللَّه مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّه ﷺ، فَقُلْتُ: وَأَنَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ: لاَ أَقْرَأُ مِنَ القُرْآنِ كَثِيرًا: إِنِّي وَاللَّه لَقَدْ عَلِمْتُ: لَقَدْ سَمِعْتُمْ هَذَا الحَدِيثَ حَتَّى اسْتَقَرَّ فِي أَنْفُسِكُمْ وَصَدَّقْتُمْ بِه، فَلَئِنْ قُلْتُ لَكُمْ: إِنِّي بَرِيئَةٌ، لاَ

تُصَدِّقُونِي، وَلَئِنِ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرٍ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي مِنْهُ بَرِيئَةٌ، لَتُصَدِّقُنِّي، فَوَاللَّهِ لاَ أَجِدُ لِي وَلَكُمْ مَثَلًا إِلَّا أَبَا يُوسُفَ حِينَ قَالَ: {فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ} [يوسف:١٨] ثُمَّ تَحَوَّلْتُ وَاضْطَجَعْتُ عَلَى فِرَاشِي، وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي حِينَئِذٍ بَرِيئَةٌ، وَأَنَّ اللَّهَ مُبَرِّئِي بِبَرَاءَتِي، وَلَكِنْ وَاللَّهِ مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ مُنْزِلٌ فِي شَانِي وَحْيًا يُتْلَى، لَشَانِي فِي نَفْسِي كَانَ أَحْقَرَ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ اللَّهُ فِيَّ بِأَمْرٍ، وَلَكِنْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللَّهُ بِهَا، فَوَاللَّهِ مَا رَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَجْلِسَهُ، وَلاَ خَرَجَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ البَيْتِ، حَتَّى أُنْزِلَ عَلَيْهِ، فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَاخُذُهُ مِنَ البُرَحَاءِ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِنَ العَرَقِ مِثْلُ الجُمَانِ، وَهُوَ فِي يَوْمٍ شَاتٍ مِنْ ثِقَلِ القَوْلِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ، قَالَتْ: فَسُرِّيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَكَانَتْ أَوَّلَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا أَنْ قَالَ: «يَا عَائِشَةُ، أَمَّا اللَّهُ فَقَدْ بَرَّأَكِ».قَالَتْ: فَقَالَتْ لِي أُمِّي: قُومِي إِلَيْهِ، فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لاَ أَقُومُ إِلَيْهِ، فَإِنِّي لاَ أَحْمَدُ إِلَّا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَتْ: وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: {إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ} العَشْرَ الآيَاتِ، ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ هَذَا فِي بَرَاءَتِي، قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ: وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحِ بْنِ أُثَاثَةَ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ وَفَقْرِهِ: وَاللَّهِ لاَ أُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا، بَعْدَ الَّذِي قَالَ لِعَائِشَةَ مَا قَالَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: {وَلاَ يَاتَلِ أُولُو الفَضْلِ مِنْكُمْ} - إِلَى قَوْلِهِ - {غَفُورٌ رَحِيمٌ} [البقرة:١٧٣]،قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ: بَلَى وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي، فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ النَّفَقَةَ الَّتِي كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: وَاللَّهِ لاَ أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا، قَالَتْ عَائِشَةُ: وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَأَلَ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ عَنْ أَمْرِي، فَقَالَ لِزَيْنَبَ: «مَاذَا عَلِمْتِ، أَوْ رَأَيْتِ».فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَحْمِي سَمْعِي وَبَصَرِي، وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ إِلَّا خَيْرًا، قَالَتْ عَائِشَةُ: وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تُسَامِينِي مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ فَعَصَمَهَا اللَّهُ بِالوَرَعِ، قَالَتْ: وَطَفِقَتْ أُخْتُهَا حَمْنَةُ تُحَارِبُ لَهَا، فَهَلَكَتْ، فِيمَنْ هَلَكَ قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: «فَهَذَا الَّذِي بَلَغَنِي مِنْ حَدِيثِ هَؤُلاَءِ الرَّهْطِ» ثُمَّ قَالَ عُرْوَةُ، قَالَتْ عَائِشَةُ:" وَاللَّهِ إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي قِيلَ لَهُ مَا قِيلَ لَيَقُولُ: سُبْحَانَ اللَّهِ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا كَشَفْتُ مِنْ كَنَفِ أُنْثَى قَطُّ، قَالَتْ: ثُمَّ قُتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ "[٣٠١]

---

[٣٠١] – الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ٥٠٧)٤١٤١ – ١٤١٣ –[ش أخرجه مسلم في التوبة باب في حديث الافك وقبول الله توبة القاذف رقم ٢٧٧٠ (اقتصاصا) أحفظ وأحسن ايرادا وسردا للحديث. (يهبلن) لم يسمن ولم يكثر لحمهن وشحمهن. (باسترجاعه) بقوله إنا لله وإنا إليه راجعون. (فخمرت) غطيت. (بجلبابي) الجلباب ثوب يغطي جسم المرأة. (فوطئ على يدها) ليسهل ركوبها ولا يحتاج إلى مساعدة. (موغرين) أي داخلين في وقت شدة الحر. (نحر الظهيرة) صدر وقت الظهر وأوله. (يستوشيه) يطلب ما عند المتحدث ليزيد منه. (عصبة) جماعة. (كما قال الله تعالى) أي كما ذكر في القرآن أنهم عصبة دون تحديدهم بقوله تعالى {إن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم} / النور ١١ /. (كبر ذلك) متولي معظم حديث الإفك ومشيعه. (عرضي) العرض هو موضع المدح والذم من الإنسان وقيل جانبه الذي يصونه من نفسه وحسبه ويحامي عنه أن ينتقص أو ينال منه. (يفيضون) يخضون. (يريبني) يشككني في حاله. (اللطف) الرفق والإحسان. (تيكم) اسم إشارة للمؤنث. (نقهت) أفقت من المرض وصححت من علتي. (المناصع) مواضع خارج المدينة كانوا يتبرزون فيها واحدها منصع لأنه يبرز إليه ويظهر من نصع الشيء إذا وضح وبان. (متبرزنا) مكان قضاء حاجتنا. (الكنف) جمع كنيف وهو المكان المستور من بناء أو نحوه يتخذ لقضاء الحاجة. (قبل الغائط) أي التوجه نحو مكان منخفض لقضاء الحاجة. (أي هنتاه) يا هذه وقيل يا بلهاء لقلة معرفتها بمكايد الناس وشرورهم. (وضيئة) حسنة جميلة من الوضاءة وهي الحسن.

هنا حديث الإفك، فوالله ما قرأته إلا وبكيت، والعظات فيه كبيرة لمن تفكر واعتبر إذ أن هذا البـــاب لا يسع المرء فيه إلا أن يضع القلم فيه ويستغفر ويلتجئ إلى الله طالباً العون والمدد.

وأهل الدين والورع انقسموا إلى قسمين كما ورد على لسان أسامة بن زيد بن حارثة وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما: فعلي قال: يا رسول الله، لم يضيق الله عليك والنساء سواها كـــثير، وأمـــا أسامة فقال بما يعلم من براءة عائشة وبما يعلم من حب رسول الله ﷺ لها، فهذه الفتنة لـــو نزلـــت بالناس بعد الوحي فما هو أقل ما يفعل الرجل بأهله، سيقال له أدنى الأمر أن تطلقها اتقـــاء الفتنـــة ومقالة السوء، وبعد ذلك ماذا سيرد كلام الناس وإشاعاتهم وأقـــوالهم، فحســـبنا الله كـــم تفعـــل الأكاذيب، وكم تظلم الحق وأهله.

الإشاعة في ذلك الزمان ساذجة بسيطة، لكن ما نصنع اليوم وقد صارت علماً يدرس في أقبية الخبث، وصارت فناً متراكباً يقدم لها ما عهد لها، ولها وسائل دخلت كل البيـــوت مـــن مـــذياع وتلفـــاز و"كمبيوتر" وصحف سيارة، وتكرر كل يوم على الأسماع والعقول والقلوب حتى إن المرء ليســـمعها أكثر مما يسمع اسمه أو اسم أبيه؟!

ماذا يقال اليوم عن الجهاد وأهله؟ وماذا يقال عن دعاة الحق والدين؟ وماذا سيقال عـــن المتمســـكين بالسنة والشريعة؟ وكيف تصور المرأة المسلمة الحصان الرزان؟ أفلام تنتج، واستهزاء قبـــيح مـــؤلم، وصحف يقوم عليها مأجورون مأبونون، والغوغاء قطيع يسير وراء الناعقين إلى جهنم وتدمير الذات.

إني أتكلم في هذا الموطن وفي القلب ألم -شهد الله- لعلمي أن كل ما سأقوله من موجبات شـــرعية لرد الإشاعة ضعيف أمام كيد الذين قال الله عنهم: {وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ } [إبراهيم: ٤٦] فوالله إن حادثة الإفك التي جعلت رسول الله ﷺ يدخل على حبيبته التي يعلم براءتها كعلمه بنفسه ويقول لها: «أَمَّا بَعْدُ، يَا عَائِشَةُ، إِنَّهُ بَلَغَنِـــي عَنْـــكِ كَـــذَا وَكَذَا، فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً، فَسَيُبَرِّئُكِ اللَّهُ، وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ، فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ وَتُوبِي إِلَيْـــهِ، فَـــإِنَّ العَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ ثُمَّ تَابَ، تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ» لأمر يجعل الإشاعة شديد الوطأة عظيم.

فمن منا يستطيع أن يقول اليوم لمتهم متألم: (إن كنت بريئاً فسيبرئك الله) وقد انقطع الـــوحي مـــن السماء، فحسبنا الله ونعم الوكيل.

(أكثرن) أكثرن القول الرديء عليها. (يرقأ) يسكن وينقطع. (يضيق الله عليك) أي تستطيع أن تطلقها وتتزوج غيرها ولم يقل ذلـــك عداوة ولا بغضا لها ولا شكا في أمرها إنما قاله إشفاقا على رسول الله – لما رأى من انزعاجه بهذا الأمر فأراد اراحة خاطره وتســـهيل الأمر عليه. (أغمصه عليها) أعيبها به. (الداجن) الشاة التي تقتنى في البيوت وتلعف ولا تخرج إلى المرعى وقد تطلق على غير الشاة من كل ما يألف البيوت من الطير وغيره. (يعذرني) يقوم بعذري إن جازيته على قبيح فعاله وقيل ينصرني العذير الناصر. (رهطك) جماعتك وقبيلتك. (قلص دمعي) انقطع. (البرحاء) الشدة التي كانت تصيبه عند نزول الوحي. (الجمان) اللؤلؤ الصغار. (تحارب لها) تطعـــن بي وتعاديني تعصبا لأختها لأني ضرة لها مع أن زينب نفسها أمسكت عن هذا وما قالت إلا خيرا رضي الله عنها وأرضاها. (الرجل) المتهم وهو صفوان بن المعطل رضي الله عنه. (كنف أنثى) ثوبها الذي يسترها وهو كناية عن عدم جماع النساء ومخالطتهن]

ماذا يملك اليوم أهل التوحيد ودعاته والمجاهدون في سبيله من الوسائل للوقوف أمام طغيان آلة الكذب والإشاعة الفاجرة؟ علماؤهم في السجون أو مقهورون معزولون ممنوعون من الظهور، المجاهدون مطاردون في كل فج، المحبون لهم متخفون على خوف وترقب، فأي معادلة هذه والأعداء يملكون كل السبل ويقفون على كل الصعد؟

اللهم رحمتك وفقط، فإن هذه معركة أقولها بكل ألم معركة مؤلمة وعوامل الخسارة فيها جلية، لكن يرطب القلوب أن العاقبة للمتقين.

ما يرشد إليه الحديث:

في هذا الحديث وجوب الإيمان بأنه لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة، حتى إنه قد روي على النبي - ﷺ - من الأحاديث الواهية أنه قد تكلم غير هؤلاء، رد ذلك، وعمل بهذا.

*وفيه أيضًا أن هذا الحديث قد اشتمل على ثلاثة شؤون كبار مهمة من حيث إنه قرن كل شيء منها بما يناسبه؛ لأن أولها كلام عيسى بن مريم عليه السلام في المهد، وذلك مما يدل على علوه على الحالتين الأخريين لمشاركتهما قصة عيسى.

*فأما كلام عيسى في المهد، فإنه لم يكن تبرئة أمه مما قذفت به إلا بنطق الولد، فإنها لما أتت به من غير ذكر، وكانت حالًا في ظاهر الأمر هائلة خارقًا للعادة أتى الله عز وجل فيها بأمر بديع من كلام صبي في المهد يقول: {إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا} وكان ذلك من الشأن العظيم الذي قاوم الأمر العظيم، فقامت به الحجة وثبت به المعجزة.

*وأما جريج فإنه كان عبدًا صالحًا، إلا أنه لما دخل عليه من استغراقه في التعبد بالصلاة، كان غير ناظر إلى أن عبادة الله عز وجل في كل الطرق المشروعة متى أكب الإنسان على طريق منها، أضر بالبواقي، فيكون على نحو من أرجح كفه بأن أسف الأخرى، فلما أتته أمه، فكان كلامه لأمه أفضل عند الله من الصلاة النافلة، فقال: رب أمي وصلاتي، فأقبل على صلاته وترك أمه، وكان من الفقه أن يقدم أمه؛ لأن صلاته إنما تكون له، وتكليمه أمه يكون عملًا متعبدًا يشمله ويشمل غيره، فربما كانت أمه قد جاءت في حاجة مهمة، بحيث يجب عليه أن يجيبها عنه.

*وفيه أيضًا أنها صلة رحم، هي أولى الأرحام بالصلة فآثر عليها ما لا يتعداه من الصلاة، فغلط في الموازنة فخسر، وقد ترددت إليه يومًا بعد يوم، وهو يؤثر الأدنى على الأرفع حتى هاج صدرها، بأن دعت عليه دعاء لا يبلغ فيه إلى الغاية؛ لأنها رفقت به؛ إذا خفي عليها فقالت: اللهم لا تمته حتى تريه وجوه المومسات؛ يعني الفواجر، فلما لم ينظر في وجه أمه، دعت عليه بعقوبة من جنس ما أعرض عنه من النظر في وجوه المومسات، والمومسات: جمع مومسة، وهي الفاجرة، ويقال: مومسات وميامس.

وإنما أجيب من دعائها مقدار ما سألت على وجه الرفق به من أن ينظر في وجوه الفواجر؛ فاتهم بتهمة هو بريء منها، إلا أنه لما آثر ما هو له، على ما هو له ولأمه، ابتلي ببلية لا ذنب له فيها؛ بل اطلع في وجه الفاجرة حتى أظهر الله بذلك كرامة عرفه الله غلطه في إيثاره صلاة النافلة على إجابة أمه.

*وفيه أيضًا دليل على أنه لا يجوز أن يسرع طاعن في مسلم بقول عن غير بينة، فإن هؤلاء لو كانوا عملوا بما أوجبه الله تعالى في شرعه، من أنه لا يقبل طعن في مسلم إلا ببينة لم يهدموا صومعته و لم يؤذوه.

*وفيه أيضًا من الفقه: أن جريجًا لما بلي بهذه البلية وعلم براءته منها، قوي إيمانه بالله عز وجل في أن يكشف كل لبس؛ فجاء إلى المولود فطعن في بطنه فقال: يا بابوس أو يا غلام، من أبوك؟ فقال: أبي الراعي، فكفر بصدق إيمانه، وحسن يقينه بالله سبحانه ما كان منه إلى أمه، فأنطلق الله الغلام ببراءته، حتى قال: أبي الراعي.

و لم يذكر رسول الله – ﷺ – هذه الحالة إلا منبهًا لكل من جرى عليه تلبيس حتى يتفاقم أمره ويعظم، فإنه ينبغي ألا يستطرح، بل بفزع إلى الله عز وجل، فإن الذي أنطق المولود حتى بادر يسمع ويرى، و لم يذكر رسول الله – ﷺ – مثل هذا سمرًا قط بل ليعمل به، فكانت هذه القصة جامعة لفضل الوالدة، ولكونها أجيب دعاؤها في مثل الولد الصالح مع كونه لم يشتغل عنها بمنكر ولا بمحرم، وإنما اشتغل بعبادة فجرى في حقه هذا.

*وفيه: أن الله تعالى قائم بالقسط، عند كشف كل إلباس.

*وفيه أيضًا: أن الله تعالى يجيب الدعاء عند السؤال.

*وقوله: يا بابوس، فهي كلمة تقال للصغير.

*وأما القصة الثالثة: فالشارة الحسنة الجمال الظاهرة في الهيئة.

*وفيه من الفقه: أن يتعوذ الإنسان أن يكون مثل الجبار؛ لأنه قال: لا تجعلني مثله، فأنطق الله تعالى ذلك المولود بهذا؛ لتكون هذه الحالة أوقع عند كل سامع لئلا يتمنى الناس أحوال الجبارين؛ ولبسه الظالمين أدهى مقام فتنة؛ لأنه قد يأتي إبليس من هذه الطريق ويقول: فهذا الظالم أو الجبار مع عنفه وغشمه هو أصلح حالًا في عاجل الدنيا من كثير الخلق، فأوضح الله الحق في ذلك، بإنطاق المولود؛ الذي نطقه بدع في وقته؛ لتسير به الأخبار، ويتهاداه الرفاق؛ وحتى يذكره رسول الله – ﷺ – فينقل إلى يوم القيامة، وليعلم الناس أن الإملاء للظالمين ليس بخير لهم.

*فأما حديث الجارية؛ فإنه قد يتهم الجهال المرأة الصالحة بالزنا والسرق، وليست من أهل ذلك، فلا ينبغي أن يترك الرجل أهله من أجل أن يقول عدو له أو لهم أو يطبع الشيطان في أفواه الناس: إنها زانية أو سارقة، ولا يحل لمسلم أن يقبل هذا ولا يؤثر عنده بحال إلا أن يثبت ذلك بثبوت مثله، أو

يرى من قرائن الأحوال ما يفيده عليه الظن، فيكون لذلك حكمه؛ فأما مجرد أقوال الأعداء فلا يحل العمل بذلك، إلا أن كثيرًا من النسوان يستجزن أن يقلن في ضرائرهن الكلمة الخبيثة؛ ليكون سببًا لإتلاف من يتلف، وإبعاد من يبعد.

فلا يحل لمسلم أن يقبل في دعوى الزنا إلا البينة التي شرطها الله تعالى في ذلك أن قال: {لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون} هذا ولو أنهم رأوا وشاهدوا؛ فإنهم عند الله كاذبون، وذلك لأن هذه الوصمة إذا وصم بها رجل رجلًا أو امرأة فقد أتى عظيمًا من الأمر، فإذا عمل الإنسان بقوله صار شريكًا له فيما أناه الله.

*وأما قول المرأة: لا تجعل ابني مثل هذه؛ فلأنها رأت صورة كرهتها، من أنها تقذف وتؤدى، وما علمت الباطن.

*وأما إخراج الصبي الثدي من فمه، فإنه آثر قول الحق على الرضاع المستلذ، فقال: اللهم اجعلني مثل هذه، ولو قبالت لا تبل ولدي بمثل ما ابتليت هذه لم ينكر ذلك إن شاء الله، إنما قالت: لا تجعل ولدي مثل هذه، وكان هذا شأنًا عظيمًا منهما في الخلق، وهو أنه لا يسوغ قبول قول الفجار والفساق في العوامل مع كونه قد يجوز أن يكون بعضه كما يقال؛ ولكن الله عز وجل حرم علينا أن نقبله أو نعمل به، فأنطق الله المولود في أمر بديع، شاع وسار حتى ذكر رسول الله – ﷺ –، فصار ذكر رسول الله – ﷺ – قائمًا عند كل مؤمن مقام مشاهدة الطفل، وهو يقول ذلك، واستغنى بذلك عن أن يتكلم مولود في الإسلام، بمثل هذه الحادثتين، فقد أخبر بهذا الصادق – ﷺ –.[٣٠٢]

وفِي الحَدِيث إِيثار إِجابَة الأُمّ عَلَى صَلاة التَّطَوُّع لأَنَّ الاستمرار فِيها نافلَة وإِجابَة الأُمّ وبرّها واجب.

قالَ النَّوَوِيّ وغَيره : إِنَّما دَعَت عَلَيه فَأُجيبَت لأَنَّهُ كانَ يُمكنهُ أَن يُخَفِّف ويُجيبها ، لَكِن لَعَلَّهُ خَشِيَ أَن تَدعُوهُ إِلَى مُفارَقَة صَومَعَته والعَود إِلَى الدُّنيا وتَعَلُّقاتها.

كَذا قالَ النَّوَوِيّ ، وفِيه نَظَر لِما تَقَدَّمَ من أَنَّها كانَت تَأتيه فَيُكَلِّمها ، والظّاهِر أَنَّها كانَت تَشتاق إِلَيه فَتَزُورهُ وتَقتَنِع بِرُؤيَتِه وتَكليمه ، وكَأَنَّهُ إِنَّما لَم يُخَفِّف ثُمَّ يُجيبها لأَنَّهُ خَشِيَ أَن يَنقَطِع خُشُوعه.

وهَذا إِذا حُمِلَ عَلَى إِطلاقه اُستُفيدَ مِنهُ جَواز قَطع الصَّلاة مُطلَقًا لإِجابَة نِداء الأُمّ نَفلاً كانَت أَو فَرضًا ، وهُو وجه فِي مَذهَب الشّافِعِيّ حَكاهُ الرُّويانِيّ.

وقالَ النَّوَوِيّ تَبَعًا لِغَيرِه : هَذا مَحمُود عَلَى أَنَّهُ كانَ مُباحًا فِي شَرعهم ، وفِيه نَظَر قَدَّمته فِي أَواخِر الصَّلاة ، والأَصَحّ عِند الشّافِعِيَّة أَنَّ الصَّلاة إِن كانَت نَفلاً وعَلِمَ تَأَذِّي الوالِد بِالتَّرك وجَبَت الإِجابَة وإِلاَّ فَلا.

---

[٣٠٢] – الإفصاح عن معاني الصحاح (٧/ ١٧٩)

وإن كانَت فَرضًا وضاقَ الوقت لَم تَجب الإجابَة ، وإن لَم يَضِق وجَبَ عند إمام الحَرَمَين . وخالَفَهُ غَيره لأَنَّها تَلزَم بالشُّرُوع.

وعند المالكيَّة أَنَّ إجابَة الوالد في النّافلَة أَفضَل منَ التَّمادي فيها.

وحَكَى القاضي أَبُو الوليد أَنَّ ذَلكَ يَختَصّ بالأُمِّ دُون الأَب ، وعند ابن أَبي شَيبَة من مُرسَل مُحَمَّد بن المُنكَدر ما يَشهَد لَهُ وقالَ به مَكحُول ، وقيلَ إنَّهُ لَم يَقُل به منَ السَّلَف غَيره.

وفي الحَديث أَيضًا عِظَم برّ الوالدَين وإجابَة دُعائهما ولَو كانَ الولَد مَعذُورًا ؛ لَكن يَختَلف الحال في ذَلكَ بحَسَب المَقاصد.

وفيه الرِّفق بالتّابع إذا جَرَى منهُ ما يَقتَضي التَّأديب لأَنَّ أُمّ جُرَيج مَعَ غَضَبها منهُ لَم تَدعُ عَلَيه إلاَّ بما دَعَت به خاصَّة ، ولَولا طَلَبها الرِّفق به لَدَعَت عَلَيه بوُقُوع الفاحشَة أَو القَتل.

وفيه أَنَّ صاحب الصِّدق مَعَ الله لا تَضُرّهُ الفتَن.

وفيه قُوَّة يَقين جُرَيج المَذكُور وصحَّة رَجائه ، لأَنَّهُ استَنطَقَ المَولُود مَعَ كَون العادَة أَنَّهُ لا يَنطق ؛ ولَولا صحَّة رَجائه بنُطقه ما استَنطَقَهُ.

وفيه أَنَّ الأَمرَين إذا تَعارَضا بُدئَ بأَهَمِّهما ، وأَنَّ الله يَجعَل لأَوليائه عند ابتلائهم مَخارج ، وإنَّما يَتَأَخَّر ذَلكَ عَن بَعضهم في بَعض الأَوقات تَهذيبًا وزيادَة لَهُم في الثَّواب.

وفيه إثبات كَرامات الأَولياء ، ووُقُوع الكَرامَة لَهُم باختيارهم وطَلَبهم.

وقالَ ابن بَطّال : يُحتَمَل أَن يَكُون جُرَيجٌ كانَ نَبيًّا فَتَكُون مُعجزَة.

كَذا قالَ ، وهَذا الاحتمال لا يَتَأَتَّى في حَقّ المَرأَة الَّتي كَلَّمَها ولَدها المُرضَع كَما في بَقيَّة الحَديث.

وفيه جَواز الأَخذ بالأَشَدِّ في العبادَة لمَن عَلمَ من نَفسه قُوَّة عَلَى ذَلكَ.

واستَدَلَّ به بَعضهم عَلَى أَنَّ بَني إسرائيل كانَ من شَرعهم أَنَّ المَرأَة تَصدُق فيما تَدَّعيه عَلَى الرِّجال منَ الوطء ويَلحَق به الولَد ، وأَنَّهُ لا يَنفَعهُ جَحد ذَلكَ إلاَّ بحُجَّة تَدفَع قَولها.

وفيه أَنَّ مُرتَكب الفاحشَة لا تَبقَى لَهُ حُرمَة ، وأَنَّ المَفزَع في الأُمُور المُهمَّة إلَى الله يَكُون بالتَّوجُّه إلَيه في الصَّلاة.

واستَدَلَّ بَعض المالكيَّة بقَول جُرَيج " مَن أَبُوك يا غُلام " بأَنَّ مَن زَنَى بامرَأَة فَولَدَت بنتًا لا يَحلّ لَهُ التَّزَوُّج بتلكَ البنت خلافًا للشّافعيَّة ولابن الماجشُون منَ المالكيَّة.

ووجه الدَّلالَة أَنَّ جُرَيجًا نَسَبَ ابن الزِّنا للزّاني وصَدَّقَ الله نسبَته بما خَرَقَ لَهُ منَ العادَة في نُطق المَولُود بشَهادَته لَهُ بذَلكَ ، وقَوله أَبي فُلان الرّاعي ، فَكانَت تلكَ النِّسبَة صَحيحَة فَيَلزَم أَن يَجري بَينهما أَحكام الأُبوَّة والبُنُوَّة ، خَرَجَ التَّوارُث والولاء بدَليل فَبَقيَ ما عَدا ذَلكَ عَلَى حُكمه.

وفيه أَنَّ الوُضُوء لا يَختَصّ بِهَذِهِ الأُمَّة خِلافًا لِمَن زَعَمَ ذَلِكَ ، وإِنَّما الَّذِي يَختَصّ بِها الغُرَّة والتَّحجِيل فِي الآخِرَة ، وقَد تَقَدَّمَ فِي قِصَّة إِبراهِيم أَيضًا مِثل ذَلِكَ فِي خَبَر سارَة مَعَ الجَبّار والله أَعلَم.

وفيه أَنَّ البَشَر طُبِعُوا عَلَى إِيثار الأَولاد عَلَى الأَنفُس بِالخَيرِ لِطَلَبِ المَرأَة الخَير لابنِها ودَفع الشَّرّ عَنهُ ولَم تَذكُر نَفسها.[٣٠٣]

الحديث السادس والثلاثون: شر الطعام طعام الوليمة

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «شَرُّ الطَّعَامِ طَعَامُ الوَلِيمَةِ، يُدْعَى لَهَا الأَغْنِيَاءُ وَيُتْرَكُ الفُقَرَاءُ، وَمَنْ تَرَكَ الدَّعْوَةَ فَقَدْ عَصَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﷺ»[٣٠٤].

شتان من يأتيك جائعاً متلهفاً، وبين من يأتيك مستملحاً بطراً، وشتان من يأتيك ليضع الطعام على الطعام ومن يأتيك مع فراغ الإناء، فشرط الانتفاع كما قالوا فراغ المحل، وقد كثر في زماننا البطرون، لهم أرجل كلت من المشي للتذوق فقط، كلما سمعوا دعوة لوليمة قالوا هيا لنذوق ولنشم، ثم نضحك ونستهزئ، ونمد أرجلنا لا أيدينا في الصُّحف، فطالت ألسنتهم من كثرة التذوق مرضاً، وماتت حواسهم من كثرة الاستهزاء، ولم يبق من "رمتهم" سوى عفن الكلمات وأحكام السوء وإتقان البصق في كل الصحون، لا يقوم لأهل الحق روق إلا وطافوا يبحثون عن "الكنف" فيه، تغشى أعينهم عن كل الجواهر، وتمرض أنوفهم من الطيب، فيفرون إلى تحت الآباط وجيوب الثنايا ليعيشوا هناك ثم لا يرون إلا "الرزايا".

في كل وليمة للدين يأتون إلى أطرافها مستملحين وهم يقولون: "هذه كتلك، وسترون النتيجة، اجلسوا قليلاً فلن تروا بعد كل هذا إلا الخراب" ونسي هؤلاء المتخمون بالقذارة أن تلك سنة لله في كل وليمة، إذ تقوم وتمتد كالسوق فيجني منها الخباة مطالبهم، فهذا شهيد، وهذا متصدق، وهذا بائع لنفسه ينتظر، ثم ينفض السامر فيرجع الناس إلى منازلهم كل يحمل ما التقط ولا يبقى وراءها إلا المخلفات والفتن واللواقط الرخيصة، عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: أَشْرَفَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى أُطُمٍ مِنْ آطَامِ المَدِينَةِ، ثُمَّ قَالَ: «هَلْ تَرَوْنَ مَا أَرَى؟ إِنِّي أَرَى مَوَاقِعَ الفِتَنِ خِلاَلَ بُيُوتِكُمْ كَمَوَاقِعِ

---

[٣٠٣] – فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (٦/ ٤٨٢)

[٣٠٤] – الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ٥٧٥)٥١٧٧ – ١٥٦٦ – [ش أخرجه مسلم في النكاح باب الأمر بإجابة الداعي على الدعوة رقم ١٤٣٢ (شر الطعام) أي لا بركة فيه. (ترك الدعوة) ترك الإجابة لها ولا عذر له في تركها]

القَطْرِ»[٣٠٥]، وهل في تاريخ العالم قط بناء لم يصر إلى زوال؟، وهل في تاريخ الحق قط أن لم يخلف بعده شر وفتن؟، لكن هؤلاء القوم لا يفقهون.

لقد طاف سلمان الفارسي رضي الله عنه ظامئاً جائعاً باحثاً عن الحق، وتقلب على موائد كثيرة حتى هداه الله تعالى إلى مائدة رسول الله ﷺ وارتفعت به همته حتى صار «سَلْمَانُ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ»[٣٠٦]، وناس كانت المائدة تنصب أمام أعينهم بل تطرق عليهم بيوتهم فيصدونها ويركلونها بأرجلهم، فذاك الفقير المحتاج وهذا المستغني الممتلئ بالهواء كذباً، وستبقى هذه السنة جارية حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وإن كانت في أيامنا هذه أجلى وأوضح، إذ ظن البعض أن كثرة التجارب التي يسمونها جهلاً "إخفاقات" وهي في الحقيقة أسواق ربانية عظيمة، كانت فيها الأجور والحسنات، وكان فيها العلم والتجربة والحكمة والموعظة، مات من مات فيها شهيداً محتسباً، وصبر فيها من صبر مبتلى ثابتاً، وقطف من أفنان حكمتها من تقلب في دروبها وشعبها، ظن هؤلاء أن هذه التجارب إنما هي دليل على أن العقود أولى، وأن "السب" منذ البداية هي النجاة، فالقضية محسومة لما يقولون، وبعض هؤلاء ربما مر يوماً على سوق من جنباته أو حوافه فجلس بعد ذلك مجلس "الحكيم" يعظ على كل صعيد وكل وليمة ربانية: أقول لكم... قلت لكم... سترون قريباً... لقد جربنا قبلكم... جشاء ممقوت من بطن متخم بالجهل. ثم... يدعون إلى ولائم "النقد" ليتحدثوا حديث "الحكماء" و"الحنكة" ويدعى لتلك "الولائم" الهالكون في جب الكلمات ليتذوقوا ويتحدثوا ويسمروا على موائد الغيبة والنميمة، والولائم الربانية تشتعل بوقود الفقراء، وتوقد بحبات قلوب أحبت الجنة والحور العين، {وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨)} [آل عمران: ١٤٦ - ١٤٨]

فسبحان ربي كيف قسم بين العباد؟

القيادة لا تعجبهم فقالوا: {لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ} [الزخرف: ٣١] فهذا رجل ({مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ } [الزخرف: ٥٢] ({وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ} [البقرة: ٢٤٧] والفقراء يقولون: {ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ } [المائدة: ٥٤].

---

[٣٠٥] - صحيح البخاري (٣/ ١٣٣)(٢٤٦٧) [ش أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة باب نزول الفتن كمواقع القطر رقم ٢٨٨٥ (أطم) الحصون التي تبنى بالحجارة وقيل هو كل بيت مربع مسطح. (مواقع الفتن) مواضع حصولها وسقوطها. (خلال بيوتكم) بينها ونواحيها جمع خلل وهو الفرجة بين الشيءين. (كمواقع القطر) مثل سقوط المطر الكثير الذي يعم الأنحاء والأماكن]

[٣٠٦] - المعجم الكبير للطبراني (٦/ ٢١٢)(٦٠٤٠) والبداية والنهاية ط هجر (٦/ ٢٦) وموسوعة السنة النبوية - علي بن نايف الشحود (٦/ ٣٥٢)(١٠١١٢) حسن لغيره

قالوا: من هؤلاء؟ "فقراء" فلو كان خيراً ما سبقونا إليه، يُضحك عليهم بذكر الجنة والنار، والرغبة بالحور العين، ولكن أهل النظر والفكر والتجارب المحبطة والفقراء يقولون: {إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ } [الأنعام: ٣٦][٣٠٧].

قالوا: أتريدون منا أن نؤمن كما آمن هؤلاء، بمجرد أن يقال لنا آية أو حديث، أو يخطب فينا خطبة حماسية من تاريخ ذاهب أو ذكر لحورية حتى نهب وقوفاً، لا، والفقراء يرددون قوله تعالى عن هؤلاء: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ } [البقرة: ١٣][٣٠٨].

قالوا: مجالسنا خاصة نتداول فيها ألفاظ العباقرة، ونلوك فيها جمل الحكماء، فهي مجالس الخاصة، حيث يدار فيها "شمول" النقاء الفكري، فننشق مقولة مسيو ومستر، فمالنا مجالس ليس فيها إلا "السنة كذا" و"دين الله كذا" و"حكم الله كذا" فهذه مجالس العامة والرحماء، والفقراء يرددون قوله تعالى: {وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ} [الأنعام: ٥٢].

إي والله: شتان من يأتي للتذوق والسمر ومن يأتي بغير زاد وهو ظامئ إلى جنة الله تعالى، لكن أهل التوحيد والجهاد يقولون لهؤلاء المتخمين: سنبقى فقراء وببطون خمصة نطير إلى كل هيعة ينادى فيها إلى الجنان[٣٠٩]، ننغمس فيها إلى آذاننا لعلنا نبلغ الجنان والحور العين، ولا عليكم فابقوا أنتم لتجمعوا وراء كل هيعة الفتات والبقايا لتشيدوا منها دليلاً جديداً على أن قعودكم أنجاكم من الموت بلا ثمن

---

[٣٠٧] – الذينَ يَسْتَجِيبُونَ، للهِ وَلِلرَّسُولِ، هُمُ الذينَ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللهِ، وَيَعُونَهُ، وَيَتَدَبَّرُونَهُ، فَيَعْقِلُونَ الآيَاتِ، وَيُذْعِنُونَ لِمَا عَرَفُوا بِهَا مِنَ الحَقِّ، لِسَلاَمَةِ فِطْرَتِهِمْ، وَصَفَاءِ نُفُوسِهِمْ، وَطَهَارَةِ قُلُوبِهِمْ. أَمَّا الذينَ لاَ تُرْجَى اسْتِجَابَتُهُمْ، لأَنَّهُمْ كَالمَوْتَى، لَا يَسْمَعُونَ السَّمَاعَ النَّافِعَ، وَلاَ يَتَدَبَّرُونَ، فَيُتْرَكُ أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ، فَهُوَ الذِي يَبْعَثُهُمْ، بَعْدَ مَوْتِهِمْ، لِيُحَاسِبَهُمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ، فَلاَ تُهْلِكْ نَفسَكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ، فَلَيْسَ فِي اسْتِطَاعَتِكَ هِدَايَتُهُمْ، وَلاَ إِرْجَاعُهُمْ إِلى جَادَّةِ الصَّوَابِ.أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٨٢٦، بترقيم الشاملة آليا)

[٣٠٨] – وَإذا قِيلَ لِهؤُلاَءِ المُنَافِقِينَ: آمِنُوا باللهِ وَمَلاَئِكَتِه وَكُتُبِه وَرُسُلِه، وَبِالبَعْثِ بَعْدَ المَوْتِ، وَبِالحِسَابِ وَالجَنَّةِ وَالنَّارِ كَمَا آمَنَ النَّاسُ المُؤْمِنُونَ، وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ فِي امْتِثَالِ الأَوَامِرِ وَتَرْكِ الزَّوَاجِرِ، قَالُوا سَاخِرِينَ: كَيْفَ نُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ هؤلاَءِ السُّفَهَاءُ، وَنَصِيرُ مَعَهُمْ فِي مَنْزِلَةٍ وَاحِدَةٍ؟

وَيَرُدُّ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ قَائِلاً: إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلكِنَّهُمْ لِجَهْلِهِمْ، وَضَعْفِ عُقُولِهِمْ لاَ يَعْلَمُونَ ذلِكَ.أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٢٠، بترقيم الشاملة آليا)

[٣٠٩] – عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللهِ – ﷺ –،أَنَّهُ قَالَ: «مِنْ خَيْرِ مَعَاشِ النَّاسِ لَهُمْ، رَجُلٌ مُمْسِكٌ عِنَانَ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، يَطِيرُ عَلَى مَتْنِهِ، كُلَّمَا سَمِعَ هَيْعَةً، أَوْ فَزْعَةً طَارَ عَلَيْهِ، يَبْتَغِي الْقَتْلَ وَالْمَوْتَ مَظَانَّهُ، أَوْ رَجُلٌ فِي غُنَيْمَةٍ فِي رَأْسِ شَعَفَةٍ مِنْ هَذِهِ الشَّعَفِ، أَوْ بَطْنِ وَادٍ مِنْ هَذِهِ الْأَوْدِيَةِ، يُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَيُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَيَعْبُدُ رَبَّهُ حَتَّى يَأْتِيَهُ الْيَقِينُ، لَيْسَ مِنَ النَّاسِ إِلَّا فِي خَيْرٍ» صحيح مسلم (٣/ ١٥٠٣) ١٢٥ – (١٨٨٩)[ش (معاش الناس) المعاش هو العيش وهو الحياة وتقديره والله أعلم من خير أحوال عيشهم رجل ممسك (ممسك عنان فرسه) أي متأهب ومنتظر وواقف بنفسه على الجهاد في سبيل الله (يطير على متنه) أي يسرع جدا على ظهره حتى كأنه يطير (هيعة) الصوت عند حضور العدو (أو فزعة) النهوض إلى العدو (يبتغي القتل والموت مظانه) يعني يطلبه من مواطنه التي يرجى فيها لشدة رغبته في الشهادة (غنيمة) تصغير غنم أي قطعة منها (شعفة) أعلى الجبل]

كما تزعمون {الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٦٨) وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١)} [آل عمران].

ما يرشد إليه الحديث:

في هذا الحديث أن الأطعمة على كونها تتساوى في الأسماء والأجناس، وأنها تتفاوت من حيث المعاني ومقاصد أربابها، فمن صنع طعامًا ليخص به الأغنياء المستغنين عنه، متكلفًا لهم حضورهم إليه، مع تركه من هو أشد منهم حاجة فذلك منه هو خسران، فمن أعانه على هذا المقصد بإجابته إلى هذا الطعام من الأغنياء فإنه قد شاركه بحصة من سوء مقصده، ولكن إذا صنع طعامًا فحضره الأغنياء والفقراء، كانت تلك الدعوة يتعين الإجابة إليها؛ لأن الطعام أصل وضعه أن يجود به من فضل عنه على من أعوزه، فإذا قلب المعنى فيه وعكست، اختل أصل الوضع.[٣١٠]

وفيه مشروعية صنع طعام لمناسبة الزواج، ودخول الزوج بزوجته، وتقارب الأسرتين؛ للتعارف والتآلف بين الأصهار، وابتهاجًا بنعمة الله تعالى، وفيه إعلان للنكاح وإشعارٌ له؛ كما أنَّ فيه الدعاء، والاجتماع، والتعارف.

وفيه مشروعية إجابة الدعوة، لما روى مسلم، عن أبي هريرة؛ أنَّ النَّبيَّ -ﷺ- قال: "ومن لا يُجِب فقد عصى الله ورسوله".

قال ابن عبد البر: لا خلاف في وجوب الإجابة لمن دُعي إليها. وقيل: مستحبة، واختاره الشيخ تقي الدين، وهي حق للآدميِّ يسقط بعفوه.

ويجب على المدعو إجابتها بأمور منها:

- أن يُعيِّنه صاحب الدعوة، فلا تكون دعوة عامة.

أن لا يكون في مكان الدعوة منكرٌ، لا يقدر على إزالته، من خمرٍ، أو فُرُش محرَّمة، أو أواني ذهبٍ أو فضة، أو أغانٍ محرَّمة، أو اختلاط رجالٍ بنساء، أو تكون من حفلات السرف والخيلاء، أو يكون في ماله حرامٌ من ربا، أو رشوة، أو ظلم أحد، أو غير ذلك، فإذا وُجِدَ شيءٌ من هذه الأمور لم تجب الدعوة، بل تحرم.

وذكر الطيبيِّ في "شرح المشكاة" أمثلةً للأعذار التي تسقط إجابة الدعوة، منها: أن يكون في الطعام شبهة حرام، أو أن يخص بها الأغنياء دون الفقراء، أو أنَّه دعاه لخوف شرِّه، أو لطمع في جاهه، أو

---

[٣١٠] - الإفصاح عن معاني الصحاح (٦/ ٢٨٥)

ماله، أو ليعاونه على باطل، أو يكون فيها منكر، من خمرٍ، أو لهوٍ محرَّم، أو أنَّ الفرش حرير، أو فيها صور حيوان، ونحو ذلك، وإن اعتذر منه، فقبل الداعي، سقط الوجوب.

وفيه أن تكون الدعوة في اليوم الأول، فإن كانت فيما بعده من الأيام لم تجب الدعوة؛ ففي اليوم الثاني: مستحبة، وفي اليوم الثالث تكره: أو تحرم.

وفيه أنَّ العادة الغالبة أنَّ طعام الوليمة شر طعام، وشر محفل؛ فإن الدعوة لا توجه إلاَّ إلى الأعيان والأغنياء، ممَّن لا يأتونها رغبة، وإنَّما يأتونها إرضاءً لصاحب الدعوة، وإحسانًا إليه، وأما الفقراء المحتاجون إليها: فهم يمنعون من الحضور إليها، ويدفعون عنها بالأبواب؛ فلتكن هذه موعظة وتذكرة للمسلم، أنْ لا يسلك هذا المسلك، وأن يجعلها دعوة شرعية؛ يدعو فيها الأقارب، والأصدقاء، والفقراء، والأغنياء، وكلٌّ يُترَّل مترلته.

وفيه أنَّ الواجب هو إجابة الدعوة، أما الأكل فليس بواجب، لكن إن كان صائمًا فرضًا فلا يُفطر، ويخبر صاحب الدعوة بصيامه؛ لئلا يظن به كراهة طعامه، فقد جاء في صحيح مسلم وغيره أنَّ النَّبيَّ -ﷺ- قال: "إذا دُعِي أحدكم إلى الطعام وهو صائمٌ، فليقل إنِّي صائم".

وأمَّا إنْ كان الصوم نفلاً: فإنْ حصل بفطره وأكله جبر خاطر الداعي، ورغب المدعو بمشاركتهم في الأكل، فليفطر؛ وإلاَّ دعا، وأتمَّ صومه؛ فقد جاء في بعض الروايات: قوله -ﷺ- لرجل اعتزل من القوم ناحية، وقال: إنِّي صائم، فقال -ﷺ-: "دعاكم أخوكم، وتكلَّف لكم، كُل، ثُم صم يومًا إن شئتَ".

وهذا التفصيل هو مذهب الشافعية، والحنابلة.

قال الشيخ تقي الدين: هو أعدل الأقوال.

وفيه أنَّ الوليمة في اليوم الأول واجبة، وفي اليوم الثاني سنَّةٌ مستحبَّة، أمَّا في اليوم الثالث فهي رياءٌ وسمعةٌ؛ فتكون محرَّمة، فتجب على المدعو الإجابة في الأوَّل، ولكن بشرطه المتقدم، وتُستَحب في اليوم الثاني، وتحرُم في اليوم الثالث وهذا مذهب جمهور العلماء.

وفيه استحباب الدعاء من المدعو للداعي، ويكون الدعاء مناسبًا للدعوة والمقام، ويظْهِرُ الفرح والغِبطة للداعي، ويدخل السرور عليه بالأماني الطيبة، والفأل الحسن؛ فهذا من بركة الحضور والاجتماع.

فليس الحضور هو مجرَّد الطعام والأكل، وإلاَّ لما أمر الصائم بالإجابة، وإنَّما المراد: معانيه الطيبة، واجتماعه المبارك.

والمشهور من المذهب: أنَّ وليمة العرس تجب بالعقد، وقال الشيخ تقي الدين: تُسنُّ بالدخول.

وقال في الإنصاف: الأولى أن يقال: وقت الاستحباب موسَّع، من عقد النكـــاح، إلى انتـــهاء أيـــام العرس؛ لصحة الأخبار في هذا وهذا.[٣١١]

الحديث السابع والثلاثون: مثل المؤمن كالخامة من الزّرع، تفيئها الرّيح مرّة، وتعدلها مرّة

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ كَعْبٍ، عَنْ أَبِيهِ: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَالخَامَةِ مِنَ الزَّرْعِ، تُفَيِّئُهَا الـــرِّيحُ مَرَّةً، وَتَعْدِلُهَا مَرَّةً، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ كَالأَرْزَةِ، لاَ تَزَالُ حَتَّى يَكُونَ انْجِعَافُهَا مَرَّةً وَاحِدَةً»[٣١٢].

رياح عاتية ووحوش ضارية وجيوش كمد القاموس قد أتت وذهبت وبادت و"خامة الزرع" الصغيرة باقية، فما أعجب روح الإيمان وعصارة الحق، وما أضعف رياح الباطل والغرور.

"خامة صغير عطرة" لينة بخضرها، قوية بثباتها، تدخلها العين وتطمع بها النفوس الشبعة وتستصـــغرها الأنظار البهيمية، فتأتيها "الرياح" "لكنها هواء" لتحطيمها وغيظها وتدميرها، فتميل هـــذه "الخامـــة اللينة"، تميل كما قال تعالى: { إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِـــي أُخْـــرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [آل عمـــران: ١٥٣].

تميل هذه الخامة "الخضرة القطرة اللينة" ليقول الله لها: {إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُـــهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّـــالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَـــمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢)} [آل عمران].

تميل هذه "الخامة الصغيرة اللينة":

١. لأنها سنة الله في تداول الخلق، فالسنة فيها أن تميل هي، والسنة في غيرها أن تنجعف مرة واحدة.

٢. لابدّ من اختبار عصارة الفروع وروحها وجوفها، فالغصن ليس بطوله ولا بغلظه لكـــن بـــروح الخضرة فيه التي تعطيه القوة والليونة، فتسقط الفروع النخرة في فتنة الابتلاء وتبقى الفروع الأصلية.

٣. ثم إن بعض الثمر قد طاب للأكل ونضج، فلابد من أن يأوي إلى الجرين {وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ } [آل عمران: ١٤٠].

وتمضي السنة مرة بعد مرة، قرون تأتي فتخرق في الجوانب ويتفجر الـــدم والألم، ويبـــدأ التطبـــب والإحياء وإعادة الروح والبناء، سنة لا تأبه لجاهل يصرخ إذ يرى هذا الأمل عذاباً بسبب اســـتعداء

---

[٣١١] – توضيح الأحكام من بلوغ المرام (٥/ ٤٣٠)

[٣١٢] – الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ٦٠٦)٥٦٤٣ – ١٦٥٣ –[ش أخرجه مسلم في صفات المنافقين وأحكامهم باب مثل المؤمن كالزرع ومثل الكافر ... رقم ٢٨١٠ (كالخامة) الغض الرطب من النبات أول ما ينبت (تفيئها) تميلها (تعدلها) ترفعها (لا تزال) قائمة لا تلين (انجعافها) انقلاعها]

هذه الخامة التي ذنبها أن ريحها طيب في أرض { وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ} [آل عمران: ١١٠]. فيصرخ الجاهل: هلا كنا كغيرنا؟! وهلا غيرت هذه " الخامة " من منهجها لعلنا نرتاح كما ارتاحت بقية الأمم؟!

مالنا نحن فقط نعيش محنة وراء محنة، وابتلاءً وراء ابتلاء؟ أين علة هذه القضية؟

قالوا: العلة في روح استعلاء هذه "الخامة الصغيرة"، فهي تتيه أن جذورها تمتد إلى كل الأنبياء وروحها من روح الله، وعصارتها من "صنع الله"، فهلا توقفت هذه "الخامة" عن هذا "الاستعداء" وصارت أرضية ككل شجر الأرض؟!

ثم ألا تخجل هذه "النبتة" من كل هذا "الادّعاء" وهي صغيرة مهينة داستها كل الأرجل، والنبتة تردد بحياء عميق {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [آل عمران: ١٣٩].

قالوا: انظروا إلى شجر الأرض، عالياً، مرتفعاً، صلباً، آمناً، سعيداً، يعيش النعيم من كل الجوانب، وكل قبحة الظاهرين قد ستر بأجمل الألبسة وبأروع الأصباغ، و" خامة الطيب الصغيرة " تمضي على وسعها وقدرتها، وعيونها إلى جنة الرضوان.

قدر هذه النبتة أن تكون "فلسطين" مأوى أفئدة كل ما بقي من حق في أديان السماء السابقة، والأرض المباركة في القرآن، وقدرها أن تكون على مرمى القلب من كل الفرق، تهب عليها الرياح مرة بعد مرة وفتنة ترمق سابقتها حتى ينزل عيسى عليه السلام[٣١٣]، والمنافقون يقولون: بركة موهومة، وشرف مدّعى، ولقمة سائغة مع كأس مهانة خير من كل هذه الأرض.

قدر هذه النبتة أن تستر عرضها وشرفها وقيمها بعصارة أبنائها وروح مهجتها، والمنافقون يقولون: لا شرف إلا نوم هانئ وجيب مليء وروح صاحب ينسى المرء فيه نفسه.

قدر هذه النبتة أن يبارك الله في أرضها، لبناً لكل جوف، وعسلاً لكل مشته، وراحة لكل راغب، فينقمون على أهلها أنهم رعاة إبل، والنساء جوهر مستور، والعيون دوماً تراقب الشمس، والمنافقون يقولون: سينبع كل شيء في سوق النجاسة رجاء إرضاء الرياح والوحوش.

ستذهب كل هذه الأوساخ، وستأوي إلى مستقرها من الخزي والعار والعاقبة لهذه " الخامة العطرة اللينة الطيبة " وأما رياح الكفر فليست أمريكا في زماننا بأشد من التتار في زمانهم، وليس "صليب اليوم" بأصلب من "صليبهم" في الأمس، وكل ذلك قد ذهب، والعاقبة للتقوى.

{أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ } [القمر: ٤٣].

ستبقى هذه "الخامة" كما هي تغري أعداءها لسحقها {وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا} [الأنفال: ٤٤]، فتأتيها أمم الأرض، أرتالاً وراء أرتال، قدر لا نستطيع أن ننفك عنه إلا أن

---

٣١٣ – ثُمَّ يَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ، فَيُدْرِكُهُ عِنْدَ بَابِ لُدٍّ، فَيَقْتُلُهُ".المسند الموضوعي الجامع للكتب العشرة (٢/ ٢٨٣)، (د) (٤٣٢١) صحيح

نغير ديننا، قدر هذه "الأمة" هو قدر التاريخ، **محنة وراء محنة، وابتلاء وراء ابتلاء**، يسميها الجهلة "أخطاء"، ويظنون أن بإمكان هذه الأمة أن تترك "الاستعداء" لتعيش آمنة هانئة، تفرح فرح البهائم كغيرها من الأمم، والأمر ليس سوى "إغراء" إلهي ليقع "القدر" وتقوم "الأسواق" فيربح الرابحون من "التجار" الذين استجابوا لنداء الله تعالى {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١٣)} [الصف: ١٠ - ١٣]، ويسقط الذين استجابوا لمكر الأعداء {وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [البقرة: ٢١٧].

هذه "الخامة" ستميل دوماً لكنها لن تموت، وستعود دوماً بعد كل ميلٍ قوة وارتفاعاً، فالفوز والعاقبة لأهل هذه "الخامة" مهما تألموا خلال انحنائهم.

فيا أهل التوحيد من مجاهدين وعلماء ودعاة وعبّاد أنتم ثمار هذه الخامة اللينة القوية العطرة، عصارتها فيكم، وروحها تمتد إلى قلوبكم، تمدكم حين تحمونها، وتعطيكم حين تسقونها بدمائكم، وكونوا على يقين أن أعداء الله سيسخرون، وأن الساقطين من فروع هذه الخامة ما سقطوا زهداً بها وترفعاً عنها لكنهم سقطوا لأن أرواحهم ماتت وانقطع الدم الواصل بينهم وبين نبتة الحق، أما إن سألتهم عن روح هذه النبتة فإليكم الجواب فالحديث التالي

ما يؤخذ من الأحاديث:

قالَ المُهَلَّب : مَعنَى الحَديث أَنَّ المُؤمن حَيثُ جاءَهُ أَمر الله انطاعَ لَهُ ، فَإِن وقَعَ لَهُ خَير فَرِحَ بِهِ وشَكَرَ ، وإِن وقَعَ لَهُ مَكرُوه صَبر ورَجا فِيهِ الخَير والأَجر ، فَإِذا اندَفَعَ عَنهُ اعتَدل شاكِرًا .

والكافِر لا يَتَفَقَّد الله باختيارِه ، بَل يَحصُل لَهُ التَّيسير فِي الدُّنيا لِيَتَعَسَّر عَلَيه الحال فِي المَعاد ، حَتَّى إِذا أَرادَ الله إِهلاكه قَصَمَهُ فَيَكُون مَوته أَشَدّ عَذابًا عَلَيه وأَكثَر أَلَمًا فِي خُرُوج نَفسه.

وقالَ غَيره : المَعنَى أَنَّ المُؤمن يَتَلَقَّى الأَعراض الواقِعَة عَلَيه لِضَعف حَظّه مِنَ الدُّنيا ، فَهُو كَأَوائِل الزَّرع شَدِيد المَيَلان لِضَعف ساقه ، والكافِر بِخِلاف ذَلِكَ ، وهَذا فِي الغالِب مِن حال الاثنَين.[٣١٤]

الحديث الثامن والثلاثون: مثل الذي يذكر ربّه والذي لا يذكره مثل الحي والميّت

---

[٣١٤] - فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (١٠/ ١٠٧)

عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لاَ يَذْكُرُ رَبَّهُ، مَثَلُ الحَيِّ وَالمَيِّتِ»[٣١٥].

لأنها رحلة الأرواح، فهي رحلة الأحاسيس والمشاعر، رحلة الدمعة الخائفة تتبعها الدمعة الراجية، فيها تبصر النفس تاريخها السائر من عالم الذر حين خاطبها الملك العظيم: (ألست بربّكم) فقالت: بلى، فحملت الأمانة ثقيلة عظيمة، وتدفقت مواكب النور يقودها الأنبياء ويحطوها الحواريون، وللركب هزيج هو غناء الوجود الواكب للقافلة، سموات وأرضين وجبال وشجر ودواب ونجوم وأفلاك وبحار كلها تردد تسبيح الملك العظيم فوق العرش وتحمده:

اللهم لك الحمد أنت قيّوم السّموات والأرض ومن فيهنّ.

ولك الحمد أنت نور السّموات والأرض ومن فيهنّ.

ولك الحمد أنت ملك السموات والأرض ومن فيهنّ.

ولك الحمد أنت ربّ السّموات والأرض ومن فيهنّ.

هذه رحلة القوافل الهزجة التي يباهي بها الملك ملائكته، هؤلاء أوليائي وأحبابي وعبيدي، إنها قوافل الأرواح الطاهرة الطيبة، تستعين على ثقل الأمانة بالكنوز الآتية من تحت العرش «لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّه»[٣١٦] وتقوى أرواحهم بالباقيات الصالحات قوتاً وغذاءً: (سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ للَّه، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ)[٣١٧]، فتنشأ علاقة الحب حيث يلهج الحبيب بذكر حبيبه "كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللَّهِ العَظِيمِ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ"[٣١٨] فتنشط الأرواح المتعبة وتقتحم العقبة وراء العقبة لتبلغ المراد.

في الأرض جيف، خشب مسندة، فيها جمال الصور، ولها صراخ وهملجة، تملأ جنبات محيطهم الحقير، لهم نتن الرحم العفنة، مقيمون على أدنى من جناح بعوضة، من أجلها يموتون، ويتنافسون على غبارها، ويتباهون كالكلاب على العظام ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً {وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ

---

[٣١٥] – الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ٦٥٠)٦٤٠٧ – ١٨٠٤ –[ش أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها باب استحباب صلاة النافلة في بيته .. رقم ٧٧٩ (مثل الحي والميت) من حيث النفع والنصرة والاعتداد به]

[٣١٦] – صحيح البخاري (٨/ ٨٧)(٦٤٠٩) وتهذيب صحيح مسلم- علي بن نايف الشحود (ص: ٩٥٣)(٢٧٠٤)

[٣١٧] – عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : «خُذُوا جُنَّتَكُمْ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَمِنْ عَدُوٍّ قَدْ حَضَرَ؟ قَالَ: " لَا، وَلَكِنْ جُنَّتُكُمْ مِنَ النَّارِ قَوْلُ: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، فَإِنَّهُنَّ يَأْتِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُجَنِّبَاتٍ وَمُعَقِّبَاتٍ، وَهُنَّ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ " السنن الكبرى للنسائي (٩/ ٣١٣)(١٠٦١٧) صحيح

[٣١٨] – الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ٦٥٠)٦٤٠٦ – ١٨٠٣ –[ش أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء رقم ٢٦٩٤ (خفيفتان) سهلتان. (ثقيلتان) في وزن ثوابهما. (حبيبتان) محبوبتان أي إن الله تعالى يقبلهما ويوصل الخير لقائلهما ويكرمه]

أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ (٤٢) وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ (٤٣) } [يونس].

وتتكرر العبرة {فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ} [القصص: ٧٩] فيفعل سحر البريق الكاذب أثره على الجهلة فيصرخون: {قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ} [القصص: ٧٩] فيعظ العالمون بالحقائق: {وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ} [القصص: ٨٠].

تلك محنة البصيرة الحية بذكر الله أمام الجموع التائهة ببهرج العاجلة.

ويمضي ركب الحياة والأرواح مبكرة على كل صعد، مسبحاً في كل واد، تشهد له ذرات الأرض والهواء والشجر والدواب، وتصلي عليه وتستغفر له ملائكة الأرض والسماء.

هذه هي الحياة، حياة في الأنفاس والأرواح، والباقي " ملعون مطرود " فالدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالماً ومتعلماً.

{الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا } [الكهف: ٤٦].

وعَنْ عَائِشَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: "رَكْعَتَا الْفَجْرِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا"[٣١٩].

وعَنْ ثَوْبَانَ، مَوْلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ عَبْدٍ يُؤْمِنُ، يَسْجُدُ لِلَّهِ سَجْدَةً إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَةً، وَحَطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةً»[٣٢٠].

هذه هي الحقائق والكنوز، يطويها العاقلون في سر، فتحيي أرواحهم، لأن الأشياء ليس بوجودها فقط لكن بقيامها على مقصد وجودها، وأعظم المقاصد هو عبادة هو عبادة الله الجليل، حينها تكون فيها الأرواح، فذكر الله تعالى هو روح هذا الوجود، وحين تنتهي من ألسنة الخلق كلمة التوحيد تقوم الساعة وينتهي الوجود، عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ :"لَا تَقُومُ السَّاعَةُ عَلَى أَحَدٍ يَقُولُ: اللهُ، اللهُ "[٣٢١]. حينها لا تبقى إلا الجيف النتنة، وقود جهنم.

في ركب الدعاة والمجاهدين والعلماء والعبّاد وتركوا الحياة {إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ} [الأعراف: ٢٠١].

معهم تطمئن القلوب: {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ } [الرعد: ٢٨].

---

[٣١٩] – المسند الموضوعي الجامع للكتب العشرة (٥/ ١٣١)، (م) ٩٦ – (٧٢٥)

[٣٢٠] – تعظيم قدر الصلاة لمحمد بن نصر المروزي (١/ ٣٢٠)(٣٠٠) وتهذيب صحيح مسلم- علي بن نايف الشحود (ص: ١٧٢)(٤٨٨)

[٣٢١] – تهذيب صحيح مسلم- علي بن نايف الشحود (ص: ٧١)(١٤٨)

معهم كل الصفقات رابحة، إن مسهم خير شكروا وإن مسهم ضر صبروا، فكل أمرهم لهم خير معهم إن قتلت فرحمة وإن مت فرحمة: {وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ} [آل عمران: ١٥٧][٣٢٢].

معهم صحبة الملائكة، عَنِ الْأَغَرِّ أَبِي مُسْلِمٍ، أَنَّهُ قَالَ: أَشْهَدُ عَلَى أَبِي هُرَيْرَةَ وَأَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّهُمَا شَهِدَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا حَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمِ السَّكِينَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ»[٣٢٣]

هذا هو ركب الأحياء فلا تعد عيناك عنهم، فبعد أن قصّ الله على حبيبه ذكر الفتية الغرباء الذين هاجروا فراراً بدينهم، والعالم بأمواجه مشغول عنهم، مشغول بصفقاته وهرج أهله وتقلب الأموال والقوافل فيه، كل هذا التاريخ العريض مضى، مضى و لم يذكر بشيء، لكنه وقف متأملاً عند هؤلاء " الفتية "، خلّد الله ذكرهم في كتابه العظيم، وقص الحكاية على العالم لأن هؤلاء هم علامات التاريخ فقط، ليس الملوك ولا الأثرياء ولا القواد، بل هؤلاء "الفتية" الضعفاء، يأوون إلى غار { سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ} [الكهف: ٢٢]، بلا طبل ولا مزمار، ولا مواكب، ويسدل الزمن عليهم رداءه بلا ذكر كاذب مبهرج، بعد ذكر هؤلاء "الأعيان" يقول الله لحبيبه المصطفى ﷺ: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا} [الكهف: ٢٨]، فمع مثل هؤلاء كن.

هذا هو تاريخ "الفتيان"، تاريخ خاص لا تسجل فيه أعداد القصور، ولا أطنان الأموال، ولا عدد الجنود، لا تسجل فيه زينة الدنيا، فإن أردت هذه فاصرف وجهك عن هؤلاء، وكن هناك حيث الغافلين عن ذكر الله، هناك ستجد كل ما تريد من زينة الحياة الدنيا، ستجد وزارة عند فرعون، وستجد مالاً عند قارون، وستجد كل ما تشتهي نفسك، وستلغ في ذلك كالكلب، لكن مالك لا شيء في الدنيا والعذاب في الآخرة.

مع "الفتيان"، مع الذاكرين لله تعالى يكتب تاريخ آخر، تاريخ بدري وأحدي وخندقي، تاريخ يؤقت على إيقاع الدماء والشهداء، وتصبغ أيامه بفتية يهاجرون، وفتية يُؤسرون، وفتية يَقتلون ويُقتلون، ويوم نُسَرّ ويوم نُساء، وحبيب يخطف على بئر معونة[٣٢٤]، ويوماً نجوع فنسأل الله ويوم نشبع فنحمد الله.

---

[٣٢٢] – فَالَّذِينَ يُقْتَلُونَ وَهُمْ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ إِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللهِ، وَنَصْرِ دِينِهِ، أَوْ يَمُوتُونَ فِي أَثْنَاءِ الجِهَادِ، سَيَجِدُونَ عِنْدَ رَبِهِمْ مَغْفِرَةً تَمْحُو مَا كَانَ مِنْ ذُنُوبِهِمْ، وَرَحْمَةً وَرِضْوَاناً خَيْراً مِنْ جَمِيعِ مَا يَتَمَتَّعُ بِهِ الكُفَّارُ مِنَ المَالِ وَالمَتَاعِ فِي هَذِهِ الدُّنيا الفَانِيةِ، فَهَذَا ظِلٌّ زَائِلٌ، وَذَاكَ نَعِيمٌ خَالِدٌ.أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٤٥٠، بترقيم الشاملة آليا)

[٣٢٣] – تهذيب صحيح مسلم– علي بن نايف الشحود (ص: ٩٥٢)(٢٧٠٠)

[٣٢٤] – صحيح البخاري (٤/ ٧٣)(٣٠٦٤)

هذا هو تاريخ الأحياء، وهكذا تدخل مع "الصالحين"، وأما هناك فهو تاريخ "الأموات" إن كان للأموات والجيف تاريخ.

ما يرشد إليه الحديث:

فِي الْحَدِيثِ إِيمَاءٌ إِلَى أَنَّ مُدَاوَمَةَ ذِكْرِ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ تُورِثُ الْحَيَاةَ الْحَقِيقِيَّةَ الَّتِي لَا فَنَاءَ لَهَا كَمَا قِيلَ: أَوْلِيَاءُ اللَّهِ لَا يَمُوتُونَ وَلَكِنْ يَنْتَقِلُونَ مِنْ دَارٍ إِلَى دَارٍ.[٣٢٥]

أهم فوائد الذكر:

١ – أنَّه يطرد الشيطان، ويقمعه، ويكسره.

٢ – أنَّه يرضي الرحمن، عزَّ وجل.

٣ – أنَّه يزيل الهم والغم عن القلب.

٤ – أنَّه يجلب للقلب الفرح، والسرور، والنشاط، والحبور.

٥ – أنَّه يقوِّي القلب والبدن.

٦ – أنَّه ينوِّر القلب والوجه.

٧ – أنَّه يجلب الرزق.

٨ – أنَّه يكسو الذاكر الجلالة، والمهابة، والنضرة.

٩ – أنَّه يورث المحبة التي هي روح الإسلام، وقطب رحى الدين، ومدار السعادة والنجاة؛ فقد جعل الله لكل شيءٍ سببًا، وجعل سبب المحبة دوام الذكر؛ فمن أراد أن ينال محبة الله، فليلهج بذكره.

١٠ – أنَّه يورث الإنابة، وهي الرجوع إلى الله، فمن أكثر الرجوع إلى الله بذكره، أورثه ذلك رجوعه بقلبه في كل أحواله، فيبقى الله عزَّ وجل مفْزَعه، وملجأه، وملاذه، ومهربه عند النوازل والبلايا.

١١ – أنَّه يورث القُرْبَ من الله تعالى، فعلى قدر ذكره لله يكون قربه منه، وعلى قدر غفلته يكون بُعْده عنه.

١٢ – أنَّه يفتح له بابًا من أبواب المعرفة، وكلما أكثر من الذكر، ازداد من المعرفة.

١٣ – أنَّه يورث ذكر الله لعبده؛ كما قال تعالى: {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ} [البقرة: ١٥٢].

ولو لم يكن في الذكر إلاَّ هذه وحدها، لكفى به شرفًا وفضلاً.

١٤ – أنَّه يحطُّ الخطايا ويذهبها؛ فإنَّه من أعظم الحسنات، والحسنات يُذهبن السيئات.

١٥ – أنَّه يزيل الوحشة التي بين العبد وربه، وهي لا تزول إلاَّ بالذكر.

---

[٣٢٥] – مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٤/ ١٥٤١)

١٦ – أنَّه منجاة من عذاب الله، وأنه سبب نزول السكينة وغشيان الرحمة، وحفوف الملائكة بالذكر.

١٧ – أنَّه سبب اشتغال اللسان عن الغِيبة، والنميمة، والكذب، والفحش، والباطل، وسائر معاصي اللسان؛ فمن عوَّد لسانه ذكر الله، صان لسانه عن الباطل واللغو، ومَن يبس لسانه عن ذكر الله، ترطَّب بكل لغو وباطل وفحش، ولا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله.

١٨ – أنَّه أيسر العبادات، وهو مِن أجَلِّها، وأفضلها، وأكرمها على الله؛ فإنَّ حركة اللسان أخف حركات الجوارح، ولو تحرَّك عضو من أعضاء الإنسان في اليوم والليلة بقدر حركة اللسان، لَشَقَّ عليه غاية المشقة، بل لا يمكنه ذلك.

١٩ – أنَّه غِرَاس الجنة؛ ففي حديث ابن مسعود يرفعه: "إنَّ الجنَّةَ طيبة التربة عذبة الماء، وإنَّها قيعان، وإنَّ غِراسها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إلهَ إلاَّ الله، والله أكبر" [رواه الترمذي وقال: حديث حسن غريب].

٢٠ – أنَّ العطاء والفضل الذي رُتِّب عليه لم يرتب على غيره من الأعمال؛ كما دلت على ذلك أحاديث فضل التسبيح، والتحميد، والتهليل، وغيرها.

٢١ – أنَّ دوام ذكر الرب يوجب الأمان من نسيانه الذي هو شقاء العبد في معاشه ومعاده؛ قال تعالى: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩)} [الحشر]، فلو لم يكن في فوائد الذكر وإدامته إلاَّ هذه الفائدة، لكفى بها.

قال في الكلم الطيب: سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– يقول: إنَّ في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة، يعني: ذكر الله وامتلاء القلب بمحبته، والفرح والسرور به.

ففيه: ثواب عاجل، وجنة حاضرة، وعيشة مرضية، لا نسبة لعيش الملوك إليها ألبتة، وفي النسيان والإعراض عنه: هموم، وغموم، وأحزان، وضيق، وعقوبات عاجلة، ونار دنيوية، وجهنَّم حاضرة، أعاذنا الله منها.

٢٢ – أنَّ الإتيان بالذكر عمل يسير يأتي به العبد، وهو قاعد على فراشه، وفي سوقه، وفي حال صحته وسقمه، وفي حال نعيمه، ولذته، ومعاشه، وقيامه، وقعوده، واضطجاعه، وسفره، وإقامته، فليس في الأعمال شيء يعم الأوقات والأحوال مثله؛ حتى إنَّه يسيرٌ على العبد، وهو نائم على فراشه، فيسبق القائمَ مع الغفلة؛ وذلك فضل من الله يؤتيه من يشاء.

٢٣ – أنَّ مجالس الذكر مجالس الملائكة، فليس لهم في مجالس الدنيا مجلس إلاَّ هذا المجلس، وفيه حديث أبي هريرة في البخاري ومسلم وفيه: "هم القوم لا يشقى بهم جليسهم".

ومجالس الغفلة مجالس الشياطين، وكلٌّ يضاف إلى شكله وأشباهه.

٢٤ – أنَّ الله عزَّ وجل يباهي ملائكته بالذاكرين؛ كما في حديث أبي سعيد الخدري عند مسلم، وهذه المباهاة؛ دليلٌ على شرف الذكر عنده، ومحبته له، وأنَّ له مزية على غيره من الأعمال.

٢٥ – أنَّ جميع الأعمال إنَّما شرعت لإقامة ذكر الله؛ فالمقصود بها تحصيل ذكر الله؛ قال تعالى: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (١٤)} [طه:]، والأظهر: أنَّها لام التعليل، أي: لأجل ذكري.

٢٦ – أنَّ إدامة الذكر تنوب عن التطوُّعات، وتقوم مقامها، سواء أكانت بدنية، أو مالية، أو بدنية مالية؛ كحج التطوع، وقد جاء ذلك صريحًا في حديث أبي هريرة وفيه: "ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى" [رواه البخاري ومسلم]؛ فجعل الذكر فيه عوضًا لهم عما فاتهم من الحج، والعمرة، والجهاد، والصدقة، أنهم يسبقون بهذا الذكر.

٢٧ – أنَّ الذكر يسهِّل الصعب، وييسِّر العسير، ويخفِّف المشاق، فقلَّما ذكر الله على صعب إلاَّ هان، ولا عسير إلاَّ تيسر، ولا مشقة إلاَّ خفت، ولا شر إلاَّ زال، ولا كربة إلاَّ انفرجت، فذكر الله هو الفرج بعد الشدة، واليُسر بعد العسر، والفرج بعد الهم أو الغم.

٢٨ – أنَّ الذكر يُذهب عن القلب مخاوفه، وله تأثير عجيب في حصول الأمن، فليس للخائف الذي اشتد خوفه أنفع من ذكر الله، حتى كأنَّ المخلوق يجدها أمانًا له، والغافل خائف مع أمنه، حتى كأنَّ ما هو فيه من الأمن كله مخاوف، ومن لَهُ أدنى حسٍّ شعر بهذا؛ فقد جُرِّب هذا.

٢٩ – أنَّ الذكر يعطي الذاكر قوَّة؛ حتى إنَّه ليفعل مع الذكر ما لا يطيق فعله بدونه.

قال ابن القيم: وقد شاهدت من قوَّة شيخ الإسلام ابن تيمية –قدَّس الله روحه– أمرًا عجيبًا؛ فكان يكتب في اليوم من التصنيف ما يكتبه الناسخ في جمعة وأكثر، وقد شاهد العسكر من قوَّته في الحرب أمراً عظيمًا، وقد علَّم النَّبيَّ –ﷺ– ابنَتَه فاطمةَ وعليًّا التسبيح، والتكبير، والتحميد، كل واحد منها ثلاثًا وثلاثين، لَّما شكَت إليه ما تلقى من الطحن، والسقي، والخدمة، وقال: "إنَّه خير لكما من خادم".

٣٠ – أنَّ في دوام الذكر في الطريق، والبيت، والحضر، والسفر، والبقاع، تكثيرَ الشهود للعبد يوم القيامة؛ قال تعالى: {يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤)} [الزلزلة]، وفي حديث أبي هريرة يرفعه: "أخبارها: أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها تقول: عمل كذا وكذا يوم كذا وكذا" [أخرجه الترمذي وقال: الحديث حسن صحيح].[٣٢٦]

الحديث التاسع والثلاثون: كيفية صلاة الرسول ﷺ بالليل

[٣٢٦] – توضيح الأحكام من بلوغ المرام (٧/ ٥٢٨) والأنس بذكر الله (ص: ٤٣) وشرح حصن المسلم من أذكار الكتاب والسنة (ص: ١٠) وفقه الأدعية والأذكار (١/ ١٧)

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: بِتُّ عِنْدَ مَيْمُونَةَ، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ فَأَتَى حَاجَتَهُ، فَغَسَلَ وَجْهَهُ وَيَدَيْهِ، ثُمَّ نَامَ، ثُمَّ قَامَ، فَأَتَى القِرْبَةَ فَأَطْلَقَ شِنَاقَهَا، ثُمَّ تَوَضَّأَ وُضُوءًا بَيْنَ وُضُوءَيْنِ لَمْ يُكْثِرْ وَقَدْ أَبْلَغَ، فَصَلَّى، فَقُمْتُ فَتَمَطَّيْتُ، كَرَاهِيَةَ أَنْ يَرَى أَنِّي كُنْتُ أَتَّقِيهِ، فَتَوَضَّأْتُ، فَقَامَ يُصَلِّي، فَقُمْتُ عَنْ يَسَارِهِ، فَأَخَذَ بِأُذُنِي فَأَدَارَنِي عَنْ يَمِينِهِ، فَتَتَامَّتْ صَلاَتُهُ ثَلاَثَ عَشْرَةَ رَكْعَةً، ثُمَّ اضْطَجَعَ فَنَامَ حَتَّى نَفَخَ، وَكَانَ إِذَا نَامَ نَفَخَ، فَآذَنَهُ بِلاَلٌ بِالصَّلاَةِ، فَصَلَّى وَلَمْ يَتَوَضَّأْ، وَكَانَ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا، وَفِي بَصَرِي نُورًا، وَفِي سَمْعِي نُورًا، وَعَنْ يَمِينِي نُورًا، وَعَنْ يَسَارِي نُورًا، وَفَوْقِي نُورًا، وَتَحْتِي نُورًا، وَأَمَامِي نُورًا، وَخَلْفِي نُورًا، وَاجْعَلْ لِي نُورًا» قَالَ كُرَيْبٌ: وَسَبْعٌ فِي التَّابُوتِ، فَلَقِيتُ رَجُلًا مِنْ وَلَدِ العَبَّاسِ، فَحَدَّثَنِي بِهِنَّ، فَذَكَرَ عَصَبِي وَلَحْمِي وَدَمِي وَشَعَرِي وَبَشَرِي، وَذَكَرَ خَصْلَتَيْنِ "[٣٢٧].

هكذا الكمال: ذكر وفكر، {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (١٩٢) رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤)} [آل عمران: ١٩٠ - ١٩٤]، ذكر لله ربّ الوجود، وذكر للغيب {وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ (٤٥) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦) وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ (٤٧)} [ص: ٤٥ - ٤٧] وذكر لكتاب ربنا، وهكذا تحصل الروح، ولابد من فكر، وهو جهد العقل في التأمل والنظر، من أجل إدراك السنن للسير فيها وتسخير الخلق الذي خلق لنا {وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [الجاثية: ١٣]، فامتطاء الشيء لا يكون إلا بإتقان وذلك من خلال معرفة سنة الله فيه، وكلما ازدادت معرفة الإنسان بالسنة كلما أفاد منها وسخرها فكانت له، والذين يعرضون عن السنن هم في وديان الباطل، وهم بحق يقولون بفعالهم: "هذا باطل"، والباطل ما لا نفع فيه، وهو اتهام الجهلة لحكمة الرب وقدوسيته، فإن الله لم يخلق شيئاً في السموات والأرض إلا من أجل أن ينتفع به الإنسان، ودخول أي شيء لابد له من مفتاح،

---

[٣٢٧] - الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ٦٤٤)٦٣١٦ - ١٧٨٢ -[ش أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه رقم ٧٦٣ (فأطلق شناقها) حل الرباط الذي يشد به رأسها. (بين وضوءين) أي وضوءا بين الخفيف والكامل. (لم يكثر) اكتفى بالغسل والمسح ونحوهما مرة واحدة (أبلغ) أوصل الماء إلى المواضع التي يجب إيصاله إليها. (فتمطيت) تمطى امتد وطال ومد يديه أي فعل ما يفعل المستيقظ لأول وهلة من مد لأعضائه ونحو ذلك. (أتقيه) أرقبه وأنظره. (فآذنه) أعلمه بالصلاة. (وسبع في التابوت) أي وذكر سبع كلمات أخرى نسيتها موجودة في بدن الإنسان الذي كالتابوت للروح والذي مآله أن يكون في التابوت الذي يحمل عليه الميت (فلقيت) القائل هو سلمة بن كهيل. (رجلا) هو علي بن عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما. (بهن) أي بالكلمات السبع. (خصلتين) تكملة السبعة قيل هما الشحم والعظم وقيل هما اللسان والنفس]

والمفتاح هو العلم بقدر هذا الشيء حتى يتم القياد، والآيات الكونية هي علامات، فالآية معناها العلاقة، أي فيها معنى، وأول هذه المعاني هي الدلالة على خالقها وعظمته وحكمته، وهذا لا يقع على حقيقته إلا بإدراك صحيح لهذه الآيات، وأجهل الناس بربهم هم الذين يفهمون الكون على غير حقيقته، فهم أهل البدع حقاً، ومالهم حال من فهم الشرع على غيرهم؛ لأنهم عطلوا حكمة الرب في الوجود فلن يستفيدوا منه بشيء وهو الذي خلقه الله وسخره من أجلهم.

ماذا ينتفع المرء من "النفط" مثلاً وهو يظنه مارداً من الجن إن رآه استعاذ بالله من الشيطان وهرب منه؟!، وهل استعاذته بالله هي ذكر حقاً؟!

ماذا ينتفع المرء من "غزو الأعداء" وهو يظن أن علاجهم يكون بقيام الليل دون مواجهتهم ومقاتلتهم؟!

إن الذكر لا يؤتي ثماره من اطمئنان النفس وتحقيق الوعد إلا إن وضع مع الفكر السليم الذي ينتج الفهم السنني الحق، فكم من ذاكرين لله بأفكار الخرافة والإعراض عن السنن فلم يتحصلوا الوعود الإلهية من النصر والتمكين والعزة. {الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} [آل عمران: ١٩١]، فكما أن الذكر الذي يحقق الخوف والرجاء دين فكذلك الفكر الذي يحقق عظمة الله في القلوب وذلك بإدراك إتقان الخلق وإبداع الوجود وحكمة التكوين، فولاية الله قيام بالشرع ودوام ذكر على كل حال، وتفكر في الخلق، وهذا هو الفقه، بصيرة حاضرة في عالم الشهادة وعالم الغيب، تراقب حركة الغيب وترعى حركة الشهادة، فالغافلون عن ذكر الله ليسوا بأولياء، والغافلون عن حركة الشهادة ليسوا بأولياء، وما أعظم هذه الآيات حين سمّت اجتماع هذين الأمرين في الرجل أنهم: (أولي الألباب)، فإغلاق العين عن النظر وإغلاق العقل عن الفكر وإغلاق الفم عن الذكر فساد للخلق وذهاب لعقولهم، وهذا دين لا خيرية فيه لغافل ولا لجاهل ولا لغبي ولا لهارب عن المواجهة ولا يحمي عن حركة الوجود، ومن عجائب المنتسبين له أنهم جاؤوا إلى كل هذه القوى العظيمة وهذه الإرشادات الهادية فقلبوها إلى ضدها إذ صار الولي هو المعتزل عن حركة الوجود، وصار المتدين هو الذي ينتكس إلى داخله، ومع فكرة يسيرة في صورة النبوة في القرآن نراها صورة الحضور والصراع والمواجهة، لا يوجد فيها هروب وانتكاسة إلى الداخل بل حضور يحقق الصدمات مع الخصومة حتى تجري السنن إلى آخرها.

إن عظمة الله في القلوب إنما تتحقق بمعرفة قدرته ولا تعرف القدرة إلا بمعرفة الخلق، وهذا لا يعرف إلا بالفكر والنظر والبحث والسير والتتبع والدراسة، وهذا باب يجب أن تتعلم هذه الأمة أنه شق لا

تكتمل الولاية إلا به، ولا يصح أن ينسب أحد إلى (**أولي الألباب**)[٣٢٨] الذين مُدحوا في القرآن إلا بتحققه فيهم.

إن أكثر الناس حاجة لمعرفة سنن الخلق وإعمال الفكر وإدامة الذكر إنما هم الذين يصارعون الشيطان وجنده، فهؤلاء الكفرة عندهم بعض عوامل الغلبة كالكثرة في كل معركة وعندهم المال والسلطان، وبالتالي لا يمكن تحقق النصر عليهم إلا بأخذ أهل الحق العوامل التي أضلهم عنها، وهذا لا يكون إلا بتعامل المجاهدين مع السنن ورعايتهم لها، وقد جعل الله سبب هزيمة الكفار مع كثرتهم أنهم لا يفقهون، فقال سبحانه: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (٦٥)} [الأنفال: ٦٥]، فالصراع إذاً بين من يفقه الحق من الشرع والسنن وبين الضال عن الشرع والسنن، بين أولي الألباب وبين الضالين، والضالون عن إعمال العقل والتفكر مآلهم الخسارة أينما كانوا وتحت أي شعار تجمعوا، إن قواعد الصراع هي سنن الحق في الخلق، وإن عوامل البقاء إن أخطأها أهل الشرع لم ينفعهم أيّ ادعاء وسيقع عليهم البلاء بلا محاباة.

إن أردتم النجاح فأديموا النظر والتفكر، واجعلوا نظركم وفكركم في السموات والأرض وفي الخلق المادي وفي الليل والنهار في الخلق المعنوي إذ الليل والنهار أواني الحوادث والوقائع -، ففكرة للتسخير وفكرة للاعتبار، وذكر تكونوا أولياء لله حقاً.

درتان:

زار مسافر محدّثٌ الإمام أحمد وبات عنده، فأعد له الإمام أحمد وضوءه فلما جاءه صباحاً وجد وضوءه لم يمس، واستيقظ الرجل صباحاً، فعجب منه الإمام وقال له: محدّث لا يقوم الليل!! فجعل الرجل يعتذر أنه مسافر، والإمام يكرر: محدّث لا يقوم الليل!! محدّث لا يقوم الليل!!

كان مما قاله الشيخ أبو الحسن الندوي رحمه الله: أن السمة التي لا تخطئ المجدّدين في تاريخنا هي قيام الليل، إذ لم يوجد مصلح في هذه الأمة لا يعرف عنه هذه السمة: قيام الليل.

ما يرشد إليه الحديث:

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: هَذِهِ الْأَنْوَارُ يُمْكِنُ حَمْلُهَا عَلَى ظَاهِرِهَا، فَيَكُونُ سَأَلَ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ لَهُ فِي كُلِّ عُضْوٍ مِنْ أَعْضَائِهِ نُورًا يَسْتَضِيءُ بِهِ مِنْ ظُلُمَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ هُوَ وَمَنْ يَتْبَعُهُ أَوْ مَنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْهُمْ، قَالَ: وَالْأَوْلَى أَنْ يُقَالَ هِيَ مُسْتَعَارَةٌ لِلْعِلْمِ وَالْهِدَايَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ} [الزمر: ٢٢] ، {وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ} [الأنعام: ١٢٢] ، قُلْتُ: وَيُمْكِنُ الْجَمْعُ فَتَأَمَّلْ، فَإِنَّهُ لَا مَنْعَ، ثُمَّ قَالَ: وَالتَّحْقِيقُ فِي مَعْنَاهُ أَنَّ النُّورَ يُظْهِرُ مَا يُنْسَبُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَخْتَلِفُ بِحَسَبِهِ، فَنُورُ السَّمْعِ مُظْهِرٌ

[٣٢٨] - { يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ } [البقرة: ٢٦٩]

لِلْمَسْمُوعَاتِ، وَنُورُ الْبَصَرِ كَاشِفٌ لِلْمُبْصَرَاتِ، وَنُورُ الْقَلْبِ كَاشِفٌ عَنِ الْمَعْلُومَاتِ، وَنُورُ الْجَوَارِحِ مَا يَبْدُو عَلَيْهَا مِنْ أَعْمَالِ الطَّاعَاتِ.

وَقَالَ الطِّيبِيُّ: مَعْنَى طَلَبِ النُّورِ لِلْأَعْضَاءِ عُضْوًا عُضْوًا أَنْ يَتَحَلَّى كُلُّ عُضْوٍ بِأَنْوَارِ الْمَعْرِفَةِ وَالطَّاعَةِ، وَيَتَعَرَّى عَنْ ظُلْمَةِ الْجَهَالَةِ وَالضَّلَالَةِ، فَإِنَّ ظُلُمَاتِ الْجُمْلَةِ مُحِيطَةٌ بِالْإِنْسَانِ مِنْ قَرْنِهِ إِلَى قَدَمِهِ، وَالشَّيْطَانُ يَأْتِيهِ مِنَ الْجِهَاتِ السِّتِّ بِالْوَسَاوِسِ وَالشُّبُهَاتِ، أَيِ: الْمُشَبَّهَاتُ بِالظُّلُمَاتِ فَرَفْعُ كُلِّ ظُلْمَةٍ بِنُورٍ، قَالَ: وَلَا مُخَلِّصَ عَنْ ذَلِكَ إِلَّا بِأَنْوَارٍ تَسْتَأْصِلُ شَأْفَةَ تِلْكَ الظُّلُمَاتِ، وَفِيهِ إِرْشَادٌ لِلْأُمَّةِ، وَإِنَّمَا خَصَّ الْقَلْبَ وَالسَّمْعَ وَالْبَصَرَ بِـ (فِي) الظَّرْفِيَّةِ ؛ لِأَنَّ الْقَلْبَ مَقَرُّ الْفِكْرِ فِي آلَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْبَصَرَ مَسَارِحُ النَّظَرِ فِي آيَاتِ اللَّهِ الْمَنْصُوبَةِ الْمَبْثُوثَةِ فِي الْآفَاقِ وَالْأَنْفُسِ، وَالسَّمْعَ مَحَطُّ آيَاتِ اللَّهِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى أَنْبِيَاءِ اللَّهِ، وَالْيَمِينَ وَالشِّمَالَ خُصَّا بِـ (عَنْ) لِلْإِيذَانِ بِتَجَاوُزِ الْأَنْوَارِ عَنْ قَلْبِهِ وَبَصَرِهِ وَسَمْعِهِ إِلَى مَنْ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ مِنْ أَتْبَاعِهِ، وَعُزِلَتْ فَوْقَ وَتَحْتَ وَأَمَامَ وَخَلْفَ مِنَ الْجَارَّةِ لِتَشْمَلَ اسْتِنَارَتَهُ وَإِنَارَتَهُ مَعًا مِنَ اللَّهِ وَالْخَلْقِ، ثُمَّ أَجْمَلَ بِقَوْلِهِ: (" وَاجْعَلْ لِي نُورًا ") : فَذْلَكَةً لِذَلِكَ. اهـ.[٣٢٩]

* في هذا الحديث دليل على جواز أن يبيت الرجل عند خالته، وإن كانت ذات زوج.

* وفيه جواز أن يبيت المراهق إذا كان ذا قرابة من الرجل وذا قرابة من امرأته بالقرب منهما.

* وفيه جواز تعليق الشنة، وهي القربة لتبرد في الهواء، ولا أرى تعليقها إلا لذلك. قال أبو عبيد: وشناق القربة ما يعلق به على الوتد من خيط أو سير.

* وقوله: (وضوءًا خفيفًا)، الذي أراه أنه أراد خفيًا لم يعلم به من حوله.

* وفيه دليل على أن صلاة النبي صحيحة.

* وفيه دليل على أنه إذا قام الرجل إلى الصلاة يكون عن يمين الإمام.

* وقوله: (نام حتى نفخ)، وهذا من خصائصه – ﷺ –؛ لأنه كان ينام عيناه، ولا ينام قلبه، وذلك أحسن حالاً؛ لأن طبيعة الإنسان لتدل على نقص قلبه الذي يخرج مع النفس فلا تحتبس الحرنة في بدنه، وليكون أيضًا نفخه دافعًا للهوام في حالة نومه.

ومعنى استن: استاك، فأما قيام ابن عباس على يسار رسول الله – ﷺ – وكونه رده إلى يمينه فإن الله عز وجل أجرى ذلك ليعلم للناس موقف المأموم إذا كان وقف على يمينه في أول أمره فأقره على ذلك لم يعلم الناس أن الوقوف على الشمال لا يصلح، وهذا مما يستدل به على حكمة الله عز وجل في تقدير بعض الأشياء ليعلم بها غيرها.

* وفيه استحباب وضوء الإنسان لنفسه بغير استعانة لقوله: (فأطلق شنان القربة ثم توضأ).

---

[٣٢٩] – مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٣/ ٩٠٥)

* وفي هذا الحديث دليل على كراهية أن يراصد الرجل الرجل لقول ابن عباس: (كراهية أن يرى أني كنت أتقيه) أي أرصده وأراعيه.

* وفيه أيضًا أن تهجد الليل ثلاث عشرة ركعة، وهو أكثر ما نقل عن رسول الله - ﷺ -.

* وأما سؤال النور في هذا الحديث، فليس المراد به النور الشعشعاني، ولكنه النور المعنوي، وهو الذي يضيء لصاحبه في ظلام المشكلات فيشتبه به النور الشعشعاني الذي يضيء في ظلمات الأجسام فيبصر الإنسان حينئذ جواد الطرق، ويعرف أين المهاوي منها، وأين سبيل السلامة التي ليس فيها مهواة.

* وفيه دليل على الاستكثار من فضل الله عز وجل؛ فإن رسول الله - ﷺ - مع ما جبله الله عز وجل عليه من النور الذي فضل فيه الأولين والآخرين لم يقنعه ذلك حتى سأل ربه أن يجعل في قلبه نورًا، وفي بصره نورًا، وفي سمعه نورًا، وأمامه نورًا، وفي لسانه نورًا، ومن خلفه نورًا.

ثم قال بعد ذلك: (واجعل لي نورًا - أو: زدني نورًا) يعني - ﷺ - أنه لما طلب لكل حاسة من حواسه وجهة من جهاته نورًا يضيء به الناحية التي يواجهها، طلب زيادة نور بعد ذلك، وأن يكون له من النور ما يملكه الله عز وجل إياه فيثبت عنده بقوله: (واجعل لي نورًا) أي لا ينسلب مني ولا يترع عني، ثم قال بعد ذلك: (وزدني نورًا)، فكأنه قال: لا أشبع من النور الذي أدرك به معرفتك ومعاني كلامك وأسرار تسبيحك.[٣٣٠]

وفِي حَدِيث ابن عَبّاس مِنَ الفَوائِد جَواز إِعطاء بَنِي هاشِم مِنَ الصَّدَقَة ، وهُو مَحمُول عَلَى التَّطَوُّع ، ويُحتَمَل أَن يَكُون إِعطاؤُهُ العَبّاس لِيَتَولَّى صَرفه فِي مَصالِح غَيره مِمَّن يَحِلّ لَهُ أَخذ ذَلِكَ.

وفِيهِ جَواز تَقاضِي الوعد وإِن كانَ مَن وعَدَ بِهِ مَقطُوعًا بِوفائِه.

وفِيهِ المُلاطَفَة بِالصَّغِيرِ والقَرِيب والضَّيف ، وحُسن المُعاشَرَة لِلأَهلِ ، والرَّدّ عَلَى مَن يُؤثِر دَوام الانقباض.

وفِيهِ مَبِيت الصَّغِير عِند مَحرَمه وإِن كانَ زَوجها عِندها ، وجَواز الاضطِجاع مَعَ المَرأَة الحائِض ، وتَرك الاحتِشام فِي ذَلِكَ بِحَضرَة الصَّغِير وإِن كانَ مُمَيِّزًا بَل مُراهِقًا.

وفِيهِ صِحَّة صَلاة الصَّبِيّ وجَواز فَتل أُذُنه لِتَأنِيسه وإِيقاظه.

وقَد قِيلَ : إِنَّ المُتَعَلِّم إِذ تُعُوهِدَ بِفَتلِ أُذُنه كانَ أَذكَى لِفَهمِه وفِيهِ حَمل أَفعاله ﷺ عَلَى الاقتِداء بِهِ ومَشرُوعِيَّة التَّنَفُّل بَين المَغرِب والعِشاء ، وفَضل صَلاة اللَّيل ولا سِيَّما فِي النِّصف الثّانِي ، والبُداءَة بِالسِّواك واستِحبابه عِند كُلّ وُضُوء وعِند كُلّ صَلاة ، وتِلاوة آخِر آل عِمران عِند القِيام إِلَى صَلاة اللَّيل ، واستِحباب غَسل الوجه واليَدَينِ لِمَن أَرادَ النَّوم وهُو مُحدِث ، ولَعَلَّهُ المُراد بِالوُضُوءِ لِلجُنُب.

---

[٣٣٠] - الإفصاح عن معاني الصحاح (٣/ ٣٦)

وفيه جَواز الاغتراف مِنَ الماء القَليل لأَنَّ الإناء المَذكُور كانَ قَصعَة أَو صَحفَة ، واستحباب التَّقليل مِنَ الماء فِي التَّطهير مَعَ حُصُول الإسباغ ، وجَواز التَّصغير والذِّكر بالصِّفَة كَما تَقَدَّمَ فِي باب السَّمَر فِي العلم حَيثُ قالَ : "نامَ الغُلَيم" ، وبَيان فَضل ابن عَبّاس وقُوَّة فَهمه وحرصه عَلَى تَعَلُّم أَمر الدِّين وحُسن تَأَتِّيه فِي ذَلكَ.

وفيه اتِّخاذ مُؤَذِّن راتب للمَسجد ، وإعلام المُؤَذِّن الإمام بحُضُور وقت الصَّلاة ، واستدعاؤُهُ لَها ، والاستعانَة باليَد فِي الصَّلاة وتَكرار ذَلكَ كَما سَيَأتي البَحث فيه فِي أَواخر كتاب الصَّلاة.

وفيه مَشرُوعيَّة الجَماعَة فِي النّافلَة ، والائتمامُ بمَن لَم يَنوِ الإمامَة ، وبَيان مَوقف الإمام والمَأمُوم ، وقَد تَقَدَّمَ كُلّ ذَلكَ فِي أبواب الإمامَة والله المُستَعان.

واستُدلَّ به عَلَى أَنَّ الأَحاديث الواردَة فِي كَراهيَة القُرآن عَلَى غَير وُضُوء لَيسَت عَلَى العُمُوم فِي جَميع الأَحوال ، وأُجيبَ بأَنَّ نَومه كانَ لا يَنقُض وُضُوءَهُ فَلا يَتمّ الاستدلال به إلاَّ أَن يَثبُت أَنَّهُ قَرَأَ الآيات بَين قَضاء الحاجَة والوُضُوء والله أَعلَم .[٣٣١]

الحديث الأربعون:درجة المجاهد في الجنة

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: «مَنْ آمَنَ بِاللَّه وَبِرَسُولِه، وَأَقَامَ الصَّلاَةَ، وَصَامَ رَمَضَانَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّه أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ، جَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّه أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِه الَّتِي وُلِدَ فِيهَا»، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّه، أَفَلاَ نُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قَالَ: «إِنَّ فِي الجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّه، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ، فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ وَأَعْلَى الجَنَّةِ – أُرَاهُ – فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ»[٣٣٢] .

هذه ركائب الرجاء، وكذلك نجائب السبق، ميدان يسع كل الهمم والإرادات، فهذا دين رب العالمين جميعاً، يسع العالمين جميعاً بيسر الحمائل، فإن أثقلتك الذنوب فلا قنوط إذ قوارب النجاة مادة لك أذرعها تناديك ليل نهار، فالرحمن يمد يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويمد يده بالنهار ليتوب مسيء الليل ، فعَنْ أَبِي مُوسَى، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»[٣٣٣]

---

[٣٣١] – فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (٢/ ٤٨٤) وكوثر المعاني الدراري في كشف خبايا صحيح البخاري (١٠/ ٣٠٩)

[٣٣٢] – صحيح البخاري (٤/ ١٦)(٢٧٩٠)

[ش (الفردوس) هو البستان الذي يجمع ما في البساتين كلها من شجر وزهر ونبات. (أوسط الجنة) أفضلها وخيرها. (أراه) أظنه وهذا من كلام يحيى بن صالح شيخ البخاري أي أظنه قال (فوقه. .) (تفجر) تنشق]

[٣٣٣] – تهذيب صحيح مسلم- علي بن نايف الشحود (ص: ٩٦٨)(٢٧٥٩)

ولو أذنبت في اليوم مائة مرة أو أكثر، ولو أتيت ربك بملء الأرض خطايا ثم استغفرت وجدت الله غفوراً رحيماً، فعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:" قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ، وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً "[٣٣٤].

ولو قتلت مائة نفس معصومة ثم رحلت إلى الله سيفرح لك ويأتي إليك أشد مما تأتي إليه[٣٣٥]،

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : «بَيْنَمَا كَلْبٌ يُطِيفُ بِرَكِيَّةٍ قَدْ كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ، إِذْ رَأَتْهُ بَغِيٌّ مِنْ بَغَايَا بَنِي إِسْرَائِيلَ فَنَزَعَتْ مُوقَهَا، فَاسْتَقَتْ لَهُ بِهِ، فَسَقَتْهُ إِيَّاهُ، فَغُفِرَ لَهَا بِهِ»[٣٣٦]

وإن من الكفر اليأس من رحمة الله[٣٣٧]، ومما يحبط الذنوب أن تسبّ الله تعالى فتقطع طريق التائبين عنه، فعَنْ جُنْدَبٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ – ﷺ –، حَدَّثَ " أَنَّ رَجُلًا قَالَ: وَاللهِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلَانٍ، وَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ، فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِفُلَانٍ، وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ "[٣٣٨].

افتحوا الأبواب ولا تضيقوا واسعاً فربكم واسع عليم، وانثروا للخلق عناوين الرحمة فكتاب ربكم عنوانه: (بسم الله الرّحمن الرّحيم)، وإياكم والإلحاد في أسمائه، فإن رحمته سبقت غضبه.

إن جاءكم مثل "ضمام بن ثعلبة" فقال: والله لا أزيد ولا أنقص عن الصلاة المفروضة والزكاة المقدرة وصوم رمضان وحج البيت فقولوا: (أفلح ودخل الجنّة إن صدق). فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا

[ش (يبسط يده) قال المازري المراد به قبول التوبة وإنما ورد لفظ بسط اليد لأن العرب إذا رضي أحدهم الشيء بسط يده لقبوله وإذا كرهه قبضها عنه فخوطبوا بأمر حسي يفهمونه وهو مجاز]

[٣٣٤] – سنن الترمذي ت شاكر (٥/ ٥٤٨) (٣٥٤٠) صحيح

[٣٣٥] – عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، أَنَّ نَبِيَّ اللهِ – ﷺ – قَالَ:" كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ، فَأَتَاهُ فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: لَا، فَقَتَلَهُ، فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ؟ انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنَّ بِهَا أُنَاسًا يَعْبُدُونَ اللهَ فَاعْبُدِ اللهَ مَعَهُمْ، وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ، فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ، فَانْطَلَقَ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، فَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ: جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلًا بِقَلْبِهِ إِلَى اللهِ، وَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ: إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ، فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ، فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ، فَإِلَى أَيَّتِهِمَا كَانَ أَدْنَى فَهُوَ لَهُ، فَقَاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ، فَقَبَضَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ "،قَالَ قَتَادَةُ: فَقَالَ الْحَسَنُ ذُكِرَ لَنَا، أَنَّهُ لَمَّا أَتَاهُ الْمَوْتُ نَأَى بِصَدْرِهِ "صحيح مسلم (٤/ ٢١١٨) ٤٦ – (٢٧٦٦)

[ش (نصف) أي بلغ نصفها (نأى) أي نهض ويجوز تقديم الألف على الهمزة وعكسه]

[٣٣٦] – تهذيب صحيح مسلم– علي بن نايف الشحود (ص: ٨٠٨)(٢٢٤٥)

[ش (بغيا) البغي هي الزانية والبغاء بالمد هو الزنى (يطيف) أي يدور حولها يقال طاف به وأطاف إذا دار حوله (أدلع لسانه) أدلع ودلع لغتان أي أخرجه لشدة العطش (بموقها) الموق هو الخف فارسي معرب ومعنى نزعت له بموقها أي استقت يقال نزعت بالدلو إذا استقيت به من البئر ونحوها ونزعت الدلو أيضا (بركية) الركية البئر]

[٣٣٧] – راجع كتابي " احذروا اليأس فإنه قتال"

[٣٣٨] – صحيح مسلم (٤/ ٢٠٢٣) ١٣٧ – (٢٦٢١) [ش (يتألى) معنى يتألى يحلف والألية اليمين]

قَالَ: بَعَثَ بَنُو سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ ضِمَامَ بْنَ ثَعْلَبَةَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَدِمَ عَلَيْنَا فَأَنَاخَ بَعِيرَهُ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ فَعَقَلَهُ، ثُمَّ دَخَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ جَالِسٌ مَعَ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: أَيُّكُمُ ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَقَالَ: مُحَمَّدٌ؟ قَالَ: «نَعَمْ» قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي سَائِلُكَ وَمُغَلِّظٌ عَلَيْكَ فِي الْمَسْأَلَةِ، فَلَا تَجِدَنَّ عَلَيَّ فِي نَفْسِكَ، فَإِنِّي لَا أَجِدُ فِي نَفْسِي، قَالَ: «سَلْ عَمَّا بَدَا لَكَ» قَالَ: أَنْشُدُكَ اللَّهَ، إِلَهَكَ وَإِلَهَ مَنْ قَبْلَكَ، وَإِلَهَ مَنْ هُوَ كَائِنٌ بَعْدَكَ، آللَّهُ بَعَثَكَ إِلَيْنَا رَسُولًا؟ قَالَ: «اللَّهُمَّ نَعَمْ» ، قَالَ: أَنْشُدُكَ اللَّهَ إِلَهَكَ، وَإِلَهَ مَنْ قَبْلَكَ، وَإِلَهَ مَنْ هُوَ كَائِنٌ بَعْدَكَ، آللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ نَعْبُدَهُ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ نَخْلَعَ هَذِهِ الْأَوْثَانَ وَالْأَنْدَادَ الَّتِي كَانَ آبَاؤُنَا يَعْبُدُونَ؟ فَقَالَ ﷺ اللَّهُمَّ: «نَعَمْ» ثُمَّ جَعَلَ يَذْكُرُ فَرَائِضَ الْإِسْلَامِ فَرِيضَةً فَرِيضَةً الصَّلَاةَ، وَالزَّكَاةَ، وَالصِّيَامَ، وَالْحَجَّ، وَفَرَائِضَ الْإِسْلَامِ، كُلَّهَا يَنْشُدُهُ عِنْدَ كُلِّ فَرِيضَةٍ كَمَا أَنْشُدُهُ فِي الَّتِي كَانَ قَبْلَهَا حَتَّى إِذَا فَرَغَ، قَالَ: فَإِنِّي أَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّكَ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَسَأُؤَدِّي هَذِهِ الْفَرَائِضَ، وَأَجْتَنِبُ مَا نَهَيْتَنِي عَنْهُ لَا أَزِيدُ وَلَا أَنْقُصُ، ثُمَّ انْصَرَفَ رَاجِعًا إِلَى بَعِيرِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ وَلَّى: «إِنْ يَصْدُقْ ذُو الْعَقِيصَتَيْنِ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ» وَكَانَ ضِمَامٌ رَجُلًا جَلْدًا أَشْعَرَ ذَا غَدِيرَتَيْنِ، ثُمَّ أَتَى بَعِيرَهُ، فَأَطْلَقَ عِقَالَهُ حَتَّى قَدِمَ عَلَى قَوْمِهِ، فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ فَكَانَ أَوَّلُ مَا تَكَلَّمَ بِهِ وَهُوَ يَسُبُّ اللَّاتَ وَالْعُزَّى، فَقَالُوا: مَهْ يَا ضِمَامُ، اتَّقِ الْبَرَصَ، وَالْجُذَامَ، وَالْجُنُونَ، فَقَالَ: وَيْلَكُمْ إِنَّهُمَا وَاللَّهِ لَا يَضُرَّانِ وَلَا يَنْفَعَانِ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ رَسُولًا، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابًا اسْتَنْقَذَكُمْ بِهِ مِمَّا كُنْتُمْ فِيهِ، وَإِنِّي أَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَإِنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِهِ بِمَا أَمَرَكُمْ بِهِ وَنَهَاكُمْ عَنْهُ، فَوَاللَّهِ مَا أَمْسَى ذَلِكَ الْيَوْمَ مِنْ حَاضِرَتِهِ رَجُلٌ وَلَا امْرَأَةٌ إِلَّا مُسْلِمًا، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: فَمَا سَمِعْنَا بِوَافِدِ قَوْمٍ كَانَ أَفْضَلَ مِنْ ضِمَامِ بْنِ ثَعْلَبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ »[٣٣٩]

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ، قَالَ: جَاءَتِ امْرَأَةٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَنَحْنُ عِنْدَهُ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ زَوْجِي صَفْوَانَ بْنَ الْمُعَطَّلِ يَضْرِبُنِي إِذَا صَلَّيْتُ، وَيُفَطِّرُنِي إِذَا صُمْتُ، وَلَا يُصَلِّي صَلَاةَ الْفَجْرِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ، قَالَ: وَصَفْوَانُ عِنْدَهُ، قَالَ: فَسَأَلَهُ عَمَّا قَالَتْ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمَّا قَوْلُهَا: يَضْرِبُنِي إِذَا صَلَّيْتُ، فَإِنَّهَا تَقْرَأُ سُورَتَيْنِ نَهَيْتُهَا عَنْهُمَا، وَقُلْتُ لَوْ كَانَ سُورَةً وَاحِدَةً لَكَفَتِ النَّاسَ، وَأَمَّا قَوْلُهَا: يُفَطِّرُنِي إِذَا صُمْتُ فَإِنَّهَا تَنْطَلِقُ فَتَصُومُ وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ فَلَا أَصْبِرُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَئِذٍ: «لَا تَصُومُ امْرَأَةٌ إِلَّا بِإِذْنِ زَوْجِهَا» ، وَأَمَّا قَوْلُهَا: بِأَنِّي لَا أُصَلِّي حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ فَإِنَّا أَهْلُ بَيْتٍ قَدْ عُرِفَ لَنَا ذَاكَ لَا نَكَادُ نَسْتَيْقِظُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ قَالَ: «فَإِذَا اسْتَيْقَظْتَ فَصَلِّ»[٣٤٠] .

---

[٣٣٩] – المستدرك على الصحيحين للحاكم (٣/ ٥٥)(٤٣٨٠) حسن

[٣٤٠] – المستدرك على الصحيحين للحاكم (١/ ٦٠٢)(١٥٩٤) صحيح

أكثروا من قول: (لا حرج) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ»[٣٤١] ..

لا تشددوا فيشدد الله عليكم، ولا تكثروا على الناس فتفتنوا الناس، إذ يسعكم معهم صغار المفصّل.

ثم من جاءكم وقد علت همته لحظة فاهدوه إلى رشده، ومن جاءكم يطلب منحة فارفعوا له الأجر، ولأهل العوالي درجات السبق وقصب السبْق عرش الرحمن.

هذا دين الله يقبل القليل ويدفع للزيادة ويرفع الواقع لأن الصراع بين منهج الله ومنهج الشيطان وجنده.

تأملوا قوله تعالى: { يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٦) وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا (٢٧) يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا (٢٨} [النساء]

هذه هي المعادلة، فالله يهدي ويتوب ويخفف لأن الإنسان ضعيف، ومنهج غيره شهوة عاصية وميل عن الحق، فمع من أنت يا عبد الله؟

علّموا الناس الواجب، ثم أعلموهم بالدرجات، فأبقوا في النفوس الرجاء وادفعوهم للعوالي، وأعلموهم أن الجهاد هو باب الولوج إلى الفردوس الذي سقفه عرش الرحمن وهو أفضل الجنة وأعلاها ومنه تتفجر أنهار الجنة، فكما أن المجاهدين بأيديهم تتفجر الخيرات في هذه الدنيا، وبفعالهم تسعى القلوب هداية، {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ} [البقرة: ٢٥١] وبالجهاد حياة البشرية {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ } [الأنفال: ٢٤] أي الجهاد، فحق للمجاهدين أن يكونوا عند نبع النعيم في جنة الرحمن، في الفردوس الأعلى، فاللهم اجعلنا من أهله.

ما يرشد إليه الحديث:

إن الحديث عن أصول الإيمان والحث عليها والتزامها من أهم الأمور التي ينبغي للداعية أن يعتني بها عناية خاصة ؛ لأن بالتزامها والعمل بمقتضاها تصلح أحوال الناس، وترسخ العقيدة الصحيحة في نفوسهم .

ويؤخذ من مفهوم هذا الحديث الحث على هذه الأصول، وذلك بحث النبي ﷺ على الإيمان بالله وبرسوله ﷺ حيث قال : « من آمن بالله وبرسوله » . . " ثم بين فضل ذلك ورغب فيه .

فينبغي للداعية أن يبين للناس أصول الإيمان، من الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره من الله سبحانه وتعالى . قال عز وجل : { يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ

[٣٤١] – الآداب للبيهقي (ص: ١٦)(٢٨) صحيح

وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ }{ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا } (سورة النساء، الآية : ١٣٦) ، وقال سبحانه وتعالى : { إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ } (سورة القمر، الآية : ٤٩) .

لا ريب أن تعليم الناس أصول الإسلام من أهم المهمات التي ينبغي للداعية إلى الله عز وجل أن يعتني بها، ويبيِّنها للناس حتى يعملوا بها، وقد تضمن هذا الحديث الحث على ذلك، حيث قال ﷺ : « من آمن بالله وبرسوله، وأقام الصلاة، وصام رمضان » . . . " ثم بين فضل من عمل ذلك ورغب فيه وحث عليه، وهذا يبيِّن للداعية أهمية الدعوة إلى أركان الإسلام وبيانها للناس من : شهادة الحق " لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ﷺ " ومعناها ومقتضاها، وشروطها، وأركانها، ونواقضها، ومن إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا .

إن من أساليب الدعوة إلى الله عز وجل تطييب قلوب المدعوِّين المستجيبين وتأنيس نفوسهم إذا لم يستطيعوا القيام بالدعوة والجهاد ؛ ولهذا قال ابن حجر رحمه الله في شرحه لقوله ﷺ في هذا الحديث : « أو جلس في أرضه » : " فيه تأنيس لمن حرِمَ الجهاد، وأنه ليس محروما من الأجر، بل له من الإيمان والتزام الفرائض ما يوصله إلى الجنة، وإن قصر عن درجات المجاهدين " وهذا يحث الداعية على أن يتصف بهذه الصفة، ويطيِّب نفوس المدعوِّين بما يشرح صدورهم، ويغني قلوبهم عما فاتهم بما شرع الله لهم من أعمال الخير : من القيام بالواجبات، واجتناب المحرمات، والنيَّة الصادقة الصالحة

لا شك أن الجهاد ذروة سنام الإسلام، وقبّته، ومنازل أهله أعلى المنازل في جنات النعيم، وقد ظهر من مفهوم هذا الحديث حث النبي ﷺ على الجهاد، وذلك ببيان فضله ومنازل أهله، فينبغي للداعية أن يبين للناس مترلة الجهاد ويحثهم عليه، وعلى الإعداد له، والاستعداد .

إن أسلوب الترغيب له شأن عظيم في الحث على العمل والتشويق إليه ؛ ولهذا قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في فوائد هذا الحديث : " وفي الحديث فضيلة ظاهرة للمجاهدين، وفيه عظم الجنة وعظم الفردوس منها . . " .

" وفيه إشارة إلى أن درجة المجاهدين قد ينالها غير المجاهد، إما بالنية الصالحة، أو بما يوازيه من الأعمال الصالحة ؛ لأنه ﷺ أمر الجميع بالدعاء بالفردوس بعد أن أعلمهم أنه أعدَّ للمجاهدين "

وهذا يدل على أهمية النية الصالحة وأن الدعاة إلى الله بحاجة إلى إصلاح النية، فإذا صلحت أعطيَ العبد الثواب العظيم والأجر الكبير، ولو لم يعمل وإنما نوى نية صادقة مع الله سبحانه وتعالى .

إن هذا الحديث دل على أن الحث على الدعاء والحض عليه من موضوعات الدعوة ؛ ولهذا قال ﷺ : " . . « فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس ؛ فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة » . . " ، وهذا يدل على أهمية الدعاء، وأنه يحصل به أعظم المطالب، ولهذا قال الله عز وجل : { وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ } (سورة غافر، الآية : ٦٠)

قال الكرماني رحمه الله : " وفيه الحث على ما يحصل به أقصى درجات الجنان من المجاهدة مع النفس " قال الله تعالى : { وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ } (سورة الحج، الآية : ٧٨) ، وقال سبحانه وتعالى : { وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ } (سورة العنكبوت، الآية : ٦٩) .

فينبغي للداعية أن يجاهد نفسه على طلب العلم، والعمل بما علم، والدعوة إلى العلم والعمل، وتعليم من لا يعلم، ويجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله وأذى الخلق، ويتحمَّل ذلك كله للّه، فإذا عَلِمَ الداعية، وعَمِلَ، وعَلّمَ دعيَ عظيما في ملكوت السماوات والأرض.

من أساليب الدعوة التي ينبغي للداعية أن يسلكها في دعوته : الأسلوب الحكيم ؛ ولهذا استخدمه النبي ﷺ في هذا الحديث وفي غيره ؛ وقد ذكر الطيبي والحافظ ابن حجر رحمهما الله : على قوله ﷺ : « وإن في الجنة مائة درجة » أن هذا الجواب من الأسلوب الحكيم : أي بشرهم بدخول الجنة بما ذكر من الأعمال "[٣٤٢]

الحديث الحادي والأربعون: أعددت لعبادي الصّالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: قَالَ اللَّهُ «أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ»[٣٤٣] .

على موائد الكريم ترتاح الركائب وتلقي غبار السفر وشعثاءه، فقد لاقت هذه القوافل الكثير من المكاره، وكثرت فيها جراح الكتائب، وحطمها الناس من كل جانب، فآن لها أن تقطف الأجور وتذوق النعيم، مرت هذه الركائب جوعى وهي الأسد الضواري والكلاب حولها تلغ في الدنيا، مرت وهي صابرة لاهثة، صابرة عما ترى ولاهثة للنصب التي علقت في قلبها: أن الراحة فقط بلقاء الرحمن.

إي والله لقد جهدت هذه الركائب بأحمال كالجبال، فاشتاقت أرواحها إلى الجوار وصحبة السيد العظيم الجليل عند عرشه {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [التحريم: ١١].

هل هناك كتاب يطبب دون ذكر الجنة؟!، وهل هناك مجلس يتزكى بغير عرف طيبها ونسيمها؟! أليست هي من شغلت هذه القلوب المسافرة عن نعيم يعرض هنا وهناك ألهى الكثيرين عن ترحالهم؟!

---

[٣٤٢] – فقه الدعوة في صحيح الإمام البخاري (١/ ٢٥٥)

[٣٤٣] – الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم (ص: ٤١٢)٣٢٤٤ – ١١٥٣ – [ش أخرجه مسلم في أوائل كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها رقم ٢٨٢٤. (قرة أعين) قرة العين هدوؤها وهو كناية عن السرور./ السجدة ١٧ /]

أليست هي من أنست المتألمين آلامهم تحت سياط الجلاد وقيد السجان وغبار العساكر؟! أليست هي من أقلقت الجنوب عن مضاجعها فانتصبت الأقدام لتناجي الأرواح حبيبها ومولاها؟! أليست هي من هوّنت خوض الصفوف واقتحام الأهوال؟! أليست هي من خففت آلام هجرة الأرواح والأولاد والأوطان؟! أليست هي من أبكى العيون ذكرها والشوق إليها؟! أليست هي من أضحكت الغافلين على هؤلاء الفقراء وهم يصرخون فيهم: ما وعدتم إلا غروراً؟! أليست هي الجميلة الرائعة التي ألهت القلوب عن طعامها وشرابها فصامت محتسبة صابرة؟! إذاً أبشروا فهناك ستحطون أثقالكم وأحمالكم وآلامكم وسترون ما لا تعلمون.

هناك مائدة الكريم، ومائدة القيوم، ومائدة القدير، ومائدة الغني، وإذا كانت الموائد على قدر الكرم والغنى فكيف هي مائدة الكريم الذي له يدان هما يمين كل منهما سخاء لا يغيض عطاء واحدة منهما؟! [٣٤٤] وكيف هي مائدة الغني الذي أمره كن فيكون؟! [٣٤٥] فهل لهذا العقل المحدود القاصر أن يتصور حدود عطاء هذا الأول الذي ليس قبله شيء والآخر الذي ليس بعده شيء؟!

هناك حيث يجتمع الحبيب مع حبيبه بعد طول مسير: فكم ناجاه غيباً!، وكم بكى له ورجاه وراقبه غيباً! وكم ذكره في سره وعلى لسانه وأفاض في حمده وتسبيحه وتكبيره وتوحيده وهو يرى فقط آثاره؟! فالآن جاء دور كشف العذار ورفع الحجب لينعم هذا المشتاق برؤية الحبيب، فتزهر الوجوه نضرة وبهجة وسروراً، {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) } [القيامة: ٢٢ - ٢٤].

هذه الجنة المخفية الغائبة هي التي أجازت في هذه الدنيا بين عقل بهيمي وعقل رشيد، إذ البهيمة هي التي لا تفهم إلا أن يلوح لها بالشيء أمام عينها لتركض إليه، وأما العقل الرشيد فهو الذي يؤمن بالغيب ويدرك حقيقته حتى وإن غاب عن عينيه.

هذه الجنة هي التي فرقت بين أرواح خبيثة وأرواح علوية، خبيثة لأنها رضيت بالأدنى وقبلت بالعاجلة السريعة وفرطت بالوعد الآتي مع خلوده وروعته وجماله، أرواح خبيثة استمرأت لقيمات قليلة مغموسة بالكفر حيث رفضت أن تؤدي لله حقه، وأن تعرض عن الشهوات النجسة، لكن الأرواح العلوية هي التي صبرت على الهواجر والمكاره وهي على يقين أن الواحة تنتظر وتتزين للراغبين، فهم يشمون أرواحها تهب على أرواحهم فتحيل آلامهم وتعبهم ونصبهم عزيمة وصبراً فوق صبر، أرواحها تداعب أرواحهم فتبسط عليها ندى اليقين الذي يرطب قسوة الحياة وشقاءها.

---

[٣٤٤] - قال تعالى :{وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ} [المائدة: ٦٤] وعَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ -: «إِنَّ الْمُقْسِطِينَ، عِنْدَ اللهِ، عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ، عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا».تهذيب صحيح مسلم- علي بن نايف الشحود (ص: ٦٧٩)(١٨٢٧) [ش (ولوا) أي كانت لهم عليه ولاية]

[٣٤٥] - قال تعالى :{ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [يس: ٨٢]

لقد آمنتم بها غيباً والآن تعيشونها عياناً، ولقد سألتموها رجاءً والآن تحلون بها ملوكاً، ولقد بعتم أنفسكم وأموالكم من أجلها والآن تقبضون المزيد، ثم يحل عليكم الرضوان فلا يسخط عليكم السيد العظيم الجليل. فعَنْ أَبِي سَعِيد الخُدْرِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه - ﷺ -: " إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ لِأَهْلِ الجَنَّة: يَا أَهْلَ الجَنَّة؟ فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لاَ نَرْضَى وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْط أَحَدًا مِنْ خَلْقكَ، فَيَقُولُ: أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلكَ، قَالُوا: يَا رَبِّ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا "[٣٤٦]

لقد أدركتم أن سكين النهايات يُنغّص كل نعيم في العاجلة، فكان الموت يسرق الملوك عن عروشهم، ويرحل بالأثرياء عن أموالهم، فطابت نفوسكم إلى أرض الخلود الذي لا ينقطع والنعيم الذي لا يتحول، والسعادة التي لا تنقضي فها هي الآن بين أيديكم {فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ} [الرعد: ٢٤].

لقد تواضعتم معرضين عن العلو والاستكبار وعلمتم أنكم مهما كنتم فكل شيء إلى رماد وعذرة، وكل حي إلى موت فاشاقت نفوسكم إلى مُلْك لا يبلى وسلطان لا يريم، فالآن كل ما رغبتم هو بين أيديكم، صنعه الله بيده، إذ هو الذي "أعده" وحسّنَه وطيبه حينها ستعرفون كيف عطاء هذا الملك العظيم.

هناك حيث يلتقي الإخوان ويجتمعون في مجالس الحديث الطيب والأنفاس والغناء الطاهر والموائد المبسوطة، فيجتمع "التاريخ الحقيقي"، أنبياء وأتباع وحكايات تروى عما مضى وكان.

هناك حيث يطلع "الصالحون" على التاريخ الذاهب حسرة وتبكيتاً وعذاباً وهو منكوس في جهنم، حيث الفراعنة وطواغيت الأرض، وحيث قارون وأمثاله، وحيث الجنود الحمير المغفلين.

هناك حيث الرضوان والخلود وكل ما تشتهيه النفوس، وكل ما يخطر بالبال وفوق ذلك، وهناك حيث النهار فلا ليل، واليقظة فلا سِنَة ولا نوم، والفرح فلا حزن ولا ألم.[٣٤٧]

كونوا على يقين أن كل ذلك ينتظر ويترقب ويتزين، وما عليكم سوى شد المآزر وجد المسير، ولن يخلف الله وعده.

"سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ"[٣٤٨].

---

[٣٤٦] - صحيح البخاري (٨/ ١١٤) (٦٥٤٩) وصحيح مسلم (٤/ ٢١٧٦) ٩ - (٢٨٢٩)[ش (أحل) أنزل وأوجب]

دل هذا الحديث على أن نعيم أهل الجنة لا يعدله نعيم، ولا تساويه سعادة أخرى، وأن الله يعطي أهل الجنة ما يرضيهم، ويقرّ أعينهم كما يدل عليه قولهم: " وما لنا لا نرضى، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك، ومن السعادة التي يمنحها الله أهل الجنة رضوانه عليهم الذي وصفه الله تعالى بأنه أكبر من كل نعيم، وأعظم من كل سعادة، حيث قال تعالى: (وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) وإنما كان هذا الرضوان أكبر لأنه سبب كل فوز وكرامة، وطريقٌ إلى رؤية الله تعالى. منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٥/ ٣٠٣)

[٣٤٧] - انظروا كتابي "الترغيب بالجنة والترهيب من النار "

{رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ } [البقرة: ٢٨٦].

ما يرشد إليه الحديث:

مَعْنَاهُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ادَّخَرَ فِي الْجَنَّةِ مِنْ النَّعِيمِ، وَالْخَيْرَاتِ، وَاللَّذَّاتِ مَا لَمْ يَطَّلِعْ عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنْ الْخَلْقِ بِطَرِيقٍ مِنْ الطُّرُقِ فَذَكَرَ الرُّؤْيَةَ، وَالسَّمْعَ لِأَنَّهُ يُدْرَكُ بِهِمَا أَكْثَرُ الْمَحْسُوسَاتِ، وَالْإِدْرَاكُ بِالذَّوْقِ، وَالشَّمِّ، وَاللَّمْسِ أَقَلُّ مِنْ ذَلِكَ، ثُمَّ زَادَ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَجْعَلْ لِأَحَدٍ طَرِيقًا إلَّا تَوَهَّمَهَا بِفِكْرٍ وَخُطُورٍ عَلَى قَلْبٍ فَقَدْ جَلَّتْ وَعَظُمَتْ عَنْ أَنْ يُدْرِكَهَا فِكْرٌ وَخَاطِرٌ، وَلَا غَايَةَ فَوْقَ هَذَا فِي إخْفَائِهَا، وَالْإِخْبَارِ عَنْ عِظَمِ شَأْنِهَا عَلَى طَرِيقِ الْإِجْمَالِ دُونَ التَّفْصِيلِ قَالَه أَبُو الْعَبَّاسِ الْقُرْطُبِيُّ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: " لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْجَنَّةَ أَرْسَلَ جِبْرِيلَ إِلَيْهَا، فَقَالَ: انْظُرْ إِلَيْهَا، وَمَا أَعَدَّ اللَّهُ لِأَهْلِهَا فِيهَا، فَجَاءَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا وَمَا أَعَدَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِأَهْلِهَا فِيهَا، فَرَجَعَ فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَ فِيهَا، فَأَمَرَ بِهَا فَحُفَّتْ بِالْمَكَارِه، فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خِفْتُ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ، قَالَ: اذْهَبْ إِلَى النَّارِ، فَانْظُرْ إِلَيْهَا وَمَا أَعْدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا، فَإِذَا هِيَ يَرْكَبُ بَعْضُهَا بَعْضًا فَرَجَعَ فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ فَيَدْخُلُهَا فَأَمَرَ بِهَا فَحُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ، ثُمَّ قَالَ: ارْجِعْ إِلَيْهَا فَانْظُرْ إِلَيْهَا، وَمَا أَعْدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا، فَرَجَعَ فَإِذَا هِيَ قَدْ حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ، فَرَجَعَ فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خِفْتُ أَنْ لَا يَنْجُوَ مِنْهَا أَحَدٌ "[٣٤٩]

فقد دَلَّ هَذَا الْحَدِيثُ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَطْلَعَ جِبْرِيلُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - عَلَى مَا أَعَدَّ لِعِبَادِهِ فِيهَا فَقَدْ رَأَتْهُ عَيْنٌ (قُلْت) الْجَوَابُ عَنْهُ مِنْ أَوْجُهٍ:

(أَحَدهَا) أَنَّهُ تَعَالَى خَلَقَ فِيهَا بَعْدَ رُؤْيَةِ جِبْرِيلَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أُمُورًا كَثِيرَةً لَمْ يَطَّلِعْ عَلَيْهَا جِبْرِيلُ وَلَا غَيْرُهُ فَتِلْكَ الْأُمُورُ هِيَ الْمُشَارُ إلَيْهَا فِي هَذَا الْحَدِيثِ.

(ثَانِيهَا) أَنَّ الْمُرَادَ بِالْأَعْيُنِ، وَالْآذَانِ أَعْيُنُ الْبَشَرِ وَآذَانُهَا بِدَلِيلِ قَوْلِهِ «وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ» فَأَمَّا الْمَلَائِكَةُ فَلَا مَانِعَ مِنْ اطِّلَاعِ بَعْضِهِمْ عَلَى ذَلِكَ.

(ثَالِثُهَا) أَنَّ ذَلِكَ يَتَجَدَّدُ لَهُمْ فِي الْجَنَّةِ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَيَدُلُّ لَهُ مَا جاء عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ، أَنَّهُ لَقِيَ أَبَا هُرَيْرَةَ، فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَجْمَعَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ فِي سُوقِ الْجَنَّةِ، قَالَ سَعِيدٌ: أَوَ فِيهَا سُوقٌ؟ قَالَ: نَعَمْ، أَخْبَرَنِي رَسُولُ اللهِ - ﷺ -: أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ إِذَا دَخَلُوهَا نَزَلُوا فِيهَا بِفَضْلِ أَعْمَالِهِمْ،

---

[٣٤٨] - عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّهُ قَالَ: «كَلِمَاتٌ لَا يَتَكَلَّمُ بِهِنَّ أَحَدٌ فِي مَجْلِسِ لَغْوٍ أَوْ مَجْلِسِ بَاطِلٍ عِنْدَ قِيَامِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ إِلَّا كَفَّرَتْهُنَّ عَنْهُ، وَلَا يَقُولُهُنَّ فِي مَجْلِسِ خَيْرٍ وَمَجْلِسِ ذِكْرٍ، إِلَّا خُتِمَ لَهُ بِهِنَّ عَلَيْهِ كَمَا يُخْتَمُ بِالْخَاتَمِ عَلَى الصَّحِيفَةِ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ» تهذيب صحيح ابن حبان (١ - ٣) علي بن نايف الشحود (١/ ١٧٣)(٥٩٣)(صحيح)

[٣٤٩] - شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٦/ ١٢٦٢)(٢٢٥٠) حسن

فَيُؤْذَنُ لَهُمْ فِي مِقْدَارِ يَوْمِ الْجُمُعَةِ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا، فَيَزُورُونَ اللَّهَ جَلَّ وَعَلاَ، وَيُبْرِزُ لَهُمْ عَرْشَهُ وَيَتَبَدَّى لَهُمْ فِي رَوْضَةٍ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ، فَيُوضَعُ لَهُمْ مَنَابِرُ مِنْ نُورٍ، وَمَنَابِرُ مِنْ لُؤْلُؤٍ، وَمَنَابِرُ مِنْ يَاقُوتٍ، وَمَنَابِرُ مِنْ زَبَرْجَدٍ، وَمَنَابِرُ مِنْ ذَهَبٍ، وَمَنَابِرُ مِنْ فِضَّةٍ، وَيَجْلِسُ أَدْنَاهُمْ - وَمَا فِيهِمْ دَنِيٌّ - عَلَى كُثْبَانِ الْمِسْكِ، وَالْكَافُورِ مَا يَرَوْنَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَرَاسِيِّ أَفْضَلُ مِنْهُمْ مَجْلِسًا، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَهَلْ نَرَى رَبَّنَا؟ قَالَ: نَعَمْ، هَلْ تَتَمَارَوْنَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، قُلْنَا: لاَ قَالَ: كَذَلِكَ لاَ تَتَمَارَوْنَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ، وَلاَ يَبْقَى فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ أَحَدٌ إِلاَّ حَاصَرَهُ اللَّهُ مُحَاصَرَةً، حَتَّى إِنَّهُ لَيَقُولُ لِلرَّجُلِ مِنْهُمْ: يَا فُلاَنُ، أَتَذْكُرُ يَوْمَ عَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا؟ يُذَكِّرُهُ بَعْضَ غَدَرَاتِهِ فِي الدُّنْيَا، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، أَفَلَمْ تَغْفِرْ لِي؟ فَيَقُولُ: بَلَى، فَبِسَعَةِ مَغْفِرَتِي بَلَغْتَ مَنْزِلَتَكَ هَذِهِ، قَالَ: فَبَيْنَا هُمْ كَذَلِكَ غَشِيَتْهُمْ سَحَابَةٌ مِنْ فَوْقِهِمْ، فَأَمْطَرَتْ عَلَيْهِمْ طِيبًا لَمْ يَجِدُوا مِثْلَ رِيحِهِ شَيْئًا قَطُّ، ثُمَّ يَقُولُ جَلَّ وَعَلاَ: قُومُوا إِلَى مَا أَعْدَدْتُ لَكُمْ مِنَ الْكَرَامَةِ، فَخُذُوا مَا اشْتَهَيْتُمْ، قَالَ: فَنَأتِي سُوقًا قَدْ حُفَّتْ بِهِ الْمَلاَئِكَةُ مَا لَمْ تَنْظُرِ الْعُيُونُ إِلَى مِثْلِهِ، وَلَمْ تَسْمَعِ الآذَانُ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى الْقُلُوبِ، قَالَ: فَيُحْمَلُ لَنَا مَا اشْتَهَيْنَا لَيْسَ يُبَاعُ فِيهِ شَيْءٌ وَلاَ يُشْتَرَى، وَفِي ذَلِكَ السُّوقِ يَلْقَى أَهْلُ الْجَنَّةِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، قَالَ: فَيُقْبِلُ الرَّجُلُ ذُو الْمَنْزِلَةِ الْمُرْتَفِعَةِ، فَيَلْقَى مَنْ هُوَ دُونَهُ، وَمَا فِيهِمْ دَنِيٌّ فَيَرُوعُهُ مَا يَرَى عَلَيْهِ مِنَ اللِّبَاسِ، فَمَا يَنْقَضِي آخِرُ حَدِيثِهِ حَتَّى يَتَمَثَّلَ عَلَيْهِ بِأَحْسَنَ مِنْهُ وَذَلِكَ أَنَّهُ لاَ يَنْبَغِي لأَحَدٍ أَنْ يَحْزَنَ فِيهَا، قَالَ: ثُمَّ نَنْصَرِفُ إِلَى مَنَازِلِنَا، فَتَلْقَانَا أَزْوَاجُنَا، فَيَقُلْنَ: مَرْحَبًا وَأَهْلاً بِحِبِّنَا لَقَدْ جِئْتَ، وَإِنَّ بِكَ مِنَ الْجَمَالِ وَالطِّيبِ أَفْضَلَ مِمَّا فَارَقْتَنَا عَلَيْهِ، فَيَقُولُ: إِنَّا جَالَسْنَا الْيَوْمَ رَبَّنَا الْجَبَّارَ وَيَحُقُّنَا أَنْ نَنْقَلِبَ بِمِثْلِ مَا انْقَلَبْنَا.[٣٥٠] وَلَا يَمْنَعُ مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ «أَعْدَدْت» لِأَنَّ هَذَا لَمَّا كَانَ مُحَقَّقَ الْوُقُوعِ نَزَلَ مَنْزِلَةَ الْوَاقِعِ.[٣٥١]

وَفِي قَوْلِهِ: أَعْدَدْتُ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْجَنَّةَ مَخْلُوقَةٌ، وَيُعَضِّدُهُ سُكْنَى آدَمَ وَحَوَّاءَ الْجَنَّةَ، وَلِمَحَبَّتِهَا فِي الْقُرْآنِ عَلَى نَهْجِ الْأَسْمَاءِ الْغَالِبَةِ اللَّاحِقَةِ بِالْأَعْلَامِ، كَالنَّجْمِ وَالثُّرَيَّا وَالْكِتَابِ وَنَحْوِهَا، وَذَلِكَ أَنَّ الْجَنَّةَ كَانَتْ تُطْلَقُ عَلَى كُلِّ بُسْتَانٍ مُتَكَاثِفِ أَغْصَانُ أَشْجَارِهَا، ثُمَّ غَلَبَتْ عَلَى دَارِ الثَّوَابِ، وَإِنَّمَا قُلْنَا: اللَّاحِقَةُ؛ لِلْإِعْلَامِ لِكَوْنِهَا غَيْرَ لَازِمَةٍ لِلَّامِ، وَتَحْقِيقُ الْقَوْلِ أَنَّهَا مَنْقُولٌ شَرْعِيَّةٌ عَلَى سَبِيلِ التَّغْلِيبِ، وَإِنَّمَا تُغَلَّبُ إِذَا كَانَتْ مَوْجُودَةً مَعْهُودَةً، وَكَذَلِكَ اسْمُ النَّارِ مَنْقُولَةٌ لِدَارِ الْعِقَابِ عَلَى سَبِيلِ الْغَلَبَةِ، وَإِنْ

---

[٣٥٠] - تهذيب صحيح ابن حبان (١ - ٣) علي بن نايف الشحود (٣/ ٣٢١) (٧٤٣٨) (حسن)

[ش - (ويبرز) أي يظهر. (ويتبدى) أي يظهر هو تعالى لهم (دنيء) خسيس. (كثبان) في النهاية جمع كثيب. والكثيب الرمل المستطيل المحدودب (تتمارون) من المماراة وهي المجادلة على مشهد الشك والريبة. (إلا حاضره الله محاضرة) المراد من ذلك كشف الحجاب والمقاربة مع البعد من غير حجاب ولا ترجمان. (فيروعه) أي فيفزعه (ويحقنا) قال في القاموس. وحق لك أن تفعل ذا بالضم وحققت أن تفعله بمعنى. أي كان فعله حقيقا بك وكنت حقيقا بفعله.]

[٣٥١] - طرح التثريب في شرح التقريب (٨/ ٢٧٣)

اشْتَمَلَتْ عَلَى الزَّمْهَرِيرِ وَالْمُهْلِ وَالضَّرِيعِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمَا كَانَ يُغْنِي عَنْ طَلَبِ الْقُصُورِ وَالْحُورِ وَالْوِلْدَانِ بِالْجَنَّةِ، وَلَا عَنْ طَلَبِ الْوِقَايَةِ مِنَ الزَّمْهَرِيرِ وَالْمُهْلِ وَالضَّرِيعِ عَنْ مُطْلَقِ النَّارِ "[٣٥٢]

الأحد: ٢٥ / محرم / ١٤٢٦ -٦ / آذار / ٢٠٠٥

انتهى التعليق على الكتاب يوم السبت ١٧ ربيع الآخر ١٤٣٦ هـ – الموافق ٧ /٢/٢٠١٥ م

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[٣٥٢] – مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٣٥٧٤)

الفهرس العام

توطئة – خطبة الكتاب ٤
الحديث الأول : الأمر بقتال الناس حتى يسلموا ٨
الحديث الثاني: حق الله على العباد وحقهم عليه..... ٢١
الحديث الثالث: أي الناس أفضل ٣١
الحديث الرابع: تعس عبد الدينار ٣٩
الحديث الخامس: كلكم راع ٤٨
الحديث السادس: ما أوتيه النبي ﷺ وحيا أوحاه الله إليه..... ٥٥
الحديث السابع: سباب المسلم فسوق وقتاله كفر..... ٦٢
الحديث الثامن:وصية الرسول ﷺ بالأنصار ٦٨
الحديث التاسع: هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم ٧٢
الحديث العاشر: أنت مع من أحببت..... ٧٩
الحديث الحادي عشر: يسِّرا ولا تعسِّرا، وبشِّرا ولا تنفِّرا وتطاوعا ولا تختلفا ٨٥
الحديث الثاني عشر: مَثَل المسلمين واليهود والنصارى ٨٨
الحديث الثالث عشر: يعقد الشيطان قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد ٩١
الحديث الرابع عشر: يستجاب لأحدكم ما لم يستعجل..... ٩٦
الحديث الخامس عشر: إنّما الصّبر عند الصدمة الأولى..... ١٠٢
الحديث السادس عشر: إنّ حقاً على الله أن لا يرفع شيئاً من الدّنيا إلاّ وضعه ١٠٦
الحديث السابع عشر: الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، الأجر والمغنم..... ١١٠
الحديث الثامن عشر: أنفقي ولا تحصي فيحصي الله عليك..... ١١٢
الحديث التاسع عشر: إنّما النّاس كالإبل المائة لا تكاد تجد فيها راحلة ١١٨
الحديث العشرون: إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظر السّاعة..... ١٢١
الحديث الحادي والعشرون: العفو من أخلاق النّاس ١٢٨
الحديث الثاني والعشرون: المتشبّع بما لم يعط فهو كلابس ثوبي زور..... ١٣١
الحديث الثالث والعشرون: سدّدوا وقاربوا واغدوا وروحوا ١٣٤
الحديث الرابع والعشرون: كن في الدّنيا كأنّك غريب أو عابر سبيل..... ١٤٠
الحديث الخامس والعشرون: الأرواح جنود مجنّدة: ١٤٦
الحديث السادس والعشرين: لا يُلدَغ المؤمنُ من جحرٍ واحدٍ مرتين ١٤٩
الحديث السابع والعشرون: من جهّز غازياً في سبيل الله فقد غزا ١٥٢
الحديث الثامن والعشرون: ليس الشّديد بالصُّرعة ١٥٦
الحديث التاسع والعشرون: النهي عن الخذف..... ١٦٠
الحديث الثلاثون: نهينا عن التّكلّف:..... ١٦٣
الحديث الحادي والثلاثون: يرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد ١٦٦
الحديث الثاني والثلاثون: أو عليك يا رسول الله أغار..... ١٧٤
الحديث الثالث والثلاثون: لا يأتي ابن آدم النّذرُ بشيء لم أكن قدرته..... ١٧٨

الحديث الرابع والثلاثون: النّاس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا ١٨٤
الحديث الخامس والثلاثون: اللهم لا تجعلني مثله: ١٨٨
الحديث السادس والثلاثون: شر الطعام طعام الوليمة ١٩٨
الحديث السابع والثلاثون: مثل المؤمن كالخامة من الزّرع، تفيئها الرّيح مرّة، وتعدلها مرّة ٢٠٣
الحديث الثامن والثلاثون: مثل الذي يذكر ربّه والذي لا يذكره مثل الحي والميّت ٢٠٥
الحديث التاسع والثلاثون:كيفية صلاة الرسول ﷺ بالليل ٢١١
الحديث الأربعون:درجة المجاهد في الجنة ٢١٧
الحديث الحادي والأربعون: أعددت لعبادي الصّالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ٢٢٢